ظلال العقل العربي

مسقط رأسي على المجتمع العربي من منظور سيكولوجي

الجزء الأول



تأليف

محمد مبروك أبو زيد

مستشار قانوني

باحث دكتوراه في التحكيم الدولي

ظلال العقل العربي

مسقط رأسي على المجتمع العربي من منظور سيكولوجي

الجزء الأول

تأليف / محمد مبروك أبو زيد

سبتمبر ٢٠١٩

First Version 2019 Egypt

Mr, Mohamed Mabrouk Abozaid

المحتويات

مقدمة

فيما قبل منتصف القرن الماضي لم تكن صفة العروبة تطلق على شعوب مصر وبلاد الشام والعراق وبلاد المغرب، التي أطلق عليها "بلاد المغرب العربي" لأول مرة عام ١٩٤٧م.. أما قبل ذلك التاريخ فكانت مسلمة فقط مع احتفاظها بقومياتها الخاصة، ولم تسر عليها قومية العرب، حيث بدأت في خمسينات القرن الماضي صيحة عبد الناصر بالقومية العروبية، بالتزامن مع صيحة الاشتراكية الفاشلة. ثم عادت هذه الصيحة العروبية وخمدت مرة أخرى بالتزامن مع سقوط الاشتراكية أيضا، وتم إسقاط صفة "العربية" عن بلاد المغرب منتصف العام الجاري٢٠١٩م. وعادت القوميات الذاتية تضيء مشاعلها من جديد، وبدأ عهد رأسمالي جديد على يد السيسي، وبالتوازي عادت ملامح القومية الجبتية لتضيء باستقلالٍ عن قومية العرب، وظهرت ملامح هذه الهوية الوطنية بجلاء في واجهات المباني بالعاصمة الإدارية الجديدة..

والواقع أن العرب الحقيقيين هم أبناء الجزيرة العربية من نسل العرب المستعربة والعاربة (قبائل عرب قحطان) وغيرهم من القبائل والأنساب والسلالات العربية الأخرى التي زحفت من الصحراء على المدنية المجاورة لها في كل اتجاه خلال ما عرف بحقبة الفتوحات. أما أجداد العرب الأوائل فهم العرب البائدة، وقد محق الله بهم الأرض، ولهذا سُموا بالعرب البائدة، لأنهم أبيدوا عن بكرة أبيهم مثل قوم عاد وثمود وجديس وطسم وجرهم والعماليق، فأما جديس وطسم فقد قتلوا بعضهم بعضا حتى هلكوا جميعا.. وأما عادٌ فاستكبروا في الأرض وقالوا من أشد منا قوة، وأم قوم لوط فكانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء ! وأما ثمود فاستحبوا العمى على الهدى، فأخذهم الله جل وعلا وأهلكهم جميعا، فقال تعالى: كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ(٨) /الحاقة.

وثمود هم قوم صالح، وعاد هم قوم هود. هذه هي أصول الفصيلة العربية من جذرها، أما العرب الموجودة الآن فهم بقايا هؤلاء البائدين تناثروا في جيوب متعددة من الجزيرة العربية، خاصة من جرهم والعماليق الجبارين الذين اختلطوا بإسماعيل (ع) في مكة، وكان هؤلاء العماليق الجبارين هم أول من تحدث اللغة العربية القديمة الغليظة، وبلكنة تتلاءم مع طبيعة حياتهم البدوية القائمة على السطو والنهب والإغارة في الصحراء الشاسعة.. اختلط بهم إسماعيل فتحولت لغته من السريانية إلى العربية، فنطق العربية المتينة، والتي تطورت على لسان قريش بعده حتى وصلت إلى

العربية الفصيحة التي نتحدثها اليوم ! فهل يتصور أحد أن عباقرة الحضارة المدنية يتنازلون عن لغتهم ليتحدثوا لغة أعراب الصحراء هؤلاء ! فقد انتقلت إلينا لغة هؤلاء العرب حينما احتلوا بلادنا إيجبت، حيث نزح الصحابة الكرام إلى بلادنا واحتلوها أكثر من مائتي عام ومارسوا كافة أساليب النهب الاستعماري وصدروا السبايا والغلال إلى خيامهم في الصحراء عبر البحر..

والغريب أنهم قالوا بأنهم جاءوا لينشروا الإسلام ! فهل من جاء لينشر دين أن يعود بالسبايا والغلال إلى بلاده ! هم كانوا في مكة يعترضون على القرآن ويقولون أنه أعجمي أي ليس موجها لهم، فرد عليهم القرآن بأنه عربي مبين لينذر القوم الفاسدين، فكيف يأتون إلى بلادنا بالقرآن بلغة أجنبية عنا ! لم يكلفوا أنفسهم بترجمة القرآن إلى اللغة الجبتية بقدر ما كلفوا أنفسهم بترجمة دواوين الخراج !.. هذه من أبسط تناقضات العقل العربي. فقد استطاع هؤلاء الصحابة أن يُركِّعوا الحضارات المجاورة لهم وأن يأخذوا أبناء هذه الحضارات (فارس والعراق وإيجبت) ليعيشوا عبيدا يخدمون في بيوت العرب وخيامهم وليتم بيعهم في أسواق النخاسة في النهاية! أليس غريبا أن يتحول أبناء الحضارات إلى عبيد في بيوت وخيام أعراب الصحراء ! هل كان ذلك من عزة الإسلام الذي قيل أنه رفع شأن الأعراب وأذل الحضارات وأبناءها !

ونعود للتعريف بالقومية العربية وأصل العرب واللغة العربية، حيث كانت شبه الجزيرة العربية في الألف الثاني قبل الميلاد تتعدد فيها العشائر التي جميعها من أصلٍ واحد هو الآرامي وتتحدث اللغة الآرامية ثم انقسموا عشائر، وكل عشيرة تفرعت عنها قبائل، وكل عشيرة اتخذت ركنا من الجزيرة العربية رأته ملائما للحياة فيه، الحميريين اتخذوا اليمن وجنوب الجزيرة كموطن لهم. والنبطيين اتخذوا شمالها موطنا لهم، والعمونيين اتخذوا شرقها ركنا لهم، والإسرائيليين اتخذوا جبال السراة موطنا لهم وأبناء عمومتهم العرب اتخذوا صحراء الحجاز موطنا لهم. واختلفت ظروف هذه العشائر حسب مكان وطبيعة الموطن، وحسب المؤهلات الجينية والتكوين النفسي أو المزاج العام لكل عشيرة، فهناك كائنات برية تهجر المناطق المدنية إلى الصحارى والبراري الخالية، وهناك كائنات مدنية تستوطن التجمعات السكنية المدنية حيث الحضارة والعمران، وكانت كل عشيرة تستقل تدريجيا بلهجة خاصة بها، وكان الأصل هو اللغة الآرامية لكنها تفرعت إلى لهجات محلية متعددة حسب العشائر، وأصبحت كل لهجة لغة مثل الحميرية والنبطية والسبأية والسريانية والعبرية والعربية.

وبعض هذه العشائر كان مدنيا إلى حدٍ ما يسكن مدن وممالك وقرى زراعية، خاصة تلك العشائر التي لجأت إلى مناطق جنوب الجزيرة العربية ومنطقة جبال السراة في إقليم عسير جنوب غرب الجزيرة وحتى مضيق باب المندب جنوبا وكذلك شمال الجزيرة. بينما انتشرت عشائر البدو في المناطق القاحلة الصحراوية والجبلية، وكانت اللهجة العبرية لغة بدو الجبال، والعابرين للسهوب والمخاوض، بينما أختها العربية لغة بدو الصحراء، فالإسرائيليين كانوا ينقلون خيامهم ويضربونها في تخوم الجبال وسفوحها في منطقة عسير وعلى حدود اليمن مع السعودية، ويرعون أغنامهم وأبقارهم في تخوم القرى الجبلية ويسكنون مضارب خيام متنقلة يسمونها "سيكوت" أي مضرب خيام، وهؤلاء هم البدو الجبليين يعتاشون على رعي (البقر والغنم)..

أما العرب فهم عشيرة البدو الصحراويين الذين اختاروا الصحارى القاحلة في منطقة الحجاز حيث أم القرى مكة وما حولها يثرب والطائف وما حولها وضربوا خيامهم فيها لرعي (الغنم والإبل)، ولهذا قالوا بأن الجمل سفينة الصحراء لأنه لم يكن لهم وسيلة للتنقل في الصحارى غيره، بينما كان أولاد عمومتهم الإسرائيليين يرعون البقر بدلا عن الإبل، في الأيام التي بنا فيها جلالة الملك خوفو هرمه الأكبر كمسكنٍ له في الحياة الأبدية بعد القصر الملكي في منف أقدم وأعرق عواصم العالم.. وكانت كل العشائر تدين بديانة سماوية، إما مسيحية وإما يهودية وإما حنيفية، عدا البدو الصحراويين العرب انتشرت فيهم الوثنية والزندقة، وكانوا أكثر فسوقا وجهلا وجلافة .. أي أن كل عشيرة لها خصوصية عقلية وذهنية واجتماعية، وبالتالي منتج فكري مختلف، وهذا ما يصدق على قول الله تعالى:" وخلقناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا". لكن ما حدود هذا التعارف؟ وهل يصل إلى درجة الاندماج الكلي لمجتمع في الآخر؟ وهل يجوز أن تفكر الشعوب بعقلية القبائل أو تتقمص هويتها ؟! كيف ذلك وإذا سألت مفتيا عن مبادئ الملاءمة في الزواج بين العريس والعروس، سيقول لك أن ينتميا لذات الوسط الاجتماعي دون فارق! لاعتبار أن اختلاف الفكر مانع من الانسجام والتواصل القويم.

ومن هنا، يُطرح السؤال الإشكاليّ التالي: هل يتعلق الأمر بـ"فضيحة" أو عدوى وبائية عربية ينبغي اجتنابها، أم أنه يتعلق بـ"فضيلة" يجب اجتلابها من بلاد العرب وتنميتها والحفاظ على سماتها وخصائصها المعرفية؟ فكل بيئة لها منتجها الفكري الخاص، كما لها بنيتها اللغوية الخاصة، ولها عاداتها وأعرافها وتراثها الخاص، لكن أحيانا ما نجد بيئة تطغى على أخرى(أي تتجاوز حدود التعارف)، فهل كانت حقبة الفتوحات هذه طغيان معرفي من العرب على الشعوب المدنية المجاورة لهم أم ظل في حدود (التعارف)؟، وهل هذا الطغيان المعرفي يمثل ثراء معرفي إضافي أم يصل إلى

درجة طمس معرفي لما هو محلي وطني باعتبار اختلاف النوعين ؟.. فنحن نؤمن مسبقا بأهمية القومية والهوية الذاتية لكل شعب، وهذه الهوية هي التي تحدد الملامح الذهنية والسمات الفكرية له، أي "العقل الجبتي " والعقل العراقي والعقل العربي ..إلخ. ألا يؤدي القول بـ«خصوصية العقل»، على هذا النحو، إلى ابتذال فكرة القومية العروبية واعتبارها مجرد وَهْم؟ وهل يَصعُب (أو يَمتنع) أن تبني "الحقيقة" – أو-"الفضيلة" بناءً على هذا الغذاء المعرفي العربي؟ نظرا لاختلاف العقلية وطريقة التفكير؟ فالمخزون المعرفي العربي أدبي بحت، بينما المخزون المعرفي القبطي علمي بحت، فهل يمكن إحلال أحدهما مكان الآخر؟!

ثم أننا لو نظرنا في تاريخ شعوب الجزيرة العربية سنجد أن العرب لديهم عاهة مستديمة بشأن الميول العقائدية والعبادات، ولهذا اختصهم الله بالأنبياء والرسل، وغرس في وسطهم البيت الحرام ليكون تحت أنظارهم طول الوقت، فالمريض المستعصي أولى بالعلاج، وخاصة لو كان المجتمع بكامله يعاني من عدوى، فيكون بحاجة ماسة إلى مستشفى ميداني... ففي كل بقعة من بقاع الجزيرة العربية تجد دمامل عقائدية وبثور من الأرض تتحدث عن قوم كانوا هنا أو هناك وأبيدوا بأسلحة الدمار الشامل، فحول الكعبة ذاتها تجد لفيف من الأصنام ! وهناك بالقرب منها تجد قوم لوط، وإلى جواره مدائن صالح، وإلى الجنوب تجد حوران ونمرود وفرعون وذو النواس (صاحب الأخدود) وهناك في الشمال تجد أصحاب الأيكة وقوم مدين، وفي السراة واليمن تجد بني إسرائيل، وفي عموم الجزيرة تجد فسادا أخلاقيا وعقائديا عجيبا.. ولهذا كانت الجزيرة مهبط الأنبياء والرسل، والغريب أنني قرأت لأحد الباحثين يقول أن أرض الشام نظرا لاعتدال مناخها فقد كانت مهبط الأنبياء والرسل ! فقد أصبح هناك خلل عقلي في شعوب الشرق بسبب اتصال العقل العربي بهذه الشعوب وسيادته عليها لفترة من الوقت، فتصحرت العقول وأصابها الوباء والغبار الثقافي غطى قرائحها الذهنية حتى صدئت وتعفنت.

يقول (محمد بيّومي مهران)، أنّ أقدم نصَ وردت فيه لفظة (عرب)، يرجع تاريخه إلى عهد الملك الآشوري (شلمنصر الثالث – ٨٥٩-٨٢٤ ق.م)، وبالتحديد في معركة (قرقرة- ٨٥٣ ق.م)، والتي اشترك فيها، أمير عربي، يُدعى (جندب = جنديبو)، إلى جانب تحالف الأمراء (الكنانيين)، ضدَ الملك الأشوري. وفي عهد تجلات بلاصّر الثالث (٧٤٥-٧٢٧ ق.م)، عُثر في (كالح) على حوليات، جاءت فيها إشارات إلى (جزية من زبيبة ملكة بلاد العرب). وهناك نص ثالث يقول فيه الملك الأشوري: (أما "سمسي" ملكة بلاد العرب، التي حنثت بيمين الإله (شمس)... فقد أصبحت خائفة من جيشي)... وفي القرن السادس ق.م،

تظهر كلمة عرب (عرابة، Arabaya) في النصوص الفارسية المكتوبة باللغة الأخمينية. وكان اسخيلوس (٥٢٥-٤٥٦ ق.م) أول من ذكر العرب من اليونان. ثم هيرودوت المؤرخ، الذي أطلق على بلاد العرب، لفظ (Arabie)، ويعني بها (البادية، وشبه جزيرة العرب + سيناء).

ومن هذه المقتبس، لا ينبغي أن نفهم أن العرب لم يكونوا موجودين قبل هذه التواريخ المذكورة، بل إنهم كانوا موجودين بالفعل، وذكرتهم نصوص التوراة الأقدم من هذه الحوليات، لكن أحدا من شعوب الجوار لم يسمع عنهم، وأول من سمع عنهم وصفهم بأعراب الصحراء، أي المنتشرين في البداية. ذلك لأن العقلية العربية ساكنة وليست متحركة، وليست عقلية حضارية، أي لا تعرف العمل والبناء والإنتاج.

وفي مقابل العرب البائدة هؤلاء نجد أصول الآشوريين والبابليين القدماء، والذين لهم أصول عرقية مختلفة تماما عن السلالة العربية بفروعها البائدة والباقية، جميع الأصول الحضرية سكنت على ضفاف الأنهار وعمرت وشيدت الحضارات، وقد رحل القدماء جيلا وراء الآخر وتركوا حضارة عظيمة، تركوا خيرا كثيرا لأحفادهم. أما العرب البائدة فقد تركوا لأحفادهم آثار الدمار الإلهي. مقابل أهرامات القدماء الجبتيين.. فمنطقة شبه صحراء الجزيرة العربية منذ قديم الزمان وهي مليئة بالكائنات البرية، وتمت الإبادة الإلهية فيها مراتٍ عديدة.

فكل شعب من الشعوب له قومية تحتفظ بخصوصيته وتمثل نسيجه الذهني. والقومية كمفهوم شامل لجوانب كثيرة من حياة الشعب، وهي تبدأ بالجغرافيا والحضارة الضاربة في عمق التاريخ وترابط السلالة العرقية لهذا الشعب بروابط اجتماعية وثقافية متينة لا تقف عند حدود اللغة والدين، فالقومية هي (أرض وشعب وحضارة وتاريخ وجغرافيا وثقافة). وقد ارتبك سياق التاريخ عندما ظهرت فكرة القومية العروبية كأيديولوجية سياسية تجمع أوطان غير عربية، تختلف حضاراتها وعاداتها وأعراقها وتاريخها، فأبنائها من أصول جبتية وشامية وأمازيغية وأشورية بابلية وفينيقية..إلخ.. وإن كانوا يتحدثون العربية ويدينون بالإسلام إلا أنهم ليسو عرب، بل مختلفون جذريا عن العرب.. لأن العرب شعوب قبلية تدمن السادية والسيادة والتسلط، وهي تختلف عن شعوب الحضارات المدنية التي تستوطن أودية الأنهار وتدمن العمل والبناء والإنتاج، وتعمر المدن، مثل شعوب نهري دجلة والفرات والنيل وبردي ويانغتسي.

وبرغم أن الدين الغالب في هذه الأوطان هو الإسلام، ولغتها هي العربية منذ ألف عام، لكن شعوبها هي الأكثر تصارعا بل وتآمرا على بعضهم البعض مقارنة بدول الاتحاد الأوروبي التي تعيش في سلامٍ ووئام، فهي وإن كانت وطنا عربيا فقد انحصر مفهومه في حدود السياسة فقط، وليس القومية، فهذه الشعوب تظل مختلفة ومحتفظة بخصوصياتها القومية، وربما لم تعد رابطة الدين واللغة كافية لدمج هذه القوميات في قومية واحدة. ولو سألت معظمهم تعريف ما يعنونه بالأمة العربية، لبادروا إلى القول بأنها تشمل جميع الناطقين بالضاد، وليس فقط أولئك العرب القاطنين لشبه الجزيرة العربية، مع أن اللغة ليست كافية لتشكيل النسيج القومي. في الواقع ارتبطت هذه القوميات بالعرب منذ عصر التوسع العربي الاستعماري الذي طال هذه الشعوب، أو ما يسمى عصر الفتوحات العربية، حيث بدأ تحول هذه الشعوب عبر مئات السنين لاعتناق الإسلام والتحدث بلغة العرب، ولا يربط هذه الشعوب في العصر الحالي فعليا سوى التحالفات السياسية الهيكلية المتمثلة في جامعة الدول العربية، مع أن التحالفات السياسية تسير حسب المصالح الاقتصادية المؤقتة، وليس مع الروابط التاريخية والقومية.

وفي هذا المسقط سنعود مع التاريخ لنرى كيف قامت حضارات في شعوب مختلفة حملت ملامحها وسماتها القومية الخاصة بها، وكيف اندمجت هذه القوميات في قومية عربية واحدة مع أنها انحصرت في حدود علاقتها بالإسلام واللغة العربية، لكننا نتساءل عن علاقة العرب أنفسهم بالحضارة؟، ومتى قامت حضارة العرب لتدمج أو تطمس كل هذه الحضارات أو تجُب كل هذه القوميات في قومية عربية باسمهم؟! هل لمجرد أنها تحدثت لغة العرب؟ وإلى أي مدى يرتبط مفهوم الحضارة بمفهوم القومية، وهل قامت بالفعل حضارة عربية أم إسلامية أم هما معا أم لا شيء على الإطلاق؟. فحضارة العرب قامت خمسمائة عام فقط، بينما حضارة الجبتيين خمسة آلاف عام، فكيف استطاعت حضارة العرب على قزامتها أن تسطوا على الحضارة الفرعونية وتقحم اسمها على المصريين؟! هل كانت حضارة العرب أقوى من حضارة المصريين القدماء كي تطمسها؟! ولماذا ترك المصريون اسمهم وأجدادهم وهويتهم وحملوا هوية العرب واسمهم مع أنهم الأقزم؟!...

دعونا نعتبرها لحظات مختلسة من عمر الزمان، وعلينا أن نطويها وننظر إلى الغد.

في الواقع إن كان الاستعمار العربي للشعوب المجاورة قد امتد لبضعة مئات من السنين تم خلالها نهب ثروات هذه الشعوب واغتصاب سلطة الحكم في بلادها عنوة، ثم انحسرت سلطة العرب الفعلية عن هذه الشعوب وصعد أبناؤها الأصليين وتولوا مقاليد السلطة في بلادهم تدريجيا، إلا أن الاحتلال

الفكري العربي ما زال مستمرا إلى اليوم، ليس في صورة الإكراه الفكري ولكن في صورة الخضوع الطوعي، وتمسك هذه الشعوب بثقافة العرب التي غاصت في عقولها جيلا بعد جيل دون وعي، حتى اعتبروها جزأ من دينهم وقوميتهم. ولن تنهض هذه الشعوب مرة أخرى إلا إذا تخلصت من الغبار الثقافي للاحتلال العربي وحققت ذاتها بنفسها وقوميتها وثقافتها؛ لأن العرب بطبيعتهم وفطرتهم ليسو شعب حضارة. وليسو من شعوب الحضارات التي تدمن العمل والبناء والإنتاج على أودية الأنهار، إنما هم شعب البادية، ورؤيتهم للحياة رؤية أدبية مختلفة تماما وكليا عن شعوب الحضارات، ومن ثم لا يمكن تبني ثقافتهم ورؤيتهم للحياة في بناء حضارة كتلك التي أقامها القدماء والبابليين والأشوريين على أودية النيل ودجلة والفرات.. أي أننا فعليا بصدد عدوى عقلية عربية يجب التخلص منها عاجلا.

إن الرابطة التي ربطت هذه الشعوب بالقومية العربية الحجازية تقف على دعامتين اثنتين فقط؛ الدين واللغة (بدون حضارة) والدين واللغة ليسا كافيين لبناء حضارة بأي حال؛ لأنهما في النهاية فرعان من قسم المعرفة السائلة.. فهذه الشعوب اعتنقت الدين الإسلامي منذ ما يقارب ألف عام، وتعرفت على الثقافة الدينية للعرب والتي جاءت من معين الرسالة المحمدية، مع ما اختلط بها من مؤثرات ثقافية عربية تمثلت في التراث والتاريخ العربي المتصل بها، وما علق بها من شوائب ثقافية نابعة من تقاليد وأعراف المجتمع العربي، وليست نابعة من الرسالة المحمدية. وبمرور الوقت كي تتعرف هذه الشعوب على الدين الإسلامي أكثر وبصورة أعمق، تحدثت لغة العرب ليسهل عليها استيعاب الدين، وتنازلت عن هويتها وقوميتها لصالح العرب.. فقط مجموعة من الشعوب احتفظت بهويتها مثل الشعب التركي والشعب الإيراني.

وبما أن اللغة هي كيان ثقافي قائم بذاته، وليست مجرد جانب من جوانب الدين، فاللغة هي عنصر ومكون أساسي في ثقافة الشعوب، ولذلك عندما تعرفت هذه الشعوب على اللغة العربية أخذت آدابها ومعارفها الأدبية والنثرية والشعرية ثم غاصت في عمق الصحراء لتتعرف أكثر على تاريخ هذه اللغة من تاريخ شعبها وثقافته القديمة حتى فيما قبل الإسلام. ومن هنا بدأ الاندماج بين ثقافة هذه الشعوب وثقافة العرب، ولم يكن الأمر في حدود (تعارف) هذه الشعوب على الإسلام، بل تقمص العقلية العربية، وهنا يكمن الخطر.. حيث تتقيد ثقافة هذه الشعوب بنطاق واسع من ثقافة العرب التي شملت الدين واللغة والتاريخ والأدب شعرا ونثرا، ومن حيث الدين فلا خطر، ومن حيث اللغة كعنصر فردي فلا خطر من العرب، لكن الخطر يأتي من باقي المنظومة الثقافية العربية ((المعرفة الأدبية الملحقة باللغة – والمعرفة التاريخية الملحقة بالدين))

ذلك ليس تحيزا ضد العرب ولكن لأن الجانب الثقافي الملحق باللغة فارغ من كل معاني الحضارة؛ لأنه قام على الشعر والنثر الجاهلي والمشهد الصحراوي البدوي بوجهٍ عام، وهي محض ثقافة نظرية بدوية تفتقر إلى كل ما له صلة بفكرة الحضارة والمدنية، فالحضارة لا تقوم على الشعر والزجل والفخر والهجاء والفروسية، بل تقوم على سواعد شعب يدمن العمل والبناء والإنتاج والفكر والإبداع العملي التطبيقي، أما قصائد الشعر والزجل فلا تتجاوز قيمتها المعرفية قيمة مزحة على المصطبة، والتي تأتي فقط في ركن التسلية بعد يوم عملٍ شاق.

وأما الخطورة الثانية فتأتي من جانب المعرفة التاريخية الملحقة بالدين الإسلامي، فالعرب صدروا لنا تاريخهم ملحقا بالدين، برغم أنه تاريخ دموي عنيف ويفتقر إلى كل قيم الحضارة والنبل والإنسانية، لكنهم دمجوا الإسلام في تاريخ الصحابة الملطخ بالدماء، وصوروا صحيفتهم بطولية مثالية، كما صحف الأنبياء سواءً بسواء، وضخموا وبالغوا في الجانب الحربي للتاريخ الإسلامي (غزوات الرسول) فتغيرت حقيقته وانتقل من خانة الدفاع إلى خانة البطولة الهجومية، فانقلبت المبادئ مع استمرار انحراف التاريخ.. وهكذا تشكل التاريخ وأصبح خلفية دينية للدين الإسلامي. ومن شدة الارتباط بين الدين والتاريخ أصبح التاريخ هو المؤثر والموجه للدين وكأنه نموذج تطبيق عملي لمبادئ الدين، وهذا مكمن الخطورة الثانية.

ولذلك، على هذه الشعوب إن أرادت أن ترتقي سلم الحضارة والمدنية، أن تتخلص من الخلفية الثقافية العربية، إنما أن نجد قسما كاملا بجامعاتنا لدراسة الشعر الجاهلي، وهيئة تدريس وميزانية وطلاب وباحثين ورسائل، فهذا لن يثمر سوى مزيدا من الشعر الجاهلي الحديث، ولن يساعد في استنبات جديد لحضارة القدماء وإنجازاتها، فلا الشعر الجاهلي يساهم في فهم الذرة ولا في تنمية الموارد البشرية ولا استخدام التكنولوجيا الحديثة، ولن يساهم حتى في تنمية علاقات الحب بين الشباب، لأن معاني الشعر العربي وصوره البلاغية قادمة من بيئة صحراوية مختلفة عن البيئة الجبتية المدينة الخضراء.

وعلى هذه الشعوب أن تتخلص من الخلفية التاريخية العربية الملحقة بالدين الإسلامي كي تصبح مبادئ الدين نابعة من الدين ذاته ومن النص القرآني المعجز، لا من الخلفية الثقافية والتاريخية للمجتمع العربي المتأخر عقليا وحضاريا، بل علينا انتشال الإسلام من حظائر القومية العربية، حتى لا تصبح صورة المجتمع العربي القديم خلفية للدين ومعيارا له، فيصبح حجابا على العقل مانعا له من الحياة في الحاضر والارتقاء نظرا لتقيده بملايين الصور الذهنية المطلية بلون

الماضي العربي، ويجب أن ينحصر تاريخ الإسلام فقط في حقبة الدعوة المحمدية التي استمرت ثلاثة وعشرين عاما فقط كخلفية تاريخية تفسر لنا الكثير من القصص القرآني الخاص بالنبي محمد، فلكي نأخذ الإسلام من العرب ليس مطلوبا منا أن نندمج كليا ونغوص في المجتمع العربي لأن ذلك من شأنه أن يشل عقولنا ويشكل عقولنا غصبا بملامح المجتمع العربي القديم، وهو في الأصل مجتمع بري متوحش وليس من شعوب الحضارات، ولم يكن لديه المؤهلات العقلية والفكرية لأن يكون كذلك، فعندما نقرر أن نأخذ الدين الإسلامي من شبه الجزيرة ينبغي علينا أن نبحث فقط عما هو نظيف كزهرة اللوتس حول الكعبة... لا أن نلملم نفاياتهم الثقافية... إننا لا يمكن أن ننتقد فكر العرب بواقعية إلا إذا تخلصنا من آثار الاحتلال العربي، فالعرب احتلوا بلادنا وغمروها بفكرهم، وبالتالي فنحن الآن ما زلنا نفكر بعقولهم هم ولم ندرك بعد أن قوميتهم احتلت عقولنا وأن ثقافتهم غمرتنا وأن لنا نسيج ذهني مختلف عنهم ومن الممكن أن ينبت من جديد..

المؤلف

الإسكندرية أول سبتمبر ٢٠١٩

منهجية البحث

وفي هذا المبحث سنحاول الوقوف على ملامح العقل العربي بالمقارنة مع مجتمعات أخرى، أي سنجري مسقطا رأسيا بمعيار القومية على الفكر والنتاج المعرفي لكل قومية كي نرى هل نحصل على اختلافات فكرية تبعا لاختلاف القوميات أم لا، فنحن على يقين بأن الهوية الوطنية القومية لهي الأساس في بناء الفكر والوعي، أي مسألة سلالة عرقية. فالعقل البشري إذا ما تحدثنا عنه بصفة عامة على كل البشر وكل الشعوب سنجده متجانس في مستوى معين، وفي هذه الحال لا يمكن التفرقة بين "عقل أوروبي " و" عقل عربي" أو فكر أوروبي وفكر عربي، إنما إذا نظرنا بنظرة عرقية قومية على المجتمعات (أي باستخدام مجهر) ستظهر أمامنا فروق جوهرية، هذه الفروق منشأها السلالات العرقية التي هي منشأ القومية والنسيج الاجتماعي لكل شعب..

ولكن هناك حالات يطغى فيها مؤثر لشعب ما على الشعوب المجاورة له فيصبغها بطابعه العام وتنطمس سماتها وخصوصياتها، ومنذ حقبة الفتوحات العربية حدث طمس للقوميات وسيادة للقومية العربية (الحجازية) ومن ثم تعطلت نسبيا القدرات الذاتية لهذه القوميات وصار الشائع والسائد هو العقل العربي ومن هنا جاءت تسمية " العقل العربي" أو " الفكر العربي" ليس لأن هذه الشعوب تفكر بعقلية متجانسة ولكن لأن السائد عليها هو طريقة تفكير العقل العربي منذ حقبة الفتوحات.. والدليل؛ لو نظرنا إلى ما قبل هذه الحقبة سنجد أن كل قومية لها تراث معرفي مختلف عن الأخرى، ولها منهجية فكر وبحث وعمل وبناء مختلفة عن الأخرى، ولها تاريخ إنجازات مختلفة عن الأخرى. فلا يمكن أن تدخل فصلا دراسيا وتجد جميع الطلاب يستخدمون منهجية واحدة في البحث إلا إذا كانوا غشاشين من بعضهم أو مُوجهين لاتباع منهجية دون غيرها أو عاجزين عن إخراج طاقاتهم الذهنية الذاتية، في هذه الحال تتماثل القرائح لأنها اتفقت في التعطل عن الإنتاج.

ومن هذا الطرح نفهم أنه طالما هناك إبداع ذاتي، فلا بد أن يكون هناك اختلاف وتنوع بين العقلية المصرية والعقلية العراقية والعقلية العربية.. وهذا ما نسميه الهوية الوطنية أو القومية.. إنما إذا اتفقت هذه الشعوب جميعها تحت مسمى" العقل العربي" فندرك فورا أنها لا زالت تعمل تحت غطاء وسطوة العقل العربي ولم تتحرر بعد، لم تستطع التمرد على العقل العربي الذي سيطر على أسلافها قرون طويلة وعاش طور الريادة والسيادة عليهم.. فالأمر لا ينحصر في مسألة ممارسة السيادة السياسية والسيطرة الاقتصادية للعرب على هذه الشعوب، بل هناك قيد عقلي ثقيل ما زال رابضا على أدمغتها، هذا القيد نتحسس وجوده من آثار ما تبقى من القومية العربية مثل اللغة العربية، فهي من بقايا هذه الاحتلال

العربي، حيث في إيجبت (مصر سابقا) كان السلطان العربي(الحاكم بأمر الله) قد أمر بقطع لسان كل من يتحدث غير اللغة العربية، فتحول الشعب من الجبتية (القبطية سابقا) إلى اللغة العربية، وما زال هذا مستمرا حتى الآن، حتى وإن خضع العقل الجمعي لهذا الوضع وقتها واستمر هذا الخضوع حتى تحول بمرور الوقت إلى نوع من الرضا، لكن هذا الارتضاء لا يعني اختيار ولا يعني تحرر مما حدث ولا رضاء بما حدث في الماضي، ولكن يعني استسلام للأمر الواقع لأنه أصبح واقع.. وبتتابع الأجيال على هذا الواقع لم تعد الأجيال الجديدة تشعر بمرارة الألم الذي لحق أجدادنا عندما فرض عليهم ترك لغتهم وتعلم اللغة العربية.. خصوصا أن العرب خدعونا وربطوا القومية العربية بالدين الإسلامي، وكأنه لا يمكن أن تكون مسلما إلا إذا أصبحت عربيا، لأن الرسول عربي !

برغم أن عربية الرسول كانت فقط لكي يتمكن من علاج القومية العربية، لأنهم كانوا مرضى عقائديا وأخلاقيا وفكريا، فأصبح لزاما على الطبيب أن يتحدث لغة المرضى كي يعالجهم ويتفاهم معهم، لكنهم بعد ذلك فرضوا علينا أن نحمل هويتهم ونتحدث لغتهم ونرتدي ثوبهم الموحد في كل العنابر ! فصار بعضنا يتشرف بالتحدث بالعربية على لغته، ولم يدرك بذلك أنه يتحدث لغة المرضى. وليس مفروضا على شعب أن يتحدث لغة المرضى ليكون مسلما. فالإسلام جاء بالعربية لأولوية علاج العرب، وكوني أريد أن أكون مسلما فهذا لا يفرض عليَ أن ارتدي جلباب المرضى، ولا أتقمص هوية المرضى وأتبنى لغتهم وقوميتهم وثقافتهم، بل إنني بذلك لم أصبح مسلما وإنما تحولت إلى مريض عربي، أما المرض فهو الفساد الأخلاقي والفكري والسلوكي.. إذن لا بد أن نفرق بين القومية العربية، والإسلام كدين، ولا يجوز الربط بينهما أو الخلط بين الإسلام والقومية العربية، بل إن القومية العربية عقبة كؤد أمام انتشار الإسلام.

فمجرد استمرار اللغة العربية هنا، فهذا قرينة تامة على استمرارية أثر العقل العربي (وتراثه القومي والمعرفي وسلوكه الفكري) على هذا الشعب، وبمرور الوقت تبدأ القريحة الذاتية في إعادة استنبات بذورها، وتأكلها الغيرة على أصلها وقوميتها فتنزع عنها غطاء العرب.. فتتحرر.. فتبدأ في التفكير بطريقة ذاتية غير متأثرة أو خاضعة لتراث العقل العربي وبقايا تراكمه المعرفي.. فلو نظرنا في مكتباتنا العامة سنجد أن عدد الكتب التي تتحدث عن الحكام العرب (الخلفاء والأمويين والعباسيين) والكتب التي تتحدث عن تاريخ العرب الجاهلي وكتب الشعر الجاهلي والأموي والعباسي والنثر والتراث وتاريخ الفتوحات (باعتبارها أعمال بطولية في احتلال بلادنا) وغيرها من الكتب التي تذكي قومية العرب وصحراء الحجاز ورجالاتها ومبادئها وهويتها ولغتها... كل ذلك بالمقارنة مع عدد الكتب التي تتناول تاريخ الحضارة الجبتية القديمة ومبادئها وحكمتها وإنجازاتها العلمية والفكرية والأدبية ولغتها

الجبتية... فلا مقارنة.. وهذا ما يعني أننا بالفعل ما زلنا خاضعين ساجدين قابعين تحت ظلال العقل العربي. فالتراث المعرفي الذي تركوه لنا مازلنا نهضمه ونعيد هضمه سنوات وأجيال وراء الأخرى، وما زلنا نهضمه بلغتهم وبلسانهم وبعقليتهم، ومن هنا يحق للبسطاء استخدام اصطلاح " العقل العربي" أو " الفكر العربي" إشارة إلى كل الشعوب الناطقة بالعربية، حتى ولو لم تكن عربية لأنها في الواقع الحالي تفكر بعقلية عربية.

وعلى مدار القرن الماضي أثيرت تساؤلات، في مقالاتٍ ودراسات كثيرة حول طبيعة العقل العربي، وبعضها اختار اصطلاح الفكر العربي، وصارت هناك إشكالية تسمية «العقل العربي» التي استخدمها الجابري بدلا من اصطلاح «الفكر العربي» في كتابه "نقد العقل العربي"، باعتبار أن غرض مشروعه النقدي يتعلق بدراسة «الفكر- الأداة» (الذي هو "العقل" في ظنه) وليس بـ«الفكر-المحتوى» (الذي هو "الإديولوجيا" في رأيه). أي أنه يريد أن يغوص في النسيج الذهني المنتِج للفكر والمتحكم في طريقة التفكير. ولا يخفى أن اختياره لتسمية «العقل العربي» يترتب عليه أن "العقل"، في ارتباطه بالثقافة والتاريخ الخاصَّيْن بالعرب، له "خصوصية" يفقد بموجبها طابعه الكُليّ العمومي لكل البشر؛ وهو الأمر الذي يتعارض مع ما هو متعارف في الفكر البشريّ من أن "العقل" إمكانٌ كُليٌّ مُعطى لجميع الناس على الرغم من كل الفروق والتبايُنات القائمة واقعيًا بينهم.

وهنا يتجلى بالفعل أن الجابري أردا استخدام اصطلاح " العقل العربي" للدلالة على النسيج الذهني للشعوب الناطقة بالعربية والتي تقوم قاعدتها المعرفية على (الارتباط بالثقافة والتاريخ الخاصَّيْن بالعرب)، في حين أن العرب عرقيا هم البدو سكان صحراء الحجاز. فكيف سنح للجابري أن يستخدم اصطلاح "العقل العربي" الذي أراد به الغوص في ثنايا النسيج الذهني (أي الأداة والآلة الذهنية التي هي أعمق في نظره من الفكر أو المحتوى) في حين أنه لا يتحدث عن النسيج الذهني العربي (عرقيا) وإنما يتحدث عن كل الشعوب الناطقة بالعربية ! وهو معذورٌ في ذلك ببساطة لأنه كل هذه الشعوب تفكر بذات الطريقة، وهي بالفعل تفكر بذات الطريقة ليس لأنها سلالة عرقية واحدة، ولكن لأن كل هذه الشعوب تفكر تحت ظلال العقل العربي، وما زالت تحت وصايته وتوصياته، ولهذا استخدم الجابري اصطلاح "العقل العربي" للتحدث عن شعوب غير عربية لكنها تفكر بعقل عربي فعليا..

وهذا ما يؤكد وجهة نظرنا في أننا مازلنا خاضعين لاحتلال عربي معرفي وثقافي ووعيوي وفكري، وأخص هذه الأدلة هو اللغة العربية التي تجعل العقل العربي يحكمنا دون أن ندري، فاللغة ذاتها بخلفيتها الثقافية تؤثر على عقولنا وقت التفكير دون أن نشعر وتعطيها مزيد من الإيحاءات

والتوجيهات، لأن اللغة ليست أداة مجردة وإنما محملة بـ(محتوى معرفي) بالكثير من الأفكار والتصورات والمعاني والأنماط السلوكية التي هي في الأصل عربية، أي أننا في النهاية طالما ما زلنا نستخدم أدوات العقل العربي فنحن بالفعل نفكر بآلياته وبطريقته ونستخدم خاماته في التفكير، فيجوز مؤقتا الحديث عن كل هذه الشعوب (البابلية والشامية والفينيقية والأمازيغية والقبطية) باصطلاح "العقل العربي" إلى أن تتحرر من وصاية هذا العقل العربي وتتفتق قرائحها عن مبادرات ذاتية تبرز هوياتها المخمودة منذ زمن.

ومن حيث إن المشهور في أعمال الفكر، منذ القرن الثامن عشر على الأقل، أن النقد يتخذ موضوعا له، إما «العقل النظريّ المجرّد» في «نقد العقل الخالِص» أو «العقل النظريّ العمليّ» أو «نقد العقل العمليّ» كما عند "كانط"، أو عند "سارتر" في «نقد العقل الجَدليّ») أو «العقل العمليّ» (كما عند الباحثين في علوم الاجتماع).. لكننا في الواقع نرى أن كافة هذه الاصطلاحات والتسميات هي فلسفية وليست علمية، أي تقوم على تصنيف بوابات الفكر وفقا لتصور أو رؤية الفيلسوف، وليس رصد وتحليل عناصر ومعالجتها ثم تقديم استنتاج. فكل من المفكرين السابقين يختر له زاوية رصد لجانب معين من جوانب الفكر ويفتح لها بابا أو يضع عنوانا، قد يسميه العقل المجرد أو العقل الخالص أو العقل الجدلي أو العقل العملي، وغير ذلك من تلك الاتجاهات التي يحاول علماء الاجتماع فتح أبواب منها للولوج إلى داخل العقل البشري من هذه الزاوية أو من غيرها، بغض النظر عن قدرة هذه الزاوية على تمثيل كل النتاج العقلي من عدمه.

لكننا هنا سنحذو حذو الأستاذ محمد الجابري في التفريق بين اصطلاح (العقل العربي- الفكر العربي) على اعتبار التفريق بين الأداة والمحتوى، أيا كانت التسمية، فالغاية هنا أن الأداة أو آلة الفكر هي التي تتحكم في المحتوي وتمنحه مواصفاته النهائية، وهي التي تشكل المخرجات النهائية والمنتج المعرفي لشريحة معينة من البشر، لأن آلة طبخ شطائر البسكويت تتحكم في مواصفات المحتوى والمنتج النهائي، وفي ذات الوقت، المادة الخام التي يتم حشرها في هذه الآلة تتحكم أكثر من الآلة ذاتها، لأنها تتحكم في الطعم والقيمة الغذائية ! .. فما بالنا لو كانت الآلة قبطية والمحتوى كله عربي مستورد من الحجاز؟ هل تنتج فكرا مغايرا عن الفكر العربي؟!

وكل البشر سواء، لكنهم مختلفون في الألوان نتيجة اختلاف نسب الهرمونات ومعدلات النشاط الجيني لدى كل منهم، مما يخلق لنا ألوانا وأشكالا متعددة ومختلفة في النهاية.. وهي ذات الدرجات من الفروق في الأداء الذهني وطريقة السلوك والتفكير، فإذا قال الله إنا خلقناكم "شعوبا وقبائل "، فلا بد أن

نفهم أن هذه الشعوب والقبائل هي شرائح وأنسجة اجتماعية مختلفة عن بعضها من باب التنوع، وكل شريحة منها لها ميكانيكيزم عقلية مختلفة عن غيرها. كما فصائل النبات، برغم أن جميع النباتات تتغذى على الماء وعناصر التربة وضوء الشمس، إلا أن كل صنف من هذه النباتات ينمو بطريقة مختلفة وينتج ثمرات مختلة ألوانها وطعمها وحجمها. وهذه الاختلافات قائمة على الاختلاف الجيني أي سلالة النبات نفسه وصنفه، ومع ذلك إذا تغير عناصر التربة أو المياه أو الضوء يتغير المنتج النهائي. وهكذا البشر.. أي أننا في المجمل، نجد أن مواصفات الآلة المنتِجة لها دور معين في تحديد مواصفات المنتج النهائي، وكذلك المادة الخام لها دور محدد في تحديد مواصفات المنتج النهائي.

والعقلية العربية مختلفة عن القلية القبطية، في أن العقلية العربية أدبية بحتة وكل نتاجها ومحتواها أدبي، بينما العقلية القبطية علمية عملية تطبيقية، وكل سيرتها الذاتية شاهدة على ذلك. وبالتالي عند محاولة تشغيل هذه العقلية القبطية بمحتوى عربي فإننا يجب أن نفهم مسبقا طبيعة المنتج النهائي وماذا ستكون، لأن المنتج النهائي لا يتشكل فقط بناءً على مواصفات العقلية والذهنية وإنما أيضا تتحكم فيها مواصفات وعناصر المادة الخام، فكيف لعقلية علمية أن تعمل على هضم خامات أدبية بحتة !.

إذن اصطلاح "العقل العربي" الذي عممه الأستاذ الجابري على كل الشعوب الناطقة بالعربية، قد تجاوز به المدى المسموح، لأنه كان يمكنه استخدام اصطلاح "الفكر العربي" للدلالة على المحتوى المعرفي للشعوب الناطقة بالعربية، وكيف أن هذه الشعوب تعالج أفكارها ومشروعاتها بطريقة متجانسة، ما يعني إمكانية تعميم الاصطلاح، لكن الأستاذ الجابري قد غاص في العمق وأرد "الآلة الفكرية – أداة التفكير" ومع ذلك اختار اصطلاح "العقل العربي" كإشارة إلى الآلات الفكرية الجمعية للشعوب الناطقة بالعربية، وأوضحنا أنه طالما أراد الغوص في العمق بكلمة "العقل" بدلا عن الفكر، فكان ينبغي عليه قصر استخدامها للدلالة على القومية العربية (عرب الحجاز) لأنهم هم الذين يتحدون في (آلة فكر) أداة واحدة يميزها فنون الأدب واللغة وعلومها والشعر والنثر والبلاغة والفصاحة وصناعة الكلمة، وهم عباقرة في هذا الميدان دون غيره من كافة فنون المعرفة والعلوم الأخرى.

وإن كانت الشعوب الناطقة بالعربية في العصر الحالي تتشابه معهم حاليا في نمط الفكر، فهذا لا يعني وحدة الآلة العقلية المنتِجة لهذا الفكر، ولكن يعني طغيان قومية العرب عليهم منذ حقبة الفتوحات التي أجبرتهم على تغيير لغاتهم وتبني قومية العرب وهم ليسو عرب ولا من عرق عربي ومختلفون وراثيا وجينيا وثقافيا وذهنيا عن العرب، لكنهم تحت وطأة الاحتلال العربي تأثرت عقولهم بالعقل

العربي وأعجبوا به، وما زالوا يأخذون منه آباء روحيين في اللغة والأدب، أي سيادة للقومية العربية (الأدبية) على قوميات فينيقية وجبتية وبابلية حضرية مدنية (علمية).. لكننا إلى الآن تستحي عقولنا الجهر بهذا كونه يعد مساسا بسيرة الصحابة الكرام الذين نجلهم ونحترمهم وهذا حاجز عقلي ومانع أدبي، هذا المانع الأدبي (الاحترام والتوقير) موجود في نصوص القانون كافة وله حساباته واعتباراته، لكننا في ميدان الفكر لا ندركه ولا نعمل له حساب، بينما عقولنا موجهة للعمل طوعه منذ أن ورثناها من أجدادنا وهي تعمل على ذات الوتيرة ولا تتغير إلا درجات طفيفة عبر الأجيال.

في حين أننا لو حررنا عقولنا من هذا المانع الأدبي لاختلف المنظور بدرجة ١٠٠٪ ، أو لو حاولنا تمثيل الأحداث التي وقعت في حقبة الفتوحات أنها وقعت من الهكسوس مثلا ضد شعوب أوروبا، ساعتها سنقول بجرأة أن الهكسوس احتلوا أوروبا وسيطروا عليها حقبة من الزمن ونشروا ثقافتهم وتاريخهم وأدبهم وشعرهم ودينهم هناك، وأن أثر هذه المظاهر ما زال متجسدا في العقلية الأوروبية، لدرجة أنها لا زالت تتحدث لغة الهكسوس وتتبنى ثقافتهم وقوميتهم وتاريخهم، وأن شعوب أوروبا ما زالت تنظر إلى هؤلاء الهكسوس بنوع من الصغار وتتخذ منهم آباء روحيين.. وأن ذلك في النهاية من أثر عامل (المانع الأدبي) لأن شعوب أوروبا اعتنقت دين الهكسوس، ووضعتهم في مرتبة دينية علية، وصارت لهم قدسية دينية، وليس فقط ثقافية أو تاريخية... ساعتها سنعترف أن شعوب أوروبا ما زالوا يتقمصون عقلية الهكسوس في طريقة تفكيرهم وتعاطيهم مع الثقافة، بينما كانوا يفكرون بطرق قومية مختلفة قبل دخول الهكسوس بلادهم.

بينما لو أننا نحن الذين تعرضنا للاحتلال -أي مكان شعوب أوروبا- فلن ندرك هذا الحاجز العقلي أو المظلة أو المانع الأدبي، ساعتها سنكون مقتنعين بأفكارنا وعقولنا وثقافتنا وقوميتنا التي تبنيناها وورثناها عن آبائنا دون أن ندرك أنها ليست جذورنا، بل سنعتبرها أفضل من جذورنا... وهذا هو الوضع الذي نعيشه بشأن القومية العربية، فنحن لا نتعامل مع العرب باعتبارهم قومية الغجر القطانين في صحراء الحجاز من قبائل جرهم والعماليق الجبارين والمطاريد وقطاع الطرق.. لا، بل نتعامل مع العرب باعتبارهم قومية الصحابة الكرام (أبي بكر وعمر وعثمان وابن أبي بلتعة ...إلخ) برغم أن الواقع أن هؤلاء أحفاد أولئك، وهؤلاء وأولئك هم أحفاد الهكسوس الذين احتلوا وطننا عام ١٥٠٠ ق.م. وكان أجدادنا الجبتيين يعتبرونهم همج .. فقط لأنهم روجوا تجارة العبيد في بلادنا خلال فترة احتلالها.

ثم بعد ألفي عام عاد أحفادهم واحتلوا بلادنا مرة أخرى، فالصحابة الكرام هم بالفعل أحفاد الهكسوس، لكن مجرد أننا تعرفنا على الإسلام منهم فاحترمناهم من باب المجاملة برغم أن ما فعلوه لا

يمت للإسلام بصلة إطلاقا، فهم كانوا يخطفون النساء والأطفال ويبيعونهم في أسواق النخاسة أو يستخدمونهم عبيدا في بيوتهم، وكان الصحابة الكرام يوزعون السبايا والأطفال المخطوفين هدايا على بعضهم !. ولم يكن أحد من هؤلاء الأطفال أو الفتيات بإمكانه الهروب من بيت الاستعباد لأن الصحابة الكرام كان موطنهم مكة والمدينة في قلب الصحراء الشاسعة، وصحراء الحجاز هذه كما يصفها ابن بطوطة (الداخل فيها هالك، والخارج منها مولود) ! أي أنهم كانوا يعيشون مستعبدين في سجن !

ومع ذلك (بسبب المانع الأدبي يمنعنا الحياء من الاعتراف والإقرار بأن ما فعله الصحابة كان خطأ وجريمة بحق الإنسانية، ولا يمت للإسلام بصلة، فلا يوجد على وجه الأرض دين يسمح بخطف الأطفال ! فكيف بدين الله الأكمل أن يسمح للصحابة بخطف هؤلاء الأبرياء ! نحن فقط اعتبرنا ذلك أمرا مشروعا دينيا احتراما للصحابة، في حين لو كان من خطف أطفالنا من دين آخر غير ديننا لكنا قد وصفناه بالإجرام، ولو أننا لم نعتنق الإسلام لكنا أيضا قد وصفناهم بالإجرام، إنما نحن اعتبرنا الإجرام مباح دينيا احتراما وتبجيلا للصحابة الكرام ولأننا لا نجرؤ على الخوض في سيرتهم، حتى أن الأزهر ورجال الدين يمنعون الشعب من التحدث في الفتنة التي وقعت بين الصحابة حيث قتلوا بعضهم بعضا في الفتنة الكبرى والفتنة الصغرى، ووقع منهم أكثر من مائة وعشرين ألف قتيل بيد بعضهم البعض، وهذا الرقم يعني مباشرة أنهم قومية غجرية، لكن المانع الأدبي بداخلنا يمنعنا حتى من الحديث في أخطائهم ونعتبرهم آباء روحيين!، وهذا ما يعني استمرار أثر المانع الأدبي على العقل الجمعي.

انظر نص المادة ٦٣ من قانون الإثبات الجبتي رقم ٢٥ لسنة ١٩٦٨بإصدار قانون الإثبات في المواد المدنية والتجارية معدلا بالقانون ٢٣ لسنة ١٩٩٢ والقانون ١٨ لسنة ١٩٩٩م وتعديلاته الأخرى.. ومفاد هذه المادة أنها تنظم الحقوق التي يتعرض أصحابها لمانع أدبي حيث يمنعهم الحياء من طلب سند إثبات، مثل أن يشتري شخص من والده منزلا دون كتابة عقد بيع بينه وبين والده، وفيما بعد يقوم الوالد بطرد ولده من المنزل ويدعي ملكيته له مستغلا قرينة عدم وجود العقد، فيسمح القانون للابن برفع دعوى دون تقديم عقد بيع ويسمح له بأن يلجأ في الإثبات إلى وسائل الإثبات الأخرى أيا كانت والتي من شأنها أن تقدم أي دليل أو قرينة تشير إلى أن ما منع الابن من كتابة عقد بيع هو الحياء من والده والاحترام.. هذا هو مختصر "المانع الأدبي" ...

وإذا طبقنا هذا المبدأ على علاقة الجبتيين بالعرب سنجد أن موقف الصحابة يشكل لنا مانع أدبي كبير جدا، فاحترامنا لشخصيات الصحابة يمنعنا (دون وعي) من نقد العقلية العربية، ونقد التراث العربي ونقد الفكر العربي، بل ويمنعنا من الاعتراف بأن خطف الأطفال وسبي النساء والفتيات في الحروب

هو جريمة ضد الإنسانية، بدليل أننا مازلن نفتخر بفتوحات خالد ابن الوليد الذي خطف الأطفال وسبي النساء والفتيات في فتح العراق وفارس(صحيح البخاري)، فيمنعنا احترامنا للصحابة من إدراك هذه الحقيقة أو الجهر بها، وهذا يشكل حاجزا أدبيا وأخلاقيا على عقولنا. فبرغم أن الله جل وعلا نص في القرآن على احترام أسرى الحروب، فقال تعالى: " فشُدُّوا الوثاقَ فإمَّا منًّا بعدُ وإمَّا فِداءً حتّىٰ تضعَ الحربُ أوزارها " ومعنى كلام الله أننا إذا اشتبكنا في حرب مع عدو ووقعت أيدينا على أسير من العدو أن نحتجزه ونشد رباطه حتى تنتهي الحرب، وبعد أن تضع الحرب أوزارها نقوم بإطلاق سراحه والعفو عنه، أو نطلب منه فدية تعويضا عن الخسائر التي تسببت فيها الحرب.. إذن في كل الحالات لا بد أن يعود الأسير إلى بلده وأهله، وليس مسموحا احتجازه أو استعباده أو إهانته بأي حال، وهذا ما كان يوصي به رمسيس الثاني وتحتمس جنودهما في الحروب، فكان يأمرهم بألا يتركوا الأسير عطشان.. وهذا أسير يعني فرد مقاتل مسلح، فكيف يكون الموقف مع المدنيين العزل ؟!

بالطبع لا مساس بالمدنيين العزل، وهو مفهوم ضمنيا من نص القرآن ذاته، ومفهوم من نص وصية الرسول الكريم إذ أمر بعدم الاعتداء على طفل ولا امرأة ولا زرع ولا عابد ولا صومعة ...إلخ. ومع ذلك كان الصحابة الكرام يخطفون الأطفال والنساء والفتيات ويغتصبونهم وما تبقى منهم يبيعونه في أسواق العبيد لينتفعوا بثمنه في بيت المال، وهذا ما أورده كل المؤرخين (ابن كثير والطبري وغيره من الفقهاء وأصحاب المتون والبخاري ومسلم، حيث دخل خالد ابن الوليد صومعة (بيت عبادة" في مدينة عين التمر العراقية، وجد فيها أربعين طفلا فقام بخطفهم وتوزيعهم هدايا على الصحابة ليعملوا كعبيد في بيوتهم في المدينة وما تبقى منهم تم بيعه في أسواق النخاسة، وهذا ما ذكره البخاري تفصيلا .. أي بما يخالف نص القرآن صراحة ونص وصية الرسول صراحة، ما يعني أنهم كانوا مجرمي حرب، في حين لو أن من ارتكب هذا الفعل هم الهكسوس، لكنا قلنا فورا أنها جريمة غجر، أما لو ارتكب الصحابة الكرام ذات الفعل، وبرغم ذلك تجدنا مقتنعين أنهم كانوا يجاهدون في سبيل الله ! وهذا ما يعني مباشرة أن عقولنا لا تزال خاشعة للعقل العربي.. وهذا هو أثر المانع الأدبي على العقل الجمعي، والذي استمر إلى اليوم، فكيف يقوم الأستاذ الجابري باستخدام اصطلاح "العقل العربي" للدلالة بالعموم على الشعوب الناطقة بالعربية، بينما هذه الشعوب تفكر تحت مظلة العقل العربي وهي خاضعة للمانع الأدبي الذي منع عقولها حياء واستحياءً من رؤية الحق والعدل الذي جاء واضحا بكلام الله ! لكننا لا نملك الجرأة العقلية لانتقاد الصحابة لأننا ورثنا احترامهم عن آبائنا ولم تعد هناك حاجة لإعادة التفكير في جرائم الحرب التي ارتكبوها في حقنا بحجة تعليمنا دينا الله.

وفيما يلي سنتعرض بإيجاز كيف بدأ تأثر العقل العربي على العقل الجبتي، ونتعرف كيف أن العقل الجبتي ما زال خاضعا للعقل العربي ويعيش ويتنفس تحت مظلته وتحت وصايته ولم يتحرر منه حتى الآن، ما يعني أن استخدام اصطلاح "العقل العربي" للدلالة على الشعوب الناطقة بالعربية الآن لا يعبر عن حقيقة هذه الشعوب، وإنما يعبر فقط عن العقلية والقومية العربية ومن تقمص شخصيتها أيضا ومن عاش تحت وطأة المانع الأدبي.

ولكي نوضح بوابة المبحث، سنتناول الطبيعة الفكرية لفصيلة معينة ليست هي محل الدراسة، ولكن ضربا لمثال كي نتأكد أن النسيج الذهني هو المحدد لمواصفات وإمكانات الآلة الفكرية التي تتحكم في مواصفات المنتج المعرفي في النهاية. هذه الفصيلة هم سلالة بني إسرائيل؛ فلو نظرنا وتساءلنا لماذا تركزت النبوة في هذه السلالة دون غيرها، لعرفنا أن مقدار الفساد العقلي والمادية المتجذرة جينيا في هذه السلالة هي سبب انحصار النبوة فيها؛ إذ أن الله يخلق من كل عضو علاج له من ذاته، يخلق الداء والدواء في ذات الكائن. فالكائنات الصحراوية مثل الجَمل مُعرضة للكثير من المصاعب والظروف القاسية مثل الجفاف والحرارة والجوع والمسير مسافات شاسعة في صحراء رملية مكشوفة مع الرياح والأتربة وغير ذلك، ولذلك خلقه الله متمتعا بخفٍ عريض لا يغوص في الرمال، وغطاء جفن شفاف على العين مثل النظارة تجعله يرى دون أن تصل الرمال لعينيه، وخلق له صوف يحميه من الحرارة بحيث يتكيف مع البيئة والمناخ، وخلق له معدة بثلاث جيوب مختلفة يستغلها في تخزين الطعام، وزوده بالقدرة على ابتلاع الطعام وتخزينه في المعدة نيئا ثم استعادته لإعادة اجتراره وهضمه في أوقات لاحقة، وزوده بالقدرة على تخزين كميات كبيرة من المياه، وكميات من الدهون تذوب تلقائيا عند الجوع، وخلق له أقدام طويلة تمكنه من المشي لمسافات شاسعة دون غيره من الحيوانات، ولهذا لقبه العرب بسفينة الصحراء.

وهكذا السلالة الإسرائيلية، ولأنها في تكوينها الفسيولوجي لديها عاهة عقائدية مستديمة، ولا يؤمنون إلا أن يأتيهم الله بالمعجزات المادية، وبرغم ذلك يعودون ليعبدوا العجل.. فهم لا يؤمنون إلا بالطبيعة المادية، ولا يؤمنون بفكرة البعث والحساب بعد الممات، إنما فقط يؤمنون بالحياة الدنيا، ولهذا يركزون أعمالهم في التجارة والربا وما يحقق الربح الوفير، وهذه طبيعة فسيولوجية خاصة بهم (سلالة بني إسرائيل) ولهذا اختصهم الله بالأنبياء كعلاج ذاتي للسلالة ومقوَم فكري باستمرار، حتى أن الأنبياء كانوا يتعاصرون أحيانا، وقد وصل عددهم أكثر من خمسين نبيا، واعتاد الإسرائيليون أن يقتلوا أنبياءهم.. والأمر ليس بحاجة إلى إسهاب، بل إنه واضح وضوح الشمس، أن الله يخلق الدواء من جنس الداء

ليعالج الكائن الحي نفسه تلقائيا وباستمرارية، ما يعني أن المجتمع هو كائن واحد يفكر بطريقة متجانسة. وهذا يدلنا على أن نوعية الفكر عائدة إلى السلالة العرقية بالأساس وليس المحتوى الثقافي.

وهناك خواص فكرية أخرى لهذه السلالة؛ منها أنهم في الغالب ليسو عاطفيين، إنما فكرهم يسوده الدهاء والمكر والخبث والتخفي، وهو فكر مادي بحت، مخابراتي بحت، يقوم على التخفي ولدغ الآخرين من حوله، وما نراه من عمليات الاغتيالات السياسية التي يقوم بها الإسرائيليون حول العالم خير دليل، فهم يمارسون الاغتيال الخسيس ضد كل من لا يسمح بتمرير مشروعاتهم، ليس فقط من العرب وإنما من كل أنحاء العالم، ويتسللون في حكومات كثيرة متخفين ومخفين هوياتهم الدينية حتى يصلوا إلى أعلى المناصب، ولا تتعجب إذا وجدت اليهود يتحكمون في رأس المال والإعلام الأمريكي برغم أنهم أقلية هناك لا يتجاوز عددهم ١٪ من الأمريكان، لكنهم يفكرون ويتصرفون بطريقة مختلفة عن غيرهم، ما يجعلهم يتحكمون في مقدرات الشعوب بكاملها، وهذه ميزة عقلية لا يملكها البشر العاديون. وهم جميعهم يفكرون بذات الآلية سواء كانوا منفردين أو مجتمعين، وسواء كانوا يعيشون وسط العرب أو وسط الأمريكان أو الأوروبيين، فسلوكياتهم وأفكارهم متجانسة حتى مع أجيالهم السابقة أي أن السمات الوراثية الذهنية تنتقل إليهم بالوراثة وليس بالاحتكاك الثقافي مع الشعوب، وليس شرطا أن يكون اليهود كلهم إسرائيليين، بل هناك من عرقيات أخرى يشبهون الإسرائيليين ذهنيا فتبنوا عقيدتهم وعقليتهم وانضموا إليهم..

بينما أولاد عمومتهم العرب شغوفين بالشعر والنثر والبلاغة والفصاحة والبيان.. وكلاهما فرعان من سلالة بشرية واحدة، لكن أحدهما لا يخطئ مرة ويفكر بعقل الآخر، بل كلٌ له أدواته وآلياته التي يقتات بها ويعيش ويتعايش، فالعرق الإسرائيلي بارع في الخُبث بشكل مستمر عبر الزمن، بينما العرق العربي بارع في الشعر بشكل مستمر عبر الزمن، ولا يوجد شعب في العالم يجيد قرض الشعب بفصاحة وبلاغة ومرونة مثل العرب، ما يعني أنها سمات ذهنية وراثية، وليست مجرد محتوى ثقافي.

لقد سبقني الكثيرون أن اعترضوا على تسمية «العقل العربي». ورأوا أفضلية استخدام مصطلح " الفكر العربي" على اعتبار أن الفكر يمكن وصفه بأنه منتج محلي قومي، أما العقل فهو سمة عامة لكل البشر. لكننا هنا سنصر على استخدام " العقل العربي" نظرا لأننا سنتناول جوانب سيكولوجية ذهنية وليس فقط منتَج معرفي، سنتناول جوانب معرفية كثيرة وليس فقط "فكر"، سنحاول الوصول إلى عمق ماكينات صناعة الفكر ذاتها في هذه البيئة العربية كي نحدد سماتها وخصائصها الذهنية، ومن ثم نعرف كيف نستفيد أو نتحصّن من هذا الفكر العربي. والتقسيم هنا سيعتمد على تقسيم

عرقيات البشر ونوعيات المعرفة، فالبشر هم سلالا وفصائل مستقلة عن بعضها وكل فصيلة منها نجد هناك تجانس في الأفكار بين أفرادها، لأن الأفكار والمشاعر ذاتها مُنتج حيوي مثل العرق ولون الشعر وطبيعة البشرة ونوعية الأفكار تحمل السمات الذهنية الوراثية للآلة العقلية التي أنتجته.. هذا التجانس غير موجود مع اختلاف العرقيات.. والنوع الثاني من التقسيم هو تقسيم أنوع المعرفة ذاتها أي نوعية النشاط الذهني (المحتوى)، فمنها ما هو علمي مضبوط قائم على الرصد والملاحظة والاستنتاج، ومنها ما هو أدبي فني قائم على التذوق الجمالي بغض النظر عن التركيب المادي أو المحتوى ومضمونه وفائدته.

وهذا التقسيم سيفيدنا في معرفة إمكانات العقل وآلياته في التفكير ونوعية منتجاته وأنماطها إذا نظرنا لمجموعة من العوامل المؤثرة على العقل، لأن العقل (المخ) ليس آلة صماء تطحن إذا ما أورد لها الشعير، إنما هو كائن يتجرأ أحيانا فيهجم، ويستحي أحيانا فيحجم، ويتأثر بظروف وعوامل نفسية قد تؤدي إلى خمول بعض خصائصه آلاف السنين لاستمرار عامل معين مثل المانع الأدبي، ولا يمكن- بل مستحيل- القول بأن العقل يفكر بحرية كاملة دون اعتبار لعنصر المانع الأدبي، أيا كان نوعه، وهذه سمة نجدها مؤثرة بين المجتمعات، فالمجتمعات الشرقية لديها -بوجهٍ عام- موانع أدبية دينية كثيرة إذا ما قورنت بالمجتمع الغربي، وهذه الموانع الأدبية لا يمكن تجاهل أثرها على العقل حينما يفكر في الفيزياء أو الكيمياء، بل هي موجودة ومؤثرة في الوعي العام والعقل الجمعي دون أن نشعر، وهي فقط تظهر بصورة مجتمعية وليست فردية. تظهر في نوعية التساؤلات التي قد يطرحها العقل، فما زالت عقول شعوب الشرق تشعر بنوعٍ من الحياء في الفكر، وتقدم المسلمات الثابتة عن البحث في السببية والموضوعية. فأغلب ثقافتنا تراثية موروثة وليست قناعية من قناعاتنا الشخصية، أي أن دور العقل في نقلها وحفظها بحالتها كان أكثر من دوره في معالجتها، وهذا ما يعني أنه متقيد بها على وضعها، وهي أكثر حصيلتنا المعرفية من هذا النوع (المعرفة التي تنتقل من جيل لآخر بطريق التراكم والتوارث وليس بطريق القناعة).

وهذا التقسيم سيفيدنا أيضا إذا عرفنا أنه كما هناك فكر علمي وفكر أدبي وسلالات بشرية مختلفة، وأن هناك سلالات معينة تتبني الفكر العلمي وسلالات أخرى تتبنى الفكر الأدبي.. هنا يمكننا التأصيل لحالة العقل بعد تصنيفه عرقيا وتصنيفه معرفيا، والتعرف على الحالة المعاصرة له، وما إذا كان رائدا لغيره أو تابعا لغيره واقعا تحت أثر هيمنة أو مانع أدبي أو غيره من هذه العوامل.

إن شعوب العالم متعددة وليست شعبا واحدا، أنسجة متعددة وليست نسيجا واحدا، وكل نسيج اجتماعي له طريقته في الأداء، وله طريقته في الحياة والثقافة والفكر والحضارة، فليست كل أنسجة

الجسم تعمل بنظرية واحدة، إن كل نسيج يتشكل وفقا لنظرية الملاءمة الوظيفية، أي يأتي تركيب ذراته وخلاياه ملائما للوظيفة التي سيقوم بها، حتى وإن كانت كل الأنسجة ترتبط في النهاية بنسيج الدم لتحصل على غذائها المستمر منه، لكن في النهاية يظل الكبد متصلاً بالدم لكنه يقوم بوظيفة مستقلة عن البنكرياس، وتظل الكُلى مرتبطة بالدم لكنها تقوم بوظيفة مستقلة عن الطحال، فكل نسيج يستقل بتكوينه الذاتي ومؤهلاته الذاتية حتى وإن ارتبط بغيره من الأنسجة، فيظل هذا الارتباط في حدود المصلحة والضرورة فقط، إنما اختلاط أنسجة الجسد على بعضها لهو نوع من التقلصات المعوية..

وهكذا الشعوب أنسجة اجتماعية مستقلة لكنها مرتبطة في حدود ما يحقق مصالحها، وبالتالي من غير المفيد أن يتبنى القدماء ثقافة المجتمع الجاهلي في شبه الجزيرة، أو يحدث اندماج بين الثقافتين، وإلا كان ذلك محض تقلصاتٍ معوية مقلقة للطرفين، فلا بد أن يبقى الاستقلال، وينحصر الارتباط في حدود الاحتياج الضروري كي تستمر الحياة بشكلها الطبيعي. لأن أجدادنا القدماء كانت لهم طريقة مختلفة في الحياة والعمل والبناء والإنتاج، هذه الطريقة تختلف كليا عن حياة المجتمع العربي، ولا يمكن أن يحدث بينهما اندماج وتستمر الملاءمة الوظيفية بالشكل الصحيح؛ لأن كل شعب له ملامحه ومكوناته النفسية التي تنسجم مع معطياته وتؤهله للحياة بطريقة مستقلة كما يستقل القلب عن الكبد عن القولون الغليظ، وإذا انفتح القولون الغليظ على القلب أو الرئة حتما ستحدث كارثة صحية كما الكارثة الثقافية التي نعاني منها اليوم نتيجة انفتاح الثقافة العربية الصحراوية على المجتمع الحضري المدني، فأجهزة الجسم وأنسجته تظل منفصلة ومستقلة تماما عن بعضها ويفصل بينها الغشاء البريتوني لحفظ قوامها وقوميتها، برغم اتصالهم جميعا بشبكة الشرايين الدموية، بل إننا نجد القلب والرئة يستقلان وينفصلان عن باقي الأحشاء المعوية بحجاب حاجز ممتد إلى جدران القفص الصدري، أي أن القلب لم يكتفي بالغشاء البريتوني كحماية لخصوصيته بعيدا عن الأحشاء، مع أنه سمح للمريء باختراق هذا الحجاب الحاجز للوصول إلى الأحشاء، لكنه ظل محتفظا بخصوصيته وطبيعة تكوينه السيتولوجي والفسيولوجي (نظرية الملاءمة الوظيفية للأعضاء).

نوعا الغذاء العقلي

إن المعرفة البشرية هي وقود الحضارات على مدار العصور، وهي في مجملها لا تختلف عن بعضها ولا يقل بعضها عن بعضٍ شأنا، لكنها تنقسم إلى فرعين رئيسيين على درجة من الأهمية لحياة البشر مثل قضيبي القطار المتوازيين. القسم الأول هو العلوم السائلة.. أي العلوم الإنسانية والتي تتناول حياة البشر

وسلوكياتهم الاجتماعية وأحكامها وقواعدها، بما في ذلك الشرائع والنظم الاجتماعية والمعارف التاريخية والخبرة الحياتية، أو هي كل ما يحيط الإنسان في جوانب حياته بوصفه كائن اجتماعي مثل الدين والعقيدة والقانون وعلوم اللغة وعلم الاجتماع وعلم النفس والتاريخ والأدب والفن والشعر والحكمة. فالعلوم الإنسانية السائلة تكمن معاييرها في التذوق المجتمعي لها، وهي تتأثر بالعوامل النفسية والثقافية والعقلية لكل مجتمع ولكل شخص ولكل عصر، ولا شك أن العلوم الإنسانية السائلة هي الأسبق في الوجود وهي الأصل في حياة كلِ إنسان، وهي التربة الخصبة لخيال الإنسان منذ البداية، غير أن معيارها القائم على التذوق العقلي الاجتماعي يختلف من شخص لآخر ومن عصر لآخر ومن مجتمع لآخر، وهنا تكمن إشكالية هذه الدراسة.

وأما القسم الثاني من المعرفة البشرية فهي العلوم العقلية أي علوم الطبيعة مثل الرياضة والكيمياء والفيزياء والأحياء، والتي ظهرت في البداية نتيجة محاولات الإنسان الدائمة لتلبية حاجاته في الحياة وتوفير سبل العيش والعمل والإنتاج والحفاظ على صحته. وقد تبين فيما بعد أن هذا النوع من المعرفة هو العمود الفقري للحضارات البشرية وأن النوع الأول على أهميته إلا أنه يمثل فقط العضلات والأنسجة المرنة والأعضاء المرنة، وجميعها تدور وتلف وتقف على العمود الفقري. وهذا النوع من المعرفة تختلف قواعده عن العلوم الإنسانية السائلة؛ ذلك لأن العلوم الطبيعية هي مسائل تجريبية بحتة يمكن التعامل معها بلغة الرموز والأرقام والحسابات المادية، ولا تختلف مدلولاتها عند سماعها من شخصٍ لآخر أو من عصرٍ لآخر. فمعيارها هو التجربة المعملية والرمز والرقم، وبالتالي فإن نتائجها تكون ثابتة في كل المجتمعات وفي كل العصور ولا تتأثر بالخصائص النفسية والعقلية طالما أنها تخضع للتجربة والنتائج المعملية لا للتقييم والتذوق الحسي الذي يختلف من شخص لآخر ومن عصر لآخر.

بينما العلوم الإنسانية السائلة على العكس من ذلك، فهي تعتمد على اللغة التي اخترعها الإنسان منذ فجر التاريخ كأداة للتواصل بين أفراده وتناقل المعرفة والحكمة والمعاني وتبادل الأحاسيس والمشاعر الروحانية، وبالتالي فيختلف اللفظ أو المعنى الذي يحمله من شخصٍ لآخر حسب عمق المعنى ومساحته وحدوده وحسب الوعاء العقلي المستقبل لهذا المعنى؛ لأن اللفظ لا ينقل مادة فيزيائية محددة الوزن والكتلة، بل ينقل معنىً سائلا تختلف حدوده وأبعاده وعمقه في التأثير النفسي من شخصٍ لآخر، وتتشكل أبعاد هذا المعنى حسب طبيعته النفسية وظروفه المعيشية وتكوينه الثقافي. فهذا النوع من المعرفة الإنسانية مثل المياه السائلة تأخذ حجم ولون الوعاء الذي تضع فيه، والوعاء هنا هو العقل البشري، فتظل المعرفة الإنسانية مرنة بمرونة العقل وتتجمد بجمود العقل، وتنحرف بانحراف العقل وتتصلب بتصلب العقل. وعندما يتصلب العقل يتحول هذا النوع من المعرفة من طبيعته الإنسانية إلى الطبيعة

الجامدة فيفقد الغاية منه كما يفقد الماء خصائصه وأهميته عندما يتحول إلى لوحٍ من الثلج. ولكن ذلك لا يعني أن المعرفة الإنسانية السائلة فوضوية أو ليس لها معايير، بل لها معايير موضوعية ويمكن تثبيتها في كل العصور ولكل المجتمعات، أو على الأقل يمكن الاتفاق على الحد الأدنى منها بما يضمن التعايش والسلام الاجتماعي للكافة.

وبما أن هناك نوعين من الغذاء العقلي؛ معرفة سائلة ومعرفة طبيعية تمثل العمود الفقري للحضارات، فبكل تأكيد أن تصنيف هذين النوعين من المعرفة يعود إلى أن المخ البشري له مخرجين متبادلين للنتاج الفكري، أو له طريقتين في معالجة أفكاره؛ الأولى هي الطريقة العلمية المنضبطة بلغة الرموز والأرقام والمقادير، والثانية هي الطريقة الأدبية الفنية والفلسفية. ولا يمكن القول بالعكس، أي لا يمكن القول بأن النسيج الذهني للمخ تتشكل ملامحه بناءً على مواصفات المنتج أو المادة الخام، وحسب مواصفات المحتوى المعرفي ونوع المعرفة، إنما المخ وطريقة عمله هو الذي يعطي منتجين مختلفين هم الفكر العلمي والفكر الأدبي، فهذا التقسيم هو نتاج العمليات العقلية ويدلنا مباشرة على أن للمخ طريقتين متوازيتين للعمل، كما الذكر والأنثى مثلا. أو كما أنه ينقسم إلى نصفين كرويين، النصف الأيمن للمشاعر والوجدان، والنصف الأيسر للفكر المادي والحسابات، وإذا ما طغى نشاط أحدهما على الآخر فتتحدد بذلك مواصفات إجمالي النشاط الذهني، وما إذا كان وجدانيا أو ماديا علميا. وفي حال ما إذا كان النشاط الذهني للمخ علمي، وتم إدخال مادة خام أدبية فسيكون التعامل معها عاقرا وغير منتِج، وإذا كان النشاط الذهني للمخ أدبي وتم إدخال محتوى معرفي علمي فسيكون التعامل والمعالجة عاقرا وعملية غير منتِجة.

ونتساءل حول فرضية "الانحياز العقلي" أو الجنوح العقلي"، وهي أن يتركز محور نشاط العقل على المعرفة السائلة ويزهد المعرفة الطبيعية فيصبح العقل الجمعي للمجتمع مترهلا كما كائن الفقما البحري الذي يترهل جسده ولا يظهر له عمود فقري أو هيكل عظامي دعامي واضح، أو ينحاز العقل إلى جانب الفكر العلمي المادي، فيصبح عبارة عن كائن مُعَظم، أي كل فكره مادي، وهذا ما لاحظناه بجلاء عند انقسام سلالة إبراهيم عليه السلام إلى فرعين؛ الإسرائيليين والإسماعيليين العرب، وجاء الفرع الإسماعيلي العربي ذا عقل وفكر أدبي لغوي بحت، بينما الفرع الإسرائيلي جاء عقله ذا تشكيل مادي بحت، برغم أن كلاهما خرج من ذات النواة، وكلا السلالتين تمثلان نوعي الفكر البشري، أحدهما مادي والآخر أدبي، ونظرا لظروف البيئة العربية الصحراوية فجاء الفكر المادي مجرد وفج وخالٍ من الإنسانية، بينما جاء الفكر الأدبي نظري مجرد وخالٍ من الفنون البصرية، لذلك لم نجد العرب برعوا في الرسم والنحت إنما برعوا فقط في صياغة المعاني والمشاعر النظرية المجردة، وفي المقابل لم نجد الفرع

الإسرائيلي ينبغ في الفكر العلمي (فيزياء وكيمياء) أو الحكمة، إنما نبغ في النصب والاحتيال وكسب المال بطرق غاية في البراعة تناظر براعة الفرع العربي في صياغة الشعر..

فالله تعالى خلق المجتمعات البشرية أنسجة متنوعة وليست نسيجا واحدا، وبالتالي قد نجد في مجتمع من المجتمعات جنوحا إلى نوع معين من المعرفة، وفي مجتمع آخر جنوح إلى نوع آخر مختلف من المعرفة (ليس ذلك تبعا لتوفر نوع دون غيره من المعرفة ولكن تبعا لاتجاهات المخ ذاته وميله وتكوينه الجيني يختار نوع من المعرفة دون غيره، فإن كان الأصل أن العقل البشري يتغذى على المعرفة السائلة (بوجهٍ عام) بقدر ما يتغذى على المعرفة الطبيعية العقلية، لكن هل نجد هناك مجتمع يفضل المعرفة السائلة دون المعرفة العلمية الطبيعية؟ وهل نجد مجتمع يفضل المعرفة العلمية الطبيعية دون المعرفة السائلة؟ .. والإجابة؛ نعم؛ كما تخصص العقل العربي في الشعر وتخصص العقل الإسرائيلي في كسب المال.

فكما قلنا أن العقل المتزن الحيادي يحتاج النوعين من الغذاء بذات القدر، لكننا بالفعل سنجد أن هناك مجتمعات على بعضها يعشق عقلها الجمعي المعرفة العلمية الطبيعية ويزهد المعرفة السائلة ويدعها في أضيق الحدود الضرورية، وسنجد هناك مجتمعات على بعضها تنفر من المعرفة العلمية الطبيعية وتعشق المعرفة السائلة حصرا. كما يمكننا أن ندخل الحرم الجامعي بجامعة القاهرة لنرى أن هناك من الطلاب شعبتين؛ شعبة علمية وشعبة أدبية، والشعبة العلمية تنحصر كلياتها في (الطب والصيدلة والهندسة والعلوم..إلخ) أما الشعبة الأدبية فتشمل كليات (الآداب والفنون والمسرح واللغات...إلخ) والفئة الأولى من الطلاب يصعب عليها دراسة الشعبة الأدبية رغم بساطتها لا تتمكن هضم المعرفة، والفئة الثانية من الطلاب يصعب عليها دراسة الشعبة العلمية لأنها تقنية معقدة ولن تتمكن من هضمها. ففي هذا المثال نجد كلا النوعين من المعرفة متوفر لكن إمكانات عقل الطالب وميوله هي التي تحدد نوع المعرفة الذي يختاره.

هذان مثالان لمجتمعان، لكن هل نجد شعب بأكمله يهوى المعرفة السائلة الأدبية وشعب آخر يهوي المعرفة العلمية؟ فإذا قلنا أنه في نطاق المجتمع المصري فإن الشعبة العلمية والشعبة الأدبية من الطلاب تكملان بعضهما بعضا بما يحفظ توازن المجتمع فكريا وحضاريا. لكن ما الحل إذا كان الشعب بأكمله من نوعية الشعبة الأدبية فقط؟، هل يستورد طلاب علم من الخارج؟ فالعلوم الطبيعية هي العمود الفقري للحضارات ولا تقوم حضارة بدون علوم طبيعية وهندسة معمارية وميكانيكية وفلكية وعلوم اقتصادية وتقنية ..إلخ. وما الحل إذا وجدنا العقل الجمعي لشعب بأكمله خلال حقبة

من حقب تاريخه وليكن ألف عام يجنح في اتجاه دون آخر- وهذا وارد- فيميل إلى المعرفة السائلة دون العلمية، فهل تنهار الحضارة؟ هل ينحل عمودها الفقري؟ وهل يصبح الكيان الحضاري مترهلا أم ستظل الأجهزة والعضلات محتفظة بكيانها رغم سقوط العمود الفقري؟..

وللتوضيح العاجل سنذكر أن هناك أشجار ذات سيقان خشبية تنمو رأسيا بأفرع وأغصان، وهناك نباتات زاحفة تتمدد وتنمو أفقيا على الأرض دون قدرة على النمو رأسيا لأنه ينقصها نسيج الخشب الصلب، ومنها ما يتمكن من التسلق على الأشجار، وهذه النباتات الزاحفة مثل المعرفة السائلة الأدبية إن لم تجد عمود فقري يرفع قوامها تظل مترهلة منبطحة على الأرض.

ونؤكد أن المجتمعات قد تنشأ بالفطرة بتوجهات وميول علمية أو أدبية حسب تكوين النسيج الذهني لهذه المجتمعات، وقد تكون النسبة متوازنة ٥٠/٥٠ ، وقد تكون ٣٠/ ٧٠ أو ٤٠/٦٠ حسب ظروف التشكيل الفسيولوجي للنسيج الذهني للمجتمع، وبطبيعة الحال فإن المجتمعات القبلية تختلف عن الشعوب المدنية، لكن نتساءل أيضا هل تتناصف هذه التوجهات؟ بمعنى؛ لو كانت الغالبية العظمى للمجتمع ذات توجه أدبي فني أي ترجح جانب المعرفة السائلة على المعرفة الطبيعية، فهل أن مجرد تخلي العقل عن جانب الفكر العلمي أن يصب كل قدراته في الجانب الآخر بجميع فنونه (الأدب والشعر وفنون الرسم والنحت والفلسفة واللغة ...إلخ؟ وهل لو تخصص العقل الجمعي لمجتمع ما في جانب المعرفة الصلبة (الطبيعية) هل يضم كل فنونها (فيزياء ، كيمياء، أحياء، ورياضيات وهندسة ورأسمالية ...إلخ)؟

بالطبع لا، والنموذج كما ذكرناه، هو السلالة العربية الإبراهيمية التي انقسمت إلى سلالتين تخصصت الإسرائيلية في كسب المال (فكر مادي) وتغاضت عن باقي فنون الفكر العلمي. وأما الفرع العربي فقد تخصص في قرض الشعر ونسج المعاني النظرية ونسج الضفائر الكلامية (قصائد الشعر) بإحكام وضبط رهيب لا يوجد له مثيل في العالم أجمع. وتخلت بذلك عن كافة فنون هذا الفرع من المعرفة السائلة مثل فنون الرسم والنحت والموسيقى والفلسفة ..إلخ. أي اختصت في نصف فرع المعرفة السائلة، وصبت كل قدراتها الذهنية في هذا الشق دون غيرها، وهذا ما جعل هذه السلالة تقدم إبداعا شعريا لا مثيل له في العالم، لأنها وظفت كل قدرات العقل في ربع مساحة المعرفة.. وهذا ما يؤكده العلامة ابن خلدون بقوله أن: " **ملكة الفصاحة الفطرية تتم في الطفل العربي منذ نشأته حيث لم يعرف إلا العربية الفصحى . وإذا تنازعت ملكتان تعذر أن تتم الملكتان معا مثل البربري الذي يتعلم العربية، ولا يمكن للعربية أن تتسيد على لسانه فيظل فيها قاصرا،**

فالألسن واللغات مثل الصنائع، والصنائع وملكاتها لا تزدحم، ومن سبقت له إجادة في صناعة فقل أن يجيد في صناعة أخرى".

وهو هنا يتحدث عن عدم قدرة العقل على إجادة صنعة النثر مع الشعر، **فيقول لا تتفق الإجادة في الشعر والنثر معا إلا للأقل".** أي نادرا ما تجتمع لدى شخص واحدة إجادة في الشعر والنثر معا. ويقول أن غير العرب لا يمكنهم نظم الشعر مثل العرب الذين نشأوا عرب بالفطرة. وفي المقابل نجد الفرع الإسرائيلي وظف كل قدرات العقل في ربع مساحة المعرفة وهو المصالح المادية والحسابات الرأسمالية.

كل هذا فقط لنثبت أن المخ البشري يفكر بطريقة تعتمد أساسا على الصفات الوراثية، أي السمات العرقية والقومية، ولكل كائن اجتماعي (شعب أو مجتمع) صفات وملامح ذهنية خاصة به تمثل نفسه دون غيره، فللمصريين الجبتيين طريقة مميزة في الفكر والكلام والعمل والبناء والإنتاج، وللشعب البابلي طريقة مختلفة في الفكر والكلام والعمل والبناء والإنتاج، وللمجتمع العربي طريقة مختلفة في الفكر والكلام والعمل والبناء والإنتاج، ولذلك لا يجوز تعميم اصطلاح " العقل العربي" على كافة الشعوب الناطقة بالعربية، وإنما ينبغي تخصيصها بالقومية والعرقية العربية فقط. وإن كانت الشعوب الناطقة بالعربية في هذا العصر تفكر بذات طريقة العرب فهذا لا يسوغ توسيع اصطلاح " العقل العربي" ليشملهم، لأنهم في الماضي كانوا يفكرون بطريقة مختلفة عن العرب، ومختلفة عن بعضهم، وفي الحاضر هم خاشعون لهيمنة العقل العربي وتوقير الصحابة وتقديس الشعر العربي وتقديس لغة العرب وتاريخهم، فهم يفكرون كما كان يفكر، وفي المستقبل سيفكرون بطرق مختلفة عن العرب، وهذا ما يعني أنه في العصر الحالي فقط متأثرين بالعقل العربي ومقتدين به على أثر انتشار سطوة وسيادة العرب بمناسبة ظهور الإسلام في بلادهم واجتياحهم للشعوب المجاورة لهم.

لكن هذا لا يعني استمرار تماثل فكر هذه الشعوب للعقل العربي في المستقبل، خاصة أنهم من بيئات وسلالات عرقية مختلفة عنه. وكل ما في الأمر أن قدراتهم الذهنية حدث لها خمول مؤقت (١٥٠٠ سنة تقريبا) فخضعت له وامتثلت واعتبرت منتجاته المعرفية هي خير نموذج للفكر، وهذا ما نسميه الاحتلال المعرفي أو الهيمنة المعرفية، أو سلطة الثقافة الغالبة. ولما كان ذلك الوضع مستحيل استمراره، فمن ثم لا يجوز تعميم اصطلاح العقل العربي على هذا الشعوب، وإلا كان ذلك معناه أننا نفكر بطريقة سطحية تصور المشهد الحالي للعقل الجمعي فقط دون الغوص في التاريخ والسباحة في المستقبل. فهذا

النوع من التحليل هو في الأصل أدبي عرضي عصري سطحي مشهدي ولا يأخذ بمعيار المسقط الرأسي الذي يقف على أعمدة رأسية ضاربة في عمق الماضي صاعدة إلى آفاق المستقبل. فهذه الشعوب مستحيل أن تستمر في المستقبل متحدثة بلغة العرب لأن الله تعالى خلقها بفطرتها متحدثة بلغاتها القومية، ولا محالة سيأتي يوم وتحرر هذه الشعوب من هيمنة الثقافة العربية وتدرك ذاتها وتعبر عن نفسها بلغاتها الخاصة، بل وسيأتي لها الدور في ممارسة السيادة والهيمنة الثقافية على العرب أنفسهم، ما يدفع العرب إلى التحدث بلغة الأقوى المهيمن.

****



الإضاءة الأولى

العقل العلمي والعقل الأدبي

العقل العربي والعقل الجبتي نموذجا

كان الجبتيون القدماء في أوج ازدهارهم يتغنون بالعلم.. كانت أشعارهم علما قطعت البشرية شوطا كبيرا في اكتشافه.. وأذكر عالم النبات (بارتليت Bartlett) حينما جاء في زيارة لمصر وقرأ على أحد جدران هرم أوناس إحدى رسائل الجبتيين المقدسة، وكان يقرأ اللغة الهيروغليفية، فأصبح مليارديرا بعد قراءة هذه الرسالة، وتقول كلماتها ؛

كما أن النهر يفيض ويغيض .. لكنه يفيض من جديد .

والشمس تشرق وتغرب .. لكنها تشرق من جديد.

كذلك الإنسان يولد ويموت.. لكنه يبعث من جديد

فعليه أن يبعث نظيفا كزهرة اللوتس..



وزهرة اللوتس ذكرها هيرودوت أثناء زيارته لإيجبت في القرن الخامس قبل الميلاد، حيث وصفها بأنها نوع من زنبق الماء يدعى اللوتس، يزرع من أجل طعم جذوره الحلوة، وأزهاره المجففة التي كانت تطحن مع الدقيق لصناعة الخبز، وكان أجدادنا يعدون منها أكواب الشاي الساخن على نوعين، منها الأحمر والأخضر، ولها فوائد صحية. وقد حظيت هذه الزهرة بالاحترام في كل أنحاء العالم، ولم تحظ أي زهرة بالقيمة التي حظيت بها هذه الزهرة الرائعة كونها مزروعة من قديم الزمان، وكانت زهرة اللوتس شعارا للجيش المصري في العصور الجبتية القديمة.

استغرب بارتيليت من هذه العبارات التي دونها القدماء على جدران الهرم منذ قديم الأزل، وكان يعلم يقينا أن هذه الرسالة مقدسة وصادقة، ليست كقصائد الشعر والمعلقات التي علقها العرب على أستار الكعبة، لأن الجبتيين كانوا صادقين حتى في أشعارهم.. وكان بارتليت عالما متخصصا في علم النبات، قطف واحدة من زهور اللوتس النامية على ضفة نر النيل، وذهب بها إلى معمله ليكتشف سر هذه الزهرة العجيبة والرسائل المدونة بشأنها على جدران هرم أوناس، أو حتى يعرف لماذا قدسها الجبتيون، ولماذا تحديدا وصفوها بالنظافة وجعلوها قدوة ومثال للإنسان الطاهر من الذنوب والمعاصي..

قام بارتليت بتكبير زهرة اللوتس ٦٠٠٠ مرة تحت الميكروسكوب فوجد أن سطحها يختلف عن الزهور الأخرى، كانت بتلات الزهور الأخرى تبدوا تحت المجهر بأشكال غريبة وخشنة، أما بتلة اللوتس فظهرت تحت المجهر عبارة عن كرات صغيرة ملتصقة تؤدي لانزلاق الأشياء من على سطحها، فإذا وضع الماء عليها ينزلق، وإذا وضع أصماغ مائية تنزلق، وإذا وضع الطمي ينزلق، فتظل الزهرة نظيفة لامعة طول الوقت بسبب هذا التشكيل الفريد لسطح بتلاتها (تراص الخلايا)، فقام بتصنيع ملعقة بشكل مماثل لسطح زهرة اللوتس، وغرسها في العسل فخرجت نظيفة، فاستغلت شركات الطلاء والبويات العالمية هذا الكشف العلمي في تركيبات مواد الطلاء والدهانات، بحيث أن هذا التشكيل لسطح الدهان لا تعلق به الأتربة فيظل نظيفا لامعا طول الوقت، واستغلته شركات الأدوية والمواد الطبية في صناعة صمامات القلب كي لا يلتصق بها الدم ويتجلط عند مروره في الأوردة، واستغلته شركات الطيران في طلاء بدن الطائرات من الخراج حتى يصبح ملمسه انسيابيا ناعما فيقلل ذلك من احتكاك الهواء ببدن الطائرة مما يزيد سرعتها.

ونفهم من هذه الملاحظة الدقيقة أن طبيعة الفكر في المجتمع الجبتي (من الجذر) كانت علمية دقيقة تقوم على الرصد والملاحظة والتحليل العلمي الفيزيائي بدقة متناهية. برغم أن مشهد الزهرة كان جميلا بديعا، لكن لم يشغلهم هذا الجمال الشكلي بقدر ما شغلهم التفكير في سبب استمرارية النظافة واللمعان (أي تفكير في السببية) وقاموا بصياغة أبيات لو قيل أنها شعرية، لكنها في الحقيقة تعادل قوانين الحركة الثلاث التي وضعها نيوتن بالتمام والكمال، فلا يوجد في كلمات هذه الرسالة أي تعبير وهمي أو مجازي، إنما كلها تعبيرات حقيقية مائة بالمائة.. في حين لو شاهد عربي هذه الزهرة سيقوم في الحال بقرض قصيدة شعر بتعبيرات بلاغية مجازية يصور فيها أن زهرة اللوتس تستحي من جمالها كما تستحي الفتاة، أو أن زهرة اللوتس تتراقص في غنجٍ كما عصافير الكناريا، ولا يمكن أن ينشغل ذهنية بالملاحظة والرصد الدقيق والبحث في موضوع

السببية، لأنه كما أوضحنا أن وظيفة التفكير العلمي في العقل العربي معطلة تماما. بينما لو شاهد إسرائيلي زهرة اللوتس ذاتها فلن يفكر في أي شيء سوى ثمنها وكم يربح منها لو سرقها، ولكم سيربح لو سرق بذرتها، وكم سيربح لو سرق الحقل كله.

فالعرب كانت موهبتهم العقلية نظرية ومنحصرة في التعبير اللغوي، يقول ابن خلدون: ينقسم كلام العرب إلى فنين :ـ الشعر المنظوم، وهو الكلام الموزون المقفي، وأوزانه كلها على رَوِيّ واحد أي قافية واحدة، ثم النثر وهو الكلام غير الموزون . وكل منهما يشمل فنونا ومذاهب . ففي الشعر نجد المدح والهجاء والرثاء، وفي النثر نرى المسجع وهو التزام القافية في كل كلمتين منه، والمرسل وهو الكلام المنطلق بلا تقييد".

ويقول أيضا:" أن مؤلف الكلام كالبناء أو النساج، والصورة الذهنية المنطبقة كالقالب الذي يبني فيه أو المنوال الذي ينسج عليه ،فإن خرج عن القالب في بنائه أو عن المنوال في نسجه كان فاسدا . ولا تكفي في ذلك معرفة قوانين البلاغة لأنها قواعد علمية قياسية مثل قواعد اللغة العربية النحوية، وإنما المطلوب ملكة الفصاحة التي تتكون من معايشة الفصاحة العربية الشعرية فينتج العقل والوجدان أمثلة لها من الشعر والنثر ".

وعن حد الشعر أو رسمه يقول ابن خلدون:" أن الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله، والجاري على أساليب العربية المخصوصة به".

ويضع ابن خلدون شروطا لكيفية عمل الشعر وإحكام صناعته، وهي:" الحفظ من جنس شعر العرب حتى تنشأ في النفس ملكة الشعر العربي وينسج على منوالها، ويختار منه المحفوظ النقي الحر، وأقل ما يكفي فيه شعر شاعر من الفحول الإسلاميين مثل جرير وابن أبي ربيعة وكثير والبحتري وأبي نواس، وأكثره في الأغاني، والمختار من شعراء الجاهلية، ومن كان خاليا من المحفوظ فشعره قاصر رديء وأولى به ترك الشعر. ثم بعد امتلاء الحفظ يأخذ في نظم الشعر ويستكثر من النظم حتى تستحكم ملكته

الشعرية، ثم ينسى المحفوظ على اللسان بعد أن يكون قد ترسخ في أعماق الشاعر. ثم يتخير الخلوة والمكان الرائع الذي يستجلب قول الشعر مثل الحدائق ومجالس الطرب حتى تستنير القريحة الشعرية وتنشط، بالإضافة إلى العوامل النفسية مثل السرور والعشق والانتشاء، ويبني القصيدة على قافية واحدة، وذلك في كل بيت، ويكون كل بيت شعري مستقلا بنفسه مع مراعاة المناسبة بين الأبيات. ثم يراجع شعره بعد الانتهاء منه ويقوم بتنقيحه ونقده، ويتركه إذا لم يكن جيدا بما فيه الكفاية، ولا يستعمل فيه إلا أفصح التراكيب ".

ويقول ابن خلدون:" كان الشعر ديوان العرب، وكان الشاعر فخر قبيلته، وافتخرت القبائل بشعرها، ومن هنا كانت المعلقات السبع على الكعبة. وهي قصائد امرؤ القيس والنابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمي وعنترة وطرفة بن العبد وعلقمة بن عبده والأعشى"... وفي النهاية كانت المعلقات السبع على أستار الكعبة والتي هي من نسيج القباطي المصنوعة في إيجبت منقوش عليها قصائد الشهر بماء الذهب. يعني في كاف الأحوال كانت حياة العرب نظرية وإبداعهم نظريا، حتى اللوحات التي كتبوا عليها أشعارهم لم يصنعوها وإنما استوردوها من إيجبت، وهنا يتجلى الفارق بين العقلية الأدبية والعقلية العلمية العملية التطبيقية.

فالعقلية العربية لها خصوصية أدبية شعرية بحتة. وكما وصفها ابن خلدون تستقل بسمات وخصائص نفسية مختلفة عن سائر شعوب الأرض، ولها تكوين عقلي مختلف جذريا عن شعوب الحضارات، فالعقلية العربية ليست منظمة في الأساس، ولذلك لم يحتاجوا إلى قانون يديرون به دولتهم، فكافة الشعوب التي بنت حضارات قامت على جهدها وبسواعدها، وبتنظيم دقيق لكافة جوانب الحياة، سواء الاقتصادية أو السياسية أو القانونية والعلمية، لكن العقلية العربية من حيث التكوين النفسي مختلفة تماما..

حتى أنهم استقلوا بظاهرة الشعر المقفى، فالأدب معروف في كافة الشعوب، سواء كانت الأساطير والروايات أو القصص الخيالية والنصوص النثرية الأدبية والمسرح، أو حتى الشعر الحر غير المقفى، لكن العرب تفردوا على شعوب العالم بظاهرة الشعر المقفى" البيت والوزن والقافية " واستطاعوا تطويع اللغة والتلاعب بالألفاظ والمعاني والمرادفات بشكلٍ رهيب.. واستقلوا بقدرة

عجيبة في التعبير المجازي ولوي عنق الحقائق والمعاني لتتلاءم مع البناء اللغوي الشعري، وقرض الشعر وتلحينه على أوزان موسيقية وبحور شعرية متعددة ومتنوعة، هذه الظاهرة الشعرية لم نجدها في أي شعب في العالم، ولم يستطع أي شعب منافسة العرب في أشعارهم، لكن لا ننس أن أعذب الشعر عند العرب أكذبه.. بينما أعذب الشعر عن الجبتيين أصدقه، فهم لم يكذبوا حينما قالوا بأن الإنسان يولد ويموت، ثم يبعث من جديد.. فعليه أن يُبعث نظيفا كزهرة اللوتس..

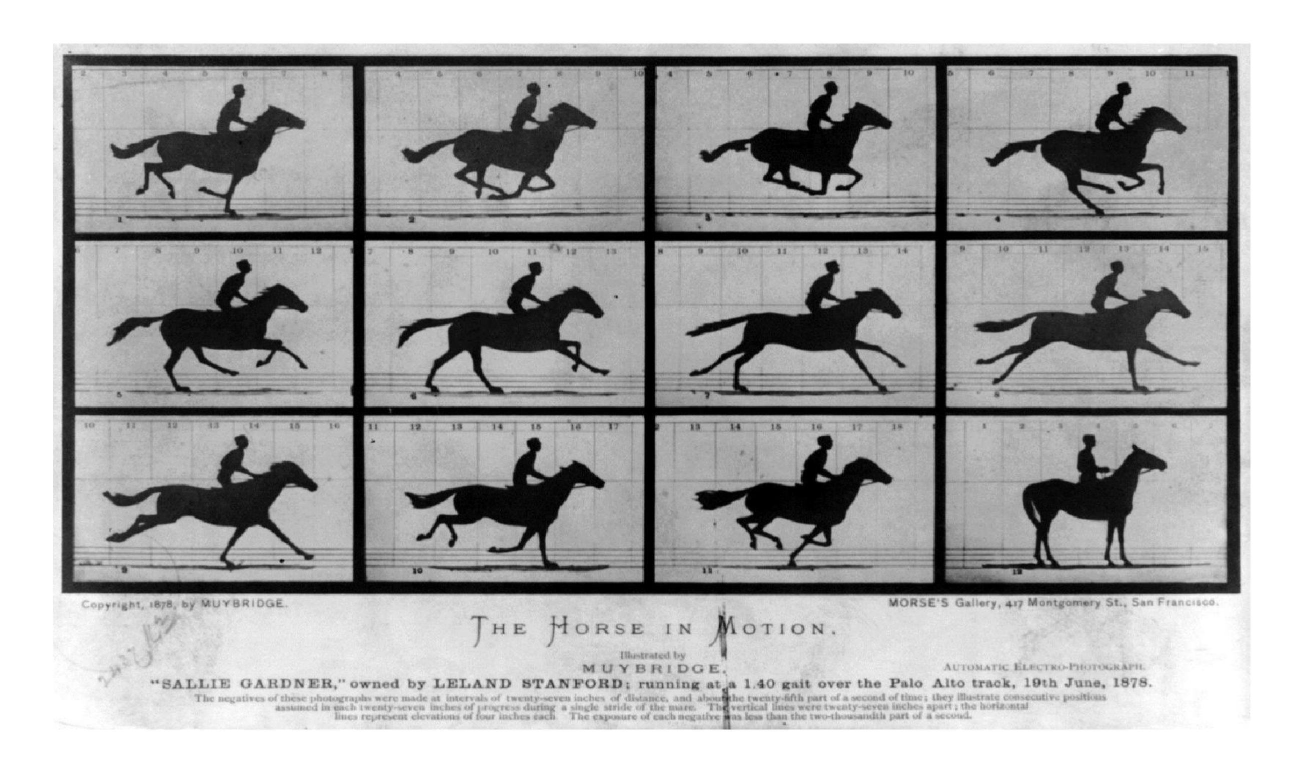
هكذا تفوقت العقلية العربية. ولذلك كانت معجزتهم كلها لغوية أدبية نظرية بحتة، وهو ما يعتبر إبداعا في الفوضى بالميزان العلمي؛ إبداعا سائلا بمعيار الفكر الموضوعي؛ لأن من يستطيع أن يقرض بيتا شعريا بهذه الطريقة العجيبة لا يمكنه أبدا أن يتأمل في قوانين الحركة التي وضعها نيوتن، ذلك لأن الشعر يعتمد كليا على المسح المعرفي(تصوير المعني والمشهد فوتوغرافيا)، بينما العلوم تعتمد على التنقيب المعرفي والتأمل واعتصار الذهن بحثا عن الفكرة والسببية بغض النظر تماما عن الشكل والمشهد.

وسنطرح هنا مثالين متماثلين يمكن للقارئ رصدهما معا في لحظة واحدة ليستطيع التفرقة بين العقل الأدبي والعقل العلمي، وهذان المثالان نراهما في رصد حركة الحصان أثنا الجري.. فحينما لاحظ امرؤ القيس جري الحصان في الصحراء شغله وملأ قلبه شغفا فشبَه حركة الحصان أثناء الجري بأنه يندفع كما الصخرة الهادرة من فوق الجبل على أثر السيول.. وعبَر عن تلك الظاهرة بقوله :" مكرٍ مفرٍ مقبلٍ مدبرٍ معا .. كجلمود صخرٍ حطه السيل من علٍ".

فالعرب قد تفوقوا على شعوب العالم في كتابة الشعر بهذه الطريقة العجيبة، ونسجوا خيالهم في ضفائر كلامية عجيبة، عمدها التصوير المجازي للمشهد والمعنى، وهذا يعني أن القدرة العقلية العربية ترتكز على هذا النمط من الفكر دون غيره، وهو المسح الضوئي السطحي لكل ظاهرة، وهو نمط المعرفة غير الإنتاجية أو المعرفة غير المنتجة عمليا ولا أثر لها على الإنسان لأنها مثل الشهوات، فهذا يعني حتما أن هذا الشعب مستحيل أن يبني حضارة عملية علمية. بل إنهم تلاعبوا بكلمات القرآن ومعانيه ومضامينه بقدر قدرتهم على التلاعب بألفاظ الشعر ومعانيه وألحانه، لأن هذه لعبتهم.

بينما كان ليلاند ستانفورد (في ذات المشهد) يتحدى بعض أصدقائه حول ما إذا كان الحصان أثناء حركته المسرعة يرفع أقدامه الأربعة معا عن الأرض أم لا، لكن ليلاند لم ينتظر كثيرا،

وأوعز إلى إدوارد ميوبريدج باستخدام ١٢ كاميرا لالتقاط مجموعة من الصور لحصان يجري بأحد حقوله، ودمجها معا لعمل أول فيلم صامتٍ قصير يصور حركة شيء ما، ويؤكد بالفعل أن الحصان يرفع حوافره الأربعة عن الأرض أثناء الجري..



هنا ربح ليلاند الرهان، وبدأ عصر جديد للعلم حينما طور ميوبريدج سرعة كاميراته لتصل إلى واحد من ألفي جزء من الثانية، كان ذلك رائعا، لكنه لم يكن كافيا كالعادة، شكلت هذه الفكرة نواة لنظرية التصوير السريع في عصرنا الحالي والمعروفة بـ "Snapshot" والتي استخدمها الدكتور أحمد زويل فيما بعد لرصد حركة الذرات داخل الجزيئات الدقيقة.. إذن العقل الأدبي عندما يرصد ظاهرة يبحث عن أقرب مثيل لها ويتوقف ليقيم أوجه التشابه المجازي بين الظاهرتين أو المشهدين أو المعنيين ويقف ليتذوق الطعم.. بينما العقل العلمي عندا يرصد الظاهرة يضع علامة استفهام ويبحث عن السببية.

الحياة العقلية للعرب

الأستاذ أحمد أمين حصر مظاهر الحياة العقلية في الجاهلية في الأمور التالية: اللغة والشعر والأمثال والقصص. وتكلم على كل مظهر من هذه المظاهر وجاء بأمثلة استدل بها ما ذهب إليه.

وتحدث عن مظهر آخر من مظاهر العربية، لاحظه بعض المستشرقين و وافقهم هو عليه، هو: إن طبيعة العقل العربي لا تنظر إلى الأشياء نظرة عامة شاملة، وليس في استطاعتها ذلك. فالعربي لم

ينظر إلى العلم نظرة عامة شاملة كما فعل اليوناني، كان يطوف فيما حوله؛ فإذا رأى منظرا خاصا أعجبه تحرك له، وجاس بالبيت أو الأبيات من الشعر أو الحكمة أو المثل. "فأما نظرة شاملة وتحليل دقيق لأسسه وعوارضه فذلك ما لا يتفق والعقل العربي.

وفوق هذا هو إذا نظر إلى الشيء الواحد لا يستغرقه بفكره، بل يقف فيه على مواطن خاصة تستثير عجبه، فهو إذا وقف أمام شجرة، لا ينظر إليها ككل، إنما يستوقف نظره شيء خاص فيها، كاستواء ساقها أو جمال أغصانها، و إذا كان أمام بستان، لا يحيطه بنظره، ولا يلتقطه ذهنه كما تلتقطه "الفوتوغرافيا"، إنما يكون كالنحلة، يطير من زهرة إلى زهرة، فيرتشف من كل رشفة". إلى أن قال: "هذه الخاصة في العقل العربي هي السر الذي يكشف ما ترى في أدب العرب من نقص وما ترى فيه من جمال"[1]. وهذا ما يعني أن العقل العربي لا تسع إمكاناته أن يفكر في مسألة السببية وكيفية الحدث، ولا يمكن أن يطوف بستانه لحظة ويقف ليتأمل لماذا سقطت التفاحة أرضا ولم تصعد لأعلى، فهو فقط يصور المشهد ويتغزل في جوانبه.

مثال للحالة الشعرية عند العرب:

لما اقترب "بشامة بن عمرة" من الموت وهو شاعر جاهلي مجيد وزّع ماله على أبنائه، فجاءه ابن أخته فحل الشعراء (زهير بن أبي سلمى) وقال: لو قسمْت لي من مالك فقال: والله يا ابن أختي، لقد قسمت لك أفضل ذلك وأجزله، فقال: وما هو؟ قال: شعري ورثتنيه دون أبنائي !

يقول الأستاذ زكريا الهلالي؛ ورحلة الشعر العربي طويلة موغلة.. وعلى سبيل المثال؛ الهجاء، والهجاء المقذع عندهم يزكم الأنوف، ويعشو العيون، ولكنّ لهم هجاء طريفًا ومنه التهديد والوعيد بقول الشعر الذي تتناقله العرب، فيتأذى منه المهجو أكثر من التهديد بالقتل، وكان الهجاء سلاحًا ماضيًا في قلوب الأعداء، فهم يخافون القوافي والأوزان أكثر من الرماح والسنان.. يقول مزرد بن ضرار:

فمن أرمه منها ببيت يلح به كشامة وجه، ليس للشام غاسلُ

كذاك جزائي في الهدى.. وإن أقل فلا البحر منزوح ولا الصوت صاحل

---

(١) ـ مقال للكاتب زكريا الهلالي بعنوان: " تاريخانية العقل العربي (الجاهلية) م ٢ منشور على موقع الحوار المتمدن بتاريخ ٢٠١٢/٩/٩

على الرابط: http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=323420&nm=1

فهو يشبه قصيدته بالشام في الوجه لا يتخلص منه، وهذا طبعه في الهدايا، وإن الشعر عنده لا ينفد كما أن البحر لا ينفد، والصوت لا يبح ولا ينقطع. والأدهى من ذلك أن كان غلام لخالد الذبياني يرعى الإبل فغصبها (آل ثوب) منه فرجع يبكي إلى سيده فذهب خالد إلى مزرد بن ضرار الذبياني، فقال: إني أضمن لك إبلك أن ترد عليك بأعيانها وأنشأ هجاء يقول:

فإن لم تردوها فإن سماعها لكم أبدا من باقيات القلائد

فيا آل ثوب إنما ظلم خالد كنار اللظى لا خير في ظلم خالد

فما لبث (آل ثوب) إلا أن ردوا قائلين: لئن هجانا مزرد لقد هجتنا العرب أبد الدهر.

هكذا كانت العقلية العربية تقضي جميع أغراضها في الحياة بالشعر، في الحب والغزل قالوا شعرا، والمدح قالوا شعرا وفي القدح قالوا شعرا، وفي التهديد والوعيد قالوا شعرا، وفي النفاق قالوا أجمل الشعر..

في حين أن العقلية العلمية لها معايير ومقاييس مختلفة تماما، فما زال العالم يتساءل كيف توصل قدماء الجبت إلى تقنيات التحنيط ! وكيف بنى القدماء المعابد والأهرامات بهذه الحسابات الهندسية المعقدة ! وبردية أحمس أو بردية ريند الرياضية[1] هي أقدم مخطوطة مكتوبة في علم الجبر وحساب المثلثات، يرجع تاريخها إلى ٤٣٠٠سنة تقريبا. والمخطوطة توضح أن الجبتيين استعملوا معادلات من الدرجة الأولى وقاموا بحلها بطرق مختلفة .. كما عرفوا معادلات من الدرجة الثانية وقاموا أيضا بحلها، وأنهم أيضا عرفوا المتواليات العددية والمتواليات الهندسية وعرفوا معادلات من الدرجة الثانية مثل المعادلتين:

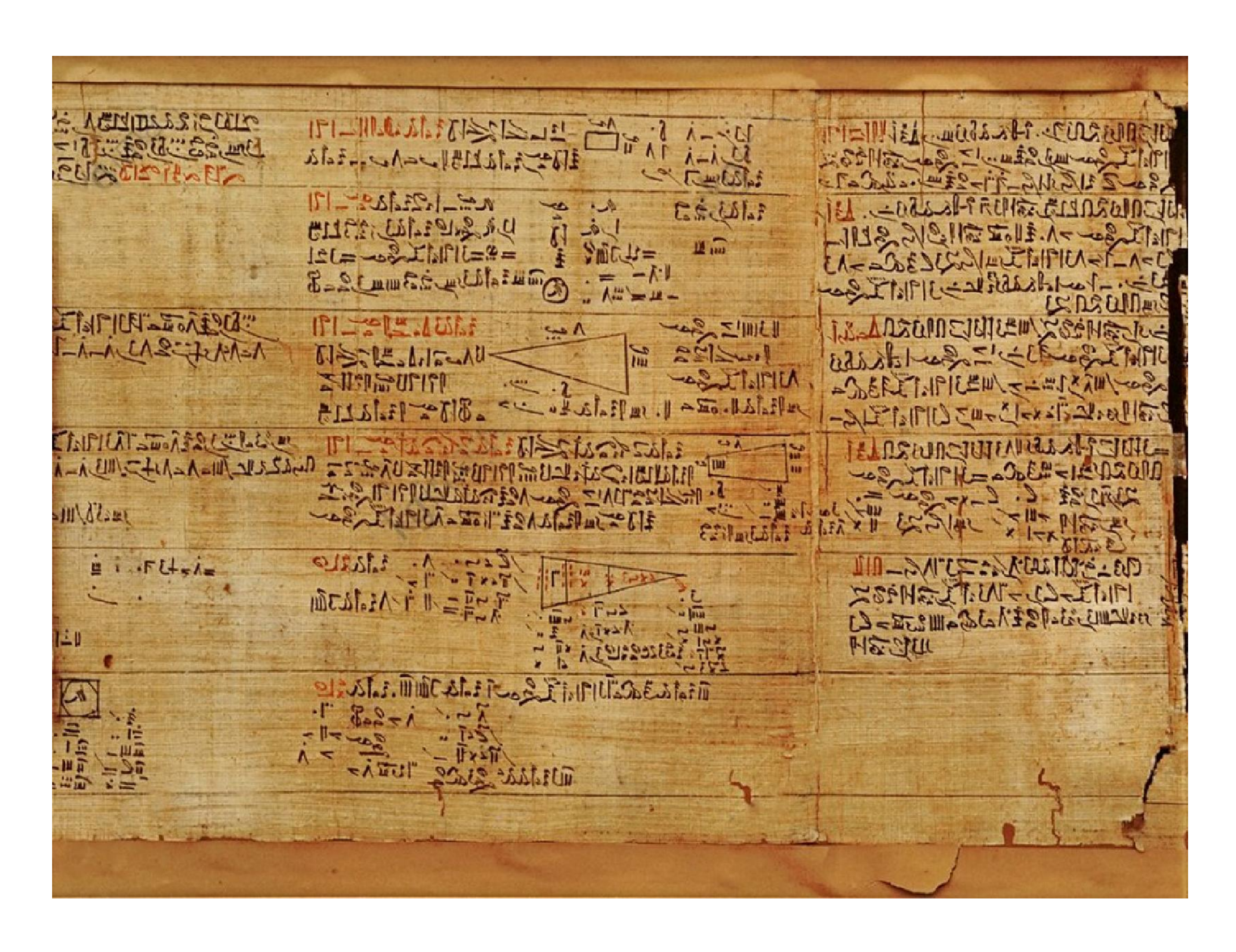
(١) س+٢ص١٠٠ = ٢

(٢) ٣/٤ص= س ، حيث ٨س= ... ، و ٦ص= ...

---

(١) - بردية أحمس أو بردية رايند الرياضية Rhind Mathematical Papyrus هي أقدم مخطوطة مكتوبة في علم الجبر وحساب المثلثات يرجع تاريخها ما بين ٢٣٠٠ - ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد .. يعنى من حوالي ٤٣٠٠ سنة تقريبا.. والمخطوطة موجودة حاليا في المتحف البريطاني في لندن
روابط متعلقة بالبردية:
- http://ar.wikipedia.org/wiki/ - http://ar.wikipedia.org/wiki/ http://ar.wikipedia.org/wiki/

و هذه المعادلة هى أصل نظرية فيثاغورس أ2=ب2+ج2 ، وكان الجبتيون يطلقون علي العدد المجهول (كومه)، وهو يمثل في هذه المعادلة قيم س و ص. وفيثاغورث نفسه وضع نظرياته الرياضية بعدما سافر لإيجبت وتعلم على يد الكهنة في المعابد، وهذا ثابت في كتب المؤرخين والعلماء اليونانيين أمثال فرفريوس الصورى وهيرودوت وطاليس. فالجبتيون كان لديهم علم الجبر وحساب المثلثات والهندسة قبل أن يولد فيثاغورث بحوالي ٢٠٠٠سنة، وقبل أن يولد الخوارزمى بحوالي ٣٠٠٠سنة، وهذا ما مكنهم من بناء الهرم الأكبر في الألف الثالث قبل الميلاد... والبردية موجودة حاليا بقسم البرديات الجبتية بالمتحف البريطاني في لندن .



وفى هذه البردية عدة عمليات حسابية أخرى تدل أن أجدادنا القدماء كانوا أشقياء جدا في الحساب والهندسة، ففيها العملية رقم ٣٩ مثلا على هيئة سؤال ويتبعه الحل؛ .. مطلوب قسمة مائة رغيف على عشرة رجال بحيث يكون نصيب ستة رجال خمسين رغيف ويكون نصيب الأربعة الباقين الخمسين رغيف الباقية؟ والحل المكتوب في البردية. ومثال آخر مسألة موجودة تحت رقم ٣ بتقول ..: مطلوب معرفة مساحة مثلث ارتفاعه ١٠ " خت " وقاعدته ٤ " خت" (الخت هو وحدة قياس جزء من ذراع) وبالبردية مسائل معقدة .. وتحت العملية رقم ٥٦ عدة أسئلة؛

١.ما هو الكسر الذي يضاف إلى ⅔ + ١٥/١ كي يعطينا واحد صحيح ..

٢.اقسم ستة أرغفة على عشرة رجال .. وقسم تسعة أرغفة على عشرة رجال ..

٣.ما هو العدد الذي إذا أضيف إليه ربعه يكون الناتج ١٥ ؟ {١٢}

٤.ما هو العدد الذي إذا أضيف إليه نصفه ثم ربعة يكون المجموع ١٠ {٥و٧/٥ }

٥. أوجد ارتفاع هرم طول ضلعه ١٤٠ ذراع ونسبة ميله ٥ وربع قبضة .. { ٩٣,٣ }

٦. أوجد مساحة قطعة أرض دائرية قطرها (٩ خت)

٧.هرم طول ضلعه ٣٦ ذراع.. وارتفاعه ٢٥٠ ذراع .. فما هى نسبة ميله ؟؟

وبردية أحمس (ريند) الرياضية هي أهم وثيقة رياضية في التاريخ البشري و أساس علم الرياضيات:

- أخذها فيثاغورس بعد ٢٦٠٠ سنة ليضع بها نظرية حساب المثلثات.
- أخذها أرشميدس بعد ٢٧٠٠ سنة ليفهم معنى الثابت (π)
- أخذها الخوارزمي بعد ٣٨٠٠ سنة ليؤسس علم الجبر و يحل بها معادلات تربيعية قد حلها الجبتيون قبله من دهور.
- وأخذها نيوتن بعد أربعة آلاف عام ليضع قوانين الحركة والجاذبية في مطلع الحضارة المعاصرة.. وهذا الفكر المتطور جدا ما كان ممكنا لهذه العشيرة العربية أن تستوعبه نظريا حتى، لأنهم عبارة عن مطاريد ذوي عقلية طائشة وهمجية، لا يعرفون معنى الاستقرار والتحضر. فقط يعرفون الضفائر اللغوية ينثرونها نثرا وشعرا في الحب والغزل والهجاء والسب واللعن وكل ألوان الخطاب العربي.. فحياتهم كلها أدبية.

❖ وهذا لا يعني أن حياة أجدادنا الأقباط كانت خالية من الأدب والحكمة والغزل، بل إن فيها ما يفيض بالمشاعر الصادقة العميقة، لكن دون تكعيبات وضفائر لغوية ! فعند مراجعة تاريخ الملوك الذي سجلته الآثار والكتب سنكتشف الكثير من قصص الغرام. بل إن الحضارة المصرية مليئة بالكثير من قصص الحب والأشعار التي دونت على ورق البردي وعلى جدران المقابر والمعابد، لكننا لم نقرأ هذا واكتفينا بشعر العرب القادم من الصحراء، فقد كان الحب عند قدماء المصريين من أسمى العلاقات التي عبر عنها المصري في كتاباته عن عاطفته الجياشة، فكان

بارعا في انتقاء الكلمات للتعبير عن المشاعر العاطفية، واستخدم كلمه "mr.k" ومعناها بالهيروغليفية "بحبك".

فقد أشارت دارسة حديثة للمؤرخ والباحث المصري فرنسيس أمين إلى أن أوراق البردي وقطع الأوستراكا تسجل الكثير من قصص ورسائل العشاق في مصر القديمة، وأن هناك برديات مشهورة مثل "بردية هاريس"، التي عثر عليها في معبد "الرامسيوم" غربي مدينة الأقصر، و"بردية شيفتر بيتى"، وبرديات متحف تورينو في إيطاليا، تسجل الكثير من قصائد الحب ونصوص العشق والعشاق. وطبقا للدراسة، هناك نصوص مشهورة من أغاني "العازف على الهارب"، وجميعها نصوص في الحب والعشق والهوى. وعبرت بردية شستر بيتى عن مشاعر مثلما جاء في قصيدة "العاشقة العذراء" والتي تقول:

"لقد أثار حبيبي قلبي بصوته.. وتركني فريسة لقلقي وتلهفي
إنه يسكن قريبًا من بيت والدتي.. ومع ذلك فلا أعرف كيف أذهب نحوه
ربما تستطيع أمي أن تتصرف حيال ذلك.. ويجب أن أتحدث معها وأبوح لها
إنه لا يعلم برغبتي في أن آخذه بين أحضاني.. ولا يعرف بما دفعني للإفصاح بسري لأمي
إن قلبي يسرع في دقاته عندما أفكر في حبي.. إنه ينتفض في مكانه
لقد أصبحت لا أعرف كيف أرتدي ملابسي.. ولا أضع المساحيق حول عيني، ولا كيف أتعطر بالروائح الذكية"

- ومن قصيدة إيزيس العاشقة الأولى: النداء الأبدي لأوزوريس بردية برلين رقم ٣٠٠٨ تقول:

تعالى نحو بيتك.. تعالى إلى بيتك..
أنت يا من لا أعداء له.. أيها الشاب الجميل الطلعة.. تعالى بيتك لكي تراني
لا تفترق عنى أبدا.. أنا لا أراك ولكن قلبي يتطلع لرؤياك.. وعيوني تبحث عنك..
تعالى يا من توقف قلبه عن الخفقان.. إنني أناديك ويرج صراخي أجواء السماء".

- وكتبوا في مجال الحكمة أروع آياتها؛ الحكيم أمنموبي- الدولة حديثة- الأسرة ٢١:٢٢ يقول؛

لا تشتبكن في جدال مع أحمق
ولا تخزنه بالألفاظ
تأن أمام متطفل، وأعرض عمن يهاجم
ونم ليلة قبل التكلم

لأن العاصفة تهب مثل النار في الهشيم

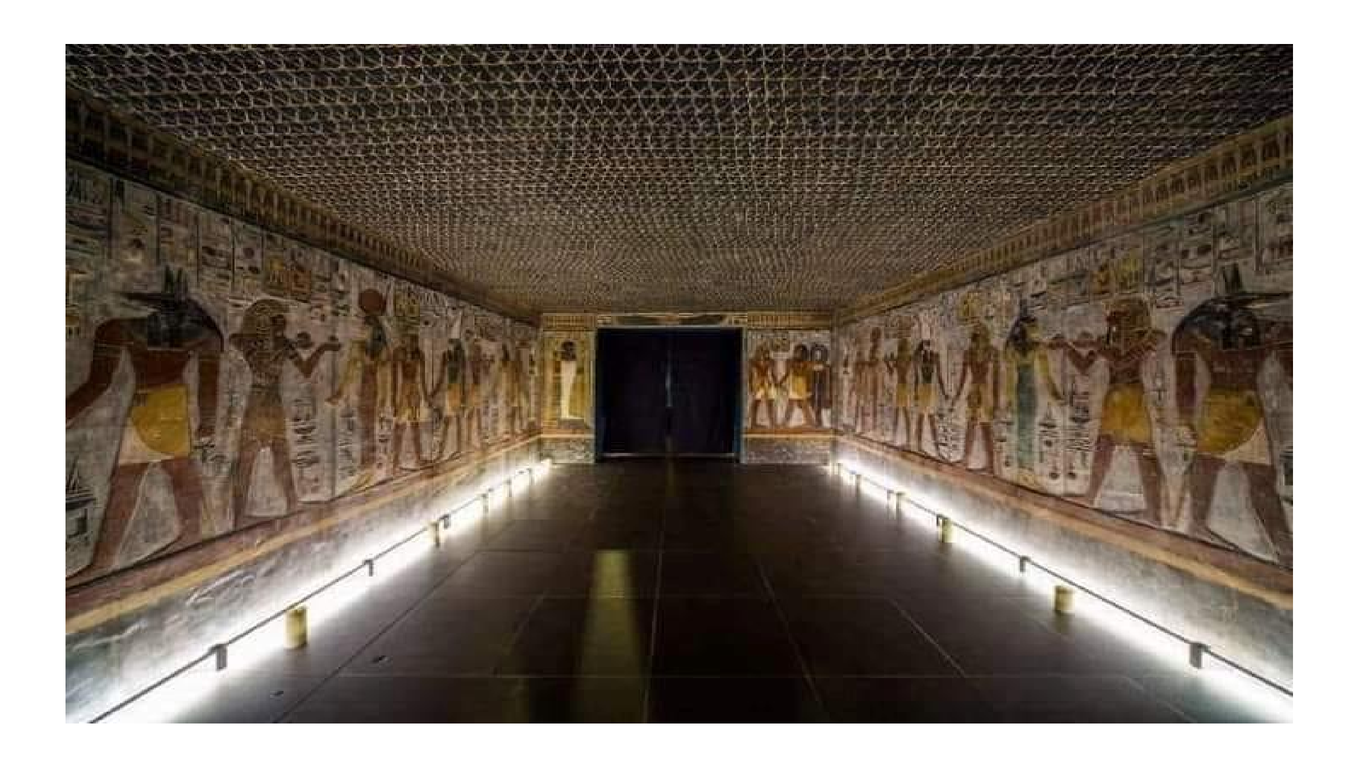
والرجل الأحمق في ساعة غضبه

يجب أن تنسحب من أمامه واتركه لمكايده أو سامحه فيها

والله يعلم كيف يجيبه ويجزيه

وإذا أمضيت حياتك واعيا هذه الأشياء في قلبك فإن أولادك سيبصرونها...".

ولم يتوقف إبداعهم على حدود الكلمات، بل نبغوا كذلك في فنون الرسم والنحت بما يعبر عن وجدان جياش بالمشاعر الحقيقية، وليس فقط مجرد ضفائر كلامية نظرية مجردة، وهذه " مقبرة سيتي الأول" من أطول وأعمق المقابر في وادي الملوك.. حيث تمتد لمسافة ١٣٧ مترا تقريبا وتضم جميع غرفها الإحدى عشر نقوشا بارزة عالية الجودة تصور مشاهد كاملة من النصوص الجنائزية..



وإلى جانب ذلك كله نجد الابتكارات العملية التطبيقية في كافة مناحي الحياة، فقد ارتكزت حياة الأقباط القدامى على العمل والبناء والإنتاج والفكر والإبداع، واخترعوا الكثير من وسائل النظافة ومساحيق التجميل (أقدم حافظة مساحيق التجميل بمتحف المتروبوليتان).

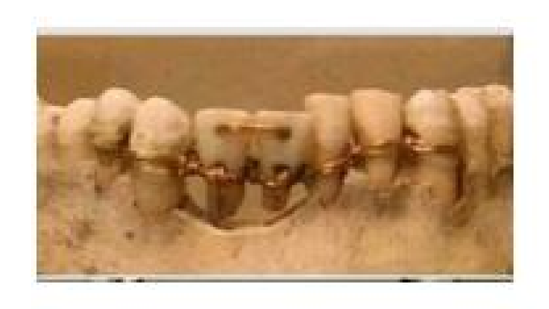


وابتكروا أول طرف صناعي عرفه تاريخ البشرية.. وجد في قدم مومياء لسيدة جبتية تبلغ من العمر خمسين عاما، وهو مصنوع من الخشب والجلد، وأكد علماء من جامعة مانشستر أنه كان عضوا فعالا وليس للزينة، فهو عبارة عن ثلاث مفاصل متصلة بالقدم، وكان من السهل خلعه وتركيبه وتنظيفه.



وتقدموا في العلوم الطبية، وهذه أول عملية تقويم أسنان في التاريخ؛ حيث عرفوا ثقب الأسنان بتقنية عالية الدقة وتثبيت أسلاك ذهبية لربط الأسنان ببعضها. وهذه أول فرشاة أسنان وجدت في إحدى المقابر، وكانوا هم أول من اخترعوا معجون الأسنان، والخلطة الطبية التي استخدموها في صناعة معجون الأسنان تم نقشها على جدران المعابد وكانت تحتوي على مادة من قشر البيض المطحون..





بينما العرب برعوا في نسج الضفائر اللغوية ولا صلة لهم بالعلم، بل إنهم حتى لم يتفقهوا حتى في دينهم ! فكيف يبنون حضارة؟، هم فقط احتلوا شعوبا متحضرة مثل فارس والعراق وأسبانيا

وحكموها ليقولوا أن لديهم حضارة ! بل حتى أنهم برغم أن أرضهم هي مهبط الدين الإسلامي، إلا أنهم حتى لم يتفقهوا في دينهم الذي بعث على أرضهم، والذي غزو العالم كله لينشروه في أرجاء الدنيا.. لو كانوا صادقين، لكان حريا بهم أن يخرج منهم أكبر علماء الفقه ليصدروا علمهم إلى العالم، إنما هم صدروا السيوف وتخاذلوا عن العلم. ولذلك نجد أن جميع من برعوا في علوم الفقه ليسو عرب، وإنما من أصول أجنبية، بل إن كل مؤلفي كتب الحديث الستة: (البخاري، مسلم، النسائي، أبي داود، الترمذي، ابن ماجة) جميعهم من الأجانب وليسو عرب. وجنسيات أصحاب الكتب الستة: (الإمام البخاري - أوزبكستان) (الإمام مسلم – إيران) (النسائي – تركمانستان) (أبو داود - إيران) (الترمذي – أوزبكستان) (ابن ماجة – إيران). وكذلك أصحاب القراءات وشيوخهم وأفضل تلاميذهم ليسوا عربا، وأئمة المذاهب الفقهية ليسوا عربا ماعدا الإمام ابن حنبل، مؤلفو المسانيد والمتون والمصنفات ليسوا عربا، مفسرو القرآن ليسوا عربا إلا ما ندر. وفيما يلي أئمة المذاهب الأربعة وأصولهم؛

١. الإمام أبو حنيفة النعمان ثابت بن زوطي وهو مولى لبني تيم الله ومولده بالكوفة

٢. الإمام الشافعي محمد ابن إدريس ابن العباس ابن عثمان ابن شافع مولى أبي لهب، وقد قيل أن طلب شافع من الخليفة عمر أن يجعله من موالي قريش فامتنع، فطلب بعدها من الخليفة عثمان ذلك ففعل فهو من موالي قريش وقد ذكر ذلك كل من الرازي في كتابه مناقب الشافعي وأبو زهرة في كتابه المعروف الإمام الشافعي.. والكارثة الكبرى ليست في الإمام الشافعي ولا في جده شافع، ولكن في الذين يعتبرون هذه الحكاية سبة في حق الإمام الشافعي للطعن في فقهه وعلمه وإضعاف مذهبه الفقهي، وبخاصة الحنفية الذين حاولوا الترويج بها، وكأنها سبه في الفقه والفكر الشافعي، فالعلم لديهم لا يستمد دليله من ذاته وموضوعيته، بل من شخص قائله !

٣. الإمام مالك بن أنس بن مالك ذهب كل من ابن عبد البر صاحب الاستيعاب في كتابه الانتقاء والواقدي محمد إسحاق والسيوطي في تزيين الممالك إلى أنه مولى من موالي بني تيم وليس بعربي.

٤. الإمام أحمد بن حنبل وهو العربي الوحيد..

بل إن أغلب علماء أهل السنة أصلهم من بلاد فارس

٥. أصحاب الصحاح

٦. البخاري محمد بن إسماعيل بن إبراهيم صاحب الصحيح الشهير: أعجمي.

٧. مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري أعجمي

٨. الترمذي ابن عيسى بن سورة الضرير تلميذ البخاري أعجمي.

٩. محمد بن يزيد بن ماجة مولى ربيعة، أعجمي.

١٠. أحمد بن علي بن شعيب النسائي نسبة لمدينة نسا بخراسان، أعجمي.

١١. سليمان بن الأشعث بن إسحاق السجستاني وهي بلدة بقرب هراة: ينسب إلى الأزد ولما كانت النسبة بالأصل وليس بالولاء يبقى انتماؤه إلى بلد أعجمي.

١٢. الرواة

١٣. إن معظم رواة الأحكام والأخبار ومعظم الفقهاء والمفسرين هم من الفرس ومنهم على سبيل المثال لا الحصر

١٤. مجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمة وسعيد بن جبير . ومجاهد وعكرمة ممن يعتمد عليه البخاري والشافعي ويوثقه ويأخذ بمروياته جملة وتفصيلا.

١٥. الليث بن سعد تلميذ يزيد بن حبيب والذي يعتبر مؤسس المدرسة العلمية الدينية بمصر ويقول عنه الشافعي الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به وهو فارسي من أهل أصفهان.

١٦. ومنهم ربيعة الرأي شيخ الإمام مالك وهو ابن عبد الرحمن بن فروخ من أهل فارس

١٧. ومنهم طاووس بن كيسان الفارسي ترجم له الشيرازي في طبقات الفقهاء

١٨. ومنهم البيهقي صاحب السنن الذي قيل عنه: للشافعي فضل على كل أحد إلا البيهقي.

١٩. ومنهم مكحول بن عبد الله مولى بني ليث ،

٢٠. ومحمد بن سيرين مولى أنس ابن مالك ،

٢١. والحسن البصري الذي قيل عنه إنه أشبه الناس بعمر بن الخطاب على حد تعبير الشيرازي في الطبقات

٢٢. ومنهم الحاكم صاحب المستدرك وعبد العزيز الماجشون الأصفهاني مولى بني تميم وعاصم بن علي بن عاصم مولى بني تيم ومن شيوخ البخاري وعبد الحق بن سيف الدين الدهلوي صاحب مقدمة في مصطلح الحديث وعبد الحكيم القندهاري شارح البخاري في حاشيته وعبد الحميد الخسروشاهي صاحب اختصار المذاهب في الفقه الشافعي.

٢٣. وعبد الرحمن رحيم مولى بني أمية ومحدث الشام على مذهب الأوزاعي

٢٤. وعبد الرحمن العضد الإيجي صاحب كتاب المواقف

٢٥. وعبد الرحمن الجامي صاحب فصوص الحكم

٢٦. وعبد الرحمن الكرماني رئيس الأحناف بخراسان وصاحب شرح التجريد

٢٧. وشيخي زاده صاحب كتاب مجمع الأنهار عبد الرحمن
٢٨. وأحمد بن عامر المروزي صاحب كتاب مختصر المزني
٢٩. وسهل بن محمد السجستاني صاحب كتاب إعراب القرآن
٣٠. ومحمد بن إدريس أبو حاتم الرازي الذي يعد بمستوى البخاري
٣١. وأبو إسحاق الشيرازي صاحب كتاب التشبيه
٣٢. وعبد الله بن ذكوان أبو الزناد عالم المدينة بالفرائض والفقه وممن روى عنه مالك والليث
٣٣. وأحمد بن الحسين شهاب الدين الأصبهاني صاحب كتاب غاية الاختصار
٣٤. ويعقوب بن إسحاق النيسابوري صاحب المسند الصحيح المخرج على كتاب مسلم بن الحجاج
٣٥. وأحمد بن عبد الله أبو نعيم صاحب الحلية
٣٦. أكبر المفسرين وأقدمهم الإمام الزمخشري فارسي
٣٧. وابن خلكان صاحب وفيات الأعيان
٣٨. وأحمد بن محمد الثعلبي المفسر
٣٩. إمام النحو سيبويه فارسي
٤٠. إمام المتكلمين واصل بن عطاء فارسي
٤١. إمام اللغة الفيروز أبادي صاحب القاموس المحيط فارسي
٤٢. الإمام الغزالي فارسي
٤٣. الرازي فارسي
٤٤. ابن سينا فارسي
٤٥. ابن رشد فارسي

وفيما يلي أسماء أصحاب القراءات العشر مع بيان أصولهم القومية.

١- عبدالله بن عامر بن يزيد بن تميم بن ربيعة اليحصبي. (٢١- ١١٨هـ). قارئ الشام.

٢- عبد الله بن كثير بن زادان بن فيروز (٤٥- ١٢٠هـ) قارئ مكة، وهو فارسي الأصل.

٣- عاصم بن بهدلة أبي النجود الكوفي (ت١٢٧هـ) قارئ الكوفة، وهو مولى بني الأسد.

٤- أبو عمرو البصري (ت١٥٤هـ) قارئ البصرة، اختلف في اسمه على عشرين قولا.

٥- حمزة بن حبيب الزيات (٨٠- ١٥٦هـ) قارئ الكوفة، مولى آل عكرمة بن ربعي.

٦- نافع بن عبد الرحمن المدني(٧٠–١٦٩هـ) قارئ المدينة، مولى جعونة الليثي.

٧- علي بن حمزة الكسائي (١١٩-١٨٩هـ) قارئ الكوفة، مولى بني أسد فارسي الأصل.

٨- يزيد بن القعقاع (٣٥-١٣٠هـ) مولى عبد الله بن عيَّاش المخزومي.

٩- يعقوب ابن إسحاق الحضرمي (١١٧- ٢٠٥هـ) مولاهم، البَصْرِيُّ.

١٠- خلف بن هشام (١٥٠- ٢٢٩هـ).

يقول المستشار أحمد ماهر: نلاحظ أن سبعة من أصحاب القراءات العشرة هم من الموالي، والثلاثة الباقون أحدهم كاذب.. والثاني غير معروف الأصل وله أكثر من عشرين اسما.. والثالث أخذ قراءته عن أحد الموالي. وبالتالي، بإمكاننا أن نحكم على أصحاب القراءات العشر للقران بأنهم جميعا من غير العرب. فماذا عن شيوخهم وتلامذتهم؟. بل إنه من الغباء أن تفخر بأمة عربية وضع لها رجل فارسي قواعدها اللغوية، ومن الغباء أن تفخر بأمة عربية أغلب أئمتها من غير العرب، ومن العار أن تفخر بأمة لم تشترك في الثورة الصناعية بصامولة، ومن العار أن تفخر بأمة لم تشترك في ثورة تكنولوجيا الفضاء إلا باستهلاك الهواء لتتنفسه شعوبها، ومن العار أن تفهم قوله تعالى {كنتم خير أمة أخرجت للناس} على أنها الجنس العربي"..

لأن المقصود بالأمة هنا هو المنهج الذي تتبعه مجموعة من البشر دون خصوصية عرقية، فالعرب المسلمون أمة، والعرب اليهود أمة، والعرب المسيحيين أمة، والعرب المشركون أمة أخرى، إنما عند الحديث عن القومية العربية فهي نسيج اجتماعي، وكما سبق وبينا أنها من نوعية النباتات الزاحفة أفقيا وبعضها متسلق، فهي في كافة الحالات إما أن تتمدد أفقيا فقط أو أن تتسلق على حضارات غيرها وتستهلك غذائها أو تعتمد على بنيانها العمودي القائم.. وكما رأينا أن كافة علماء الدولة العربية كانوا من بلاد الفرس ومن بقايا الحضارة الفارسية.

وفي الفصل الخامس والثلاثون؛ باب: حملة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم (٥٤٣)

يقول ابن خلدون: **من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر، وإن كان منهم العربي في نسبه فهو أعجمي في لغته ومرباه ومشيخته، مع العلم أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربي. والسبب في ذلك أن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة. وأما العلوم العقلية أيضا فلم تظهر في الملة إلا بعد أن تميز**

العلم ومؤلفوه واستقر العلم كله صناعة فاختصت بالعجم وتركتها العرب وانصرفوا عن انتحالها فلم يحمله إلا المعربون من العجم شأن الصنائع كما قلنا أولا (١).

ومعنى ذلك أن العرب عاشوا وجربوا كل البيئات الصحراوية والمدنية، وفي كل الحالات لم يظهر لهم أي نتاج علمي أو فكري، وهذا معناه أنهم لا يفكرون، ولا صلة لهم بالعقل والموضوعية، إنما نسيجهم الذهني من نوعية تفتقد العمود الفقري للحضارات، حتى حضارتهم كانت قزمة إذ لم تتجاوز فترة ٤٠٠ سنة حتى سقطت الدولة العباسية، ومعروف أن أعمار الحضارات لا تقاس بالقرون وإنما بالألفيات، فعمر الحضارة لا يقل عن ألف وخمسمائة عام كحد أدنى، بينما حضارة العرب سقطت وهي لا تزال في مهدها لأنها لم تتمتع بعمود فقري.

****



١ ـ المصدر: كتاب مقدمة ابن خلدون ـ طبعة دار القلم (بيروت ـ لبنان) ـ الطبعة السادسة ١٩٨٦

الإضاءة الثانية

آلية عمل العقل العلمي والعقل الأدبي

بعدما دخل العرب بلادنا وحملوا معهم ثقافتهم الأدبية وحلت لغتهم محل لغتنا بدأ تحول الحركة الفكرية في إيجبت من علمية إلى أدبية دينية، وكما أوضحنا أنها ثقافة نظرية لا تتلاءم مع النسيج الذهني للشعب الجبتي، لأن العقلية الجبتية عقلية علمية عملية تطبيقية، أي تقوم على غريزة الفضول والتدقيق والتحقيق والبحث وراء الفكرة والمعلومة والسببية وتوظيفها، أما الثقافة العربية الشفوية (الشعر والنثر وحكايات وأيام العرب) فهي تعتمد على الخيال وليس الفضول، تعتمد على التذوق وليس التحليل الفكري، تعتمد على الإثارة وليس التأمل والتدبر، فالعقلية العربية أصلا عاجزة في هذا الجانب، وليس لديها غريزة الفضول والبحث وراء الفكرة والمعلومة وحتى الشعب السعودي ما زال على طبيعته حتى اليوم منذ عهد قريش ليس الفضول العلمي من أبجدياته، فمن يقول شعرا ليس بحاجة إلى فضول وتدبر وبحث وتأمل، وكذلك من يقول نثرا يطلق لخياله العنان ليسيح بين الخيال والمجاز والإثارة والتشويق، بل هذه النوعية من الثقافة تعتمد على الإلهام والوحي وليس الفضول والفكر والتدبر والتأمل، والفضول هو عصب العبقرية والإبداع العلمي التطبيقي حتى أننا نجد أينشتاين يقول " يكاد الفضول يقتلني" في بعض الأوقات، أي أننا نفهم من كلام أينشتاين أن فضوله وبحثه وراء الفكرة والمعلومة هو سبب عبقريته، حتى أنه يؤكد ذلك فيقول: إن الناس العاديين يبحثون عن إبرة في كومة قش، وإن وجدوها يتوقف البحث، بينما نحن إذا وجدنا الإبرة في كومة القش نبحث عن الأخرى.. وهذه الخاصية ليست موجودة في العقل العربي وليست من خصائصه البيولوجية. فالعربي إذا دخل بستانا يطوف فقط حول الأشجار والزهور والأغصان ليرسم ما صوره خياله من صور مجازية.

وثقافتهم تعتمد على الإلهام والوحي، لأنها نتاج عقل بلا إرادة، وهي محض حالة ارتجالية، حتى أنهم كانوا يعتقدون أن هناك نوع من الجان يتلبس الشاعر ويلهمه الشعر، ولذلك فمفهوم العبقرية عند العرب مختلف عن مفهوم العبقرية عن شعوب الحضارات المدنية، فالعبقرية عندهم هي بمعيار الشعر الأفضل ديباجة وخيالا ومجازا وبلاغة تصوير، وبما أنهم اعتقدوا أن الشعر مصدره وحي وإلهام من الجن، وبما أن الجن في أدبياتهم يسكن وادي صحراوي في شمال السعودية اسمه وادي عبقر، ولذلك قالوا على الشاعر عبقري أي مجنون أو لازمه جان الشعر، إذن العبقرية في مفهوم العقل العربي هي قمة الجنون الشعري، وهي عبقرية أدبية وليست علمية بمفهوم الجبتيين، في حين أن

العبقرية بمعيار الحضارات العلمية هي أن يأتي الباحث أو المفكر بأفكار واكتشافات يعجز عامة الناس استيعابها، وهذا يختلف عن عبقرية العرب التي تعني قمة الإبداع الشعري وقمة النشوى التي يشعر بها ويتذوقها كافة الناس عند سماع هذا الشعر.

يقول الجاحظ: إن الهند لهم معانٍ مدونة، وكتب مجلدة، لا تضاف إلى رجل معروف، ولا إلى عالم موصوف، إنما هي كتب متوارثة، وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة، ولليونان فلسفة ومنطق، لكن صاحب المنطق نفسه بكيء اللسان ولا موصوف البيان؛ وفي الفرس حطباء، إلا أن كل كلام وكل معنى للعجم فإنما هو على طول فكرة، وعن اجتهاد وخلوة، وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكرة ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام، فتأتيه المعاني أرسالا، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا، وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر وأقهر... وليس هم كمن حفظ علم غيره واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد، ولا تحفظ ولا طلب".

ففي المجمل نجد أن الخصائص الفكرية لدى العرب مختلفة عن العقل الجبتي العلمي، والعبقرية في نظر العرب تعني من مسه جان جعله يطلق أشعارا سائلة وخيالية، هذا النوع من الإبداع المعرفي هو نتاج عقلية من فصيلة العرب فقط، ولا يمكن لإنسان من الفصيلة الجبتية الخالصة أن يبدع مثل هذا النوع من المعرفة الأدبية إلا إذا كان هجين بين الفصيلتين.

فالجبتيون لا يعرفون الوحي والإلهام والزجل ولا التلاعب بالألفاظ والمجاز، وإنما يعرفون المساطر والأقلام والمقادير، ولا يبدعون إلا في التراكيب التطبيقية لا اللغوية، فلا يوجد لدينا شاعر جبتي قال قصيدة مثل شعر عنترة والمتنبي وطرفة ابن العبد أو جرير والفرزدق وحسان ابن ثابت والخنساء وامرؤ القيس، ولكن يوجد لدينا باحثين ابتكروا طريقة للتحنيط وطريقة لتركيب الأدوية وطريقة لتقويم وتركيب أسنان ذهبية، ونظرية هندسية لبناء الهرم، وطريقة لتصنيع الألوان والورق والأحبار..إلخ. فالعبقرية بمفهوم الجبتي تعني غريزة الفضول والتأمل والبحث وراء الفكرة

واللغز والحل والسببية وتوظيفها... وهذا ما جعل لكل شعب لغة تميزه وتجسد أفكاره ونتاجه المعرفي ومزاجه العام... لكننا نتساءل عن الموقف إذا ما أراد عالم فيزياء أن يقرأ في كتب الشعر والزجل ؟ أو إذا أراد المتنبي أن يقرأ في كتب الفيزياء؟ فكيف تكون النتيجة؟ بالطبع فثقافة العرب الأدبية ليست غذاءً طبيعيا وملائما لعقل الطفل الجبتي؛ لأن نسيجه غير مصمم على هضم هذه النوعية من الفكر بقدر ما هو مصمم على هضم العلوم.

بل إن العقل البشري له رحلتين فكريتين أو جولتين عقليتين تتكرران باستمرار على مدار الوقت كما موسمي الشتاء والصيف، فلو نظرنا إلى طبيعة المناخ حولنا سنجده ينقسم إلى موسمين متكررين بالتبادل (الصيف والشتاء) والشتاء له ظروف مختلفة من حيث درجة الحرارة والطقس الشتوي العاصف والرياح والمطر والرعد والبرق والتقلبات المناخية الحادة كما في شهر أمشير، أما الصيف فيمتاز بالهدوء الطقسي مع ارتفاع درجة الحرارة.. لكن كل هذه الفروقات لا تهمنا في شيء، بل ما يهمنا هو نوعية النباتات والأشجار التي تزهر وتثمر في الشتاء فقط، ونوعية النباتات والأشجار الأخرى التي لا تزهر ولا تثمر إلا في الصيف فقط، برغم أن كل الأنواع النباتية تتكون من ذات النسيج النباتي وتنمو في ذات التربة وتشرب ذات المياه، لكنها متخصصة من حيث الأداء الفسيولوجي وقابلية التكيف مع المناخ والبيئة..

هكذا ذات الفروقات نجدها في النسيج العقلي، فكل أجناس البشر مخلوقون من ذات النسيج الحيوي، والناس سواسية كأسنان المشط، لكن المجتمعات هي أنسجة حيوية متخصصة من حيث الأداء الفسيولوجي، فالنسيج العقلي الجبتي يزهر في الربيع وينتج ثماره في الصيف، أما النسيج العقلي العربي فيزهر في الخريف وينتج ثماره في الشتاء، وهذه حكمة الله في تنوع الخلق، ولذلك وجدنا السيرة الذاتية للشعب العربي تعج بألوان الإبداع الأدبي ما لم نجد له مثيل في شعوب العالم، في حين أننا نجد السيرة الذاتية للشعب الجبتي تعج بأنواع الإبداع العلمي، فثمرة العقل الجبتي علمية عملية تطبيقية، وتاريخ الحضارة الفرعونية خير شاهد.

وهذا ما يعني أن هناك تناقض وتقابل في نوعية الثمر العقلي، فأحدهما يظهر في موسم والآخر يظهر في موسم آخر، ولا يمكن أن يثمر الاثنين في موسم واحد ولا يمكن أن يتماثلا بأي حال، ولذلك وجدنا الحضارة الجبتية عاشت في قمتها آلاف السنين بينما كان العرب يجوبون الصحارى بخيامهم، وفي الوقت الذي أسس في العرب دولتهم وصعدوا على أكتاف الشعوب المدنية المجاورة (العصر العباسي قمة الازدهار العربي) كان الجبتيين في حالة البيات الشتوي، فظروف الشعب الجبتي

خلال حقبة السيادة العربية كانت في أحط مراحل الحضارة، كانوا (مسلمين ومسحيين مستسلمين للعرب) يعيشون حالة من السكون العقلي الذاتي مع قمع سياسي عربي.. ثم بمرور الزمن ستنعكس الأوضاع ويتحول هذا البيات الشتوي إلى نهارٍ صيفي، لتنعكس أحوال العرب أيضا عبر الزمن.

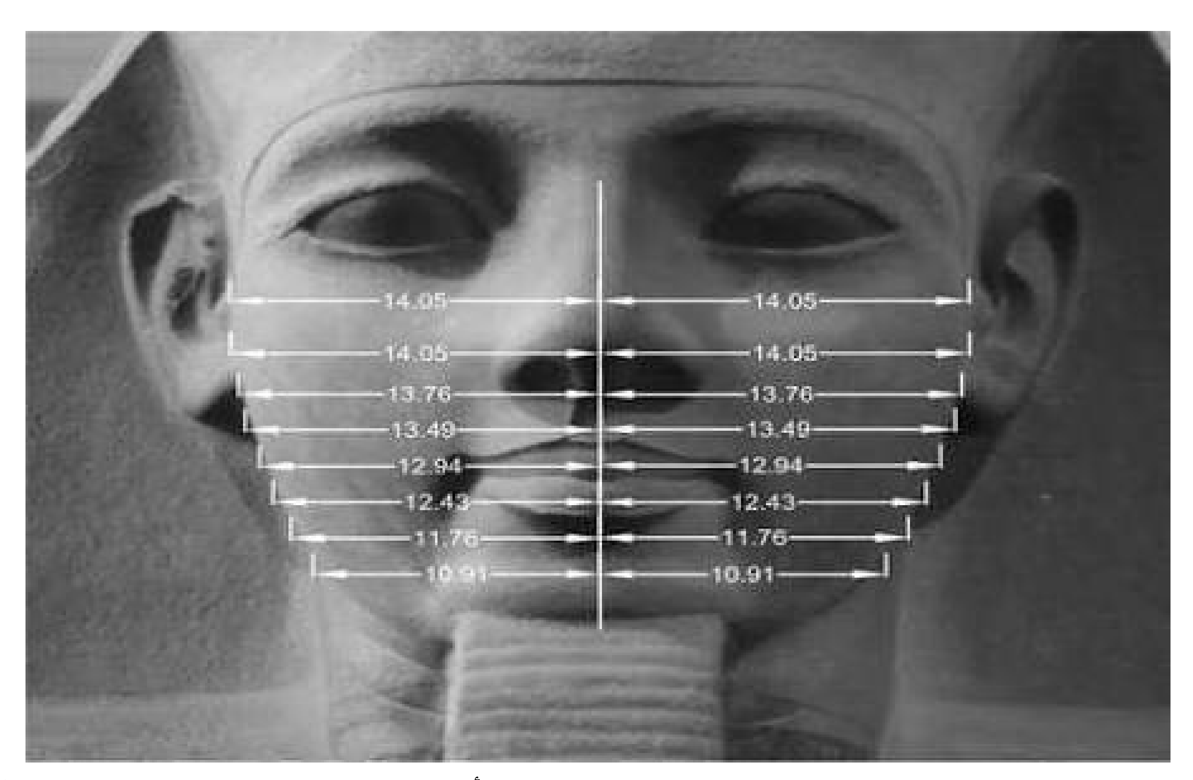
ولا يقول قائل بأن لدينا أمير الشعراء أحمد شوقي باشا ولا أمير الهوى إبراهيم ناجي وحافظ إبراهيم؛ لأن هؤلاء الأدباء والشعراء ظهروا بعدما تهجن النسيج الحيوي الجبتي بالنسيج العربي، لأن عشرات القبائل العربية هاجرت لإيجبت عند دخول العرب في القرن السابع، وتهجنت العقلية الجبتية بالعقلية العربية بعض الشيء، غير أننا لو قارنا بين أحمد شوقي والمتنبي في أشعاره سنجد أن أحمد شوقي حصل على لقب الأمير مجاملة ليس أكثر، أما لو عدنا للجذر الجبتي الخام، فلن نجد لدى القدماء مثل هذه النوعية من الإبداع، فقط وجدنا رسائل علمية وتاريخية على البرديات، ووجدنا رسائل عاطفية أيضا تنضح كلماتها بسيل من المشاعر الجياشة لكنها ليست شعرا ولا تحمل أي تلاعب بالكلمات والألفاظ. لكن القدماء عندما سكنت جيناتهم وخمل نسيجهم العقلي وتقمصوا العقلية العربية فكروا على طريقة العرب وأبدعوا بعقلية العرب، وبرغم ذلك يعتبر الشعر الجبتي منتجا عاقرا عند مقارنته بالشعر العربي الأصيل، لأن النسيج العقلي الجبتي الأصيل ليس نسيجا شعريا أدبيا وإنما علميا بامتياز، فهو مثل أشجار الجوافة التي تعطي بعض ثمارها في الشتاء برغم أنها أشجار صيفية. ولهذا وجدنا الشعر الزجلي أكثر غزارة في إيجبت من الشعر المقفى الموزون، والغريب أن أغلب الشعر الجبتي جاء تعبيرا عن الأسى وبنبرة حزن وشجن وتظلم كما حال التراث الشعبي من الأغاني المصرية الحالية، عكس العرب الذين جاء أغلب شعرهم في الفخر والغرور والهجاء... فالشعر العربي هو فعل ومبادرة عقلية، بينما الشعر الجبتي محض رد فعلٍ عقلي.

وكذلك نجد أيضا أن الثقافة العربية عندما دخلت الأندلس لم تنتج شعرا أصيلاً كما الشعر العربي، ولا حتى نسخة أصلية منه، بل كان نوع من الزجل شبيه بالشعر وأطلق عليه اصطلاح " الموشحات " وتقريبا كان هذا النوع هو أول خروج عن قواعد الشعر العربي ونظام البحر الشعري والبيت والوزن والقافية العربية الأصيلة، فكان هذا النوع من الزجل أشبه بالأغاني أو هو شعر نثري حر لا يلتزم بوزن ولا قافية ولا سجع، وإنما فقط يضع المعنى الحر الذي يسبح في عقل الشاعر، فلم تستطع العقلية الأندلسية محاكاة العقلية العربية في الشعر لأنها من طبيعية فسيولوجية مختلفة تماما، حتى أننا نجد أن جميع الأسماء اللامعة في حقبة الأندلس لا تحمل أسماء عربية وإنما مستعربة ولهذا تنتهي جميعها بمقطع" ون" وهي أسماء لعائلات غير عربية لكنها أسلمت وانتحلت

اسما عربيا مثل ابن زيدون، وابن عبدون، وابن حفصون..إلخ. وهذا ما يؤكد أنهم من أصول غير عربية ولهذا لم يستطيعوا محاكاة العقلة العربية.

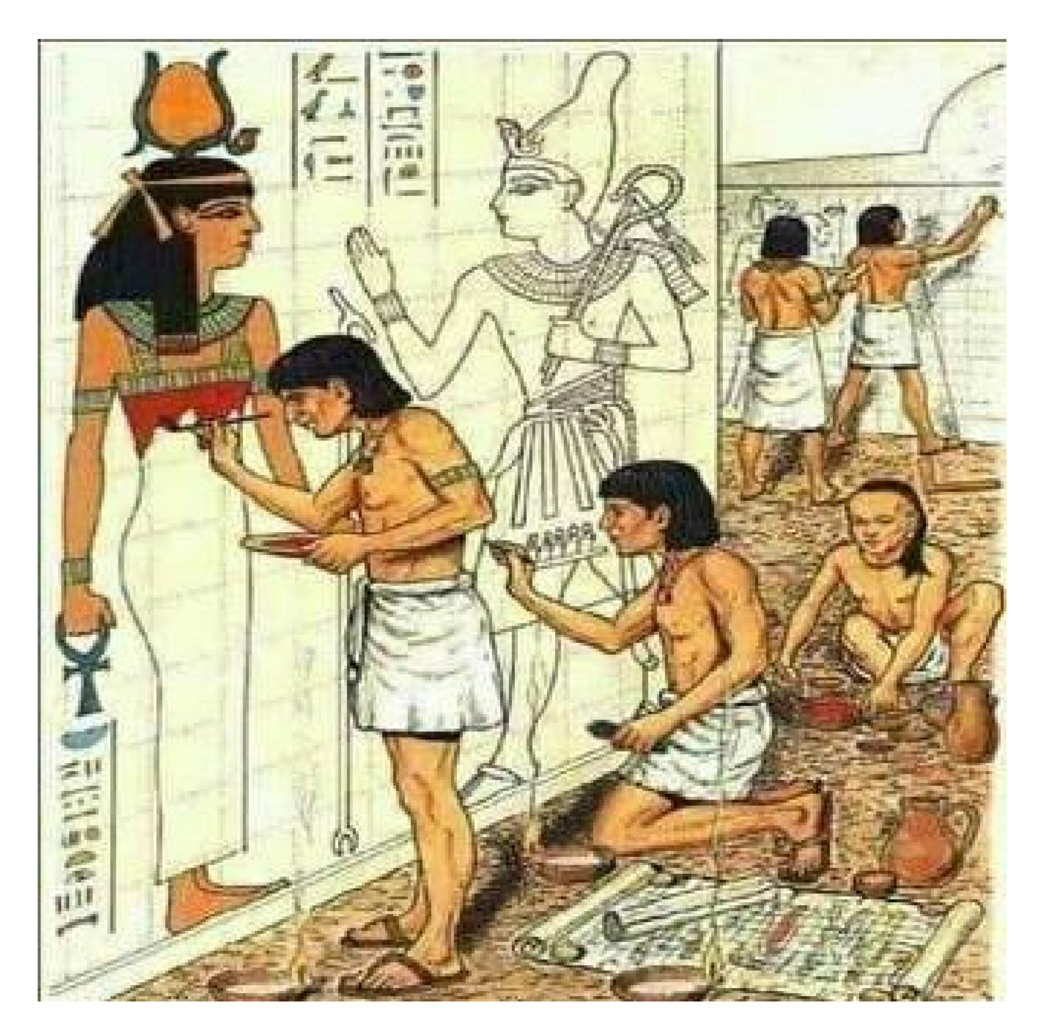
أما العقلية الجبتية مهما حاولت تقمص العقلية العربية والتطبيع معها ومحاكاتها فكريا وشعريا، فهذا مستحيل لأن العقلية الجبتية من نسيج علمي بحت، لدرجة أننا سنلحظ بوضوح قصور شديد في جانب الأدب مقارنة بالعلوم الطبيعية والفنون التطبيقية لدى الجبت القدماء إذا ما نظرنا إلى الحضارة الإغريقية والرومانية، فتكاد تكون الحضارة الإغريقية متوازنة من حيث نتاجها وإبداعاتها الأدبية والعلمية، ولذلك أبدع الإغريق في العلوم والفيزياء والرياضة والكيمياء والطب بقدر ما أبدعوا في الخيال والفلسفة والأسطورة الميثولوجية (الأساطير الدينية) والإلياذة والأوديسة وغيرها من الفنون التطبيقية والرسم والنحت.. تكاد تكون جميع فروع المعرفة متوازنة ومتقاربة من حيث معدلات الإنتاج المعرفي لدى الإغريق، بينما الحضارة الجبتية كانت عملية أكثر وتطبيقية أكثر، حتى في جانب الأسطورة الدينية (إيزيس وأوزوريس على سبيل المثال) برغم أنها خيالية إلا أن مشاهدها تعانق الواقع أكثر من الخيال وتعانق الفكر أكثر من الوهم، وخلاصتها جسدت مشاعر حقيقية.

ولعلنا نجد توجهات العقلية المصرية في الناحية الأدبية والفنية تتسق تماما مع ما ذهب إليه الفيلسوف الوجودي الفرنسي جان بول سارتر، وهو أبرز من أجاب على سؤال "ما الأدب؟". فقد ناقش سارتر -وهو الذي يمتلك باعا طويلا في الأدب والفلسفة معاـ مفهومه للعمل الأدبي في طرح فكري فلسفي صار فيما بعد واحدا من أهم الأطروحات التي تناولت ماهية العمل الأدبي، وصارت قبلة الشباب الحالم في أوروبا. وفكرة سارتر تقوم على أن الأديب يجب أن يكون ملتزما تجاه قضية ما يعبر عنها ويجسدها في أعماله الفنية والأدبية.. بينما كان نقاده يرون أن الأديب يجب أن يتحرر من أية التزامات ليحتفظ بالحرية الأدبية والفنية.. وفي الاتجاه الأول الذي تبناه سارتر جاء كل نتاج العقلية المصرية الفني والأدبي، فهم لم يكتبوا الأدب والأسطورة ولم يرسموا اللوحة لمجرد استشعار جمالها وتذوقها، وإنما قاموا بتوظيف الفن لخدمة العلم ولتجسيد أفكارهم فقط، فلا نجد في رسوم الفراعنة على جدران المعابد والمقابر لوحة تخلو من مقاييس هندسية ومعايير علمية دقيقة في الرسم وحركة الفرشاة أو حركة الإزميل، فلم تكن الفرشاة الجبتية تتمتع بحرية مطلقة كما الرياح، إنما كانت موظفة لخدمة أفكار معينة وتصورات مسبقة يسعى الفنان لتجسيدها بفرشاته وألوانه...



وفي الغالب كان البناء العربي لغوي محض، بينما لدى أجدادنا كان البناء معماري، ففي هذا التمثال نجد مقاييس دقيقة للغاية بين صفحتي الوجه، لا تخطئ مللي مترا واحدا في أي مكانٍ فيها، يمين ويسار بذات المسافات وذات الانحناءات في تقسيم ملامح الوجه والشفتان والذقن والأذن... ولا يمكن أن تخطئ حرجة الإزميل مللي مترا واحدا. فالدقة كما ينبغي أن تكون، هي عنوان الحضارة الجبتية.. ولا مجال للفوضى.. كل هذا في مقابل رسم الكلمات وصياغة العبارات البلاغة ونسج المعاني الشعرية النظرية عند العرب..

فالفن والأدب عند الفراعنة لم يكن كيانا مستقلا بذاته من أجل الفن، بل كان عبارة عن لمسات فنية تدخل على أفكار علمية وتطبيقية، فلم تخل العمارة الفرعونية من لمساتٍ فنية وأدبية، لكنها تظل في خانة اللمسات، وليس الكيان الأصلي لأن النسيج العقلي كان علميا وليس أدبيا.. فكان الفنان الجبتي عندما يشرع في رسم لوحة جدارية يقوم بتقسيم مساحة اللوحة إلى ١١٤ مربع بالخيط والميزان ويبدأ في رسم هيئة الإنسان في هذه المربعات، ولو كان رسم حيوانا مثلا كلب، فيقوم بتقسيم اللوحة إلى٦٠ مربع فقط، ولهذا ما زالت هذه الحكاية تتكرر على ألسنتنا إلى اليوم فعندما يكون الشخص سعيدا وأراد أن يعبر عن سعادته فيقول (١٠٠ فل و ١٤) أي أنه يشعر بالكمال أو القناعة الكاملة، وبينما لو كان متعصبا أو يلعن فيقول (...ستين كلب).. لأن الكلب كان يتم رسمه في لوحة مقسمة ٦٠ مربع.



وهذا يتضح أكثر عند مقارنة الهيئة الآدمية للتماثيل والمنحوتات الفرعونية والتماثيل والمنحوتات الإغريقية، فالعمارة والفنون الإغريقية تحللت من المعايير الهندسية والمقاسات والضوابط وكانت سائلة عند مناظرتها بالتماثيل الفرعونية، بينما الفنان المصري وضع إزميله بحسابات وجر فرشاته بحسابات دقيقة للغاية، ليضع فكرته في ضبطٍ وإحكام.. فيمكنك في النهاية عند مطالعة اللوحة قراءة معلومة والتقاط فكرة بلمسة فنية، وليس العكس.

ففي معبد دندرة- قنا .. قد تبدو لك صور عادية في البداية لكن مع التركيز أكثر في تناسق الألوان و دقة الهندسة يجعلك تشك بأنهم استخدموا الليزر في انجاز هذا العمل و يجعل الصور مذهلة

.

السميترية و دقة النحت والتشكيل والرسم وبراعة استخدام الألوان يبيّن أنهم أرادوا القول بأنهم وصلوا إلي درجة الكمال في الفن المعماري، لكن هذه المرة بطريقة أخري غير كتابة بعض

النصوص في بردية ليبرهنوا أنهم كانوا ومازالوا الأفضل.. سقف المعبد مذهل لدرجة تجعلك إذا رفعت نظرك للأعلى فعلى الأغلب لن تنزله مرة أخرى حتى يؤلمك عنقك من روعة النقوش.

كتب عنه العالم الفرنسي (دينون) في كتاب "وصف مصر" مشيدا بجماله وألوانه ومناظره، فقال : "بودى لو أمكنني أن أنقل إلى ذهن قرائي الإحساس الذي شعرت به أمام هذا المعبد، فلقد كنت مذهولا إلى درجة تجعلني لا أستطيع أن أحكم، فكل ما رأيته في العمارة قبل هذا المعبد لم يكن كافيا لإثارة إعجابي"...



وليس الغرض من عرض هذه الفلاشات عن الحضارة الفرعونية هو الفخر بها أو التعالي على العرب، بل فقط لضرورة تحليل النسيج العقلي، لأننا لا يمكن أن نرى إبداعا علميا صرفا بهذه الطريقة مع خلوه من الأدب والخيال، ونمر على ذلك مرور الكرام، أو نعتبره مجرد فكر بدائي في مرحلة ما من مراحل تطور الفكر البشري.. بل إننا ينبغي معرفة كيفية استنبات جذور هذه الحضارة من جديد، فأجدادنا لم يكونوا عباقرة، إنما كانوا علميين في تفكيرهم وثقافتهم، وما زالت جيناتهم الوراثية مغروسة في دمائنا حتى وإن خملت حقبة من الزمان، لكنها ستنهض يوما ما، لأن عمر الشعوب لا يقدر بالأيام والشهور، بل بالحقب التاريخية التي تصل إلى ألفي عام وتتنوع مثل فصول السنة ومواسم الصيف والشتاء والربيع والخريف، ومهما طال البيات الشتوي فلا يمكن أن يستمر..

فعلماء البيولوجيا يتصورن أن الإنسان في الأصل كان قردا ثم تطور حتى أصبح إنسانا وارتقى حضاريا عبر آلاف السنين.. برغم أن ذلك ليس حقيقة وليس مقنعا بأي حال، لكن ما هو مقنع جدا أن الجينات الوراثية للفراعنة لم تتغير ولم تمت ولم تذب أو تفنى لأن الطاقة لا تفنى ولا تستحدث من العدم، حتى وإن اختلط بالجبتيين اليوم عشرة مليون عربي هاجروا قبائل من شبه الجزيرة إلى إيجبت، مع عشرة مليونا آخرين هاجروا من أوروبا إلى إيجبت خلال العصور اليونانية والرومانية، فيبقى ٨٠٪ من الجبتيين أصليين حتى النخاع، أي أن جملة التهجين في الجينات الوراثية الجبتية لم يتجاوز إلى الحد الذي يطمس البصمة الوراثية لهذا الشعب العظيم.

وربما يكون هذا الأمر أكثر تقبلا إذا ما نظرنا إلى الخريطة التي نشرها موقع ناشيونال جيوغرافيك[1]. فقد نشر الموقع أول خريطة للتاريخ البشري في العالم، وذلك ضمن مشروع كبير لدراسة متعددة السنوات تقوم على فحص أصول البشر، ومدى التداخل في الأصول والأعراق البشرية. وقد أظهرت الدراسة بعض النتائج الصادمة على كافة المستويات، وبينت حجم التداخل الكبير ودرجة التجانس بين الأمم والشعوب في مختلف أنحاء الكرة الأرضية. واعتمدت الدراسة على تحليل عينات ضخمة من الحمض النووي (DNA) من أجل رسم الخريطة الجينية لسكان كل دولة، أو سكان كل منطقة من العالم، وهو ما استغرق وقتا طويلا، فقد بدأ هذا المشروع عام ٢٠٠٥، وانتهى العمل به عام ٢٠١٧.

ولو أخذنا إيران كمثال، وهي التي تروج لنفسها على أنها «الأمة الفارسية»، وتتحدث بلغتها المميزة، فالنتيجة كانت مفاجأة لكثيرين كونها في الحقيقة أمة ذات أصول عربية في أغلبها. فتشير التحليلات إلى أن ٥٦٪ من الإيرانيين من أصول عربية.. وإذا جئنا إلى إيجبت، فإن الخريطة البشرية والتحليلات العلمية تثبت أن أغلب الجبتيين(٦٨٪) من الشعب الجبتي تعود أصولهم إلى جذورهم، وليسوا عرب، فقد أظهر الخريطة الجينية أن ١٧٪ فقط من الجبتيين أصولهم عربية، أما الآخرون فهم من أصول ومنابت مختلفة وغير عربية، منهم ٤٪ أصول يهود، وأصول ٣٪ من آسيا الصغرى، و٣٪ آخرون من جنوب أوروبا.

فالله تعالى خلق الأمم البشرية أنسجة حيوية متنوعة، وشعوبا وقبائل لتتعارف؛ شعوب مثل الشعب الشامي والشعب الجبتي والشعب الصيني..إلخ، وهي الشعوب المدنية، وأما القبائل فهي المجتمعات القبلية مثل العرب والهكسوس، لأن القرآن لا يعرف الترادف، وإنما لكل لفظ معنى

١- رابط الموقع: https://genographic.nationalgeographic.com/

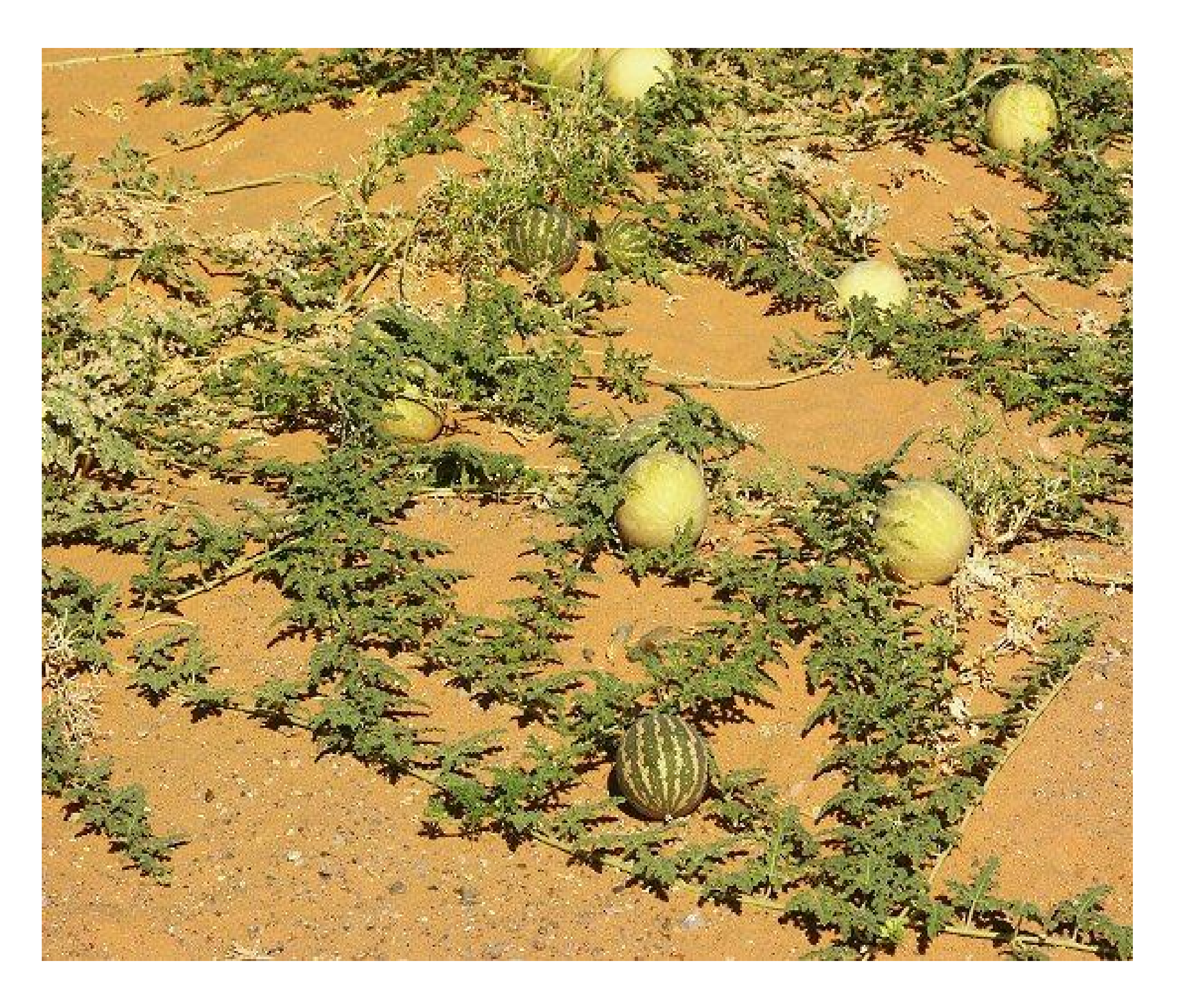
مقصود بذاته، ولهذا فرق الله بين الشعوب وبين القبائل وعطفهما على بعضهما للدلالة على تنوع خلقه. وبما أنه خلقها للتعارف فهذا يعني حتما أن هناك اختلافات فيما بينها ونتيجة هذا التعارف الذي أراده الله سيحدث تواصل ثقافي وتزاوج بين ثقافات الشعوب المختلفة، ولذلك نجد على سبيل المثال شعوب إقليم البحر المتوسط شاملة شعوب شمال إفريقيا تكاد تقترب من بعضها في الملامح والسمات الاجتماعية، حتى وإن اختلفت اللهجات، فنجد الشعب الجزائري قريب من الشعب التونسي قريب من الشعب الجبتي.

وبرغم اتصال الجغرافيا إلا أننا نجد الفرق الشاسع بين الشعب الجبتي والشعوب الخليجية أو العربية بوجه عام، وبرغم اتصال الجغرافيا جنوبا إلا أننا نجد الشعب الجبتي مختلف عن الشعب السوداني الذي يميل أكثر لأن يكون جزء من نسيج الإقليم الاستوائي. ثم ننتقل مع الجغرافيا لنجد الشعوب المنغولية والشرق أسيوية لها ملامح وسمات اجتماعية مختلفة. ذلك لأن الجغرافيا والمعطيات البيئية تساهم في تكوين النسيج الحيوي، ليس فقط الإنسان، بل إن كل بيئة تأوي ما يتلاءم معها من التنوع الحيوي النباتي والحيواني. وبالنظر إلى أن الجغرافيا الاجتماعية تتدخل فيها عوامل كثيرة منها درجة الحرارة والرطوبة والبيئة وما إذا كانت صحراوية أو جبلية أو سهلية نهرية أو جليدية أو غابات استوائية..إلخ، لأن الإنسان هو كائن حيوي ابن البيئة.

وليس فقط الإنسان، بل كل سكان البيئة، حتى أننا نجد الدكتور المهندس المعماري ممدوح حسن عندما تم تكليفه ببناء مساكن للأهالي المهجرين عند إنشاء بحيرة ناصر، تعمد استخدام الخامات المتوافرة في البيئة هناك من مواد البناء مثل الطوب والأحجار وراعى في ذلك الطبيعة الهيكلية للبناء، لأن الأحجار الموجودة في هذه التربة هي الأكثر ملاءمة للبناء هناك وتقاوم عوامل الرطوبة والحرارة وغيرها من العوامل الجوية، ولذلك رفض استخدام الطوب المصنع في الوجه البحري والقاهرة. فكيف ينشأ إنسان إيجبتي على وادي النيل بالقاهرة بشكل سليم وينتج ويثمر وهو في ذات الوقت يتغذي على النتاج الثقافي للبيئة الصحراوية في شبه الجزيرة؟ فالتعارف بين الشعوب والقبائل الذي أراده الله لا ينبغي توسيعه والمغالاة فيه إلى درجة طمس الهويات وتقمص عقليات مجتمعات أخرى، بل ينبغي حصر هذا التعارف في حدود التعارف وليس طمس الهوية الجبتية وتقمص العقلية العربية.

لأنهم في الأصل من مجتمعات القبائل وليسو من شعوب الحضارات التي تنمو رأسيا وتخرج سيقان وأغصان فارعة، فالله تعالى عندما خلق الكائنات الحية وزعها أنسجة مختلفة، وكما خلق

الأنسجة النباتية متنوعة ما بين نباتات زاحفة وأشجار، وتنموا النباتات الزاحفة أفقيا بينما تنموا الأشجار رأسيا أما نوعية النبتات الزاحفة التي تنموا أفقيا فقط وتتمدد أغصانها على الأرض في كل اتجاه دون أي نمو رأسي، مثل نبات الحنظلColocynth وهو نبات عشبي زاحف معمر يتبع الفصيلة القرعية، والحنظل من النباتات الشديدة المرارة وعادة يضرب به المثل فيقال (أمر من حنظل)..



وللحنظل أزهار صفراء وثمار تشبه في حجمها البرتقالة أو التفاحة ذات لون مخضر مخطط ببياض قبل النضج ثم تتحول إلى اللون الأصفر. والثمرة ملساء تحتوي على لب إسفنجي، وله سيقان تنمو أفقيا على سطح الأرض وليست سميكة بل قشرية، وتسمى سيقان عشبية، ولا بد أن تظل العقد في سيقان هذه النباتات ملامسة لسطح الأرض فتنمو منها جذور إلى أسفل كي تستمد من التربة ما ينقصها من عناصر غذائية، وأنسجتها من نوعية الأنسجة الأسفنجية وينقصها الأنسجة الخشبية الصلبة التي تحفظ قوامها، ولهذا لا تنموا رأسيا وإنما تتمدد أفقيا فقط.

وهذه النباتات الزاحفة منها أربعة أنواع من السيقان الضعيفة:

أ- السيقان المتسلقة: وهي تكون أعضاء خاصة التسلق تسمى محاليق تربطها بالدعامة: أي أن النبات نفسه لا يلتوي أو ينثني. ومن أمثلة هذه السيقان ساق العنب، كما أن هناك نباتات تتسلق بواسطة أشواك متجهة إلى الأسفل كما في أنواع الورد المتسلق.

ب- السيقان الملتفة: وهي تلك السيقان التي تلتف بنفسها كاملة حلزونيا كالحبل حول الدعامة التي قد تكون قوائم صناعية أو نباتات قائمة تنمو بجوارها، ومن أمثلة هذا النوع من السيقان: ساق العليق.

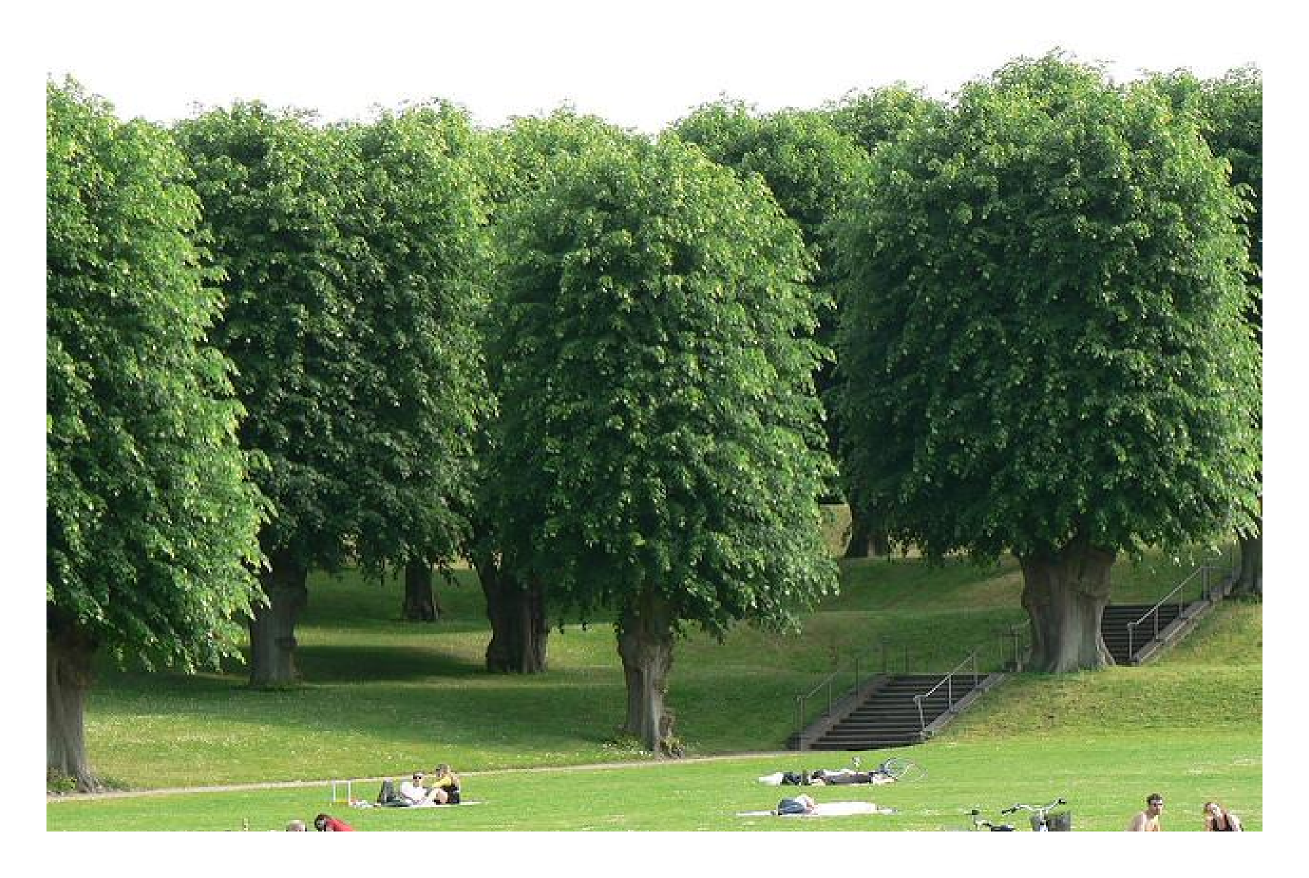
ج- السيقان الزاحفة: تنمو أفقيا فوق سطح الأرض، فتغطي مساحة كبيرة، وتعرض جميع أعضاء المجموع الخضري للضوء والهواء، ومن أمثلة هذا النوع من السيقان: سيقان الشمام والخيار والبطيخ.

د- السيقان الجارية: وهي مثل الزاحفة ولكن يخرج من عقدها جذور عرضية تخترق التربة مثل نبات الشليك (الفراولة)، والليبيا والنعناع.

وفي جميع الحالات نجد أن الساق غير قادرة على النمو رأسا وفي المقابل تتوفر قدرتها على التمدد أفقيا، ونتيجة نقص التكوين الفسيولوجي لها وعدم قدرتها الكافية على صناعة الغذاء فهي تحتاج إلى تعريض كافة أوراقها وسيقانها للشمس والهواء الطلق وتتساند وتعتمد على غيرها من السيقان ولها محاليق (مشابك) تتعلق بها في عملية تطفل حيوي على النباتات الواقفة كي تستمد قوتها، وغالبا ما تكون شرسة ومزودة بأشواك أو ذات طبيعة قاسية كي تتحمل ظروف البيئة القاسية التي اختارت العيش فيها. وهذا النوع من النباتات الزاحفة هو بطبيعة الحال وبطبيعة تكوين النسيج النباتي له لا يقوى على النمو رأسيا وإنما فقط ينموا ويتمدد ويتشعب أفقيا ويحتاج مساحة كبيرة من الأرض مهما كانت صحراء جرداء خالية من المياه والرطوبة والخصوبة، هو فقط يحتاج مساحة للتمدد الأفقي. وهي ذات السمة الفسيولوجية نجدها في المجتمعات القبلية أنها تعيش في مساحات واسعة، وتتمدد يمينا ويسارا في الصحارى، ونجد كل أسرة تتخذ لها فناء واسع جدا في الصحراء وبعيد عن غيره، فهم يتعمدون التباعد بين البيوت وبعضها أو الخيام وبعضها لأن في ذلك راحة نفسية لهم، ويقضون حياتهم كلها عرضة للشمس ويعشقون الهواء الطلق، حتى وإن عاشوا داخل المدن والقرى تجدهم يشعرون بالضيق ويخرجون سريعا إلى الصحارى المتاخمة للقرى حتى يجدوا راحتهم النفسية فها. وهذا ليس إقلالا من العرب وإنما تحليل فسيولوجي، فهم من فصيلة النباتات الزاحفة التي تنموا أفقيا، ولذلك نجد إبداعهم جميعه أفقي (شعر ونثر وقصص وحكايات تاريخية) لا يقدم أي جديد في الحياة، هو مجرد مساحة من المعلومات والتصورات تشغل مساحات من العقل فقط دون أن تنموا رأسيا.

فالمجتمعات القبلية من فطرتها العيش أفقيا وليس التطور رأسيا ، فهم يعيشون في معيشة نمطية متكررة لا تتغير، بل إن التغيير عندهم منقصة وكسر للثوابت وإهدار لقيمتها، وغالبا ما تكون قيمة الثوابت الاجتماعية عندهم من قدسية الأديان. لدرجة أننا نجد بعض المجتمعات القبلية في عصرنا الحالي تعيش في غابات الأمزون وتحرم كل مظاهر الحياة العصرية، فهم يحرمون على أبناءهم مشاهدة التليفزيون واستخدام الوسائل التكنولوجية الحديثة والإنترنت أو ارتداء ملابس جاهزة كاملة تغطي جميع البدن أو تناول أطعمة مصنعة باستخدام أي وسائل تكنولوجية، ولا يعتنقون دين سماوي وإنما يعتبرون تقاليدهم وأعرافهم هي الدين، ومن ثم يحرمون الخروج عن الدين، ومن يخرج عن التقاليد يعتبرونه كافرا ! وهؤلاء مثلهم مثل العرب، الذين صبغوا الدين بصيغتهم القومية فتجمدت معالم الدين في حدود عادات وتقاليد وأعراف المجتمع العربي بفعل تجمد العقلية العربية وأصبح تاريخ العرب دينا للشعوب. وشعوب قبائل الأمزون هذه مختلفة نسبيا عن شعوب قبائل الصحراء، لكنها من ذات الفصيلة، هؤلاء يعيشون قبائل متفرقة في الغابات وهؤلاء يعيشون قبائل متفرقة في الصحارى.. هؤلاء يعتبرون عاداتهم وأعرافهم دين مقدس، وكذلك السعوديون ظلوا قرنا كاملا يعتبرون قيادة المرأة للسيارة حرام شرعا ثم تنازلوا فقط تحت ضغط ترامب ومنعا للحرج..

بينما الشعوب المدنية مثل الشعب الشامي والعراقي البابلي والفارسي والشعب الصيني والإنجليزي والفرنسي والجبتي..إلخ. هم من شعوب الحضارات المدنية التي تعيش في القرى والمدن وتنموا رأسيا مثل الأشجار التي تخرج سيقان فارعة وأغصان ولا تحتاج لمساحة كبيرة تتمدد فيها أفقيا، ولكنها بحاجة ضرورية إلى تربة خصبة سبخة ورطبة. وهذه النوعية من الأشجار والشجيرات لها سيقان تعتبر سيقانا خشبية، فهي تحتوي على نسبة كبيرة من العناصر الصلبة والأنسجة الخشبية التي تساعدها في تكوين دعامة رأسية.



فشعوب الحضارات المدنية هي من ذات فصيلة الأشجار التي تنموا متزاحمة رأسيا ولا تحتاج إلى التنقل والترحال والتمدد في الصحراء بل تميل بفطرتها إلى الاستيطان والتمركز. ولا يعني ذلك أن شعوب الحضارات مميزة من الناحية الإنسانية على شعوب القبائل، بل العكس لأن الله تعالى ساوى بين البشر عندما خلقهم، وكل الفرق أنه خلق البشر أنسجة متنوعة ومختلفة عن بعضها. (وفي الواقع فإن كل شعب يستمد مبادئه الدينية من أعرافه، فالشعوب التي تنمو أفقيا فقط مثل النباتات الزاحفة تظل أعرافها الثابتة دينا لهم.. والشعوب المدنية التي تنمو رأسيا مثل الأشجار بالفطرة تتطور عاداتها وأعرافها وتتطور معها مبادئها الدينية).

ولهذا يجدر بنا أن نلفت عناية القارئ النبيل إلى أن علم الاجتماع ليس مسطرة صلبة تنطبق على جميع الشعوب بصورة متماثلة، لأن شعوب الأرض أنسجة متنوعة، ولها خصائصها الذهنية والنفسية المستقلة المتميزة عن بعضها لأداء وظائف متنوعة ومتميزة عن بعضها، فالله خلق الشعوب متكاملة مكملة لبعضها من حيث الإبداع والإنتاج الفكري وليست متماثلة متطابقة، وعلى عالم الاجتماع الجبتي أن يغوص في ثنايا المجتمع الجبتي ليعرف خصائصه السيكولوجية جيدا خلال مرحلة ازدهاره، يلتقط نصائحه وحكمه ودعاماته الفكرية ومسلماته التي نهض بها، ومن ثم يحدد العوامل التي تساعد الجبتيين في الحاضر على النهوض مجددا في رحلة حضارية عصرية

يتجدد فيها إبداع القدماء، لأن الجذور التي نامت في التراب آلاف الأعوام وما زالت حية، لا بد أن تزدهر يوما ما.

يقول الأستاذ أحمد أمين تحت عنوان "طبيعة العقلية العربية": تختلف الشعوب عقليا ونفسيا اختلافا كبيرا؛ فعقلية الإنجليزي غير عقلية الفرنسي، وهما غير عقلية المصري؛ وهكذا. وهذه العقليات والنفسيات تختلف تبعا لاختلاف البيئة الطبيعية والاجتماعية التي تحيط بالأمة، فالشعوب تقف في العالم على درجات متسلسلة الرقي، وكل درجة لها مميزاتها العقلية والنفسية. وأفراد الأمة الواحدة وإن اختلفوا في المدارك والتربية والتعليم ونحو ذلك، فإن بينهم جميعا وحدة مشتركة، وهذه الوحدة تدركها في الملامح الجسمية حتى لتستطيع بعد قليل من المران أن تحكم بأن هذا إنجليزي أو فرنسي أو مصري. وهناك وحدة عقلية بين أفراد الأمة الوحدة الواحدة تشبه الوحدة الجسمية الوحدة العقلية والنفسية تماما، فما هي هذه للعرب؟ وبعبارة أخرى: إذا اخترت عربيا ليكون نموذجا يمثل العرب في نفسيتهم فما تكون صفاته؟ "[1].

هكذا يصنف الأستاذ أمين عقليات الشعوب والأمم حسب الشرائح الاجتماعية، لكننا سنتجاوز عن بعض تعبيراته التي جاءت غير دقيقة كونه أديبا فيلسوفا وليس محللا علميا، فما يصفه الأستاذ أمين بأنه (فالشعوب تقف في العالم على درجات متسلسلة الرقي)، هذه ليست درجات متسلسلة من الرقي وإنما نوعيات وأنماط مختلفة من التفكير والسلوك، فكما قلنا بأن الجنس البشري على وجه الأرض هو نسيج لكائن واحد، لكن هذه النسيج تتخصص مجموعات من خلاياه في أداء وظائف معينة ومختلفة عن غيرها من المجموعات البشرية وإن اقتربت أو تشابهت، لكنها في الأصل تنوع يؤدي إلى التكامل من خلال (التعارف الذي ذكره الله في القرآن)، على كل حال الأستاذ أمين حاول تبسيط الفكرة بضرب أمثلة على الاختلافات الشكلية بين المجتمعات وربط ذلك بظروف البيئة والمناخ، مع أن ذلك غير مستساغ لأنه ليس كل من عاش في مناخ بحر متوسطي وعلى ضفاف نهر نيل صار عبقريا مثل الأقباط القدامى، ولماذا عاش الأوروبيون عصورا طويلة في ظلام من الجهل والتخلف ثم أشعلوا حضارة عظيمة في العصر الحالي، برغم أن البيئة والمناخ لم يتغيرا ؟ وليس كل الأقباط القدامى عباقرة برغم أنهم يعيشون في ذات المناخ وذات البيئة، وليست سلالة الأقباط عباقرة على مدار التاريخ برغم أنهم يعيشون في ذات المناخ وذات البيئة، فقد مرت إيجبت بحقبة اضمحلال عقلي جمعي استمرت أكثر من ألفي عام بداية من منتصف القرن الخامس قبل

---

(١) كتاب ملامح الحياة العقلية في عصور الإسلام الأولى. الأستاذ أحمد أمين. تصنيف محمد جمال إمام – ص٢٨

الميلاد وحتى مطلع القرن العشرين. فأين كان تأثير هذا المناخ وهذه البيئة التي استمرت عبر الزمن دون تغيير ! إنما ما يتغير هو أطوار العقل الجمعي التي تزهر في مواسم وتسكن بياتا شتويا جمعيا في مواسم أخرى، وكل ذلك يحدده النسيج الذهني وصفاته الوراثية وليس البيئة والمناخ، وهذا ما شرحناه تفصيلا في كتاب " الفيزياء البشرية".

المشكلة أن الأستاذ أمين خصص كتابه كاملا لتحليل العقلية العربية ولم يخصص صفحة واحدة لتحليل النسيج الذهني لآبائه وأجداده ! فقد كتب الكثير والكثير عن "الحياة العقلية" التي قامت عليها الحضارة الإسلامية في القرون الأربعة الأولى من تاريخ الإسلام، بما يكشف عن فهم عميق لأهمية الخلفيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للحركة العقلية في أي أمة من الأمم، وهو جهد عبقري لم يتابعه فيه مفكر مصري أو عربي آخر.

ويقول مُصنف كتابه [1] في مقدمته :" عندما كنا ندرس الأدب الإنجليزي في قسم اللغة الإنجليزية وآدابها في كلية الآداب بجامعة الإسكندرية في خمسينيات القرن الماضي، كان مقررا علينا مادة اسمها "الحياة والثقافة في بريطانيا(British Life and Thought) " كخلفية ضرورية لفهم الأدب الإنجليزي في مختلف عصوره. ولم تكن هذه المادة من بنات أفكار هيئة التدريس في هذا القسم، وإنما هي ممارسة مرعية في دراسة الأدب في مختلف أنحاء العالم ولها مراجعها الأساسية لكل عصر من عصور الأدب تنشرها كبريات دور النشر العالمية".

ويقول الأستاذ أحمد أمين:" لا يمكن فهم الحياة العقلية إلا بفهم بيئتها التي نشأت فيها، والعوامل التي ساعدت عليها، وطبيعة الناس الذين أنتجوها" ... إن هذا الكلام الخطير لمعناه أنه يدرك جيدا أن أي نتاج معرفي لأي أمة لا يمكن فهمه بعمق إلا بالولوج إلى ظروف هذه الأمة ودراسة إمكاناته الذهنية وخصائصها الاجتماعية، وهذا ما فعله أساتذة الأدب في كل جامعات العالم، لكننا إلى الآن لا نجد في جامعاتنا أي عنوان ولو فرعي يتحدث عن الحياة العقلية لدى أجدادنا قدماء الجبتيين، لأننا لو بحثنا في هذا الجانب سندرك فورا أن عقليتهم كانت (علمية عملية تطبيقية) ولم تكن عقلية أدبية، أي أن هويتها علمية من الجذر حتى وإن قدمت نوعا من الأدب مقبولا. لكن لماذا نتجاهل الذات والبحث في إمكاناتها، فالأستاذة بالجامعة يخصصون مقرراتٍ كاملة لدراسة الحياة العقلية في بريطانيا، ومقررات أخرى لدراسة الحياة العقلية عند العرب مع تجاهل تام للذات ! إن

---

١) كتاب ملامح الحياة العقلية في عصور الإسلام الأولى. الأستاذ أحمد أمين. تصنيف محمد جمال إمام

ذلك يدل دلالة صريحة على عدم الثقة في الذات، والشعور الدفين بقلة قيمتها عند المقارنة بين العرب والإنجليز مثلا، وشعور بتفوق العقلية العربية وريادتها، وشعور عام بتبعية للعقلية العربية.

بل والغريب أنه على استحياء يحاول بحياء تجريد العقلية العربية قليلا من القدسية التي حفتها على مدار الحقبة المظلمة، فيقول: لسنا نعتقد تقديس العرب، ولا نعبأ بمثل هذا النمط من القول الذي يمجدهم ويصفهم بكل كمال وينزههم عن كل نقص، لأن هذا النمط من القول ليس نمط البحث العلمي، إنما نعتقد أن العرب شعب ككل الشعوب، له ميزاته وفيه عيوبه، وهو خاضع لكل نقد علمي في عقليته ونفسيته وآدابه وتاريخه ككل أمة أخرى ...". فهو يحاول باستحياء وخجل رفع ستار القداسة عنهم ويستأذن القارئ ويبرر له سبب رفعه ستار القداسة هذا ! لقد نسى الأستاذ أمين أن العرب هم قومية مريضة عقائديا وسلوكيا وأخلاقيا وجاء القرآن علاجا لهم وبلغتهم وأكد على ذلك ١١ مرة توكيد لفظي تكررت فيه ذات العبارة وبعدها كلمة (لتنذر)..

ثم يقول:" كذلك يخطئ الشعوبية أصحاب القول الأول الذين كانوا يتطلبون من العرب فلسفة كفلسفة اليونان، ا وقانون كقانون الرومان، أو أن يمهروا في الصناعات كصناعة الديباج، في أو المخترعات كالاصطرلاب، فإنه إن كان قارن هذه الأمم بالعرب في جاهليتها كانت مقارنة خطأ، لأن المقارنة إنما تصح بين أمم في طور واحد من الحضارة، لا بين أمة متبدية وأخرى متحضرة. ومثل هذه المقارنة كمقارنة بين عقل في طفولته وعقل في كهولته، (الغريب أن الأستاذ أمين ولأنه أديب وليس مفكر علمي لم يدرك أن المقارنة بين نوعية الفكر وليس مقداره، وإلا فهل كانت حضارة العرب طفلة حينما تفوقوا على اليونانيين في أشعارهم ! ولماذا لم يبدع العرب في العلوم الطبيعية خلال عصر الدولة العباسية؟ فقد كان كل العلماء في هذا العصر من الفرس والعجم أي بقايا الحضارات المدنية، بينما شطح العرب فقط في السياسية والشعر.. بل إن كل ما في الأمر أن الأستاذ أمين لديه مانع أدبي في انتقاد العقلية العربية أفقده بوصلة الحياد الموضوعي) هذا المانع الأدبي هو الصحابة الكرام الذين احتلوا بلادنا ومصوا دمائنا وحفروا قناة أمير (المؤمنين) لنهب اقتصاد بلادنا وتصديره بالسفن بدل القوافل إلى السعودية..

إذن؛ الحضارة الجبتية كي تنهض لا بد أن تنبت من أرضها وطميها ونيلها بعيدا عن غبار العرب، ولا يمكن أن تزهر نباتات الصحراء على وادي النيل، كما لا يمكن العكس.. علينا التخلص من حمية الانتماء للعرب والاندماج في قوميتهم وثقافتهم والتماهي في نسيجهم.. علينا أن نتخلص من حالة الاغتراب التي نشعر بها تجاه أجدادنا القدماء وعقدة كونهم كانوا غير مسلمين؛ لأنهم كانوا

أفضل حالا وثقافة وأخلاقا من العرب المسلمين، وأكثر انسجاما مع مبادئ الإسلام من العرب المسلمين.. علينا أن نعيد وصل حبل التاريخ الذي انقطع بيننا وبين أجدادنا القدامى حينما قفز العرب عليه ونحتوه بأسنانهم.. علينا أن نكون أكثر انتماءً لأنفسنا وأصلنا وآبائنا من انتمائنا للعرب أحفاد الهكسوس.. وعلينا أن نتوقف عن نعرة كون القدماء عباقرة خارقين في إبداعهم، هم ليسو عباقرة، إنما هم فكروا بذات إمكاناتهم الذهنية التي ورثناها منهم.. فالمادة الوراثية الجينية لم تتغير ولم تفقد خصائصها، إنما هي دخلت مرحلة من البيات الشتوي و ستعود لنشاطها مجددا عندما يهل ربيع جديد..

غير أن الإبداع الأدبي يعتمد فقط على مخزون ورصيد معرفي سابق مع إعادة إخراجه فقط بصورة جديدة في ضفائر كلامية موزونة سجعا وجناسا، وقمة الإبداع فيه لا تكون إلا حينما ينعدم الفضول تماما ويصبح الذهن صافيا خاليا من ضوابط ومعايير الفكر الواقعي كي يسبح في الخيال ويتحلل من الواقعية، وتنحصر الفائدة منه في مجرد استشعار النشوى الشعورية في لحظة الحاضر فقط؛ لأن الحالة الإبداعية ذاتها هي المتعة، فهو ليس وجبة دسمة تعيش في المعدة لساعاتٍ قادمة إنما مذاق مؤقت، ولا يصنع قطيعة مع الماضي، ولذلك لم تؤد القصائد المعلقات العربية إلى إشعال حضارة في مكة.

بينما الإبداع العلمي يعتمد على دعامتين؛ الأولى رصيد معرفي سابق، والثانية إضافة فعلية جديدة، أي محاولة إنتاج معرفي جديد، وليس مجرد إخراج رصيد سابق في ثوب جديد، ويستمد قدرته وكفاءته من الفضول والتأمل والبحث في الحاضر مع التزام معايير الفكر الواقعي، ويصل قمته الإبداعية عندما تصل كثافة الفضول أقصى درجاتها، وفائدته ليست فورية مؤقتة، لأن الحالة الإبداعية ذاتها هي ألم، وإنما يؤدي إلى نقل الإنسان نقلة نوعية في المستقبل تصنع قطيعة مع الماضي بقدر الوثبات الفكرية التي اجتازتها الحالة الإبداعية.

بل إنه في عصرنا لم تعُد الاكتشافات العلميّة وتقدّم العِلم مرتبطين بمنطق تراكُم المعرفة فقط، بل أصبحت الاكتشافات وحركة التقدم العلمي تقاس بمقدار القطيعة المعرفيّة مع التراكم المعرفي السابق، وهو ما يعرف بظاهرة " الثورات العلميّة، التي تناولها فيلسوف العلوم "توماس كون" في كِتابه (بنية الثورات العلميّة). فالعلم هو تروس عجلة الحضارة، بينما الأدب فهو محض مرآة تتحرك إذا تحرك الترس وتقف إذا وقف الترس. ولهذا ارتقى الجبتي القديم بالعلم، بينما سكن وثبت العربي القديم رغم عبقريته الأدبية.

ولذلك نجد المجتمع الياباني يصب جل اهتمامه على العلوم البحثية والتقنية وطريقة التفكير ولا يلقي بالا للشعر والزجل والعروض، بينما تتخوف بريطانيا من انصراف شبابها عن ميادين المعرفة الطبيعية إلى المعرفة الإنسانية، حيث أجريت دراسات استقصائية حول ميول الطلاب إلى الشعبة الأدبية وتناقص أعدادهم في الشعبة العلمية في مراحل الدراسة الثانوية، وهو ما ينبئ عن مستقبلٍ مرعب يتجه نحو شبه جزيرة العرب...

لأن جناحي العقل "العلم والأدب" يعملان كما القلب سواءً بسواء؛ فالقلب يتكون من غرفتين رئيستين " البطين الأيمن والبطين الأيسر" والبطين الأيسر هو الأكبر حجما والأقوى عضليا وهو يعمل على ضخ الدم بمعدل ٦ لتر/دقيقة في شرايين الجسم كاملة، أي أنه يضخ الحياة في جميع خلايا وأنسجة الجسم، وهو الذي يأخذ الخطوة الاستباقية ويحمل الغذاء لجميع خلايا الجسم، هذا البطين يعمل في جسم الإنسان بمثابة العقل العلمي المفكر في الدماغ، بينما البطين الأيمن فهو أصغر حجما وأضعف عضليا ويعمل على استقبال الدم الراجع من كافة أوردة الجسم لإعادة تنقيته وتأهيله، لا يضخ غذاءً للخلايا والأنسجة وإنما فقط يستقبل نفاياتها والبقايا ومخلفات التنفس والهضم، أي دورة إعادة اجترار الدم وإعادة تدويره، وهو يعمل مساعدا للبطين الأيسر وليست خطواته ونبضاته استباقية وإنما تابعة وتالية للبطين الأيسر لأنه لا يضخ دم وإنما يستقبل الدم الذي ضخه البطين الأيسر لعيد تدويره، إذن هو ليس محركا استباقيا وإنما ترس ضروري لإعادة التدوير فقط. بينما البطين الأيسر هو الذي يتخذ الخطوات الاستباقية وهو الذي يضخ الدم عبر الشريان الأورطي الموزع لكل أنسجة الجسم، ومصدر الطاقة المحركة والقوة الدافعة تخرج من البطين الأيسر، أما البطين الأيمن فهو يستقبل رد الفعل فقط.

وهكذا العقل ينقسم إلى نصفين كرويين؛ النصف الكروي الأيسر للفكر والعلوم الطبيعية وأما النصف الكروي الأيمن فهو مخصص للأدب والفنون والمشاعر، وهي ذلك النشاط المساعد فقط للفكر والعلم، لا يضيف جديدا وإنما يبرز محاسن وعيوب ما أنتجه العلم والفكر، فقط يعيد تدويره وتنقيته وتجميله دون أن يقوم بخطوة استباقية أو إنتاجية، فقط هو رد فعل للأول، مساعد كما البطين الأيمن فقط لإعادة تدوير ما أنتجه الأول دون أن تكون له القدرة على اتخاذ أي خطوة استباقية بأي حال..

وهكذا كانت العقلية العربية أدبية لإعادة تدوير الحياة فقط دون اتخاذ أي خطوة استباقية إنتاجية، حتى أن الحضارة العربية فيما بعد البعثة أخذت طابعا أدبيا دينيا لا علميا، ذلك لأنها

تجسد العقلية العربية بمكوناتها الفسيولوجية.. بينما نجد أجدادنا القدماء في كافة معابدهم وفي التماثيل المنحوتة أمام المعابد وعلى الجدران والتي تصور مشاهد ومراسم تسلم السلطة، نجد جميع التماثيل تقف في وضعية تقدم القدم اليسرى على القدم اليمنى بمسافة نصف خطوة للأمام، بما يعني أن القدماء فهموا أن بداية الحركة والخطوة الاستباقية وعنصر المبادرة تبدأ بالعقل الأيسر العلمي المفكر وليس الأيمن الأدبي العاطفي، وفيه يكمن عنصر المبادرة.



حتى أننا نجد في تلك التماثيل التي تقف فيها الملكة إلى جوار الملك، تكون في وضعية تقدم القدم اليسرى للملك والملكة، ويظهر ذلك جليا في وضعية الاستعداد للحركة، ولا يمكن أن نجد تمثالا إيجبتيا واقفا في وضع السكون. وذات الملمح الفني نجده في الحضارة الإغريقية، حيث نجد الفنانون الإغريق قد تعمدوا نحت التماثيل الملكية بذات الوضعية الفرعونية. وذلك يؤكد مدى إدراك هذه الحضارات لمعنى أن يتخذ العقل خطوة استباقية في الحياة، لا أن يظل يكتب الشعر في ذات الموضوعات التي كتبها أسلافه، فقط بألفاظ ثابتة وضفائر كلامية مختلفة وإعادة اجترار لذات الأفكار والمعاني، أي إعادة ترتيب الكلام بطريقة مختلفة.

وأما العقلية العربية فهي عقلية أدبية محضة، وبما أن الفكر الأدبي هو فكر ساكن وغير ديناميكي وغير متحرك، أي لا يقدم نتاجا معرفيا جديدا وإنما مجرد " جري في المحل" فهو حتى وإن كان يمثل فكرة وحركة عقلية لكنه في النهاية ثبات عقلي. ولذلك نجد علماء النفس يفرقون بين ظاهرتي نفسيتين تتعلقان بالذاكرة، وهما الذاكرة العرضية والذاكرة الدلالية.

ونقرأ في الويكيبيديا: الذاكرة العرضية Episodic memory هي ذاكرة أحداث السيرة الذاتية (الأوقات والأماكن، والعواطف المرتبطة بها، وغيرها كمعرفة من، ماذا، متى، أين،). أي ذاكرة (المشاهد والصور)، وهي مجموعة من التجارب الشخصية السابقة التي وقعت في وقت معين ومكان معين وفي ظرف معين. فهذه الذاكرة هي ما يسمح للفرد أن يعود مجازيا بالوقت المناسب لتذكر الأحداث التي وقعت في ذلك الوقت والمكان المحدد بتفاصيلها كاملة وكأنها يعيد معايشة الحدث مرة أخرى. وهي تختلف عن الذاكرة الدلالية Semantic memory التي هي عبارة عن شبكة من المعرفة العامة (الحقائق والأفكار والمعاني والمفاهيم) التي تم اكتسابها واكتشافها على مدار الحياة.. وفي هذه السطور سنحاول أن ثبت أن الذاكرة العرضية هي ذاكرة أدبية، بنما الذاكرة الدلالية هي ذاكرة علمية فكرية.

وبوجهٍ عام الأشخاص الذين يتمتعون بقوة الذاكرة نجدها عند تحليلها ذاكرة عرضية (غالبا ذاكرة النساء) تقوم على القدرة على استرجاع الصور والمشاهد والأحداث والحكايات بتفاصيلها الدقيقة (بغض النظر عن الفكرة أو أهمية هذه المشاهد والتفاصيل المملة) فالشخص قوي الذاكرة يسترجع الحدث بتفاصيله المفيدة وغير المفيدة أيضا، يسترجع تفاصل المشهد كاملة.

وأما الأشخاص الذين يعانون من ضعف قدرتهم على التذكر، فعند تحليل ذاكرتهم نجدها تقوم على الموضوعات والأفكار فقط دون تفاصيل المشهد والصورة بمحتوياتها الدقيقة، ونجد هؤلاء الأشخاص كثيري التفكير والتحليل والفضول في البحث وراء الأفكار، لأن ضعف الذاكرة قرين ظاهرة الفضول، بل إنهم لا يتذكرون المشاهد والأحداث إلا بالموضوعات، فقد يتقابل شخص "أ" مع آخر"ب" ولا يكاد "أ" يتذكره أبدا رغم أنهما تقابلا فعليا قبل ذلك، ثم يحاول "ب" تذكير الأول بمقابلة أو بموضوع معين تحدثا فيه أو فكرة معينة ناقشاها سويا، وهنا يبدأ الأول في استرجاع الموقف بناءً على تذكيره بالموضوع وليس مجرد شكل وصورة الشخص والمشهد، بل بعد نبش فكرة

اللقاء في عقله. وهذا هو الفرق بين الذاكرة العرضية التي تقوم على الصور والمشاهد والذاكرة الدلالية التي تقوم على الأفكار فقط والموضوعات والغاية أو المغزى من كل موضوع.

وبما أن العرب يتفوقون جدا في قوة الذاكرة، فهم لديهم قدرة خارقة على تذكر الأحداث والمواقف وتفاصيل المشهد الدقيقة، لدرجة أنهم اخترعوا مثلا شعبيا يقول " البعرة تدل على البعير"، ومعناه أنهم كانوا يتأملون في روث البهائم وملامحه وشكله ولونه ورائحته وحجم حبيباته بدقة بالغة، وإذا مشى شخص في الصحراء ورأى بعرة فيقوم بفحصها ليعرف نوع البعير منها، ومن هنا خرج المثل " البعرة تدل على البعير" فهم لا يتأملون في المكونات الكيميائية والطبيعة الفيزيائية لهذا البعر، وإنما في الملامح المشهدية الخارجية فقط بغض النظر عن التكوين العلمي المادي لهذا الشيء..

ونجدا أيضا لديهم عادة غريبة وهي تقفي الأثر، أي كان بينهم أشخاص يعرفون تتبع آثار الخطى في الصحراء والرمال، فهو يحفظ صورة الأثر بتفاصيلها كاملة، فيمشي في الصحراء لتتبع آثار الخطى أمامه ويقول مر من هنا أبو جهل مثلا أو أبو لهب، لأنهم يعرفون الشخص من آثار القدم التي تتركها عند السير في الصحراء، ويعرفون ما إذا كان الأثر لقدم رجل أو امرأة، وإذا كانت امرأة فيحددون ما إذا كانت حامل أم لا، وإذا كانت حامل يعرفون شهرها، لأنه مع تقدم فترة الحمل ينبعج العمود الفقري للأمام نتيجة تزايد حمل الرحم عليه فيؤدي ذلك إلى رجوع الصدر والكنف للخلف وفي المقابل يعوم مشط القدم ويرتكز الحمل على الكعب فينغرس في الرمال أكثر فيعاد تشكيل الأثر بشكل جديد مختلف عما إذا لم تكن حامل أو كان الأثر لقدم رجل...

فالعرب لديهم قدرة عجيبة وخارقة في قوة الذاكرة وحفظ واسترجاع تفاصيل المشهد بدقة.. هذا بالإضافة إلى قدرتهم الخارقة في حفظ الشعر العربي، فتجد الرجل فيهم جاهلا لا يعرف القراءة ولا الكتابة لكنه يحفظ مئات وربما آلاف من القصائد الشعرية، حتى أن الفتيان الذين يرعون الغنم يحفظون الشعر بكثرة وبسهولة، والعبيد الذين يحدون الإبل يتغنون بالشعر أثناء حدوهم للإبل، بالإضافة إلى أنهم يحفظون تفاصيل الصحراء رغم أنها خالية من معالم الحضارة والخضرة أو أي موانع وإشغالات طبيعية أو مدنية، كما يقول ابن بطوطة" الداخل فيها هالك والخارج مولود"، ورغم ذلك تلتقط ذاكرتهم الفولاذية معالم المشهد الصحراوي ومن ذلك يعرفون دروب الصحراء جيدا، ومن هنا قيل أن " أهل مكة أدرى بشعابها "..

فهم بالفعل شعب يتمتع بقوة ذاكرة خارقة، ونحن الجبتيين أو الشاميين نقر ذلك ونعترف بضعفنا أمامهم من حيث قوة الذاكرة والقدرة على تأليف وحفظ الشعر بوجهٍ عام. فالذاكرة

العربية بوجه عام هي ذاكرة فولاذية وذلك راجع إلى طبيعة ونوعية الفكر الأدبي، فإذا اعترفنا أن العرب أقوى من الجبتيين في الذاكرة، فإننا سنجد الوحيد الذي قارعهم في الشعر الموزون المقفى، وهو أمير الشعراء أحمد شوقي، فيخبرنا الخادم الخاص به أنه كان يتمتع بذاكرة فولاذية حتى لحظة وفاته، وكان يسأل خادمه عن أمور عادية ويذكر له أدق التفاصيل التي يهملها العقل الجبتي عادة.

لكن.. في المقابل عند تحليل هذه الذاكرة الفولاذية سنجدها ذاكرة عرضية أي تقوم فقط على التقاط الصور والمشاهد الحية بتفاصيلها الدقيقة المملة، بغض النظر عن الموضوع والفكرة وتحليل السببية، حتى وإن تمكن العرب في استخدام هذه الذاكرة التفاصيلية في حياتهم والانتفاع بها في تقفي الأثر وحفظ دروب الصحراء وحفظ الشعر وحفظ الأنساب والمواقف والأمثال وحفظ التاريخ والتراث الشعبي شفويا دون الحاجة إلى تدوين.. ففي النهاية هي ذاكرة عرضية مشهدية أدبية وليست فكرية وليست علمية أبدا، لأنها نتاج عقلية أدبية وليس عقلية علمية تقوم على الأفكار والموضوعات وتحليل السببية، فإذا كان العرب تفوقوا علينا في قوة الذاكرة، فذلك دليل على نوعية النشاط العقلي الذي هو أدبي في المقام الأول، بينما الذاكرة الجبتية ضعيفة مقارنة بالعرب لأنها نتاج عقلية علمية تقوم على الأفكار وتحليل الموضوعات والمغزى بغض النظر عن التفاصيل المشهدية التي تمتع بها العرب في تقفي الأثر وبعر البعير..

وليس العرب وحدهم هم من فكروا في بعر البعير، بل إن أجدادنا الجبتيين أيضا تأملوا وفحصوا بعر البعير، لكن هناك فارق بين العقلية العلمية والعقلية الأدبية، الجبتيون لم يهتموا كثيرا بحدود المعالم الشكلية والوصف والملامح التي تميز كيانا عن آخر، وإنما غاصوا في أعماق الكيان نفسه تحليلا ليعرفوا سبب اختلاف ملامحه، فمثلا في الفقرة الثانية والعشرين من بردية "كاهون" تتكلم عن طرق منع الحمل. وكانت الطريقة عبارة عن مزيج من روث التماسيح الصغيرة (تحتوي على هرمونات أنثوية) تخلط مع ٤٥مل من العسل ومع اللبن الرايب وتؤخذ قبل الجماع بليلة..[(١)]

---

١ ـ أول موسوعة لأمراض النساء والولادة والعقم وتحديد النسل في التاريخ مصريه بردية " كا هون " لأمراض النساء، وهي أقدم برديه طبية في التاريخ تعود إلي ما قبل ١٨٠٠ سنة ق.م وتتكلم عن كل ما يخص أمراض النساء كالحمل .. والولادة والعقم ... ومعرفة الجنين وأورام الرحم... إلخ. وقد عثر لعيها في منطقة اللاهون بالفيوم عام ١٨٨٩م وهي موجودة بمتحف برلين الآن... والبردية مقسمة إلي ٣٤ جزء أو فقرة وكل فقرة أو جزء تتكلم عن مرض معين وطريقة وتشخيصه وعلاجه فمثلا في الفقرة ٢٢ تتكلم عن طرق منع الحمل. والفقرة ٢٦ تتكلم عن اختبار لقدرة المرأة على الإنجاب، وهل ستنجب أم ستكون عاقرا، وذلك بوضع فص أو فصين توم من الحجم الكبير داخل مهبل السيدة، فإذا ظهرت رائحة الثوم من فمها تكون قادرة علي الإنجاب ويعتمد علي صحة أنابيب فالوب إذا كانت سليمة وغير مسدودة . أما الفقرة من ٣٢ـ٣٤ فتتكلم عن الأمراض المصاحبة للحمل مثل الآم الأسنان مع الحمل.. أو آلام الظهر.. وأمراض الكلي مع الحمل.

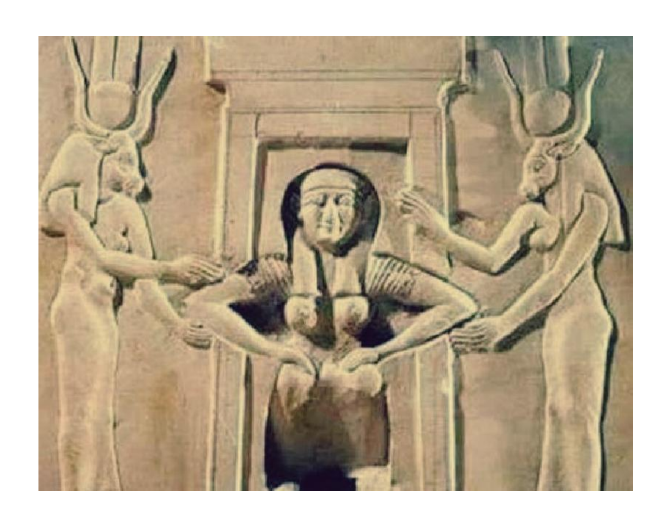
بينما العرب كانوا يعتمدون على طريقة العزل (سحب القضيب من مهبل الأنثى قبل لإنزال حتى لا يحدث تخصيب)، وهذا ما يفسر سر تفوق القدماء في العلم وسر تفوق العرب في الشعر، فالقدماء لم يكونوا عباقرة وإنما كان نسجهم الذهني علمي بحت، بينما العرب نسيجهم الذهني بالفطرة أدبي بحت، ولذلك نجد فارقا في نظرة كلا الشعبين لبعر البعير.

والعرب فكروا في شكل الأثر الذي يتركه قدم الرجل وتتركه قدم المرأة الحامل على الرمال أثناء سيرها في الصحراء، واستخدموا هذه الذاكرة العرضية في معرفة أشهر الحمل.. بينما الجبتيين لم يهتموا بهذه التفاصيل المشهدية العابرة، بقدر اهتمامهم بالأفكار والأسباب والعلة والكيفية، فهم فكروا في تحليلة علمية توصلوا من خلالها لمعرفة مدة الحمل ونوعية الجنين قبل الولادة وما إذا كان الجنين ذكر أو أنثى من خلال تحليل عينة من بول المرأة الحامل بعد الشهر الثالث تقريبا لمعرفة نوع الجنين والحمل الكاذب، وذلك بوضع بذور الشعير والقمح مع عينة من بول المرأة، فإذا نبتت بذور القمح والشعير معا فيكون ذلك دليل على أن الجنين أنثى، وإذا نبتت بذور الشعير فقط فيكون ذلك دليل على أن الجنين ذكر لأن الوسط حمضي في الرحم أي زيادة في نسبة الأملاح عن القلويات، فالشعير يستطيع التغلب على الأملاح وينمو في التربة المالحة، عكس القمح الذي ينمو في التربة العذبة فقط.

وكذلك ابتكروا تحليلة للتعرف على هرمونات الحمل التي تفرزها خلايا المشيمة في حالة نجاح الحمل خلال الأسابيع الأولى، وإذا لم توجد يكون الحمل كاذبا.. أي أن العقلية الجبتية جمعت الملاحظات واستخدمتها بطريقة تقنية في تحقيق نتائج لا يمكن معرفتها بمجرد الملاحظة.. أما العقلية العربية فقد جمعت الملاحظات واستدلت بها فقط على ملاحظات أخرى لأن العقلية العربية نظرية..

بينما الجبتيون استخدموا ملاحظاتهم واخترعوا كرسي معين تجلس عليه المرأة أثناء عملية الولادة ليساعد في الطلق وخروج الجنين بسهولة، توصلوا إلى أن وضعية جلوس المرأة أثناء الولادة صحية أكثر من وضعية الاستلقاء على الظهر، وقاموا باختراع أجهزة طبية لعمليات الولادة وخصصوا غرفا للولادة بمعبد الأقصر. وغير ذلك من الأفكار العملية.. ونؤكد مرارا في هذا السياق أن الأمر لا يتعلق بذكاء الجبتيين أو العرب ولا بحجم التطور والتقدم وإنما بنوعية وطريقة التفكير فقط. ونحن نرى خطورة الغزو العربي ليس في الخسائر البشرية ولا في الخسائر الاقتصادية، وإنما في الغزو المعرفي لأن أثره مستمرٌ فينا، وطالما استمر التطبيع وتقمص العقلية

العربية فلن نقدم أي إبداعٍ جديد لا في العلم ولا في الشعر، لأن الشعر بالنسبة لنا ليس صنعة أصلية وإنما مستوردة ومن شأنها وأد المنتج المحلي.



ولتوضيح الفرق بين آلية عمل العقلية الأدبية والعقلية العلمية، نعرض هنا مثالين متماثلين كأصلٍ عام (كما الجبتيين والعرب من حيث كون كلاهما إنسان)، ومتناقضين في ذات الوقت (كما الجبتيين والعرب من حيث كون العقلية الجبتية علمية والعقلية العربية أدبية).. هذان المثالان هما معدات ثقيلة تستخدم في رفع الأثقال وكلاهما يتمتع بذات القدرة والفاعلية، وذات الوزن تقريبا وذات السعر في الأسواق تقريبا، ويكادا يكونا متماثلين مقترنين في كل شيء، وبرغم ذلك تبقى نظرية العمل متناقضة تماما وكليا.. فالأول " اللودر" يعتمد على طريقة الصدر والمسح الأفقي لسطح الأرض، وتنحصر قدرته في قشط ومسح القشرة السطحية، وترتكز قوته في الرفع لأعلى دون التنقيب في العمق، وإذا صادف صخرة غائرة لا يفكر في التنقيب حولها وإنما في مسحها والقفز فوقها.

بينما الثاني "الحفار" ترتكز قدرته على الضغط لأسفل والغوص في الأرض وتحريكها والتنقيب في العمق (وليس المسح الأفقي) لسطح الأرض وليس مؤهلا للرفع الأمامي.. وما يقوم به الحفار لا يمكن أن ينجزه اللودر بأي حال، لأن نظرية العمل في كلاهما متناقضة ومتعاكسة..واتجاهات العزم مختلفة، حتى وإن تساوت القدرة في النهاية، فاللودر تأتي ثمرة جهده وقوته فقط في مرحلة التعالي، بينما الحفار تأتي ثمرة جهده وقوته فقط في مرحلة التواضع.. وهناك فارق شاسع بين طاقة الوضع وطاقة الحركة التي يعمل بها كلاهما، حتى وإن كان كلاهما يستهلك ذات الوقود.. وفي الواقع فإن عقل الإنسان بوجهٍ عام يمكنه العمل بالطريقتين لكن كل إنسان مبدع في واحدة فقط، ولذلك نجد بعض الطلاب يختارون الشعبة العلمية وبعضهم يختار

الشعبة الأدبية لعدم تمكنه من التفكير بالطريقة الأخرى. والإنسان يبدع ويبتكر من الآلات والمعدات ما يماثله ويماثل عقله ويحاكي طريقة عمله.



وهو ذات الوضع في الاختلاف والتناقض عند مقارنة العقلية العربية والعقلية الجبتية، حتى وإن كان كلاهما يتخذ الإسلام دينا، فنظرية العمل الذهني مختلفة تماما، فالعقلية الجبتية إنتاجية، بينما العقلية العربية استهلاكية، العقلية العربية تنتج الشعر بالتعالي، والعقلية الجبتية تنتج العلم بالتواضع.. والعقلية العربية تقوم على الإبداع الشعري و"المسح المعرفي" ولملمة أدق التفاصيل عن المشهد أو الموقف أو الذكرى وملامح الشعور والمعنى، ثم رسم صور ذهنية مجازية مشابه لبعضها ومشابهة للواقع أي أن بؤرة إعجازه في رصد ملامح التشابه المجازي.. بينما العقلية العلمية تعتمد تقنية الفضول و"التنقيب المعرفي" وذلك بقلب وإقلاب المعلومات ليعتصر منها الأفكار التقنية..

لأن العقل البشري بوجهٍ عام في طريقة عمله الفكري متموج يأخذ رحلة صعود ثم رحلة هبوط متكررة مثل موج البحر، والإبداع الأدبي الشعري يثمر فقط خلال رحلة التصاعد الموجي للعقل (إلهام بلا إرادة)، ولهذا أبدع العرب في الأدب والشعر وتميزوا بالغرور والتعالي وهجروا العلم والبحث عرفوا ظاهرة العبودية والنخاسة.. وأما الفكر العلمي فيثمر فقط خلال رحلة التهابط الموجي للعقل، ولهذا فشلوا في الشعر ونبذوا الغرور والتعالي وتواضعوا للعلم والبحث والعمل اليدوي ولم يعرفوا ظاهرة العبودية..

كما لو كان هناك كائن ينشط عمله في وقت الضحى ويسكن عند المساء، وآخر يسكن في الضحى وينشط عمله في وقت المساء، أو كما لو نظرنا للشمس فهي تصدر الضوء قبل

الظهر وكذلك بعد الظهر، لكن وقت الظهر هو الفيصل وخط الزوال بين رحلة صعود الشمس إلى كبد السماء ورحلة هبوطها بعد الظهر.. ولهذا اختلف النتاج المعرفي للعقل العربي وطريقة عمله عن النتاج المعرفي للعقل الجبتي وطريقة عمله.. ولذلك لكل منهما نظرية عمل مختلفة، وإذا تقمص كل منهما دور الآخر ونظرية عمله تنهار قوته ويفقد كل مزاياه..

فالجبتيون لم يتمتعوا بذاكرة فولاذية مثل ذاكرة العرب، ولم يتمتعوا بعبقرية شعرية مثل العرب لأن عقليتهم عليمة عملية تطبيقية "تنقيب معرفي" وليست أدبية "مسح معرفي"، وطبيعة العقلية العلمية تقوم على التفكير والديناميكية والحركة والفضول والبحث وراء السببية والكيفية والتقنية والاستنتاج ثم استخدام هذه المعرفة وليس مجرد الاستدلال، وليس إعادة اجترار المشاهد والصور بذات تفاصيلها كما ذاكرة العرب، لأن مجرد قدرة العقل على استرجاع الصورة السابقة بكامل تفاصيلها فهذا معناه سكون فكري وعدم قدرته على إضافة أي نتاج معرفي جديد، وبقدر ما تتناقص الصورة المسترجعة تكون إضافات عقلية جديدة من الحاضر والمستقبل، لأن الذاكرة العقلية هي معادلة رياضية مضبوطة ومتعادلة، ولذلك فإن قوة الذاكرة ميزة وعيب في ذات الوقت لأنها لا تكون إلا مع انعدام التقدم وانعدام النتاج الفكري الجديد.

أما ضعف الذاكرة فهو عيب لكنه بالفعل ناتج عن كثافة فكرية وكثافة نوعية في النتاج المعرفي الفكري. وهذه الذاكرة العربية العرضية تقوم على إعادة اجترار الصور والمشاهد والمعاني والأشعار لمجرد إعادة تذوقها وليس استخدامها في فعل أو توظيفها في تقنية ما، وطالما كانت الغاية هي تذوق الصورة الشعرية والمشهد والذكرى والموقف فإن العقل يسترجع الصورة الشعرية بتفاصيلها كاملة وهي اللازمة لعملية التذوق والحبكة الفنية وليس فقط ما فيه الفكرة، بل هو يسترجع الصورة بما فيها من مكونات مادية وما حولها من توابل لأن الغاية هي إعادة التذوق .. أما العقل الجبتي يسترجع فقط الأجزاء المادية من الصورة التي تتعلق بفكرة يمكن تحويلها إلى فعل، وباقي التفاصيل غير المهمة أو غير القابلة للتحويل إلى فعل يهملها العقل بطبيعته، فهو يقوم على تفتيت المشهد وانتقاء الأجزاء التي يمكنه توظيفها في بناء فكرة جديدة وليس إعادة نسخ المشهد كاملا.. ولذلك فذاكرة الجبتيين من نوع الذاكرة الدلالية التي تعتمد فقط على الموضوعات والأفكار، أما العرب فذاكرتهم عرضية تعتمد على الصورة والمشهد وتذوق المعنى[1].

---

١ ـ في الواقع كان ابن خلدون صائبا عندما وضع نظريته في علم الاجتماع بوجه عام، وما عاب نظريته عن العقلية العربية سوى أنه لم يكن حياديا ولم يتحدث عن العرب بمنطق علمي يحترم عقل القارئ ولم يذكر لهم حسنة.. لدرجة أنه يُشعر القارئ بأنه يتحدث عن مجتمع ليسو بشر وإنما غابة من الضباع والذئاب الجائعة، إنما في الحقيقة هم

هذا لا يعني أن الجبتيين أكثر ذكاءً من العرب، بل إننا نتحدث ليس في مستوى الذكاء وما يحمله من معنى الأفضلية وإنما في نوعية التفكير وشعبة الثقافة (العلمية والأدبية) التي تصلح غذاءً مفيدا لكل نسيج عقلي من النسيجين الجبتي والعربي. والذكاء هو وقود الفكر الأدبي بينما الفضول هو وقود الفكر العلمي، والصور هي وحدات الفكر الأدبي بينما المعلومات هي وحدات الفكر العلمي. والعقلية الجبتية ترتكز على التنقيب المعرفي، بينما العقلية العربي ترتكز على المسح المعرفي.

إذن آلية عمل العقل الأدبي تختلف عن آلية عمل العقل العلمي، وذاكرة العقل الأدبي تختلف عن ذاكرة العقل العلمي، ونوعية المعلومة التي يبحث عنها العقل العلمي تختلف عن نوعية المعلومة التي يبحث عنها العقل الأدبي، والغاية التي تسترجع الذاكرة الدلالية العلمية من أجلها تختلف عن غاية الذاكرة العرضية الأدبية، وطريقة عمل الذاكرة العرضية تختلف عن طريقة عمل الذاكرة الدلالية، والغاية من الفكر الأدبي هي إعادة اجترار وإعادة تذوق المعنى بتفاصيله الفنية، بينما الغاية من الفكر العلمي هي إعادة توظيف واستخدام آلية ما في فعل مادي، والعقل الأدبي عقل ساكن " جري في المحل" أو إعادة اجترار، بينما العقل العلمي ديناميكي متحرك متنقل، والفكر الأدبي يعتمد على رصد الملامح الفنية للصورة والمشهد، بينما الفكر العلمي يعتمد على تفكيك الكيفية والسببية... وفي النهاية فإن مجرد افتخارهم بقوة الذاكرة واعترافنا نحن بتفوقهم علينا في الذاكرة، فهذا دليل نهائي وبات على أن العقلية العربية أدبية والعقلية الجبتية علمية، ومجرد تفوقهم وعبقريتهم في قرض الشعر وعجزنا عن مقارعتهم فيه، فهذا دليل نهائي وبات على أن العقلية العربية أدبية وأن العقلية الجبتية علمية. وهذا معنا أن غذاء العقل العربي غير ملائم للعقل الجبتي وأن غذاء العقل الجبتي غير مهضوم للعقل العربي.

وفي كتابه " مستقبل الثقافة في مصر" حاول الدكتور طه حسين أن يثبت أن العقل المصري أقرب إلي العقل الأوروبي وبالتالي العقلية اليونانية وليس العقل الشرقي، نظرا لما كان من ارتباط واندماج وانسجام بين الثقافة والحضارة المصرية القديمة والحضارة اليونانية التالية عليها زمنيا، حيث هضم العلماء اليونان العلوم المصرية القديمة في مطلع حضارتهم، ويؤكد أن مصر وإن كانت شرقية من الناحية الجغرافية، ولكنها غربية العقل وأن المصري أقرب عقليا إلي الأوروبي البريطاني

مجتمع لكن طبيعتهم مختلفة عن شعوب الحضارات المدنية، وعقليتهم أدبية نظرية... وليسو جبناء كما وصفهم ابن خلدون، بل العكس تماما، فجميع الشعوب التي وقعت تحت جيوشهم وصفوهم بالوحشية والقتال الانتحاري، ذلك لأن طبيعتهم في الأصل طبيعة حربية نشاطها الفروسية والإغارة.

والإيطالي والفرنسي عن الهندي والصيني والشرقي بصفة عامة نظرا لاتصال مصر علي مدار عدة قرون بحضارة البحر المتوسط...

ونحن نتساءل لماذا يحاول طه حسين ويبذل قصارى جهده لإثبات أننا مختلفون عن الهند والصين وإيران والعراق؟ هل لأن العقل الشرقي هو آفة ذهنية مثلا ؟

فقد تحدث طه حسين عن العقل المصري والعقل اليوناني، وكيف أثر العقل المصري في اليوناني والعكس، وقال أن العقل المصري واليوناني قريبين جدا من بعضهما والتأثير المتبادل بينهما كبير وممتد عبر زمن طويل، بينما لم يكن بين العقل المصري والهندي أو الصيني مثلا أي اتصال، ورغم قرب العقل العراقي والإيراني جغرافيا من مصر إلا أن التأثير المتبادل بينهم معدوم تقريبا، لذلك فهو يري أن العقل المصري عقل (بحر متوسطي) مثل العقل اليوناني والأوروبي، وليس عقلا شرقيا مثل العقل الهندي أو الصيني. فقد تجاهل طه حسين ما كان من اتصال (مباشر) بين الحضارة الآشورية والبابلية العراقية وبين الحضارة المصرية القديمة، وربما تجاهل أيضا الرسائل الدبلوماسية المتبادلة بين الفراعنة والبابليين والأشوريين والحيثيين، التي ما زالت قائمة في تل العمارنة، ثم ما الفائدة التي يبحث عنها طه حسين في إثبات اختلافنا عن هؤلاء؟ فالحضارة العراقية القديمة تكاد تناطح الحضارة المصرية القديمة، وقد توصلت لكثير من الاكتشافات العلمية التي توصل لها الفراعنة، فوضعوا خريطة الأبراج الفلكية، ووضعوا منظومة قانونية رائعة "تشريع حمورابي" واكتشفوا الكثير من مبادئ الحساب والهندسة والطب..إلخ. وكذا الصينيون قديما شيدوا حضارة عظيمة.

ونحن نتفهم دوافعه النبيلة من هذه الغاية، فقد كان يرنوا إلى إقناع المواطن المصري بالجرأة على هضم المنتج المعرفي للحضارة الأوروبية الحديثة والخروج من بوتقة التراث الثقافي المنغلق داخل الحدود المصرية الشرقية، حاول الخروج من أسوار السجن المعرفي الأزهري، ولهذا أكد في كتابه على أهمية تدريس اللغة اللاتينية واليونانية إلى جانب الفرنسية والإنجليزية ضمن مراحل التعليم الأساسي.

إنما ما غاب عن الدكتور طه حسين أنه أقام المقارنة بين العقل المصري والشرقي والأوروبي على أساس الاتصال وتبادل الثقافات (وهذه وقائع قد تكون حقيقية لكنها غير مجدية) لأنه لا ميزة للقول بأن العقل المصري مختلف عن العقل الشرقي الصيني والهندي وأنه لم يكن بينهما تبادل ثقافي واحتكاك معرفي عبر التاريخ، فهذا ليس سببا للقول باختلاف العقلية، لأن هذا الانقطاع ليس نابعا من باب تنافر العقليات وتناقض الغذاء المعرفي والمنتج المعرفي وآلية الهضم والإنتاج، وكذلك

الاتصال والاندماج بين الثقافة المصرية القديمة والحضارة اليونانية ليس نابعا من باب الاقتران والتجاذب والتماثل في النسيج العقلي، إنما يمكن القول بأن مسألة الاتصال ناشئة عن ظروف وأحداث سياسية عسكرية، فالسلطة الاستعمارية الأوروبية من شانها التأثير على العقلية المصرية دون أن يكون العقل المصري أوروبيا أو قرينا بالعقل الأوروبي، لأن التأثير هنا يكون قهريا وفي ظرف انسلاب وانسحاب للإرادة الجمعية، فتطغى الثقافة السائدة المهيمنة على عقلية المغلوب، ثم ينبهر بها بعد وقت، ثم يتقمص عقليتها وطريقة تفكيرها.

أما انقطاع الاتصال بين الشرق الصيني الهندي ومصر القديمة، فذلك ليس راجعا لاختلاف العقلية المصرية عن الهندية والصينية، إنما لأن المسافة كانت أبعد من الاتصال العادي، ولم يحدث بينهما أي اتصال واندماج قهري كما حدث في العصر الاستعماري الأوربي للشرق مثلا. غير أنه لا ميزة من التفرقة بين العقل المصري والصيني الشرقي دون تحديد عناصر الاختلاف، ولأن كلاهما بنا حضارة قديمة عظيمة لا تقل عن حضارة اليونان شأنا، أي له سيرة ذاتية مشابهة، فما الفائدة من إثبات أن العقل المصري غربي لا شرقي؟ هل أن الثقافة الهندية الشرقية مُضرة بالصحة مثلا؟ أو أن العقل الأسيوي غير قابل للتحضر؟ فكيف صعدت دول النمور الأسيوية مجددا؟ وكيف صعدت اليابان والصين وكوريا حديثا؟ فجميع هذه الشعوب من ذات العرق الأسيوي. لكن هذا العرق الأسيوي لم يكن قد ظهر إبداعه في الفترة التي كتب فيها طه حسين كتابه، ولهذا حاول إقناع المواطن المصري بضرورة هضم الثقافة الغربية الحديثة المتطورة.

ثم أنه عند عقد المقارنة بين العقل المصري واليوناني هل تكون رابطة النسيج الذهني قائمة على ما حدث من وقائع تاريخية عرضية، حينما أقدم اليونانيين على ترجمة العلوم المصرية القديمة؟ .. فالحضارة المصرية هي أم بالنسبة لليونانية والرومانية، فهل يمكن الاستدلال بأن الأم تشبه الابن؟ كي يقتدي الحفيد بهذا الابن؟ ... في الواقع أن الدكتور طه حسين حاول قدر جهده التمييز بين الأنسجة العقلية ومن ثم تمييز الغذاء العقلي المعرفي الملائم لكل نسيج عقلي، لكنه لم يدرك معايير التفرقة، كونها معايير علمية بحتة، بينما الدكتور طه حسين كان أديبا وليس عالما.. وبطبيعة الحال الفكر الأدبي لا معايير له حتى وإن أدرك جانبا من الحقيقة... إنما كان ينبغي التفرقة ما بين الشعبة العلمية والشعبة الأدبية.. الفكر العلمي والفكر الأدبي.. النسيج الذهني العلمي والنسيج الذهني الأدبي، لأن كلامها لا يمكن أن يتغذى على مفرزات الآخر بأي حال، ولا يمكن أن يكون منتج أحدهما غذاءً صحيا وملائما للآخر... وقد كانت الحضارة المصرية القديمة علمية بحتة، حتى أدبها انحصر في جانب "الحكمة " واللمسات الفنية في العمارة

الفرعونية، فقد ترك الفراعنة آلاف البرديات العلمية الدقيقة، ولم يتركوا قصيدة شعر أو معلقة واحدة مثل المعلقات الشعرية العربية، ولم يتركوا آلاف المرويات الخرافية التي اعتبرت فيما بعد دينا للشعوب..

وهي ذات الوجهة التي تبناها الفيلسوف زكي نجيب محمود حينما قرر أولوية هضم العقل الغربي والابتعاد عن محتوى العقل العربي ، ثم عاد على استحياء وقرر ضرورة تنقية التراث من الخرافات التي علقت به وغطت كثير من المساحات العقلية والوعيوية على المستوى الشعبي خاصة في التراث الإسلامي، وقرر أن المواطن العربي يجب أن يبحث في الجذور لينتقي أفضل التراث، بينما في الواقع نحن لسنا عرب، والثقافة العربية ليست تراثنا إنما تراث المحتل العربي الذي طمس هويتنا واحتل بلادنا وفرض علينا ثقافته ولغته، ولا يمكن أن نفكر بعقلية حرة منفتحة بعيدا عن العرب طالما نحن إلى الآن نخجل من الحديث لغتنا الأم ! وكأنها لغة الكفار ! وأن لغة العرب هي لغة الجنة ! فلماذا خلقها الله على لساننا إذن ! " سبحانك ربنا ما خلقت هذا باطلا ".. بل إن مسألة اللغة الأم هذه لا يجب أن يجب عنه سوى علماء النفس الذين يدركون مدى الاعتزاز بالهوية الذاتية الوطنية، ومدى تأثير اللغة الأم على مستوى الأداء الذهني بوجهٍ عام.

جميع المفكرين خلال القرنين الماضيين كانت عقولهم حائرة بين الشرق والغرب على ما يبدو.. كانت هذه الإشكالية هي القاسم المشترك بين كثير من مفكرينا الذين حاولوا إيجاد مخرج لنا من سقطتها الحضارية، وجد الكثير منهم إجابتها في مقاطعة التراث ورفضه لما يحتويه على أسباب تخلفنا وتراجعنا.. ووجد غيرهم سبيل النجاة في إحيائه والتمسك به والعودة إلى زمن الأمجاد.. ووجد آخرون أن اتبع خطى الغرب في الفكر والحضارة وهضم المنتج المعرفي الغربي هو سبيل الخلاص من هذه الأزمة.. بينما تفتحت أجيال القرن الحادي والعشرين على مسألة الهوية الوطنية وغاية في الأهمية، بعيدا عن الشرق والغرب.. لأن الحضارة لا يمكن أن تنبت في بلادها ببذور أجنبية عن مناخها.

إنما التفرقة كان يجب أن تقوم بين العقل العلمي والعقل الأدبي، وبطبيعة الحال لم يستطع الدكتور طه حسين وهو عميد الأدب العربي أن يدرك أن طغيان هذا العقل العربي الأدبي على العقلية المصرية هو أس الفساد والانهيار والاضمحلال الذي أصاب العقل المصري، وأنه هو الآفة الذهنية بالفعل.. فقد حاول أن يثبت أن مجرد التواصل الذي كان بين اليونان والمصريين قديما يمكن أن يكون مدخلا لحضارة مصرية ويناسب العقلية المصرية، ولم يدرك أن التواصل الذي

كان وما زال بين العقلية المصرية والعقلية العربية الأدبية هو سبب الفشل العقلي الذي نعيشه الآن. وربط بين مصر القديمة واليونان القديمة ودلل على ذلك بأنه قامت حضارتين متشابهتين متماثلتين في النسيج الذهني والنتاج المعرفي لكليهما، بينما لم يقم ذات المقارنة بين القاهرة ومكة قديما حديثا ليدرك حجم التبادل الحضاري الرهيب الذي انتقل من الإسكندرية إلى مكة عقب دخول العرب، ومن مكة إلى القاهرة خلال فترة حكم حنظلة الكلبيّ !.. تجاهل طه حسين حقبة اتصال المصريين بالعرب على مدار ألف وأربعمائة عام، وأقام بيّنة التحضر على اقتران مصر باليونان خلال ما يقارب خمسمائة عام فقط ! في محاولة لإثبات إمكانية تجدده في العصر الحديث...

ذلك ببساطة لأن جيل طه حسين من المثقفين والمفكرين لم يدركوا أن دخول العرب مصر كان احتلالا، بل كانوا ما يزالون مقتنعين – دون وعي- بأنه فتح ... بل إنه كما قال بأن اليونانيين يدركون جيدا أنهم تلاميذ للحضارة المصرية الراقية حينما دخلوا مصر وتعلموا في مكتباتها وترجموا علومها وأسسوا قواعد علمية وحضارية في بلادهم بعدما هضموا منتجات الحضارة المصرية.. كان عليه أن يتساءل عن حجم العلوم والمعارف التي ترجمها وهضمها الصحابة الكرام حينما دخلوا مصر بالمرة، ولماذا استطاع اليونان هضم العلوم المصرية وبناء حضارة عليها، بينما بقيت مكة وشبه جزيرة العرب صحراء قاحلة على حالها؟ هل لأنهم وصلوا القاهرة متأخرين زمانيا ولم يجدوا فيها ما يصلح لبناء حضارة في شبه الجزيرة؟ أم لأن عمرو العاص حينما رأى مكتبة الإسكندرية لم يدرك لها أي قيمة مقارنة بقيمة السبي والسلب والنهب، فأرسل إلى عمر الخطاب يسأله عن (حرقها أم تركها لحال سبيلها؟) فهو لم يفكر أصلا في إمكانية الاستفادة منها بقدر ما فكر في سبي المصريين، ولا فكر في ترجمة ما في مصر من علوم، إنما فكروا فقط في ترجمة ديوان الخراج لأنه مصدر دخلهم الوحيد... لأن العقلية العربية بطبيعتها عقلية استهلاكية وليست بنائية..

وإذا كان طه حسين قد حاول التقريب وعقد الاقتران بين العقل المصري والعقل الأوروبي اليوناني، ربما لأنه قرأ كثيرا في الأدب اليوناني تحديدا وكان عاشقا له، وقرر أن اتباع خطى اليونانيين في الفكر والثقافة من شأنها إنعاش العقل المصري على خطى الحضارة الأوروبية الحديثة، لكن الحقيقة أن الأدب ليس معيارا للحضارات، والأحداث السياسية العسكرية والاحتلالات ليست معيارا لاقتران العقول وتشابهها. بل إننا لو عدنا للتقرير الذي نشره موقع ناشيونال جيوغرافك عن الخريطة البشرية للشعوب حول العالم، والتي تشير إلى أن حوالي ٧٠٪ من شعب مصر الموجودين حاليا

هم من أصول مصرية حتى النخاع، وأن ١٧٪ من أصول عربية، وأما النسبة المتبقية ١٥٪ فهي من أصول أوروبية يونانية ورومانية وأسيوية، أي أن التداخل الثقافي حدث أكثر بين مصر والعرب، وعلى فترة زمنية أبعد من حقبة الوجود والتبادل الثقافي اليوناني الروماني. لكن لأن العقل الأوروبي أشبه بالعقل المصري من حيث البنية الفسيولوجية والنسيج الذهني فقد اندمجت هذه النسبة من الأوروبيين في نسيج الشعب المصري وإن كان أغلبهم في الإسكندرية، لكن العرب وهم النسبة الأكبر للوجود الأجنبي في مصر والذين بدؤوا دخولهم مع عمرو العاص ما زالوا منعزلين نسبيا عن بيئة المجتمع المصري، وما زالوا يعيشون في قبائل في الصعيد وسيناء والبحيرة والمناطق الصحراوية المتاخمة للقرى، ولم يندمجوا اجتماعيا في الشعب المصري بذات درجة اندماج الأوروبيين في الإسكندرية.. الأوروبيين بنوا مدينة الإسكندرية وعمروها وجعلوا منها حاضرة عالمية، بينما العرب بنوا مخيم الفسطاط الذي تحول إلى خرابة بعد فترة، وأغلبهم سكن الصحارى المصرية لأنها تشبه عقليتهم، وعلى السعودية أن تخصص لهم حصة من ميزانية النفط لتأهيل مدائن صالح في صحراء شبه الجزيرة كمساكن لهم كي يرحلوا عن مصر لأننا قررنا أن نبدأ في بناء حضارة فرعونية جديدة، ولأن الربيع الفرعوني حل من جديد.

والواقع أن العقلية العربية لم تندمج ولم تنصهر في العقلية الجبتية عند احتلالهم إيجبت، بل إنها لم تتأثر من الأساس لأنها ظلت هي الغالبة المسيطرة خلال حقبة الغزو وما بعدها، ولا بد أن نعترف مهما سبب الاعتراف حرجا وحياءً نفسيا لنا، فلا عيب أن نعترف بأن أعراب الصحراء سطوا على حضارة القدماء لأن أجدادهم الهكسوس أيضا سطوا عليها فترة. إنما العقلية الجبتية هي التي انصهرت وتجمدت سماتها وملامحها (العلمية العملية التطبيقية) وذابت في النسيج الثقافي العربي الأدبي وهو ثوب مهلهل بالنسبة لنا وغير منضبط وغير محكم وغير ملائم، ومن هنا ساد الخمول في العقل الجبتي وأصبح عاقرا عاجزا عن الإبداع..

بينما لو عدنا لرشدنا والأصل الذي خلقنا الله عليه لعادت قدرتنا على الإبداع، فمن إبداعات الله وإعجازه في خلقه أن خلق شعوب الشرق متكاملة بين صنفين يمثلان قطبي العقل ونوعي التفكير، فلا عقل بإمكانه العيش دون أدب ولا عقل بإمكانه العيش دون العلم، فلا بد أن يخدم كل منهما الآخر بالقدر الضروري، ومن حكمة الله في الشرق أن خلق عقلا أدبيا محضا يجاوره عقل علمي محض.. فإذا بحثنا في كافة شعوب العالم لن نجد عقل تفوق في الإبداع الشعري مثلما تفوق العقل العربي، ولن نجد عقلا تفوق في الإبداع العلمي مثلما تفوق العقل الجبتي. فهما قطبان للعقل متجاوران متقابلان بينهما البحر وخليج العقبة، وخلال الحقبة التي تخصص فيها كل عقل

في ميدانه (الأدبي للعرب والعلمي للجبتيين) أبدعوا كلٌ في ميدانه أدبا وعلما صارا من عجائب الدنيا لا نجد له مثيل في كافة حضارات العالم، لأن الحضارات الأخرى ليست قطبية بهذا الشكل، فالإغريق مثلا نجد لديهم العلم بقدر الأدب، وكذلك الصينيين والهنود، وكذا الحضارة الأوروبية الحديثة.

أما شعبي الشرق المتجاورين (العرب والجبتيين فهما قطبين متقابلين) فهما متخصصين كلٌ في ميدان، ولذلك وجدنا العقل العربي أدبي محض ولديه قصور واضح في الجانب العلمي، وما مكنه من هذا الإبداع الشعري إلا القصور البيّن في الفكر العلمي التطبيقي، والعقل الجبتي علمي محض ولديه قصور في الجانب الأدبي، وهذا القصور البيّن في الجانب الأدبي هو ما دفع العقل الجبتي لإفراغ كل طاقته في العلوم التطبيقية. ومن إعجاز الله في خلقه أن مكّن كل قطبٍ عقلي من الإبداع في ميدانه برغم قصوره في الميدان الآخر، فأبدع الجبتيون في العلم وتجاهلوا الشعر، وأبدع العرب في الأدب وتجاهلوا العلم، فعاش الجبتيون في القصور والأهرام، وعاش العرب في الخيام والهوادج.

وقد احتل الجبتيون أرض العرب خلال حقبة ازدهارهم، واحتل العرب أرض الجبتيين خلال حقبة ازدهارهم. لكن للأسف خلال فترة احتلال إيجبت لأرض العرب في عهد تحتمس ورمسيس الثالث كان العرب قبائل بدوية رعوية وأفاضت عليهم الحضارة الجبتية من علومها ومعارفها بحجم قدرتهم على الهضم، ولم يهضموا.. ولم تستفد الحضارة الجبتية من شعرهم وأدبهم في شيء، لكن خلال حقبة احتلال العرب لإيجبت تركوا صحرائهم وغادروا قبائل عديدة إلى قلب القاهرة وتنعموا بخيراتها ولم يفيضوا علينا سوى بالغبار الصحراوي الذي غطى العقول.. هكذا غصن الشوك.. إذا وقعت عليه يؤلمك، وإذا وقع هو عليك يؤلمك..

والأمر لا ينحصر على الدولة العربية أو التنظيم والمجتمع إنما أيضا على مستوى الفرد المواطن العربي حتى عصرنا هذا.. فالمواطنين من جنسيات أخرى الوافدين للعمل بالسعودية يعانون من شراسة المواطن السعودي حقيقة كما كانت أخلاق قريش، ولذلك تجدهم يتخذون مناطق معينة وشوارع معينة للسكن بها بعيدا عن المواطنين السعوديين الذين يمتازون بالشراسة وسرعة الفتك بالضحية لأتفه الأسباب، ولأتف الأسباب تقع جرائم القتل ببرود أعصاب، نجد المواطن يخرج مسدسه ويطلق النار وكأنه يهش غنمه !، حتى الشباب والصبيان أثناء اللعب في الشوارع يتسم سلوكهم بالشراسة مقارنة بغيرهم من الجنسيات الأخرى، كما كان وضع الصحابة حول رسول الله، كان أسهل شيء عندهم هو القتل لأبسط الأسباب، ولما كان يقع خطأ من أحدهم تجد الآخر يقترح على

النبي ضرب عنقه كما كانت عادتهم قبل الإسلام.. فما المجتمع إلا شجرة تتكون من أغصان شوك صغيرة وكبيرة ومتوسطة ومتفرعة لكنها جميعا نبتت من ذات البذرة وتشكلت من ذات النسيج.

أما العقل العلمي فكان مزدهرا أيام حضارة القدماء والإغريق والرومان، كانت حضارات علمية عملية فكرية وتطبيقية، وكان نصف العقل الأيسر هو الأنشط، أما نحن منذ أن تقمصت شعوبنا العقلية العربية وقد صعدوا هم إلى سماء الحضارة الشعرية وهبطنا نحن تحت الخيام، وأصبحت عقولنا العلمية عاقر بسبب شحنها بمادة غذائية أدبية غير ملائمة، لدرجة أننا في عام ٢٠١٩ نفتتح اليوبيل الذهبي لمعرض القاهرة للكتاب فقط بمئات الآلاف من القصص والراويات الأدبية ودواوين الشعر (العدوى الثقافية العربية)، دون أي اهتمام بالكتب التي تتناول موضوعات علمية وقضايا فكرية.. أغلق المعرض وقد سجلت مبيعات الرواية أرقاما قياسية كالعادة، بينما بقيت الكتب الفكرية والعلمية مرصوصة على الأرفف.. فلماذا يهرب القارئ من الفكر إلى الخيال؟

ذلك لأن العقول منذ الطفولة تربت وتمرست على التذوق الفني للنصوص الأدبية كمحاولة للاستعراب، وليس التفكير والتحليل العلمي، فثقافة الطفل التربوية تقوم على القصص الحكائي لا على نسج الأفكار والمعلومات، على الحكايات وليس الموضوعات التي تشكل العمود الفقري الذي تحدث عنه الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر حينما أصر على أن يكون الأدب له موضوع يدور حوله ويكون هو عموده الفقري (موضوعي علمي فكري) لا أن يطلق الإنسان لنفسه العنان يسبح في عالم الخيال دون غاية أو وجهة محددة، فببساطة الأدب لا بد أن نتعامل معه باعتباره كائن حي وليس عصير سائل، والكائن الحي لا بد أن يكون له قوام يتكون من جسم وعمود فقري يحمله ويشكل هيكله ودعامته، وإذا تلاشى العمود الفقري صار الكائن رخويا مثل القواقع دون هيكل. إنما للأسف نجد الثقافة العربية بكاملها ثقافة أدبية بحتة دون أي عمود فقري علمي ولا حتى فقرة عصعصية، ولهذا استقال العقل العلمي خلال حقبة الدولة العربية بكاملها، وكانوا يقتلون العلماء ويتهمونهم بالزندقة.. فالعمود الفقري في شبه جزيرة العرب لا يعدو كونه عمود زجاجي هش مثل عمود الأفعى، برغم أن جسدها يلمع وجميل إلا أنه بلا عمود فقري حقيقي. بينما حضارة أجدادنا القدماء كان عمودها الفقري يشكل ٩٠٪ من جسمها ولحمها وبدنها، وكانت المعرفة السائلة مجرد وسائل تشحيم وتزييت للحفاظ على معدل اللزوجة.

لذلك ينبغي أن نحصر المعرفة السائلة بالكامل في حدود ثلث ما يتلقاه الطفل من مادة ثقافية، شاملة (المعرفة السائلة غير الإنتاجية؛ الأدب والفنون والفلسفة والأديان والتاريخ) على أن

يكون ضمن هذا الثلث أقل من١٠٪ ثقافة تاريخية بوجه عام حتى لا تنمى ملكة النوستالجيا، لأننا من كثافة المعرفة التي تلقيناها بلون الماضي (الدين التاريخي أو التاريخ الديني) صرنا نعشق الماضي أكثر من حاضرنا ومستقبلنا برغم أن الله خلقنا لنعيش في هذا العصر وليس غيره، ومشيئة الله أن يختبرنا في هذا العصر وليس غيره، فامتعاضنا من حاضرنا وشوقنا للماضي هو نوع من التمرد على إرادة الله.. على أن يكون الثلثين مادة علمية إذا كنا نريد تسريع خطوات العقل وبناء حضارة أو استنبات حضارة فرعونية في صيغتها الجديدة، أو أن يتم الموازنة بين العلم والأدب بذات معدل نشاط البطين الأيسر مقارنة بالبطين الأيمن للقلب.

غير أننا حتى ولو نظرنا إلى الجانب الأدبي في حضارة العرب، باعتبار جنسهم معجون بالفكر الأدبي، فهو أيضا محصور في الجانب النظري البحت، أي التلاعب بالكلام فقط، فالفكر الأدبي لا ينحصر في الشعر والنثر والنظم اللغوي، ولكن هناك جانب فني آخر هو الرسم مثلا، فالرسم موهبة فنية أدبية وليست مجالا علميا يعتمد على الفضول والفكر، إنما هو حاسة تذوق أدبي فني، ونتيجة لجفاف العقلية العربية بالفطرة، وبرغم أنهم كتبوا معلقات من الشعر الموزون المقفى، والتي تعتبر من وجهة نظرنا إحدى عجائب الدنيا السبع، وهي تمثل حضارة أدبية بالمعنى الدقيق للكلمة، لكنهم مع ذلك لم يدركوا قيمة التذوق الفني والحس الجمالي للوحة والصورة، فقط انصرف كل تركيزهم على التلاعب بالكلام النظري مقارنة بما قدمه القدماء من غابات لونية من الصور واللوحات التي صورت كل تفاصيل حياتهم وطقوسهم بالكامل، فحضارتهم مدونة بلغتين؛ الكتابة والتصوير، حيث كانت تسيل أزاميلهم وفرشاتهم بالمشاعر، ولم يكتفوا بالكتابة والأرقام والحروف المرمزة، وهذا ما يدفعنا حتما لحصر جينات الجنس العربي في بوتقة "الإبداع النظري".. أما باقي جوانب المعرفة فليس لديهم استعداد نفسي لها ولم تظهر حتى أي بوادر ولو بدائية، وكلما عثرنا على اسم عالم عربي نبحث في أصله وجنسه نصل في النهاية إلى أن أصله غير عربي.



الإضاءة الثالثة

قيمة المرأة في الحضارة الجبتية والحضارة العربية

في فصل العادات والتقاليد كتب علماء الحملة الفرنسية " كل ما كتبه الرحالة القدماء الموثوق بهم عن (المصريين) ما يزال علي حاله حتى اليوم ولو أنهم عادوا إلي الحياة اليوم ليخوضوا في نفس الأمر لوجدوا أنهم لا ينبغي عليهم أن يغيروا اليوم شيئا مما قالوه في ذلك الماضي البعيد، وإلي أن يحين ذلك الوقت الذي تتفجر فيه ثوره يبدو أنها ما تزال شديدة البعد، فلسوف تظل عادات الشرقيين (المصريين) الأسرية هي هي.

وأما عن المرأة المصرية قبل مائتي عام يقول علماء الحملة: " إن المجتمع الذي تستعبد فيه نساؤه لا يقدم مطلقا هذا المزيج من الرقة واللياقة اللتين تميزان الأمم الأوروبية علي وجه الخصوص، وحيث أننا لا نحسَ بأثر النساء علي العادات والتقاليد في مصر ، فمن الممكن أن نتفهم بسهولة لماذا تتميز التقاليد في مصر بوجه عام بهذه الغلظة الهمجية التي هي بالتأكيد من تقاليد العرب الغزاة". وعن الرجال وخاصة أبناء الطبقة الميسورة كتب علماء الحملة الفرنسية " تتوزع حياة المصري من أبناء الطبقة الميسورة مابين الصلاة والحمام والملذات الحسيه والكسل وتدخين الغليون وشرب القهوة ، وقد يجوز لنا أن نقول بأن الشعب كله يقضي جل وقته في التدخين، ولا يستخدم الأغنياء إلا تبغ اللازقية (مدينه علي الساحل السوري). أما الفقراء فيقنعون بالتبغ المحلي"[١].

هذا كان رأي علماء الحملة الفرنسية في شعبنا ومدى تأثرهم بالغزاة العرب، أما المشكلة فهي أننا إلى الآن ما زلنا نرفض الاعتراف بهذه الموبقات العربية، ونصرَ على أن دخول العرب بلادنا كان فتحا إسلاميا.. ربما ذلك من باب المجاملة للصحابة، لكن الواقع كان كارثة فعلية أدخلتنا في غيبوبة طويلة جدا.. فالعرب لم ينقلوا إلينا دينهم، إنما جلبوا إلينا عادتهم وتقاليدهم وثقافتهم وأعرافهم ولغتهم وغمرونا بكل هذه العناصر حتى صرنا نفكر ونتصرف بعقلية عربية دون أن ندري.. ونتيجة التأثيرات النفسية والسيكولوجية في المجتمع العربي القديم، ونظرا لإصابة الفقهاء بمتلازمة ستوكهولم العربية، وجدنا الفقه يتأثر بهذه العوامل فظهرت لنا فتاوي تبيح وتقنن قتل

(١) -مقتطفات من كتاب وصف مصر الجزء الأول والذي ترجمه الأستاذ زهير الشايب

المخالفين في الدين والمذهب، وتبيح وتقنن زواج الطفلات الصغيرة بإذن آبائهم أو أعمامهم أو أجدادهم، تأسيا بسنة النبي الذي زعموا أنه تزوج طفلة قاصر في التاسعة من عمرها.

بينما أن الفطرة تقتضي التعقل، فالله تعالى يقول " وانكحوا الأيامى منكم " وليس القاصرات، وحكيمنا الفرعوني "عنخ شاشنقي " يقول لولده وهو يحثه على الزواج فيقول: اتخذ لك زوجة حين تبلغ العشرين، حتى يتأتى لك الخلف، وأنت في معية الشباب.. ووجدنا كذلك عند فقهاء العرب انهيارا وضع المرأة في المجتمع من جديد وظهور فتاوى غريبة تقوم على التفرقة الفجة بين الجنسين باعتبار المرأة دون الرجل في الحقوق الإنسانية، حتى وجدنا من يفتي من الفقهاء بأن عقد الزواج هو عبارة عن عقد تمليك ومحله هو بضع المرأة أي " فرجها "، ومصلحة الرجل في هذا العقد هي التمكين من بضع المرأة، وطالما توقفت المصلحة تعطل العقد، ومن ثم لا تجب عليه النفقة على زوجته إذا مرضت، ولا يلتزم بعلاجها، وإذا توفيت فلا يتكفل بمصاريف جنازتها ولا كفنها.. وبهذا الكلام اقتنع الفقهاء وأقروه شريعة.!

بينما نجد وضع المرأة في التاريخ المصري أكثر إشراقا- باعتبارها المؤشر الأكثر حساسية لرفاهية الشعوب- نجد المرأة تقف جنبا إلى جنب مع الرجل وتسانده باعتبارها رفيقة الدرب لا مجرد جارية في بيت سيدها كما كان العرب، كانت المرأة في المجتمع المصري تقوم بدور الأم والمعلم، تأمل جيدا صورة المرأة إلى جوار الرجل الفرعوني وموضع يديها وما تحمل من معنى يجسد حقيقة هذا المجتمع السليم فكريا ونفسيا مقارنة بالعرب.. لاحظ موضع اليد اليمنى لها معنى، وموضع اليد اليسرى لها مغزى لا يمكن أن يفهمه العرب.. فوراء كل عظيم امرأة عظيمة تشد من أزره. كان رداء السيدات محتشما قبل أن يعرفوا الإيمان.. لم يكونوا يطوفون عرايا حول البيت كما كانت نساء العرب.. وبوجهٍ عام كانت المسافة بين الجنسين (الذكر والأنثى) قريبة جدا في المجتمع المصري، بينما نجد المسافة بين الرجل والمرأة شاسعة في المجتمع العربي، لأن الكاريزما العربية سيادية سادية بالأساس وليست متواضعة ولا متسامحة، وتميل لاستعباد الغير دائما والتسلط عليه، ليس فقط العبيد والخدم، ولكن المرأة أيضا تحظى بجانب كبير من العبودية في مجتمعاتهم.



فنجد من مأثورات القومية العربية ما يقدس عبودية الأنثى ويرفع من شأن الرجل درجات فوقها بما يخل بالميزان الاجتماعي بوجهٍ عام، فعندما نسينا حضارة أجدانا الجبتيين القدماء وبدأنا نتبنى ثقافة العرب وشربنا منها وجدنا ثقافتهم ترسي لنا مبادئها دون أن ندري، مثال: قالت أم لابنتها ليلة زفافها وهي تودعها ..," أي بنيـة .. إنك قد فارقت بيتك .. الذي منه خرجت .. ووكرك الذي فيه نشأت .. إلى وكر لم تألفيه .. وقرين لم تعرفيه .. فكوني له أمة .. يكن لك عبدا. واحفظي له عشر خصال، يكن لك ذخرا .. أما الأولى والثانية؛ فالصحبة بالقناعة والمعاشرة بحسن السمع والطاعة .. أما الثالثة والرابعة؛ فالتعهد لموقع عينيه، والتفقد لموضع أنفه، فلا تقع عيناه منك على قبيح ولا يشمن منك إلا أطيب ريح والكحل أحسن الحسن الموصوف والماء والصابون أطيب الطيب المعروف. وأما الخامسة والسادسة؛ فالتفقد لوقت طعامه، والهدوء عند منامه؛ فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مكربة .. وأما السابعة والثامنة؛ فالعناية ببيته وماله، والرعاية لنفسه وعياله .. أما التاسعة والعاشرة؛ فلا تعصين له أمرا ولا تفشين له سرا .. فإنك أن عصيت أمره أوغرت صدره وإن أفشيت سره لم تأمني غدره، ثم بعد ذلك إياك والفرح حين اكتئابه والاكتئاب حين فرحه.. فإن الأولى من التقصير

والثانية من التكدير.. وأشد ما تكونين له إعظاما.. أشد ما يكون لك إكراما.. ولن تصلي إلى ذلك حتى تؤثري رضاه على رضاكي وهواه على هواكي فيما أحببت أو كرهت."

وهذا بالطبع عند قراءته من الوهلة الأولى لا نجد فيه غبارا، لكنن بعد القراءة الكاملة نلمح نظرة العنصرية الذكورية في محورين؛ الأول في النصيحة التاسعة والعاشرة التي تجعل من الرجل سيدا مقدسا على المرأة وأنهما ليسا شريكين في الحياة على الوجه الطبيعي والاجتماعي والإنساني الصحيح. وأما المحور الثاني فيكمن في أن تراث الحضارة العربية لم ينقل لنا نصائح الرجل لابنه المقبل على الزواج كما نقلت نصائح موجهة حصريا للفتاة قبل دخلوها بيت العبودية، برغم أن الرجل أقوى وأشد في البنية والشخصية من الفتاة وهو الأولى بالنصيحة مخافة الانحراف (لأن النصيحة جاءت في حد ذاتها عبارة عن إنذار وتحذير من غضب الرجل، وتجاهلت تماما حقوق المرأة، أي تناولت الحياة الأسرية من قطب واحد فقط، ولهذا قدسها العرب واحتفلوا بها وحفظوها إلى عصرنا)..



وذكرت المدونات التراثية للعرب قولهم:" يكره نكاح الحنانة والمنانة والأنانة والحداقة والبراقة والشداقة والممراضة. فالحنانة التي لها ولد تحن إليه، والمنانة التي تمن على الزوج بما تفعله، والأنانة كثيرة الأنين، والحداقة التي تسرق كل شيء بحدقتها وتكلف الزوج، والبراقة التي تشتغل غالب أوقاتها ببريق وجهها وتحسينه. وقيل: هي التي يصيبها الغضب عند الطعام فلا تأكل إلا وحدها، والشداقة كثيرة الكلام ، والممراضة التي تتمارض غالب أوقاتها من غير مرض".. وفي المقابل لم يردنا في التراث العربي أي نصيحة للرجل أو وصف نقدي على اعتبار أن الرجل العربي هو أمير طول الوقت ومنزه عن النقائص!

وفي المقابل نجد نصيحة الجبتيين القدماء جاءت موجهة بالدرجة الأولى للرجل تجاه المرأة؛ فمن نصائح الحكيم "بتاح حتب": "**إذا كنت عاقلاً أسس لنفسك بيتا، وأحب زوجتك حبا جما .. وأحضر لها الطعام .. وزودها باللباس.. وقدم لها العطور .. إياك ومنازعتها .. باللين تملك قلبها .. واعمل دائما على رفاهيتها لتستمر سعادتك** "..

ويقول الحكيم "عنخ شاشنقي" عن الحب وعدم التباغض بين الزوجين يقول:" **إذا تراضت المرأة مع زوجها، فذاك فضل من الرب، وحبذا لو تخلص قلب المرأة وقلب زوجها من البغض. ويقول أيضًا: على المرء أن يُحب زوجته، وأن يعمل لها كل خير، وألا يدخر وسعًا في ذلك، فهي حقل طيب يحمل الثمار**"...

فقد حمّل الجبتيون مسؤولية صلاح البيت والأسرة على الرجل باعتباره الأقوى وهو الأقدر على حملها، بينما العرب حمّلوا المسؤولية على المرأة برغم أن الله يقول (الرجال قوامون على النساء) ولأن القوي الكريم هو من يتعاطف مع الضعيف ويحتضن مشاعره لا أن يتأمّر عليه. (لاحظ اتفاق فكر الحضارة المصرية القديمة مع تعاليم النبي أكثر من تراث القومية العربية، فالنبي هو العربي الوحيد الذي أوصى الرجال بالنساء بينما القومية العربية دائما تحذر من النساء وتتسلط عليهم) فنجد الكثير جدا من الأحاديث والآيات توصي الرجال بالنساء وتصفهم بأنهن شقائق الرجال...إلخ. فالفكر الإسلامي متفق ومتسق مع الفكر الاجتماعي للجبتيين القدماء بحيث تحددت وجهة الخطاب دائما للأقوى وهو الرجال، بينما خطاب القومية العربية جاء موجها للمرأة وبلهجة تحذيرية، وإن توجه الخطاب للرجل فيكون بلهجة التحذير من مكر المرأة ونقائصها وعيوبها، باعتبارها ناقصة عقل ودين...إلخ. ولم يرد نص شعري أو نثري ينصح الرجل بالتعاطف تجاه المرأة أو احتضان مشاعرها...

والخطورة ليست في "سادية العقلية العربية" وإنما ما انطبع من هذه العقلية في التراث الديني هو الأكثر خطورة، لأننا نحن الجبتيين حتى لم نتلق الثقافة العربية بطابعها ثقافة شعب من شعوب الجوار وإنما تلقيناها باعتبارها ثقافة دينية أو قرينة بالدين وتحمل ذات القداسة، لأنه كما تمتع الشعر العربي بالقداسة تمتع التراث الاجتماعي العربي بقدر أكبر من القداسة فالتصق بالدين، ولهذا تعاطفنا كثيرا مع هذه الثقافة وصببنا كل تعاطفنا المعرفي معها ما حجب عقولنا عن انتقاء الصالح منها من الطالح، خصوصا أننا حصّناها بسياجٍ من القدسية الدينية، فكما قلنا أن خطرة

القومية العربية ليست في كونها عقلية أدبية طمست العقلية المصرية العلمية، وإنما خطورتها في أنها طمست ملامح الدين ومبادئه السمحة وطغت عليه، وطمست معالم العقلية العلمية الحضارية.. فقد جعل العرب فلسفتهم في التعامل مع المرأة هي مبادئ الدين، وقد تمثل ذلك في محاولة سيطرة الرجل عليها وتطويعها وإخضاعها عنوة بالحق الإلهي المقدس.

ولذلك نجد الكثير من المرويات والمأثورات العربية في هذا الشأن مثال؛ (٣٥ باب حق الزوج على المرأة)... حديث عمرو بن الأحوص ٢٨١/١ -عن أبي هريرة قال: إِذا دعا الرَّجلُ امرأتَه إِلى فِراشِهِ فلمْ تأتِهِ فبَاتَ غضْبانَ عليْها؛ لعنتها الملائكة حتّى تصْبح (متفقٌ عليهِ).. وفي رواية لهما :إِذا باتَتِ المرْأَة هاجِرَة فِراشَ زَوْجِهَا لعنتها الملائِكة حتى تُصْبح... وفي رواية: قالَ :والذِي نفْسِي بِيَدِهِ، ما مِن رجلٍ يدْعُو امرَأتَهُ إِلى فِراشِهِ فتأبى عليْهِ إِلا كانَ الذي في السَّماءِ ساخِطا عليْها حتّى يرْضَى عنْها...

٢٨٢/٢-وعن أبي هريرة أيضًا أنه: لا يحلُّ لامْرأةٍ أنْ تَصُوم وزَوْجها شاهِدٌ إِلا بِإِذْنِهِ، ولا تأذَنْ في بيْتِهِ إِلا بإِذنِهِ (متفقٌ عليهِ)، وهذا لفظ البخاري...إلخ.. وبالطبع مثلت آثار هذه القومية والعقلية العربية عائقا أمام انتشار الدين لأنها تخلوا من التسامح مع الغير ومع المرأة، فكما تعاملوا مع أبناء الحضارات المدنية باعتبارهم موالي، تعاملوا مع المرأة باعتبارها شاة، فقد خلت العقلية العربية من معالم الرقي الحضاري والإنساني، وصبغت الدين بملامح البادية العربية، وفرضت على كل مسلم أن يكون بدويا عربيا وأن يفكر بالعقلية العربية ويتقمص الشخصية والكاريزما العربية كي يكون مسلما ! لكننا في الوقت ذاته إذا عدنا لتراث الحضارة المصرية سنجده أكثر اتفاقا مع قيم الإسلام ومبادئه مقارنة بالقومية العربية، فلا مقارنة بين مرويات العرب وبرديات القدماء.

ونقرأ أجمل مرثية حب مصرية مقابل قصائد الشعر الغزلي العربي، والمرثية المصرية هي رسالة من زوج محب لزوجته المتوفاة في بردية رائعة في متحف ليدن في هولاندا.. بردية رقيقة جدا كتبها ضابط بالجيش المصري لزوجته التي توفيت منذ أكثر من ثلاث سنوات ولم يستطع أن ينساها .. عاش الزوج علي ذكرى زوجته يتألم ويبكي، وكان يذهب إلي قبرها ويقف عند شاهد قبرها ويكلمها، وفي إحدى المرات رأى طيفا يبدو كخيال زوجته وهو يرفع يديه يريد أن يضربه علي وجه، فانزعج وكأنه فهم أن زوجته المتوفاة غاضبة عليه، وهي أم أولاده، فذهب إلي كاهن معبد آمون، وحكي له ما شاهده، فقال له الكاهن " اكتب رسالة إلى روح زوجتك بث فيها أوجاعك

إلى الأرباب". فكتب الزوج رسالة وذهب إلي قبرها وأمام الشاهد وقرأ الرسالة بصوت عالي وهو يبكي.. فماذا قال هذا الزوج المحب الوفي ...

قال" لماذا تؤذينني حتى صرت في الحالة التعسة التي أنا فيها.

ماذا فعلت، وكيف ترفعين يدك عليَ وأنا لم أسئ إليك قط !

لأقاضينك أمام أرباب الغرب (البر الغربي رمز الموت والبعث بعد الممات) لتحكم بيني وبينك.

ماذا فعلت مما يستوجب استياءك مني !

لقد تزوجتكِ وأنا شاب حديث السن فعشت بجانبك.

ثم شغلت مناصب في جهات أخرى،

فلم أهملك ولم أدخل على قلبك شيئا من الألم.

انظري ! لقد صرت بعد ذلك ضابطا في جيش الملك بين ضباط العربات الحربية.

فكنت أقدم بها إليك، وأحمل إليك فيها هدايا طيبة.

ولم أخف عنك شيئا طيلة حياتك.

ولم يستطع أحد أن يقول في وقت من الأوقات أني أسيء معاملتك.

كلا، ولم يستطع أحد أن يقول أني بعد الفراق دخلت بيتا آخر.

وحينما ألزمت بالبقاء في المكان الذي أنا فيه الآن،

وكان مستحيلا عليَ أن أعود إليك،

بعثت إليك بزيتي وخبزي وملابسي .

ولم يحدث قط أن أرسلت مثل ذلك إلى غيرك!

ثم لما مرضت، ألم أرسل إليك طبيبا صنع لك الأدوية،

وكان طوع أمرك في كل ما تطلبين!

ولما وَجب أن أرافق الملك إلى الجنوب، كان عندك قلبي.

وقد بقيت ثمانية أشهر دائم الفكر، قليل الأكل، قليل الشرب.

وبعد موتك سرت إلى "منـف" ورجوت الملك أن يأذن لي في العودة إليك.

ثم بكيت طويلا أنا ورجالي أمام بيتي.

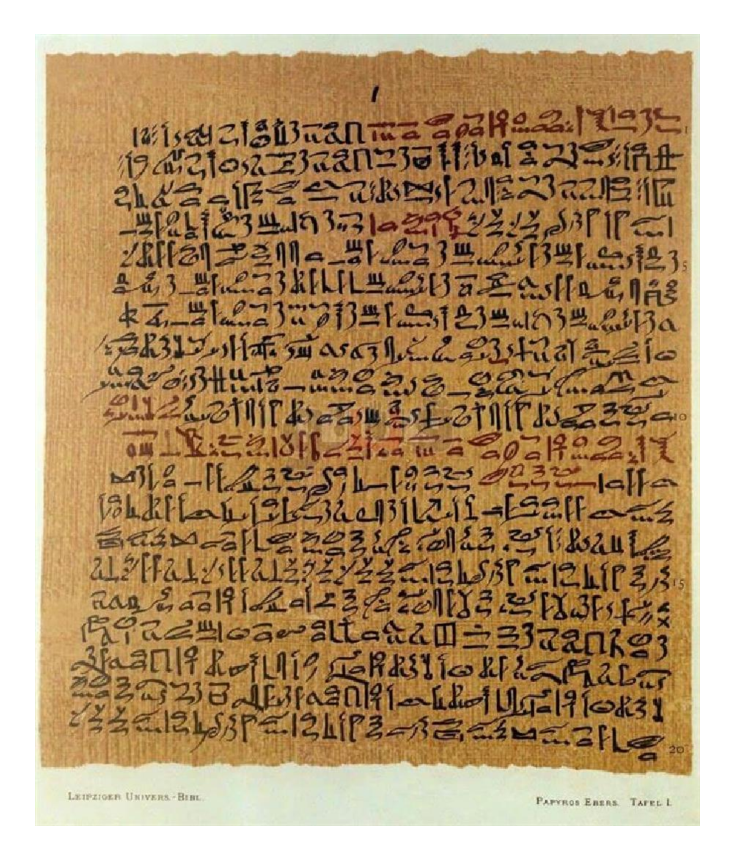
وقدمت كثيرا من الملابس والأقمشة لفائف لجثمانك.

انظري ! لقد مضت عليَ الآن ثلاث سنوات

وأنا وحيد لم أدخل بيتا آخر (أي لم يتزوج امرأة أخرى).

أما أخواتي اللواتي في بيتي، فإني لم أدخل عند واحدة منهن."

سلطان سلطان سلطان سلطان سلطان سلطان سلطان سلطان سلطان سلطان سلطان سلطان سلطان سلطان سلطان سلطان



هل هناك حب بعد ذلك الحب.. هل هناك وفاء مثل وفاء الإنسان الجبتي ؟ بل هل هناك مشاعر وإنسانية مثل ما كان عند المصري القديم، هذه المرثية تثبت أن المصري القديم عاش بمشاعر الإنسان الذي يملؤه الحب الذي زرعه فيه الله عندما خلقه ونفخ فيه من روحه، ويثبت أيضا أنه لم يكن هناك أبدا تعدد الأزواج في أرض مصر.. وزوجة واحدة تكفي البيت والأسرة، فما أجمل تاريخنا وما أعظم حضارتنا، ولا مثيل لمثل هذه المشاعر الحميمة والحب الكبير الذي يملأ قلب الجبتيين..

والغريب أن كافة شعوب العالم تهفو على بردية واحدة، وكل من حصل على بردية أنشأ لها متحفا ببلاده وأنفق عليها الملايين وقام بتحنيطها وترميمها وتجهيزها وعرضها للجمهور كي يقرأ ويتعلم من مأثورات الحضارة المصرية العظيمة، التي صار تاريخها علمة تنتفع به الشعوب وتطلبه من كل مكان وتخصص له أقساما في جامعاتها... فجميع متاحف العالم تحتضن برديات القدماء ولا يوجد متحف بالعالم يقبل مرويات العرب..



بينما نحن تركنا أجدادنا وتراثنا الثقافي (الأكثر اتساقا مع الإسلام) وتبنينا مرويات العرب وتراثهم واعتبرناه من الدين أو قرينٌ بالدين، برغم أنه لا يوجد شعب في العالم يصبو إلى هذا التراث العربي، ولا نجد متحف في العالم يعرض قصيدة غزل عربي إلى جوار بردية حب مصرية ! ذلك لأن شعوب العالم المتحضرة فهمت ووعت حجم تراثنا وثقافة أجدادنا، بينما نحن نحيناه جانبا وأوسعنا آفاقنا لتراث العرب الصحراوي. (الصورة لحائط عرض البرديات المصرية في متحف تورينو إيطاليا. والتي تحتوي علي كم كبير من الأسرار والألغاز وتحكي عظمة الحضارة المصرية القديمة.)

فبعدما نسينا تاريخنا وحضارتنا المصرية الأصيلة وتبنينا القومية العربية أصبح تعدد الأزواج هو الأصل باعتباره سُنة، برغم أن تعدد الزوجات جاء في القرآن لعلة الحفاظ على الأيتام وكفالتهم، بشرطية قرينة العدل بين الزوجات وهو ما حذر الله منه وأكد أننا لن نستطيع، فقال تعالى: (يا أيُّها النَّاسُ اتَّقوا ربَّكُمُ الذي خلقكُم مِّنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وخلقَ مِنْها زوْجها وبثَّ مِنْهما رِجالًا كثِيرًا ونِساءً ۚ واتَّقوا اللَّه الذي تساءلونَ بهِ والأرْحام ۚ إنَّ اللَّه كانَ عليْكُمْ رقِيبًا (١) وآتوا اليتامىٰ أمْوالهُمْ ۖ ولا تتبدَّلوا الخبيث بالطيِّبِ ۖ ولا تأكُلوا أمْوالهمْ إلىٰ أمْوالِكُمْ ۚ إنه كانَ حوبًا كبيرًا (٢) وإنْ خِفْتمْ ألا تقْسِطوا فِي اليتامىٰ فانكِحوا ما طاب لكُم مِّنَ النِّساءِ مثْنىٰ وثلاث ورباع ۖ فإنْ خِفْتمْ ألا تعْدِلوا فواحِدَة أوْ ما ملكتْ أيمانكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أدنىٰ ألا تعولوا (٣)/النساء.. أي أن الله تعالى أكد على وحدة البناء الأسري من وحدة الخلق ومفردية ذكر الزوج (الزوجة) ثم استطرد في معالجة وضع استثنائي في شؤون المجتمع وهو حال اليتامى وكفالتهم ورعايتهم، ودخول بيتهم لتولي شؤونهم دون حرج، ولأن أم الأيتام غالبا ما ترفض الزواج لأجل تربية أبنائها، فأباح الله الزواج بأم الأيتام في سبيل

العدل مع الأيتام شريطة العدل مع أمهم وزوجته الأصلية وأولاده... ثم يأتي العرب ليقنعونا بأنهم خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر!

لكن العرب بطبيعتهم الذكورية وميولهم الجنسية الشاذة، جعلوا الأصل هو تعدد الزوجات ودون مراعاة لمشاعر هذه الزوجات، وللأسف أقنعونا بذلك، لأنهم في الأصل ليس لديهم حب حقيقي، وإنما فقط قصائد غزل عذري نظري تلوكه ألسنتهم ولم يتجاوز حلوقهم، فهم شعب بري بالفطرة ومشاعرهم قاسية خارجة عن المجتمعات المدنية، فالحب الحقيقي لا دليل عليه إلا بعد الزواج، أما الحب العذري فهو محض تشبيبٍ وإعجاب دون فعل يدلل عليه ويثبته، وجاء هذا الغزل النظري كما كانوا يتغزلون بجمال الطبيعة الصحراوية حولهم.

وما قد يسوق لنا الدليل على طبيعة العرب الجافة القاسية وميولهم الجنسية الشاذة، هو انتشار ظاهرة الدعارة في مجتمعهم قبل البعثة بشكلٍ غريب لدرجة أنها صارت عندهم عادة غير مستهجنة اجتماعيا كما كان وأد البنات، بل صارت عُرفا سائدا لديهم دون أي استنكار حتى من الحكماء إذا كان لديهم حكماء، أو حتى لديهم حكمة اجتماعية إنسانية بسيطة تدلهم على أن ما اعتادوه هو فساد أسري وتفتيت اجتماعي وليس مجرد رذيلة أخلاقية، كانت هناك قبائل على بعضها تمتهن الدعارة كمهنة ومصدر دخل قومية لهم، ثم عد الإسلام مارسوا السبي وتجارة الناخسة كنشاط قديم تحت مسميات إسلامية..

وكانت ظاهرة تعدد الزوجات منتشرة جدا وسائدة مثل ظاهرة العبودية، وقد اتخذ القرآن في شأنهما نظام الحلول التدريجية في محاولة للوصول إلى المجتمع المخاطب به أولا، لكن العرب حاولوا تشريع عاداتهم القديمة في ذي إسلامي، وبما أنهم لديهم القدرة العجيبة في التلاعب باللغة فاستغلوا هذه القدرة في تفسير القرآن بعد رحيل النبي، وأقنعوا الشعوب الأعجمية بأن الله يقول هكذا ويقصد كذا (باعتبارهم هم أصل اللغة وهم الأقدر على فهم الخطاب القرآني من غيرهم الأعاجم، ونسوا أن القرآن ليس مادة لغوية أدبية وإنما هو مادة علمية في سياقٍ بلاغي، أي أن اللغة وحدها ليست هي الضابط الوحيد لمعاني القرآن وإنما الحقائق العلمية هي أيضا مفسرة لمعاني القرآن وضابطة للتفسير الموضوعي).

ولا ينكر أحدنا أن وحدة الزوجة هو قوام الأسرة الناجحة، وخير موارد العدل القياس على النفس، وخير موردٍ لعدل الرجل القياس على بناته إذا شاء... ولأن أصل خلية المجتمع المصري هي الأسرة لهذا حافظوا على وحدتها بوحدة الزوجة، بينما أصل المجتمع العربي هي القبيلة، ولهذا

حافظوا على عصبية القبيلة بغض النظر عن الأسرة والمشاعر الإنسانية، ولم نجد أو لم يصلنا منهم قصيدة لأحدهم أو رسالة في رثاء زوجته، إلا النبي عليه السلام هو الذي بكى زوجته السيدة خديجة كلما تذكرها رغم مرور سنوات على وفاتها، فحينما أردت ابنته زينب أن تهديه بشيء عزيز عليه، قدمت له هدية أمها التي كانت قدمتها لها بمناسبة زواجها، حيث خلعت السيدة خديجة قلادتها لتجعلها في عنق زينب *هدية* العروس، فلما توفيت السيدة خديجة، قامت ابنتها زينب بتقديم الهدية في صرة إلى النبي، فلما فتحاه وعرف أنها قلادة زوجته المتوفاة خديجة بكى، ولما شاهده الصحابة وسألوه عن سر بكائه مستنكرين أن يكون ذلك هو السبب، فقال لهم عن السيدة خديجة " إن الله رزقني حبها " غير أنه "النبي محمد" هو الوحيد الذي من أصلٍ عربي ولم يؤمن بفكرة العصبية القبلية، بل حاربها في قومه واعتبرها ضمن صفات النفاق أو صفات الجاهلية، فقال لأصحابه " دعوها فإنها منتنة" .

برغم ذلك لم يمتثلوا لقوله، وبمجرد رحيله عادوا لعاداتهم وأصولهم ومنشئهم الاجتماعي السابق.. وهو الشخص الوحيد من أصلٍ عربي الذي تبنى الدفاع عن حقوق المرأة بين هذا المجتمع العربي الذكوري السادي، فكان يوجه كلامه للجميع، الصحابة قبل غيرهم، لأن مثل هذا المجتمع لم يعتد إحقاق المرأة حقها ولا احترام إنسانيتها، برغم أن وضع المرأة في المجتمع هو أمر اجتماعي وليس ديني، أي ليس من الشعائر الدينية وإنما من الحقوق والواجبات الاجتماعية التي يحفظها المجتمع المتحضر (أيا كان دينه) ويسحقها المجتمع البربري (أيا كان دينه)، فقال لهم: أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا.. وخياركم خياركم لنسائهم ". فقد ربط الإيمان بالأخلاق لا بكثافة الشعائر، وربط الأخلاق بحسن معاملة المرأة كنموذج من بين الأقارب (الآباء والأمهات والأعمام والخالات والأبناء والأصدقاء) اختار النموذج الأضعف لأنه أدرك مدى استضعاف المجتمع العربي للمرأة وإهداره حقوقها (سواء في المنع من الميراث أو وأد البنات مخافة العار برغم شيوع الدعارة والزنا لصالح الرجال أو كان في ممارساتهم السبي؛ خطف النساء واغتصابهن عنوة أو كان في ممارسة الظهار وتعليق الزوجة دون معاشرة ودون طلاق).

وقدماء الجبتيين هم أول من احتفلوا بعيد الأم كعيد مقدس ابتداء من الدولة القديمة حتى أواخر عهد البطالسة؛ حيث ورد ذكر عيد الأم في أكثر من بردية من برديات كتب الموتى وخاصة كتاب أني دنيستي، كما وجدت ضمن مقابر الدولة الحديثة كثير من البرديات تضمنت نماذج من النصوص التقليدية للدعاء للأم في عيدها. ونجد من نصائح الحكيم "آني" إلى ابنه": يجب ألا

تنسى فضل أمك عليك ما حييت، فقد حملتك قرب قلبها .. وكانت تأخذك إلى المدرسة وتنتظرك ومعها الطعام والشراب، فإذا كبرت واتخذت لك زوجة .. فلا تنس أمك."..

كما يوصى الحكيم والكاتب آنى بالأم وحسن معاملتها ويذكر بما لها من أفضال على الابن أثناء حمله فيقول :" **رد إلى أمك ضعف الخبز الذي أعطته لك واحملها كما حملتك لقد كنت بالنسبة لها عبئا مرهقا وثقيلا وهى لم تسأم أو تضجر عندما أزف موعد مولدك وحملتك رقبتها ومكث ثدياها في فمك سنوات."**

وفي المجمل نجد أن تراث الحضارة الجبتية متوافق تماما مع مبادئ الإسلام، حيث أن ذات المعنى الذي أوردته كتابات القدماء شهدناها في قول الله تعالى :(وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا علىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ..)/١٤ لقمان.. وورد عن رسول الله قوله حينما سئل " يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال: أمك، قال: ثم من ؟ قال: ثم أمك ،قال: ثم من ؟ قال: ثم أمك، قال: ثم من ؟ قال: ثم أبوك).. ومن العجيب أن البعض يرفض احتفال بعيد الأم ويزعم أنه ضد الإسلام ! وطالما تبنى الجبتيون ثقافة العرب فطريقهم إلى ما آلت إليه حضارة العرب لأن حضارة العرب نبعت من قوميتهم ونسيجهم الذهني ومن تكوينهم النفسي وليس من مبادئ الإسلام، فالإسلام منهج عبادة وليس كتالوج حضارة، بل إن القومية العربية خالفت مبادئ الإسلام في كل مراحلها.. لكن بالفعل بدأ الجبتيون يستيقظون من ثباتهم الطويل ويعون معنى الحضارة المصرية وتراثها منذ مطلع القرن العشرين.

حتى أننا وجدنا الأخوين أمين «مصطفى وعلي أمين» مؤسسي دار أخبار اليوم، لاحظا أنه قد انقطع احتفال الجبتيين بعيد الأم خلال حقبة خضوع مصر لدولة العرب لكنه عاد مرة أخرى، فبدأت القومية المصرية تفيق وتعيد الالتحام مرة أخرى مع مسارها الفرعوني القديم الذي انقطع خلال حقبة الحضارة العربية، فقد وردت إلى علي أمين ذاته رسالة من أم تشكو له جفاء أولادها وسوء معاملتهم لها، وتتألم من نكرانهم للجميل، وتصادف أن زارت إحدى الأمهات مصطفى أمين في مكتبه وحكت له قصتها التي تتلخص في أنها ترملت وأولادها صغار، فلم تتزوج، وأوقفت حياتها على أولادها، تقوم بدور الأب والأم، وظلت ترعى أولادها، حتى تخرجوا في الجامعة وتزوجوا واستقل كل منهم بحياته، فوافق الأخوين أمين على فكرة تخصيص يوم واحد، وشارك القراء في اختيار يوم ٢١ مارس ليكون عيدا للأم، وتغنى أحمد شوقي لها فقال:" الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت

شعبا طيب الأعراق. "... وتحدد يوم ٢١ مارس من كل عام ليكون احتفالا بعيد الأم لأن هذا التاريخ هو بداية فصل الربيع الذي كان يحتفل فيه أجدادنا القدماء فيه بعيد الأم باعتباره موسم الخصوبة وبدء الإزهار وكذا احتفل فيه القدماء بعيد الربيع "شم النسيم" فقد ربط الجبتيين القدماء بين الأم والربيع كرمز للخصوبة، ولهذا احتفلوا بالأم في مطلع موسم الربيع. وبدأ الاحتفال منذ عام ١٩٥٦.. وبرغم ذلك ما زال محبو القومية العربية وتراثها يرفضون الاحتفال بعيد الأم باعتباره مخالفا للإسلام ! وفي الحقيقة هو مخالف لآداب القومية العربية ذاتها.

حتى في عصرنا ما زالت المسافة شاسعة بين الرجل والمرأة في السعودية باختلافٍ فج مع كل شعوب العالم، فعندما ظهرت السيارات في القرن العشرين وبدأت تشريعات المرور تتوالى في جميع دول العالم، لم نجد أي شعب منذ البداية يفرق بين قيادة الرجل وقيادة المرأة للسيارة، فتراخيص المرور تصدر بمجرد تقديم الطلب واستيفاء الإجراءات أيا كان جنس المتقدم ذكرا أو أنثى.. عدا شبه جزيرة العرب، بدأت من البداية بالتفرقة بين ما إذا كان مقدم الطلب ذكرا فيصرح له بالقيادة، وإذا كان مقدم طلب أنثى فيُرفض طلبه لأنه حرام شرعا، واستمر اعتقال وسجن وتعذيب النساء التي تتورط في محاولات قيادة السيارة، واستمر الحال على ذلك قرنا كاملا وعلماءهم وكهنة الدين يسوقون حجج ومبررات واهية فقط لاستبعاد المرأة من قيادة السيارات، والغريب العجيب أن تأتي جميعها لأسباب دينية على مدار مائة عام كاملة، ثم يصدر قرار سياسي فجأة مطلع عام ٢٠١٨ بالتصريح للمرأة بقيادة السيارة لإرضاء رغبة الرئيس الأمريكي ترامب، فتصدر الفتاوى فجأة بأن قرار الملك هو ما يجب تنفيذه شرعا ! وكأن المرأة لم تعد تأتيها الدورة الشهرية كما كان يقول رجال الدين على مدار مائة عام... ومع ذلك نجد أن رجال الأزهر في آرائهم الفقهية يشرعنون ثقافة المجتمع العربي القديم ويعتبرونها تشريعات دينية، بينما في الواقع هي عادات العرب وهي تختلف جذريا عن المجتمع المصري، لكن بعدما استعرب الجبتيون واخضعوا لسلطان العرب ذهبت شخصياتهم وذهبت إرادتهم وصاروا متمسكين بعادات وتقاليد المجتمع العربي.

أما في تاريخ حضارتنا المصرية منذ البداية نجد الأطفال يجلسون في فصول الدراسة جنبا إلى جانب – الإناث والذكور وبيدهم الأوراق والأقلام على الجداريات الأثرية- دون تفرقة عنصرية كما تلك التي شاعت في صحراء شبه الجزيرة ثم شرعوها ونسبوها للدين فحصلت عاداتهم وأعرافهم المتخلفة على قدسية الدين.. في الواقع كانت قيم وأعراف وتقاليد المجتمع الجبتي القديم أفضل من الفقه الإسلامي الذي جاء به العرب.. لأن الفقه في الحقيقة جسّد تقاليد العرب ونفسيتهم العدوانية

النرجسية والسادية أكثر مما جسد مبادئ الإسلام؛ ذلك لأنه قام في أغلبه على المرويات وليس القرآن، قام على بقايا الحضارة العربية الفاشلة.. لم يكن العرب فقط قبل الإسلام يقتلون بناتهم فيما عرف بظاهرة " وأد البنات" لكنهم قتلوها أيضا بالفقه الإسلامي، قتلوا قيمتها الإنسانية واختزلوا دورها في الحياة، وقدسوا تقاليدهم في أقوال ومأثورات نسبوها لرسول الله.. هكذا وصلنا أرقى الأديان بطعم البدوية والوحشية العربية، وهكذا أصبحت أعراف وتقاليد المجتمع العربي دينا للشعوب، وأصبح تاريخهم الدموي رُكنا أبديا في الإسلام، وعلى يدهم أصبحت جرائم الحرب عبادة يتقربون بها إلى الله !

في عام ٢٠١١ اجتمع مجموعة من خبراء القانون وحقوق الإنسان في مدينة مساتريخت الهولندية واتفقوا على وضع المبادئ المتعلقة بالالتزامات الخارجية للدول في مجال الحقوق الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، فبعد ظهور العولمة الاقتصادية وامتداد أثر الدولة (ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا) إلى شعوب خارج نطاقها الإقليمي، بدت ردة فعلٍ مقابلة لأبناء هذه الشعوب، حيث ظهرت عولمة لحقوق المواطن (ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا) يمكنه أن يستمدها من خارج النطاق الإقليمي لدولته.. ونتيجة لتزايد أثر الدول خاصة في المجال الاقتصادي تزايدت حاجة الشعوب إلى مبادئ إنسانية ذات طابع عالمي كي تحفظ حقوقها، ومن هنا ظهرت المبادئ التي تلقي بالتزاماتٍ دولية لحماية حقوق الإنسان(ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا) مثل حق العمل وتوفير ظروف معيشية ملائمة وضمان الرعاية الاجتماعية والغذاء والسكن والتعليم والصحة وبيئة ثقافية. وقد اعترفت الدول بهذه الحقوق وقبلتها كالتزاماتٍ عليها خارج نطاقها الإقليمي، وبمساعي خبراء القانون وحقوق الإنسان أمكن التوصل لمبدأ؛ (لكل فرد الحق في التمتع بنظام اجتماعي دولي) أي وضع قاعدة يشترك فيها جميع المواطنين من جميع الشعوب تضمن الحد الأدنى للحياة الإنسانية الكريمة أيا كان موطن الشخص. وقد تأكد ذلك في إعلان وبرنامج فينا، وتجدد التأكيد على هذه المبادئ في إعلان الألفية، فاستقر بذلك نظام دولي قائم على مبادئ المساواة بداية من (حق تقرير المصير للشعوب والسلم، والديمقراطية، والعدل وسيادة القانون، والتعددية، والتنمية، وتحسين مستوى المعيشة، والتضامن). وتجسد هذا النظام الدولي الإنساني في عدة محافل دولية واتفاقيات ومواثيق للأمم المتحدة، وصولا إلى صكوك حقوق الإنسان العالمية، وقد استكملت هذه المبادئ بناءً على مبادئ ليمبورج١٩٨٦ الخاص بضمان الحقوق، ومبادئ ماستريخت١٩٩٧ الخاص بانتهاك الحقوق.

وتدور المبادئ العامة في محورٍ إنساني يبدأ من حيث ميلاد الإنسان حرا كريما، ومن ثم تنطلق المبادئ لتعميم هذه الحرية والكرامة بضمان الطرق والوسائل التي تضمن بقاءها لصيقة بشخصية

المواطن مهما اختلف موطنه أو جنسه بما يضمن (الحرية لكل إنسان، والمساواة، والكرامة، وعدم التمييز). وبعد استقرار هذه الحقوق يأتي إلزام الدول (بصفتها القادرة على التحكم في هذه الحقوق) بضمان تطبيق حقوق الإنسان الثقافية والاجتماعية والسياسية والمدنية داخل وخارج نطاق ولايتها الإقليمي. وأصبحت بذلك حقوق الإنسان ذات طابع عالمي موحد (تساوي جميع الأشخاص على مستوى العالم في ذات الحقوق-تساوي الحقوق ذاتها مع بعضها في درجة الأهمية بالنسبة لكل إنسان) فأصبحت بذلك حقوق عالمية موحدة مشتركة مترابطة متشابكة غير قابلة للتجزئة من حيث كونها حقوق، وأيضا من حيث كونها التزامات يقع على عاتق جميع الدول تطبيقها داخل وخارج نطاقها الإقليمي.

هكذا تفكر الشعوب المدنية في صياغة دساتير العالم ومواثيق حقوق الإنسان، حيث يبذل الخبراء قصارى جهدهم في حماية حقوق الإنسان في دول أخرى وليس فقط في مجتمعاتهم، وهو ذاته ما قرأناه في تاريخ الحضارة الجبتية القديمة، حيث كان إعلان أمنحتب الأول الذي أصدره بشأن حقوق الإنسان ومنع الرق بعد طرد العرب الهكسوس، ونص هذا البيان لا يمكن أن نجد مثله في حضارة العرب حتى بعد الإسلام، بينما أسس له أجدادنا قبل الإسلام بألف عام وأكثر.

فهل فكر الصحابة الكرام في حماية حقوق الإنسان في فارس والعراق التي قتلوا من أبنائهم نصف مليون إنسان خلال سنة واحدة من الفتوحات في عهد أبي بكر وسبوا وخطفوا ضعف هذا العدد نساء وأطفال واستعبدوهم وباعوهم في أسواق النخاسة؟ إذ هم كانوا ينتهكون حقوق الإنسان في بلادهم وبلاد غيرهم، وفي تفسير قوله تعالى" يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم" قالوا أنها أمر إلهي للمؤمنين (مباشر وغير مشروط) بقتال الشعوب المجاورة لهم بالدور؛ أي الأقرب فالأقرب... ! بينما الآية تأمرهم بتخليص أنفسهم من المنافقين. فما علاقة العرب بالإسلام أو ماذا يعرفون عنه. في الواقع إن العرب تلقوا من النبي جرعة العلاج ولفظوها عند وفاته ولم يبق في جوفهم منه شيء.. هم فقط فكروا في شيء واحد هو كيفية توظيف هذا الدين فيما يخدم طموحاتهم وأطماعهم ورغباتهم، حتى أنهم فسروا كتاب الله بما يعبر عن مكنون أنفسهم.

لدرجة أننا نجد خبراء الدين والعقيدة الفقهاء والمفسرين في قوله تعالى " وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ(٣/الفلق. يقولون: من شر قضيب الرجل إذا انتصب !! قال ابن عباس في كتاب النقاش: الغاسق إذا

وقب: ذكَرُ الرَجل[١]. وقال آخر: المعنى من شر الذَكَر إذا قام[٢] وقال ثالث: بأن الغاسق إذا وقب يعني بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته واختلاف أحوال الناس فيه[٣]، وعن ابن عباس: في قوله تعالى " ومن شر غاسق إذا وقب " قال: هو قيام الذكر. وقد أسنده بعض الرواة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أنه قال في تفسيره: الذَكَر إذا دخل. وقال رابع :" غاسَقٍ إذا وقب" ومعناه: أيرٍ "قضيب إذا قام" حكاه الغَزاليُ وغيره، عن ابن عباسٍ[٤]. وقال خامس: من شرِّ الذَكَرِ إذا قام[٥]. وقال خامس: من شر غاسق إذا وقب إنه الذكر إذا انتصب[٦]. وقال سادس: وقب: معناه: أير أي الذكر إذا قام. حكاه الإمام أبو حامد الغزالي وغيره كالنقاش في تفسيره وجماعة عن الإمام الحبر عبد الله بن عباس رضي الله عنهما[٧].

يقول المستشار أحمد ماهر أن المشكلة بين العرب وبين ابن عباس وابن عطية ومفسري القرآن كانت في أن قضيب الرجل إذا قام أو دخل أو إذا انتصب.. لكنهم اتفقوا على أن الغاسق هو قضيب الرجل ولعل هذا هو السبب في أنهم أطلقوا لقب (حبر الأمة الأعظم) على ابن عباس.. ونقرأ في تفسير الطبري:معناها: من شر الليل إذا أظلم. وبتفسير الجلالين: ومن شر غاسقٍ إذا وقب: أي الليل إذا أظلم أو القمر إذا غاب. وقال آخرون: هو كوكب. وكان بعضهم يقول: ذلك الكوكب هو الثريا. وفي تفسير السعدي: غاسق إذا وقب: أي: من شر ما يكون في الليل، حين يغشى الناس، وتنتشر فيه كثير من الأرواح الشريرة، والحيوانات المؤذية...

١- نقلا عن المستشار أحمد ماهر- تفسير "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" / ابن عطية

٢- وفي تفسير "تفسير بيان السعادة في مقامات العبادة" / الجنابذي

٣- كتاب إحياء علوم الدين- الجزء الثالث- تجد مكتوبا بكتاب كسر الشهوتين- الكاتب: حجة الإسلام أبو حامد محمد الغزالي الطوسي الشافعي

٤- القاموس المحيط والقاموس الوسيط لما ذهب من كلام العرب شماميط - حرف الباء- فصل الواو - الكاتب: الإمام مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي.

٥- القاموس المحيط والقاموس الوسيط لما ذهب من كلام العرب- حرف القاف- فصل الغين- الكاتب: الإمام مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي

٦ -كتاب: الإتقان في علوم القرآن- النوع الثامن والسبعون في معرفة شروط المفسر وآدابه.. الكاتب: عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين، الخضيري، المعروف بـ جلال الدين السيوطي

٧ -كتاب: تاج العروس من جواهر القاموس- الكاتب: محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني

يعني من الممكن أن يختلف خبراء القانون حول تفسير مادة أو عبارة أو كلمة في النصوص الخاصة بحقوق الإنسان، لكن هل يصل الخلاف بينهم إلى هذه الدرجة من الانحراف؟ أليس هناك أي ضوابط؟ ولا غاية ولا سبب موضوعي ولا معنى؟ ثم أن الآية عبارة عن بيان من الله إلى النبي محمد عليه السلام يبدأ بالأمر "قل" في سورة قصيرة آياتها خمس، يقول تعالى: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ(٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ(٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)/ الفلق..

ونلاحظ أن جميع الآيات تتحدث عن الاستعاذة بالله من الشر والضرر والوسوسة، فما علاقة كتاب الله بقضيب العرب إذا انتصب؟ هل نتوقع أن يقول الله لنبيه أن يستعيذ من القضيب إذا انتصب؟ !! ثم يدورون ويختلفون حول هل أن القضيب انتصب أم قام أم دخل !! برغم أن كلمة الغاسق تعني: الغموض المصاحب للخطر، وكلمة "وقب" تعني الحلول والاقتراب، أي أن المراد هو(شر وساوس الشيطان الخفية إذا ما دخلت علي النفس) وكل ذلك يناسب سياق الآيات والمعنى من الاستعاذة من شر ما خلق ومن الوسواس الذي يوسوس في صدور الناس... لكن ربما ما كان يوسوس في نفوس العرب هو الجنس وانتصاب وقيام القضيب، ولهذا زادت أعداد السبايا.. فهل هكذا كانت رؤية العرب للقرآن ؟

ففي تفسير قوله تعالى: {إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ } ٥٥/يس؛ قالوا " وهو افتضاض الأبكار، على شط الأنهار، تحت الأشجار، أو سماع الأوتار في ضيافة الجبار.." واختلفوا في معنى الشغل، قال ابن عباس: في افتضاض الأبكار.. وقال وكيع بن الجراح: في السماع.. وفي تفسير الرازي: افتضاض الأبكار ومداعبة الكواعب.. وفي تفسير السعدي: في شغل مفكه للنفس، مُلِذّ لها، من كل ما تهواه النفوس، وتلذه العيون، ويتمناه المتمنون. ومن ذلك افتضاض العذارى الجميلات.. !

في الواقع مثل هذه الفلسفات العقيمة هي ما تجعل فقهاء الإسلام اليوم في حالة دفاع عنه وليس تبشير به وانتشار له، فحالة الدفاع ذاتها تعني أنه في انكماش وليس انتشار، لكنهم لم يدركوا سبب عدم قدرتهم على الانتقال به من حالة الانكماش إلى حالة الانتشار.. لم يدركوا أنهم بذلك يتمسكون بالقومية العربية لا الإسلام. وهذا ما خلق صراعا مريرا بين الإسلام والحضارة، اعتبر خلاله أن الإسلام ضد الحضارة.

ونطرح هنا مثالا واحدا من كتاب الموطأ للإمام مالك، الذي واطأه عليه سبعين من فقهاء المدينة، تضمن عقوبة غريبة من نوعها لجريمة الاغتصاب، فلم يفكر مالك عند وضع العقوبة في الحقوق الإنسانية، ومن ثم حرمة الاعتداء عليها، فقط فكر في الحلال والحرام فقط؛ وتعامل مع الإنسان المرأة التي تعرضت للاغتصاب باعتبارها "مال" أو قيمة مادية بحتة بلا أي قيمة إنسانية، فقد فرق بين حالتين عند معالجة جريمة الاغتصاب، الحالة الأولى إذا كانت المرأة المغتصبة حرة أم أمة (عبدة مملوكة لسيدها)، فقرر أن الرجل الذي ارتكب جريمة الاغتصاب عليه الحد (مائة جلدة وهي عقوبة الزنا) ثم يضاف إليها قيمة مهر الحرة التي اغتصبت (مهر واحدة من مثيلاتها من السيدات)، أما إذا كانت جارية أي عبدة غير حرة، فإن الرجل الذي اغتصبها يكون عليه الحد بالإضافة إلى قيمة (ما نقص من ثمنها) !!

وبالطبع هنا فإن هذا المبلغ يعود إلى سيد هذه الأمة الذي يملكها لأنه هو المتضرر من نقصان ثمنها في السوق، وهو الذي يقرر مقدار النقص في ثمنها، فإذا كانت بكرا، فسيكون ثمنها في السوق أغلى من ثمن الثيّب، وفي كل الأحوال يضاف على المغتصب دفع قيمة ما نقص من الثمن أو قيمة مهر المثل إن كانت حرة.

لم يفكر الفقيه في الإنسانية التي تم اغتصابها عنوة وهتك عرضها، فقط قرر لها أن تقبض ما يعادل قيمة مهرها إن كانت حرة أو يقبض سيدها ما نقص من ثمنها إن كانت عبْدة.. أما المجرم الذي اغتصب جنسيا وهتك العرض، فلا عقوبة عليه تفوق حد الزنا إلا قيمة المهر!. والزنا في الأصل هو جريمة مشتركة بين رجل وامرأة بإرادتهما ورغبتهما معا، فتكون عقوبتهما مائة جلدة كما جاء بكتاب الله، أما الاغتصاب، فقط يختلف عند مالك عن الزنا في أنه يضاف على المجرم المغتصب مائة دينار مثلا إذا كان مهر المغتصبة يعادل هذا المبلغ ! أو يضاف مائة ريال إذا كانت المغتصبة ينقص ثمنها في السوق بقيمة هذا المبلغ، وقد يكون لا شيء لأن الأمَة قد لا تكون بكرا أصلا، وبالتالي فلن ينقص ثمنها في السوق.. وأيد هذا الرأي الفقيه الشافعي. أما أبو حنيفة والثوري فقالا الحد فقط، أما المرأة فلا حق لها سوي ما قد يعادل مهرها أو ما نقص من ثمنها، بمعنى أنها لو كانت امرأة عجوز مُسنة، فطبيعي أن يكون مهرها قليل، وبالتالي تنحصر حقوقها نتيجة اغتصابها وهتك عرضها فقط بحدود قيمة مهرها ! .. هكذا قال الإمام مالك ووافقه سبعين من أهل المدينة.

للأسف تجاهل الفقهاء حجم الضرر القاتل الذي وقع على المرأة، فقرر بعضهم أن تقبض ما يعادل مهرها وقرر آخرون لا شيء لها ! وبعضهم قال بأن عقوبة الزنا هي ذاتها عقوبة المجرم المغتصب !

والغريب في من قرر أن لها قيمة مهرها كتعويض عن الضرر، أنهم تغافلوا أن المرأة إذا رغبت الزواج بإرادتها عن قناعة وقبول واختيار العريس وحب ورغبة في الزواج، ستقبض قيمة هذا المهر مع حفل زفاف وهدايا ومجاملات لا حصر لها.. فكيف يتقرر لها قيمة ذات المهر في حال اغتصابها وهتك عرضها؟! وفي هذه الحال، ما الفرق بين زواجها واغتصابها؟ ففي كلتا الحالين قبضت المهر! فهل يتساوى الزواج مع الاغتصاب؟! أم أن كلاهما نكاح والاغتصاب كان حراما فجعلناه حلالا بدفع ما يعادل قيمة المهر! وهل تكفي قيمة المهر عوضا عن جريمة الاغتصاب وهتك العرض؟ . للأسف الشديد يكاد يكون هناك إجماع بين الفقهاء على أن عقوبة المغتصب هي حد الزنا مع دفع ما يعادل قيمة مهر المغتصبة، إلا بعضهم قرر عقوبة الزنا فقط.. وهذا ما استقر عليه الإمام مالك في كتابه الموطأ مع السبعين من فقهاء المدينة الذين واطؤه (وافقوه) عليه ! في الواقع هم اقتبسوا من أعراف البيئة الاجتماعية كي يفسروا كلام الله، وفي الأصل كانت البيئة العربية مريضة ومصابة بعاهة مستديمة لم يكتمل علاجها قبل وفاة الرسول.



الإضاءة الرابعة

العقلية المدنية والعقلية السادية

هناك تعدد في الظواهر الإجرامية التي مارسها العرب خلال حقب الجاهلية الأولى وحتى بعد الإسلام، تبدأ أولا بظاهرة ادعاء الإلوهية؛ وهي معروفة ومعهودة في جزيرة العرب وهي ظاهرة اجتماعية وليست فردية، وثانيا ظاهرة قتل الأطفال وهي ظاهرة أيضا لم يعرفها إلا العرب لأنهم شعب بري وطبيعته قاسية جدا، وكانت هذه أيضا ظاهرة مجتمعية وليست فردية خاصة بفرعون، بل كانت عادة عند العرب أن يقتلوا بناتهم خشية العار أو يقتلوا أبناءهم خشية إملاق.. وثالثا ظاهرة العبودية والرق، وكانت رائجة جدا في بلاد العرب لأنهم بطبيعتهم يتعالون على الأعمال الصغيرة ويحقرون من شأن الغير ومن شيمهم الشموخ والكبرياء وليس التواضع، ومن عاداتهم الاجتماعية التي قامت عليها كافة جوانب حياتهم كانت (الرعي والتجارة والإغارة والدعارة) ولو نظرنا في النشاطين الأخيرين (الإغارة والدعارة) لعرفنا كيف نشأت ظاهرة الرق والعبودية عند العرب حيث أن المجتمع برمته مليء باللواقط سواء من أبناء الزنا والدعارة أو من الخطف والسلب والنهب، حيث كانوا يهجمون على القبائل والقوافل العابرة ويخطفون الأطفال والنساء لاستعبادهم وبيعهم في أسواق النخاسة، وهذا مورد للرق يضاف إلى المورد الآخر وهو الزنا والدعارة... فهم كانوا مجتمع همجي لا يعرف العمل والبناء والإنتاج، إنما يعرف الغزو والقتل والإغارة والسلب والنهب.. وهذه جميعها ظواهر متساندة على أكتاف بعضها تصنع ملامح العقلية العربية.

بينما لم يعرف البابليون والآشوريون أو الجبتيون ظاهرة الرق والعبودية، كان العمال الجبتيون يتقاضون أجورا عن عملهم ويعملون بنظام الورديات المحددة ويحصلون علي أجازات منتظمة يزورون فيها أسرهم، ولم يكونوا عبيدا يعملون بالسخرة، بل إن علماء الآثار اكتشفوا حديثا بردية تتحدث عن أجازة أسرية حصل عليها أحد العمال لرعاية زوجته وقت مرضها.. وهؤلاء العمال الجبتيون الأحرار هم من بنوا الأهرامات والمعابد والمسلات والسدود وحفروا الترع وبنو الطرق والموانئ... وكانت خادمات المنازل مهنة يمتهنها بعض النساء الفقيرات وكن يعملن بأجر ويرجعن لأهلهن بعد انتهاء عملهن أو عندما يتركن العمل.. وكانت أجرتهم محددة باليوم، ولديهم نظام للأجازات مدفوعة الأجر والأجازات غير المدفوعة الأجر. وقد اكتشف بردية بولاق التي تناولت بعض تفاصيل عن أجرة إحدى الخادمات، وقدرت أجرتها ثلاثة أيام عمل بما يعادل قيمة ثوب.

لكن خلال الفترة التي احتل فيها الهكسوس العرب الأجزاء الشرقية من البلاد، انتشرت ظاهرة الرق والعبودية بوجودهم، حيث كانت منتشرة في بلاد العرب وجلبوها معهم، وعندما شاهد الجبتيون الهكسوس العرب يستعبدون البشر ذهلوا فلم يكونوا يتصورون أن الإنسان يمكن أن يستعبد، فقد ولد الجبتيون أحرارا و عاشوا أحرارا عبر تاريخهم القديم ولم تعرف مصر في تاريخها القديم تجارة الرقيق، وهى عادة اجتماعيه ذميمة دخيلة على القيم الجبتية جلبها الهمج من الهكسوس (بدو آسيا) أثناء احتلالهم لمصر.

وبعد تحرير إيجبت من الاحتلال الهكسوسى، والعلماء يعلمون جيدا أن هؤلاء الهكسوس هم أجداد الصحابة الكرام، لكنهم يتغاضون عن ذلك ويقولون بأن الهكسوس فلسطينيين ! ليبعدوا التهمة عن أجداد الصحابة، بينما هم لو ركزوا لحظة لعرفوا أن أجداد الصحابة كانوا أشر من الهكسوس، لكن الاعتراف بأن الهكسوس أجداد الصحابة سيعني فورا أن الهكسوس احتلوا وطنا للمرة الثانية بقيادة عمرو ابن العاص!. وبمجرد عودة الأمن والنظام، أصدر الملك أمنحتب الأول إعلانه العالمي بتجريم الرق واستهجانه لمن يفعلها تقليدا للهمج الهكسوس، وكان هذا أول إعلان لإلغاء الرق خرج للبشرية، حيث أصدر الملك أمنحتب الأول- ابن الملك أحمس الأول- في السنة الأولى من حكمه (سنة ١٥٢٥ ق.م) فيما يشبه ميثاقا أو تعهدا لإلغاء الرق، وهو المرسوم الملكي التالي:

(لن يباع الإنسان و يشترى كالحيوانات، كما كان الهمج يفعلون)

بينما نجد العرب يخترعون أحاديث عن أن العبد الآبق مصيره أن يدخل جهنم !!

ويلاحظ في صيغة المرسوم الملكي أنه تكلم عن الإنسان (بوجه عام)، وليس فقط الإنسان القبطي.. وكان يوم إعلان إلغاء الرق والعبودية من أعياد مصر القديمة يحتفل به الشعب[1]، مثل احتفاله بأعياد الربيع والحصاد والفيضان، وهذا ما تؤكده البرديات وما سرده برستد في كتابه " فجر الضمير"، في الوقت الذي كان العرب هم " فجر الشر" في المنطقة. جاء إعلان الملك تحتمس الأول بتحرير الرقيق قبل "سبارتاكوس" صاحب أول ثوره لعبيد الإمبراطورية الرومانية سنة ٧٣ ق.م، وقبل الرئيس الأمريكي "أبراهام لينكولن" صاحب قرار إلغاء الرق في أمريكا سنة ١٨٦٣ ميلادية، وقبل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر سنة ١٩٤٨ ميلادية، والذي تنص مادته الرابعة على: (لا يجوز استرقاق أو استعباد أى إنسان، وتحظر تجارة الرقيق بكافة أنواعه).. وقبل اتفاقية الأمم المتحدة لمنع "

(١) - انظر كتاب "الأعياد" للأستاذ سامى حرك

الاتجار بالبشر واستغلال الغير" الصادرة في الثاني من ديسمبر سنة ١٩٤٩ ميلادية والتي يحتفل بها سنويا فيما يسمى باليوم العالمي لإلغاء الرق..

هذا في الوقت الذي كان العرب يقتاتون على الإغارة وخطف البشر وبيعهم في أسواق النخاسة .. حتى بعد نزول الإسلام، فقد عمل الإسلام على تجفيف منابع الرقيق بينما الصحابة الكرام أغاروا على كل الشعوب المجاورة بالدور وخطفوا الأطفال والنبات والنساء واستعبدوهم.. حتى لم يلتزموا بتوصيات الرسول ولا نصوص القرآن ! ذلك لأن القومية العربية عرقيا لها سمات جبلية خاصة لا يؤثر فيها دين ولا رسول. بينما كان الجبتيون أناسيَ ذوي قيمة إنسانية يستحيل العثور عليها في جزيرة العرب إلا إذا كانت نبوة .. وهذا خطاب الملك رمسيس الثاني للعمال:



"أنتم أيها العمال الشجعان المهرة الذين يقطعون لي آثار بأي كمية، وأنتم يا من يعشقون العمل في الحجر الثمين الممتاز، ويا من يحترفون في شَغل الجرانيت الأحمر والمتمرنين على حجر (بيا)، وأنتم أصحاب الشجاعة والقوة في صنع الآثار لأملأ بها كل معابدي التي أبنيها طيلة الحياة. أنتم أيها الرجال الطيبون يا من لا يعرفون التعب، ويا حراس العمل طوال الوقت، و يا من ينفذون واجباتهم بإتقانٍ تام، وأنتم يا من يقولون إننا نعمل بعد التروي للذهاب لهذه الخدمات في الجبال المقدسة، لقد سمع ما يقوله بعضكم لبعض، وإن فيكم لبركة لأن الأخلاق تظهر على حسب الكلام. وإني " رعمس مرى آمون" الذي ينشىء الشباب (يربي النشء) بتوفير الطعام والأغذية، وليس بينكم جائع، والطعام وفير حولكم، ولقد كفيت حوائجكم من كل وجه صحيح حتى تعملوا بقلوب مُحبة، وإني دائما أحافظ على احتياجاتكم، وإن المؤن قد أصبحت لديكم أثقل من العمل نفسه لأجل إن تتغذوا وتصبحوا عمالا صالحين(للعمل)، لأني أعلم تماما وجيدا عملكم الذي يمكن أن ينشرح له كل من يعمل فيه عندما يكون البطن مملوءا. فالمخازن مكدسة بالغلال لكم حتى لا يمر

عليكم يوم تحتاجون فيه للطعام. وكل واحد منكم عليه عمل شهر. ولقد ملأت لكم المخازن من كل شيء من خبز ولحم وفطائر ونعال وملابس وعطور لتعطير رؤوسكم كل أسبوع (الأسبوع عشرة أيام) و لأجل كسائكم كل سنة، ولأجل أن تكون أخمص أقدامكم قوية دائما، وليس من بينكم من يمضى الليل يئن من الفقر، ولقد عينت خلقا كثيرا يوفروا لكم المؤن، وكذلك صيادين ليحضروا لكم سمكا وآخرين بمثابة بستانيين لينبتوا لكم الكروم، وصنعت لكم أواني واسعة على عجلة صانع الفخار مسويا بذلك أوعية لتبريد الماء لكم في فصل الصيف. والوجه القبلي يحمل لكم حبا للوجه البحرى، والوجه البحرى يحمل للوجه القبلي حبا وقمحا وملحا وفولا بكميات وفيرة. ولقد قمت بعمل كل هذا لأجل أن تسعدوا وأنتم تعملون بقلب رجل واحد".

هذه كانت عقلية العظيم رمسيس باشا وهو يسهر على رعاية عماله وموظفيه ويوفر لهم الطعام والماء البارد في فصول الصيف، ويوفر لهم الأغذية والملابس والأحذية والعطور وكل احتياجاتهم، ولم يكن من السفاهة أن يفكر في استعباد البشر وأبناء الزنا والدعارة في خدمته كما اعتاد كل الخلفاء العرب. فالعقلية العربية كانت ولا زالت سادية سيادية بفطرتها إلا من رحم الله.

كان ملوك الأهرامات قبل إصدار قرار البدء في البناء، يعدون أماكن مخصصة (ضمن ذات الرسم الهندسي الخاص بالهرم) بحيث تكون أهرام صغيرة كمقابر للمهندسين والمشرفين والعمال، ولذلك نجد حول كل هرم مجموعة أهرام صغيرة متدرجة في الحجم وموزعة حول الهرم، هذه الأهرامات ليست لأبناء الملوك أصحاب الأهرامات الكبيرة، بل هي مخصصة للمهندسين والمشرفين على بناء الهرم، وكل هرم فيها بحجم ودرجة الموظف وحسب كفاءته ودوره في عملية البناء، أما العمال الذين تساوت درجاتهم الوظيفية، فتم تصميم مقابر مشتركة لهم بسفح الهرم بغرف متعددة تشبه فصول المدرسة تمثل درجتهم الوظيفية بذات منطقة الدفن الملكية (ضمن ذات الرسم الهندسي الكبير للهرم)..

فلم تكن حضارة أجدادنا القدماء تعرف ظاهرة الرق والعبودية كما حال العرب لأن الجبتيين بطبيعتهم متواضعين، أما العرب فلديهم غريزة سادية وسيادية واستعلاء على الأعمال، ولا يحفظون الجميل، عكس ملوك الحضارة الفرعونية الذين أكرموا العمال والمهندسين الذين اشتركوا في بناء الهرم، ولم يتكبروا عليهم وأمروا بإعداد مقابر لهم ضمن الساحة المخصصة للملك. ولأن العرب بطبيعتهم الكبرياء والاستعلاء على العمل، ويفضلون التجارة ورعي الغنم ولا يمكن أن تمتد يدهم

على عمل يؤدونه بأنفسهم، فلذلك لم يكن لديهم مهندسين عمليين وماهرين في البناء، فقط رعاة غنم وشعراء، ولذلك لم ترتفع مساكنهم فوق سقف الخيمة.

ومن ناحية الأعمال المدنية، فالشعب العربي مختلف جذريا كذلك، فالجبتيين أكثر تواضعا ولا يستكبرون على صغائر الأعمال والحرف اليدوية والصنائع والأعمال الشاقة، ويحبون الاستيطان في الأرض والارتباط بالمكان، ويشعر بالحنين تجاه وطنه ويدافع عنه، بينما العرب تنفر طبيعتهم من الأعمال اليدوية ويتعالون عليها ويستعبدون غيرهم لأداء أغراضهم اليومية، ويفضلون الترحال والتنقل ولا يرتبطون بالأرض والمكان حتى وإن اضطروا للسكنى في الخيام في العراء، ولهذا امتهنوا التجارة والرعي، ولم تقم في بلادهم الحرف والصناعات اليدوية حتى الضروري منها للحياة إلا في حدود ضيقة جدا.



فالعرب يدمنون الطبقية والعنصرية والتعالي والكبرياء، ولهذا راجت لديهم تجارة العبيد وأسواق النخاسة، وما زالوا حتى يومنا هذا. بينما الجبتيين حتى في أقصى درجات الارتقاء الحضاري لم يكونوا يعرفوا ظاهرة النخاسة وتجارة البشر وخطفهم واستعبادهم، حتى من قالوا بأن الأهرام تم بناءها بالاعتماد على العبيد، فقد سقطت هذه الفرية لأن الباحثين أثبتوا أن الحضارة الجبتية لم تعرف نظام الرق قديما، فقط عرفت درجات مهنية، صبي وعامل ومشرف ومهندس وخبير ورئيس ووزير..إلخ، وكان كل إنسان حر في نفسه، حتى المرأة عرفت طريقها إلى العمل وحصلت على

حقوقها المدنية كاملة.ونحن لا نجد هذه الدرجات الوظيفية والمهنية لدى العرب، فقط نجد "السيد والعبد والجارية"، وعندما احتلوا وطننا ونقلوا ثقافتهم إلينا، ظهر في القاهرة عيِّنات من نوعية "سي السيد " نتيجة خضوعنا للاحتلال المعرفي العربي، فزادت المسافة بين الرجل والمرأة المصرية كما وضع المجتمع العربي في الأصل.

بينما يقول د. حسين دقيل[1]: إن المصري القديم الذي لا يعرفه بعضنا – عن سوء فهم بالتأكيد –، قد تحلى بهذا الخلق الرائع؛ الذي تهفو النفوس إلى مصاحبة من يلتزم به ومجاورته، فما وُجد هذا الخلق في شخص إلا ونال حبًا واقترابًا، إنه خلق التواضع الذي لا يتحلى به إلا الأكابر، ومن العجيب أن المصري القديم قد ربط هذا الخلق بالسعادة، فما تحدث عن هذا الخلق حكيم من حكمائهم إلا وربطه بالسعادة؛ وكأن التواضع والتحلي به يجلب السعادة على صاحبه كما يجلبها على من حوله، فها هو الحكيم الشهير «بتاح حتب» – خلال عصر الدولة القديمة – يوصي ابنه بهذا الخلق الكريم ويحدد له تفاصيله الدقيقة؛ فيقول: "**يجب على الرجل الشريف أن يكون دائمًا متواضعًا وكتومًا، وأن يجتنب ذكر الألفاظ النابية، وألا يتكبر بسبب علمه، وألا يحتقر الوضيع إذا ما رفعه الملك!** ".

ويقول له محذرًا إياه من الغرور حتى وهو موجود بين الجهلاء والعبيد: **لا تغتر بما تعرف، واسمع لما يقوله الناس جهلاءً كانوا أم علماء، وإن الوصول إلى الكمال مستحيل، والكلمة الطيبة نادرة ندرة الجواهر ولكن قد تتحلى بها الإماء، كن فرحًا طالما أنت على الأرض، عش لحظة السرور لا تقتطع منها، ولا تعمل أكثر من مما يلزم لتحصل على لقمة العيش!** .. كما حذره من الكبر إذا أصبح ذا جاه ومنصب، بل وينصحه بأن يظل دائمًا متذكرًا لتلك الحالة التي كان عليها قبل غِناه؛ فيقول: **إذا أصبحت عظيمًا بعد أن كنت صغير القدرة، وصرت صاحب ثروة بعد أن كنت في المدينة محتاجا، فلا**

١ ـ من مقال للدكتور حسين دقيل، منشور على موقع ساسة بوست، بعنوان " من أخلاق الجبتيين القدماء ج(٥) التواضع " 23مايو، ٢٠١٨ – نقلا عن مصادره من وصايا وتعاليم الحكيم «كاجمني» موجودة في «بردية بريس» المحفوظة بمتحف اللوفر بباريس وترجع إلى عصر الأسرة الثانية عشرة، وبردية بريس تُعتبر من أشهر البرديات الطبية، وقد عُثر عليها في الأقصر سنة ١٨٦٢، حيث اشتراها جورج أبريس – الذي قام بنشرها – من أدوين سميث، ويبلغ طولها ٢٠,٣ مترًا وعرضها ٠,٣ مترًا، وتحتوى ١٠٨ عمود، وكانت تحتوى على ٨٨٧ وصفة طبية لأنواع متعددة من الأمراض وأعراضها، ومن بينها وصفات لأمراض الجلد والتجميل والزينة وإنماء الشعر.

على رابط: https://www.sasapost.com/opinion/from-the-morals-of-the-ancient-egyptians-p5-humility/

تنسين كيف كانت حالتك من قبل، ولا تثقن بثروتك التي أتت إليك منحة من الرب؛ فإنك لست بأحسن من أقرانك الفقراء!".

والأعجب من ذلك، أننا نجد المصري الوحيد الذي زار النبي محمد في المدينة وروى عنه حديثا وحيدا، كما يروي د.محمد العوا عن صحابي قبطي اسمه: «رقب المصري»، روى عن النبي حديثا واحدًا هو: «طوبى لمن تواضع في غير منقصة.. [1] » ربما كان هو أول قبطي يعتنق الإسلام ويروي حديثا عن رسول الله وينطق اللغة العربية، ربما تعلمها من النبي عليه السلام، وقد روى حديثا يتساقط من حروفه الصدق.. ليس بحاجة إلى سندٍ من فلان ابن فلان عن فلان ابن علان في سلسلة طولها سبعون خريفا.

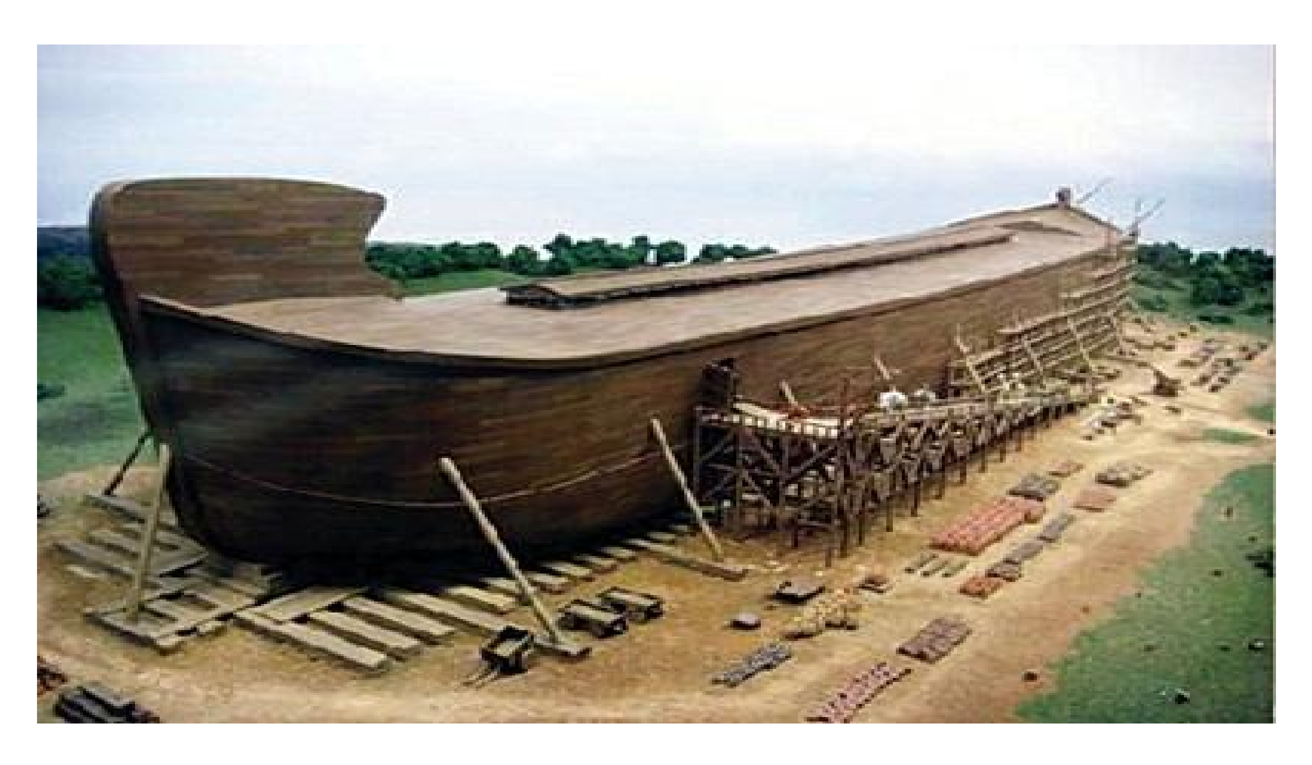
فوضع الجبتيين عكس الوضع لدى العرب تماما، فمهما كان الإنسان فقيرا أو غنيا تظل هذه سمة مغروسة في دمه.. وهذه السمات التي تحدث عنها ابن خلدون لا زالت مستمرة في عصرنا حتى الآن، فنذكر سلطات المطار عثرت مع خادمة إثيوبية على كمية هائلة من إيصالات الكهرباء، وبعد التحقيق معها أقرت بأن كفيلها أقنعها بأنها شيكات يمكنها صرفها في بنوك بلدها إثيوبيا، وهي مجموع راتبها خلال ثلاث سنوات عمل في خدمته.. فغريزة الاستعباد والعنف والتسلط على الغير وما زالت إلى اليوم في الشعب العربي مهما كان فقيرا جاهلا تجده يتعالى على العمل اليدوي، وإن لم يجد قوت يومه يستسهل قطع الطرق وفرض الإتاوات أو التسوّل..

إذ أنهم حتى لم يتورعوا عن قطع طرق الحجاج من كل اتجاه لنهب مؤنهم وأموالهم وحتى ملابسهم، وقد كانت ظاهرة "قطاع الطرق" منتشرة في شبه الجزيرة كأحد الأنشطة الاقتصادية البارزة، لدرجة أن الخديوي "حاكم مصر" كان يرسل كتيبة من الجيش مع قافلة الحجاج إلى مكة كي تسبق القافلة لدفع الإتاوات مقدما تجنبا للتعرض للحجاج الجبتيين لنهب العرب، ولم تكن هذه القافلة تتعرض لأي أذى طالما كانت داخل الحدود المصرية. وكانت عاداتهم في الإغارة منذ القدم على القوافل التجارية والأدبية وقوافل الحج والعبادة هي السبب في تشريع فكرة الأشهر الحرم أي تحريم الإغارة والسلب والنهب خلال أربعة أشهر في السنة تكون فيها كثافة الحركة

١- مقال للأستاذ أحمد متاريك، بعنوان: صحابة أقباط: هل كان هنالك مصريون يين الصحابة؟" منشور على موقع إضاءات بتاريخ: ٢٠١٩/٢/٢٣م. نقلاً عن أبو نعيم في «معرفة الصحابة.«
رابط /https://www.ida2at.com/sahabah-copts-were-there-egyptians-among-sahabah

وورود القوافل من وإلى مكة، وبالطبع القتل عموما حرام والسلب والنهب والإغارة حرام لكنهم لم يلتزموا بالمبادئ العادية، فضاعف الله عليهم العقاب في هذه الأشهر، لكنهم تحايلوا على الله، وقاموا بترحيل الأشهر الحرم عن مواعيدها إلى مواعيد الأجازات التي ليس فيها حركة، فيما عُرف بـ"النسيء"، وقالوا لو ظللنا أربعة أشهر دون إغارة لنهلكن من الجوع.. هذا كان قبل الإسلام.. أما بعد الإسلام فقد ألغى العرب كل الأشهر الحرم بالمرة وفتحوا الإغارة على مدار العام !

برغم أن أبيهم آدم عليهم السلام بعدما هبط من السماء ونزل إلى الأرض، ولم يكن له إلا أن يعمل بيديه حتى يحصل على الرزق، وكان الله قد علمه العلوم والأسماء كلها، أمّا المهنة التي اشتهر بها آدم -عليه السلام- فهي زراعة الأرض، حيث كان يحرث الأرض ويزرعها ويتعهّدها، وكانت زوجته حواء -عليها السلام- تساعده في ذلك لتحصيل الرزق، وكان آدم يصنع المعدات التي تعينه في عمله والآلات اللازمة لذلك بالطرق المتاحة في ذلك الوقت، وغالبا ما كان يستخدم الأخشاب والأحجار لتلك الغاية. وإدريس (ع) كان يعمل في الخياطة وحياكة الثياب، أما نوح (ع) فكان يتقن النجارة، وكان ماهرا في صقل وتثبيت الألواح وغرس الدسر، وصنع سفينته بنفسه التي عامت فوق الطوفان "سفينة نوح" والتي ذكرتها جميع الديانات السماوية، وكان إلياس (ع) نساجا. إبراهيم (ع)كان تاجرا للأقمشة وراعيا للغنم والبقر، وكانت مهنة إسماعيل (ع) هي القنص أي الصيد. وداود (ع)كان حدادا، ولم يترك نبي مهنته ليتكسب على عوائد الدعوة أو يستغلها في الكسب أو يعيش عالة على الناس.



فالمصريون على مدار تاريخهم يدمنون العمل والبناء والإنتاج، ويحبون التخصص، حتى أننا نجد في كل قرية، وبرغم أن المهنة والحرفة الرئيسية للقرية هي الزراعة باعتبار الحضارة المصرية قامت على ضفاف الوادي، ومع ذلك لم يقتصر نشاط المصريين على الزراعة، ولم يستقل الرجال بالعمل الحرفي فقط، بل كانت كل قرية تتخصص في نشاط صناعي إنتاجي معين، بعضها تخصص في صناعة الورق البردي، وبعضها تخصص في صناعة الفخار أو النسيج أو الزجاج أو الطوب.. حتى في عصرنا الحالي في عصر العولمة واقتصاد الصناعات العالمية الضخمة التي تقدر ميزانياتها بالمليارات، ما زال أهالي القرى الزراعية في مصر يتخصصون في حرف صناعية تزيد من دخلهم وتحسن مستوى معيشتهم. ففي الوقت الذي اكتفى فيه العرب بالرعي في الصحارى، لم يكتف المصريون بالزراعة في أرضهم، ولكن توسعوا في النشاطات الصناعية والإنتاجية، وكل المشكلة أننا نستحي القول بأن الصحابة لم يكن لهم نشاط حلال أو عمل أو حرفة يتكسبون منها بعرق يدهم بدلا من السبي والجهاد وسلب الغنائم، ذلك لأنهم صحابة، بينما المصريون ليسو صحابة لكنهم برعوا في العمل وحرصوا على إتقان العمل وعلى أن يكون مصدره حلال من عرق اليد..



ومن السهل أن تعرف أن مصر فيها اليوم قرية من أشهر قرى العالم كله في صناعة السجاد والكليم اليدوي هي قرية (الحرانية) وهي قرية من أشهر قرى العالم في صناعه السجاد اليدوي، قال عنها الفيلسوف العالمي جان بول سارتر (الحرانية) بها أهم فناني السجاد اليدوي في العالم ... وكانت الأميرة ديانا وملك السويد وملك النرويج و رؤساء أغلب دول العالم وغيرهم من أهم الشخصيات يحتفظون بتذكار من الحرانية، برغم أنها صناعة تراثية إلا أنها في جمالها وروعتها تنافس الصناعات الحديثة للسجاد..

ومن السهل أيضا أن تعرف أن المرأة المصرية تحب العمل والبناء والإنتاج وتحب الحركة، لا تسكن بطبيعتها للأعمال المنزلية فقط، وإنما تندمج في الحياة الحرفية أيضا، خاصة إن لم يكن إلى جوارها زوج.. بينما نجد المرأة العربية تقضي حياتها خلف الأستار، بل إن الرجل العربي يحب الثوب الأبيض نظيفا دائما ولا يأكل من عمل يده، وإنما بالفهلوة... وعندما دخل العرب مصر- لا نقول دخل الإسلام- وإنما دخل العرب مصر، فبدأ المشايخ يبحثون في تراث العرب قديما ويتساءلون هل عمل المرأة حرام أم حلال !

أما صحابة رسول الله فقد تركوا المهن والحرف وتفرغوا الإغارة من الخارج وتفرغوا تماما للإغارة لأنهم لا يحبون العمل والبناء والإنتاج، كما كل رسل وأنبياء الله، جميعهم كان له مهنة يتكسب منها من عمل يده، وبرغم أن نبينا عليه السلام قال لهم: (ما أكَلَ أحدٌ طعامًا قطُّ، خيرا من أن يأكلَ من عملِ يدِهِ)، فلم نجد التاريخ ذكر لنا مهن الصحابة ولا نوعية الحرف والصناعات التي راجت في مكة أو المدينة ولا طريقة تصنيع الثياب والفخار والورق وصناعة الأقمشة وصناعة الجلود في بلادهم وصناعة البلاط وصناعة الزيوت والعطور وصناعة والكتابة والعلوم والتدوين والحدادة والنجارة... فقط ذكروا لنا عدد السيوف التي تكسرت على يد سيف الله المسلول !

فيقول ابن خلدون: والسبب في ذلك أنهم أعرق في البداوة وأبعد عن العمران الحضري وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها.. والعجم من أهل المشرق وأمم النصرانية عدوة البحر الرومي أقوم الناس عليها لأنهم أعرق في العمران الحضري وأبعد عن البداوة وعمرانه. ولهذا نجد أوطان العرب وما ملكوه في السلام قليل الصنائع بالجملة حتى تجلب إليه من قطر آخر، وانظر بلاد العجم من الصين والهند والترك وأمم النصرانية كيف استكثرت فيهم الصنائع "[١] ...

وبرغم أن ابن خلدون لمح الظاهرة بوضوح إلا أننا سنختلف معه جزئيا في مسألة كونهم أعرق في البداوة وأبعد عن الحضارة؛ لأن العرب حتى في عصرنا الحالي رغم توافر التكنولوجيا الحديثة في بلادهم وتوافر المال والراحة ووسائل الترفيه، إلا أنهم ما زلوا على طبيعتهم وسماتهم النفسية لم تتغير، فالحضارة غزت بلادهم وعقولهم لم تغز الحضارة؛ لأن هذه النوعية من العقول الله خلقها بطابع فكري أدبي وطابع سلوكي شرس، وهذه سمات جينية وراثية، لكن ابن خلدون لم يكن يعرف

١ ـ في الفصل الرابع من الكتاب الأول (الفصل الحادي والعشرون: باب في أن العرب أبعد الناس عن الصنائع (٤٠٤)

الصفات الوراثية والحمض النووي وغير ذلك من منجزات الحضارة، فاعتبر السبب في طبائعهم الشرسة هو البيئة، ولم يدرك أنهم هم الذين احتاروا البيئة الملائمة لسماتهم الوراثية والنفسية كي يعيشوا فيها، وحتى إن تغيرت البيئة، بقيت سماتهم على حالها.



الإضاءة الخامسة

العقلية العربية والعاهة المستديمة

هناك سمات نفسية وذهنية أخرى مختلفة بين العرقين على أساسات وراثية جينية، فالجبتيين في الغالب يميلون إلى الصدق وحسن النية وسريعي الألفة والتآلف، ميالون إلى التدين بالفطرة، إذ أن الجبتيين القدماء على مدار تاريخهم وقبل نزول الأديان السماوية كانوا يبحثون عن عبادة الله بالفطرة، فهم بطبيعتهم ميالون إلى الإيمان وعقيدة التوحيد.. حتى أنهم طول الوقت كانوا يتأملون في ملكوت الله ويبحثون عنه كما سيدنا إبراهيم عليه السلام، قال تعالى عنه: فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)/الأنعام.. وهذا وصف الله رحلة عبده إبراهيم في البحث عن يقين الله وعبادته، إذ أنه تأمل في الكون فلما رأى كوكبا انصرفت عقيدته إلى أن يكون هذا الكوكب هو خالق الكون والأحق بالعبادة، ثم عندما اختفى الكوكب من فلك السماء تراجع إبراهيم عن عبادته، ثم عندما ظهر القمر في السماء توجه إليه بالعبادة، وعندما اختفى القمر تراجع إبراهيم عن عبادته، ثم إذا سطعت الشمس وملأت الكون نورا عبدها، ثم إذا اختفت في المساء تراجع عن عبادتها وقال لقومه إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض، هو خالق الكون والأحق بالعبادة حتى ولو لم نره..

يقول الفيلسوف الإغريقي (جامبليك) عند زيارته لإيجبت : " قد سمعت بأذني من كهنة الجبتيين أنفسهم .. أنهم يعبدون إلها واحدا .. خالق السموات والأرض .. رب كل شيء .. المالك والخالق لكل شيء ..الأزلي الذي لا مُوجد له .. المنزه عن المباغضة .. الذي لا تراه العيون ..يعلم ما تكن السرائر وما تخفيه الصدور .. الفعال لما يريد .. الموجد لكل شيء" .. وهذه شهادة شخص أجنبي محايد لا يهمه مجاملة أجدادنا في شيء.

وبما أن الإنسان هو صنيعة الله على أرضه، فقد بدأ الإنسان الجبتي بالفطرة يبحث عن العبادة، ولذلك انتشرت عبادة الشمس عند القدماء باعتبارها أم الكون أو هي أكبر المخلوقات الكونية في

نظرهم، حتى أنهم عرفوا أنفسهم في فترة ما بـ "شعب الشمس". وما نود أن ننتهي إليه هو توضيح أن غريزة العبادة بالفطرة موجودة داخل الإنسان الجبتي بقدر ما هي موجودة في أنبياء العرب، فالعرب بطبيعتهم ينفرون من العبادة ويتمردون، بينما أبو أنبيائهم يبحث بتلقائية وبالفطرة عن العبادة كما كان يفعل أجدادنا، إذن نحن متقاربون ذهنيا مع أنبياء العرب وليس العرب، وهذه السمة هي في الإنسان القبطي سمة وراثية متوارثة جينيا، ولذلك عندما انتقل رجل فلسطيني حاملا نسخة من الإنجيل إلى إيجبت، انتشرت الديانة المسيحية في إيجبت بالكامل، لأن الشعب الجبتي بطبيعته شعب ميال إلى التدين وعقيدة التوحيد، شعب غير متمرد على فكرة العبادة وفلسفتها، لدرجة أنه إذا لم يجد من يرشده للعبادة فيبحث عنها بنفسه ذاتيا أو يخترع له معبودا، بخلاف العرب الذين كانوا يعرفون الله ويشركون معه أصنامهم، فالفصيلة العربية من تكوينها النفسي والذهني نزعة التمرد والإلحاد والنفاق والتلون والخيانة والغدر، ليس فقط التلون في المبادئ بل حتى في الكلام، ولهذا نبغوا في الشعر والزجل. بينما الجبتي ترك رسائل حتى في الاعتراف بالذنوب والرجاء من الله محوها قبل أن تقبض روحه.

فالضمائر كانت حية بالفطرة، فقد وردت مجموعة من أروع النصوص والصلوات والابتهالات للإله، وفى هذه النقوش نجد انصياع وتذلل المتعبد للإله، وابتهالات من أجل الرحمة و إقرار بضعفه وسيئاته، ونجد أن تلك المشاعر لم تكن جديدة، ولكن الجديد هو الاعترافات الواضحة بها، وكان المصلون يدعون الإله حتى يأمنوا قوته التي تهلك العصاة، ومثالا على ذلك وردت إلينا رسائل مدونة في كتب الموتى وعلى جدران المعابد والأهرامات من الداخل، فيعترف رجل في لوحته قائلا (أنا الذي رددت قسما كاذبا أمامك فأصابني الإله بظلمة والذي جعلني أدرك عظمته أمام جميع أهل الأرض، ويخاطب الإله " يا ربي أنر بصيرتي"...

ورجل آخر يدعى (قن) يقر في رسالته أنه قدم تعهدا كاذبا لامرأة، ويتضرع ويلجأ إلى الإله ويقول (كن رحيما معي). وغير ذلك الرسام الذي يرقد على فراش الموت بسبب ذنب ارتكبه و يتضرع أبوه الملهوف ويقدم الصلوات ويقول (لسوف أنذر باسمك هذه اللوحة واكتب هذا الدعاء باسمك إن أنت أنقذت ابني الرسام (نخت آمون) من أجل خاطري.. وكان واثقا في أن الإله خليق بالرحمة حتى ولو أذنب العبد..

على العكس من الشعب العربي المؤهل جينيا لحياة الصحراء وشظف العيش والجفاف والحرارة والقسوة والخشونة والغلظة والتمرد ورباطة الجأش، ومن السهل على الأب أن يقتل ابنته ويدفنها

بيده حية برباطة جأشٍ ودون أن ينهار نفسيا، ولديه من الدهاء والمكر ما تزول منه الجبال وما يفوق دهاء الجبتيين بمراحل عديدة. فحينما خاطب الله العرب بالقرآن قال تعالى: " ثمَّ قسَتْ قلوبكُم مِن بعْدِ ذَٰلِكَ فهِيَ كَالحِجارةِ أوْ أشدُّ قسْوةً "، وهذا الخطاب جاء بضمير المخاطب الحاضر وليس موجه لجميع البشر في العالم، وهو لا يشمل جميع العرب بالطبع ولكن عينات منهم، لكن حتى هذه العينات لا نجدها في إيجبت. وبالطبع كانت ديانة الجبتيين مختلفة عن الأديان السماوية وعبادة الله الخالق الأوحد، والأمر هنا لا يتعلق بالعبادة كمنهج، ولكن غريزة التدين، أو ما نسميه في عصرنا بالوازع الديني، الذي هو سمة جينية وراثية في الشعب الجبتي تدفعه إلى الطواعية والاستسلام للخالق. وفي المقام ذاته يجدر بنا التنويه إلى أن موضوعنا ليس قياس حجم الحضارة ودرجة الرقي والارتقاء المعرفي، ولكن البحث في نوعية الأفكار والموضوعات التي تشغل الذهن العربي والذهن الجبتي.

فالشعب العربي سماته مختلفة جذريا، شعب يدمن الإلحاد والشرك والنفاق والتنابذ بالألفاظ والألقاب والتلاعب بالكلمات والمعاني، وليس لديهم أي رادع أو وازع ديني، ولم يكونوا كالجبتيين يبحثون بالفطرة عن الإله، بل كان إدمانهم الإلحاد والسخرية من العبادة، والقرآن كافٍ عن إعادة تكرار وتعداد صفات الكفر والنفاق التي كانت منتشرة في مكة تحديدا، ولهذا أرسل الله نبيه رسولا منهم ليكون شاهدا عليهم، وأنزل القرآن بلغتهم ليستوعبوا الدرس جيدا وتكون اللغة دليل الإدانة عليهم، وكانت مهمة النبي هي ترويض أهل مكة، ترويض نفوسهم العصية على الإيمان، وكتب السيرة غنية عن الذكر وعن تعداد العجائب والغرائب التي وردت فيها، حتى من اقتنع بأن القرآن منزل من عند الله كان كبرياءه وغروره يمنعه من الاعتراف !

وأبسط الأمثلة ؛ الوليد ابن المغيرة الذي قال كلمات وصف بها القرآن، وخلدها التاريخ، فعندما سمع رسول الله يقرأ القرآن ذهب إلى عتاة قريش وهو مرتبك، فسألوه؛ هل صبئت؟ أي آمنت بمحمد واستسلمت للخداع؟ فقال: والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته" ومع ذلك لم يؤمن. وغيره أبو طالب عم النبي عليه السلام الذي حمى النبي وكان على قناعة بأنه نبي مرسل من الله، لكن كبرياءه منعه حتى في لحظات الموت، خشي أن تقول العرب أن أبا طالب يهاب الموت، وعلى هذا مات وهو كافر..وظل النبي يدعو له حتى نزل قول الله: " إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالمُهْتَدِينَ" ونطاق الحديث هنا ليس من باب القدح في شخص أبا طالب لأنه عم النبي ونحن نحترم

نبينا، ولكن لتحليل السمات والخصائص النفسية والفكرية، فكل شعب له عيوبه وله مزاياه، وعند التحليل العلمي نجد سمات متأصلة وراثيا في هذا الشعب أو غيره.

فالأمر لا يتوقف على النفاق الديني كما تحدث عنه الله في سورة التوبة، وهو أن يكون الرجل مشركا ورغم ذلك يخفي شركه وإلحاده وينضوي تحت لواء النبي والمؤمنين، أو يظهر الحب للنبي والمؤمنين وهو يضمر الشر والكره لهم، بل إن النوع الآخر المقابل من النفاق كان أيضا متأصلا في هذه الفصيلة العربية، لدرجة أننا نجد عِلية القوم من قريش موقنين في داخلهم بأن محمد هو نبي من عند الله ويعترفون في أنفسهم بذلك، لكنهم مع ذلك يضمرون يقينهم ويظهرون شركهم وكفرهم، ليس خوفا من أحد وإنما كبرياء ومكابرة على الحق، فكثير من عتاة قريش كانوا على يقين بنبوة محمد عليه السلام ومع ذلك رفضوا الاعتراف بذلك حفاظا على كبريائهم بين العرب، وحتى لا تتفاخر عليهم قبيلة النبي(بني هاشم) بأن ابنهم نبي أو جاء نبي من قبيلتهم فهم أفضل من باقي القبائل. وكان هذا النوع من الكبر والنفاق ظاهرة معروفة في شبه الجزيرة وقت البعثة.. هذا النوع من التفكير البري ليس موجودا في المجتمع الجبتي بطبيعة تكوينه النفسي بأي حال.

ونتأمل هان نصيحة الحكيم الجبتي "آمون إم أوبى": التي يدعو فيها إلى الالتزام بخلق السماحة وتجنب النفاق: «... **لا تقرئ أحدًا السلام، عندما يكون في باطنك حقدًا عليه، ولا تتكلمن مع إنسان كذبًا فذلك ما يمقته الله، ولا تفضلن قلبك على لسانك... واعلم أن الممقوت من الرب من يزور في الكلام؛ لأن أكبر شيء يكرهه الرب هو النفاق.**»[1]..

أما المجتمع العربي فلم نجد فيه للوازع الأخلاقي قبل الإسلام أي أثر، إنما ما كان موجودا هو فقط سبيل الوصول إلى الشموخ والعظمة والصيت، ولم يكن نابعا من بئر الفضيلة، ولذلك لم نجد أحدهم ينصح آخر بتجنب الرذيلة، كان من يتجنبها باختياره لنفسه طمعا في شرف يسبق به غيره، وفيما بعد الإسلام لم ترتوي نفوسهم حتى أعماقها بالفضائل، بل ظلوا يمارسون الكذب والنفاق وسريعا ما عادوا لطبيعتهم الجاهلية.

---

١ ـ د. حسين دقيل – أستاذ الآثار وكاتب وباحث في الأدب – مقال بعنوان " من أخلاق الجبتيين القدماء (١) الصدق – منشور على موقع ساسة بوست بتاريخ ١ فبراير ٢٠١٨ على الرابط التالي: https://www.sasapost.com/opinion/pharaohs/

بل إن الأخلاق الفاضلة ذاتها التي انتشرت في المجتمع العربي،لم تنتشر لفضلها وإنما لكبرياء العرب وغرورهم، ومثال على ذلك؛ كفار قريش عندما أخذوا من كل قبيلة رجل وذهبوا ليقتلوا النبي محمد، ظلوا واقفين على باب بيته طول الليل بانتظار أن يخرج النبي لصلاة الفجر. رغم أنهم كانوا قادرين أن يقتحموا البيت من أول لحظة ويهدموه على من فيه .. وحاول أحدهم أن يقترح الفكرة مجرد اقتراح. لكن ردّ عليه أبو جهل بكل عنف: (وتقول العرب أنا تسوّرنا الحيطان وهتكنا ستر بنات محمد ؟!

فقد تحلى كفار قريش بقدر عظيم من النخوة والرجولة، كانوا يعرفون إن البيت فيه نساء، ولا يجوز اقتحامه، ولا يجوز كشف ستره، أو انتهاك خصوصيته. وأبو جهل حينما غضب وضرب أسماء بنت أبي بكر على وجهها طيشا، ظل يترجاها ويقول لها: (خبئيها عني، خبئيها عني)، أي لا تخبري أحدا .. لا تفضحيني، ويقول الناس أني ضربت امرأة.

وغير ذلك أبو سفيان لما كان كافرا وخرج مع قافلة من قريش في أرض الروم، فاستدعاهم هرقل ملك الروم ليسألهم عن محمد، وسألهم: هل تتهمونه بالكذب ؟ هل يغدر ؟ هل يقتل ؟ أبو سفيان يقول (لا، لولا الحياء أن يأثروا عليَّ الكذب لكذبته) يعني رفض شتم النبي لأنه خاف إذا رجعوا مكة، يُقال إن أبا سفيان كذب؛ خاف على سمعته..

وفي جميع هذه الأمثلة نجد بوضوح شديد أن الفضيلة لم تكن لغرض الفضيلة لكن حافظا على السمعة والشموخ والكبرياء الذي ملأ نفوس العرب، فهم لم يتسوّروا بيت النبي ولم يهتكوا ستره، ليس فضلا منهم واحتراما لأهل البيت، ولكن خوفا من أن يمس ذلك كبرياءهم وشموخهم بين العرب، وأبو جهل حينما ضرب السيدة أسماء بنت أبي بكر لم يمنعه الحياء والخجل والمروءة، ولكنه خاف على سمعته، ولذلك لم يعتذر لها كونه أخطأ في حقها ولكن ترجاها ألا تفضحه، وإذا لم تكن لتفضحه ما اعتذر لها.. وكذلك أبو سفيان حينما صدق في كلامه عن النبي لم يصدق من كثره حبه للصدق والفضيلة، ولكن خشية من الفضيحة، فكان خوفه من الفضيحة أكثر من حبه للصدق.. وهذا في حد ذاته نابع من النفاق الداخلي، فهو مضطر للصدق برغم أنه يكره الصدق، مضطر للصدق حفاظا على شموخه بين الناس، كما كثير منهم أيقن أن الله حق وأن النبي حق ولكنه التزم كفره حفاظا على شموخه بين العرب. وكثير غيرهم كره الإيمان ولكنه انضوى

تحت لواء المؤمنين نفاقا منه وحفاظا على مركز اجتماعي أو سياسي.[1] بينما الجبتيين القدماء كانت الفضيلة لذاتها وليست لمآرب أخرى متوارية.

ونذكر هنا كلمات للحكيم الجبتي القديم «آني» وهو ينصح ابنه بالحياء عند التعامل مع من هو أكبر منه سنا، فيقول: " **لا تبقَ جالسًا حين يكون شخص أكبر منك سنًا أو مركزًا واقفًا، ولا تسب من يكبرك سنًا؛ فإنه قد شاهد نور الرب قبلك! كما أوصاه بأن يلتزم الوقار عند زيارة بيوت الآخرين؛ فقال: لا تكن سليطا ولا متطفلًا، ولا تدخل منزلا أجنبيًا ما لم تكن مدعوًا، وعندما تكون في منزل أناس آخرين؛ وترى عينك شيئًا فالزم الصمت، ولا تبح به لأي شخص كان في الخارج؛ حتى لا تكون لك جريمة كبرى، عندما يصل أمره إلى الأسماع** "[2]...

((لاحظ منبع الفضيلة ليس حفاظا على الشموخ والسمعة والصيت وإنما خوفا على أسرار الناس وحفاظا على سمعتهم، ونلاحظ استخدام الحكيم لوصف "جريمة كبرى")).. وسياق الحديث هنا ليس للفخر بالذات أو بحضارة الأجداد، وإنما لتحليل النسيج العقلي للحضارات، ونتمنى جميعا من الله أن يحفظنا من الغرور والعجب بالذات، ولا نذكي أنفسنا ولا نذكي أحدا على الله.

وهناك متلازمات أخرى عقلية تميز بها العقل العربي، فوفقا لموروثنا الثقافي نقول أن " من تواضع لله رفعه " وأن حملة العلم مثل السنبلة كلما نضجت انحت وزاد تواضعها.. أي أن العلم قرين التواضع، وإذا تبخر العلم في مجتمع تبخر معه التواضع، ولما كانت العقلية العربية سيادية وسادية أدبية الطابع تقدم إبداعها في الشعر وتهجر العلم تماما، وأغلب شعرها جاء في الفخر والغرور والتفاخر بالأنساب وأيام وحكايات العرب.. هذا الطابع العقلي المتعالي يفسر لنا لماذا لم يهتم العرب بالعلم، واهتموا فقط بالشعر والأدب؛ لأنهم جنس يأبى التواضع ويعتبرونه مذلة، فقد اشتهر عن العرب كثيرا خصال عظيمة مثل الشجاعة والكرم و(كرم الضيافة) وصار حاتم الطائي أشهر بكرمه من النار

١ـ وهذا لا يعني بالطبع أن المجتمع العربي كان خاليا تماما ومطلقا من المبادئ والقيم، ولكن عمّ فيه الفساد، بمعنى أننا قد نجد أمثلة تفيض بالمروءة والنخوة مثل عنترة ابن شداد الذي قال: وأغضُ طرفي ما بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها... إني امرؤٌ سَمحُ الخليقةِ ماجدٌ، لا أتبعُ النفسَ اللجوج هواها.

٢ـ د. حسين دقيل – مقال بعنوان: (من أخلاق الجبتيين القدماء (ج١١).. الحياء والوقار) منشور بموقع ساسة بوست بتاريخ ٢١ يوليو ٢٠١٨

على الرابط التالي: https://www.sasapost.com/opinion/of-the-morals-of-ancient-egyptians-3/

على العلم، واشتهر عن العرب إقامة الولائم لإطعام الناس، حتى قيل أن المواقد لا تنطفئ (دليل على استمرار الطهي يوميا للضيافة)، فاشتهر عنهم الكرم ولكنهم لم يشتهر عنهم التواضع أبدا، ولهذا لم يهتموا بالعلم ولم يتواضعوا له.

بل إننا لو نظرنا بجرأة في عين الكرم العربي سنجده نابعا من الغرور والفخر وليس من باب الفضيلة الأخلاقية، لأنهم يحبون أن يكونوا ذوي رفعة شأن وعلية وتعالٍ وتفضل على الناس، وهذا من التكوين النفسي للعرب، يحبون أن يتفضلوا على الناس، إنما مبادئ الفضيلة (الحق والعدل والحكمة والتواضع = هي مبادئ كلية لا تتجزأ، فكيف تكون هناك فضيلة قائمة على الكرم مع الغرور والكبرياء ؟! إلا إذا كان هذا الكرم نوعا من النفاق الذي شب وترعرع في شبه الجزيرة، فهو نفاق يخفي تحته تفضل وليس فضيلة) ولهذا اشتهر بينهم الكرم ولم يشتهر بينهم التواضع ولم يعرف مجتمعهم العلم، والعلم هو الذي يعتبر مؤشرا حقيقا على التواضع، بينما الكرم قد يحمل نوعا من الرياء والتعالي والرغبة في التفضل على الناس، وهذه طبيعة العربي، فهو يقدم للضيف أعز ما يملك ليس من باب الفضيلة ولكن من باب التفضل..

وبالطبع ذلك يختلف عن مفهوم الكرم عند الجبتيين القدماء؛ فالكرم عند القدماء كان يبدأ من سيدة المنزل إذا طهت طعاما لأبنائها وزوجها أن تقدم طبقا لجيرانها، وقد استمرت هذه العادة بين الجبتيين على مدار تاريخهم لدرجة أن أحد الجبتيين عندما شرع الخديوي إسماعيل في بناء قصر عابدين، بعدما كان مقر الحكم في القلعة، قرر الخديوي أن يترك القلعة وينزل ليعيش ويحكم في منطقة شعبية بين الجبتيين، فاختار حي عابدين لبناء قصر الحكم، ولذلك إلى اليوم نجد قصر عابدين محاط بمساكن شعبية وبسيطة، لكن الملفت للنظر أنه خلال عمليات بناء القصر، وتصادف يوم كان الخديوي يتفقد أعمال البناء والمهندسين والعمال إذ جاء أحد البسطاء من الجيران حاملا صينية بها طعام أعدته زوجته للجيران الجدد والعمال ظنا منه أن صاحب البيت الجديد مشغول بالعمل والعمال ولن يجد الوقت الكافي لتجهيز الطعام، وقدمه الرجل للموجدين وتصادف وجود الخديوي بينهم..

ومنذ البداية كان القدماء حريصين جدا على الكرم، لدرجة تنبئ بأنه كان أصلا عاما وليس فضيلة حتى، لذلك نلاحظ أن نصائح الحكماء القدماء جاء أغلبها بالتحذير من البخل وليس بالنصح بالكرم، وليس بالتفاخر بالكرم مثل العرب، فيقول الحكيم «كاجمني» يحث على الكرم والعطاء ويحذر من البخل والإمساك؛ ولكن في صورة أبعد تتمثل في ذلك العطاء المعنوي الذي

يظهر على ملامح صاحبه، فيقول: " إذا كان المرء غير مألوف العشرة، فما من قول يُفيد فيه، طالما قطب وجهه أمام من يُحسنون إليه.. فهو نكبة على أمه وأصدقائه، وكل الناس تسأم من طلعته".

فليس من الضروري أن يكون العطاء مالا، وإنما حفظ الماء في الوجوه، وتطييب الخواطر، تعد من أعظم العطاءات وأنبلها خلقا وأحبها إلى الله، لذلك نؤكد أن أصول ومنابع الكرم الجبتي حقيقية ومختلفة عن منابع ودوافع الكرم العربي، فالعرب لم يعرفوا شيئا عن الكرم الحقيقي إلا بعدما جاءهم النبي محمد وقال "تبسك في وجه أخيك صدقة" كما كان العرب متعالين عن العلم فهم أيضا متعالين عن الأعمال البسيطة، ولهذا اشتهرت بينهم ظاهرة العبودية والنخاسة بكثافة، والإنسان الكريم ليس من شيمه التعالي على الأعمال البسيطة واستعباد غيره لأدائها..

ولهذا لا نكون مخطئين أبدا إذا قلنا أن القومية العربية مريضة بعيبٍ عقلي نفسي عبارة عن عاهة مستديمة في هذه القومية. وقد اختص الله القرآن بلغتهم لعلاج هذه القومية المريضة وليس تشريفا لها كما يقولون. فالصدق عندهم ليس لذاته، والكرم ليس لذاته، وإنما دائما ما نجد هناك أبعاد أخرى متخفية لا يدركها الإنسان السوي بالفطرة، فالعرب بطبيعتهم فكرهم متخفي وراء ألفاظ وكلمات، وسلوكهم متخفي وراء أفعال، وغاياتهم متخفية وراء سلوكيات، وكل ما هو ظاهر عكس ما هو متخفي تماما، فلا يمكن أن نجد سلوكا بريئا ولا فكرا بريئا ساذجا ومباشرا، إنما كل شيء في حياتهم متخفي وما عليك إلا الغوص في بطن الشاعر الماكر لتعرف نواياه وأبعاد المعنى والغاية المدفونة الملتوية المتشعبة، فكرهم كله عبارة عن مجاز وتورية لأشياء أخرى متخفية خلفها مثل الحرباء التي تستطيع تلوين جلدها بلون البيئة المحيطة به ليبدوا ظاهريا عكس حقيقتها، وفي كل موقف يرتدي قناع ظاهره مختلف عن جوهره.. ولهذا انتشرت عندهم ظاهرة النفاق وتشعبت، إذ أنهم بفطرتهم يجيدون التخفي في صورة ظاهرة ساذجة عكس جوهرها تماما (وهذه خاصية وظاهرة شعرية بالأساس تتجسد عمليا في التورية)..



فالعقلية الأدبية لا قوام لها وليس لها عمود فقري أي مبدأ وموضوع محدد ثابت، إنما هي أكثر مرونة وسيولة، فإذا نظرنا في نموذج من الكائنات الحية سنجد أنه كلما زادت مرونة العمود الفقري، كلما زادت قدرة الكائن على تغيير كيانه وشكله وهيكله وزادت قدرته على المراوغة في الحركة والسلوك، لأن قوامه يصبح أكثر مرونة، مثل هذا القرموط يساعده في المراوغة الحركية مرونة عموده الفقري، والمراوغة في العقلية الأدبية لا تنحصر في مرونة التعامل بذكاء وحرفية توظيف الموقف لصالحها، وإنما تشمل المراوغة الذهنية والتلون والنفاق والتورية والاستعارة وكل أنواع التعبير المجازي..

والتورية هي صورة كربونية مصغرة من النفاق، ولذلك لا يمكن أن نجد تورية في النص القرآني، لأن التورية ذاتها هي خاصية الكائنات البرية، أما الكائنات الأليفة فلا تستطيع أن تواري نفسها خلف أوراق الأشجار وليست التورية من فطرتها السلوكية. وهذا ما مكّن العربي من النفاق بوجهٍ عام لأن النفاق هو تورية فكرية وتعبيرية، ولأن العمود الفقري الفكري في عقله ليس صلبا متماسكا وإنما مرنٌ مرونة الشعر واللغة. فهذا القرموط يستطيع تخريج حركته بأكثر من صورة، كما يستطيع العقل الأدبي تخريج فكرته بأكثر من صورة مجازية وتخريج سلوكه بأكثر من صورة وتخريج عقيدته بأكثر من صورة، دون أن يتمكن أحدٌ من الإمساك به، ولهذا لم يستطع النبي القبض على المنافقين حوله..

وهذا لا يمكن مقارنته بسذاجة الجبتيين الذين يتعاملون بالفطرة وسماحة وسلامة النية وعقليتهم المباشرة دون تخفي وتمويه وتلاعب بالكلام والسلوك مثل الكائنات العربية البرية.. ولذلك علينا أن نأخذ إسلام محمد لا إسلام العرب.. قرآن محمد لا شعر العرب.. أدب محمد لا أدب العرب.. أخلاق محمد لا أخلاق العرب.. لأننا إذا عدنا لأجدادنا القدماء سنجد حكمهم ووصاياهم ومأثوراتهم تتفق وتنسجم مع مفاهيم الإسلام ومبادئه أكثر من مبادئ المجتمع العربي البري، فنجد تحذيرات مشددة من النفاق تحديدا، فظاهرة النفاق كانت منذ البداية منبوذة في المجتمع الجبتي.

فنقرأ للحكيم «عنخ شاشنقي» حين يوجه نصائح غالية إلى ولده؛ يحثه فيها على الكرم والعطاء وحب الناس ويحذره فيها من النفاق والأنانية والسادية والتسلط والتشاؤم أو التطيُّر الذي كان شائعا عند العرب؛ فيقول الحكيم الفرعوني لولده:"... **من حزن مع أهل بلده فرح معهم، ولا تجعل لنفسك صوتين، وقل الحقيقة لكل إنسان، واسمح لمن عمل ما كُلف به بأن يرفع صوته، وأعط العامل رغيفًا يعطيك رغيفين من كتفيه، ولا تكره إنسانًا لمجرد رؤيته ما دمت لا تعرف حقيقة خلقه.. واعلم أن العزلة خير من أخٍ شرير"...**

والواقع أن تراث الحكم الجبتية القديمة أكثر اتفاقا من الإسلام من موروثات المجتمع العربي.. ما قد يدفعنا للقول بأن أخلاق القدماء المشركين كانت أفضل من أخلاق العرب المؤمنين للأسف. لأن المجتمع العربي مثل شجرة الشوك، وكل أشجار الشوك بالتأكيد تخرج ورود لكن حجم الشوك العربي أعلى كثافة من الورد، ولذلك لا تحصل على مسمى شجرة ورد وإنما تستقل بمسمى شجرة شوك، برغم أن بها ورود وبرغم أن شجرة الورد ذاتها تخرج بعض الأشواك لحماية ورودها، لكن الغالب في شجرة الورد هو الورد، أما الغالب في شجرة الشوك هو الشوك.

والله تعالى لم يختص القومية العربية بالقرآن وبلغتها وبنبي من أبنائها إلا لأنها شجرة عتق فيها الشوك واستشرى فيها الفساد والشرك والنفاق، فبعث إليها من يجعلها صالحة لحياة البشر الطبيعيين.. إذن القومية العربية من الأساس شجرة شوك، وعلينا إذا أردنا قطف زهرة الإسلام أن ننتقي بحذرٍ شديد جدا كي لا يلسعنا شوكها. علينا أن نتريث في التقاط زهور الإسلام من بين براثن الشوك العربي.. وما يثبت أنها شجرة شوك هو أنها اجتاحت العالم بالسيوف والخناجر بدعوى نشر الإسلام، خلال حقبة الفتوحات بينما لو أعددنا حصرا بعدد الرجال الذي قتلوا وذبحوا وعدد النساء الذين أسروا وانتهكت أعراضهن وعدد الأطفال الذين أسروا وشردوا واستعبدوا وانتهكت طفولتهم وحرموا

من آبائهم وأمهاتهم.. بعدد من اعتنقوا الإسلام خلال هذه الحقبة، وبعدد من امتنعوا عن الإسلام بسبب هذه الحقبة.. سنكتشف فعلا أن القومية العربية ما هي إلا شجرة شوك طرحت بأغصانها وتمايلت إلى اليمين وإلى اليسار بعنف فاكتسحت الشعوب المجاورة..

فلم تقدم للإنسانية خيرا ورحمة وحب وسلام بقدر ما قدمت من إساءات وانتهاكات. فالإنسانية يمكنها التقاط الإسلام من بين براثن الشوك العربي، أما أن القومية العربية لم تدع أحدا يقطف زهوره وزحفت هي بشوكها على الجميع .. وما يثبت أن كرم العب ما كان إلا أحد أنواع النفاق هو أنهم بعد وفاة الرسول انطلقوا زحفا على الشعوب المجاورة بدعوى نشر الدين، بينما كانت حصيلة هذه الحروب والفتوحات هي نهب وسلب وسبايا ودخل قومي من عوائد أسواق النخاسة التي قام عليها بيت المال وتأسست دولة العرب عليه، فبالنظر إلى المشهد القومي نجد أن القومية العربية لم تكن كريمة من شعوب الجوار وإنما قامت على نهب وسلب أموالهم بدعوى الجهاد.

والحديث هنا لا يدور حول مجتمع الصحابة أو المؤمنين أو المسلمين الأوائل، بل يدور حول البيئة العربية والمجتمع العربي والجنس العربي من حيث المنشأ والكاريزما الاجتماعية، فلا مقارنة بين نزعة التمرد والكفر والنفاق والإلحاد والغرور والصلف والكبرياء والاستعلاء التي تمتاز بها سلالة العرب، وبين نزعة الجبتيين للتدين والطواعية بالفطرة...

فالعرب حينما احتلوا إيجبت وفرضوا علينا حكمهم استطاعوا أن يجعلونا نكره حضارتنا وتاريخنا وأجدادنا الجبتيين القدماء واختصروا حضارة القدماء في خدعة فرعون موسي، بينما بقوا هم يفتخرون بأنسابهم وأصولهم القرشية الجاهلية الكافرة المشركة والملحدة المنافقة، ويحفظون أنسابهم وأصولهم بالترتيب حتى آدم، ويخترعون أحاديث تجعل الرئاسة والحكم حصرا في من ينتمي إلى هذه الأصول القرشية، ثم ينكرون علينا انتسابنا لأجدادنا القدماء بحجة أنهم لم يكونوا مسلمين، فماذا كان يعبد أجداد قريش إذن ؟! ..

غير أن الواقع يشير إلى أن سلالة العرب هي بذاتها سلالة الهكسوس، فكلاهما مجتمعات قبلية حربية، ولذلك نجد الله في القرآن يتحدى عتاة الشرك في قريش ويضرب لهم مثلا بالفرعون العربي الذي هو من ذات سلالة العرب، ولا يمكن أن يضرب الله مثلا بالجبتيين القدماء العباقرة، لأنهم كانوا علماء ومن طبيعة نفسية وعقلية مختلفة جذريا عن العرب، فالله تعالى يقول" إنما يخش الله من عباده العلماء" ولذلك وجدنا الجبتيين القدماء خلال حقبة تقدمهم العلمي يقدسون عبادة الخالق بالفطرة، وكانت العبادة ركن أساسي في الحياة، لأن عقليتهم علمية بفطرتها،

عكس العرب الذين ضرب الله بهم المثل في الشرك والنفاق. غير أن فرعون في الحقيقة كان عربيا ومن جنس سلالة العرب من عشيرة الفراعين العماليق، وهو من طائفة العرب التي تمردت على العبادة مثل نمرود وغيره من الأقوام العربية كثير، وفكرة ادعاء الألوهية أصلا غير موجودة سوى في نسيج العقلية العربية، بينما هم وأبناء عمومتهم الصهاينة يزعمون أن رمسيس الثاني كان هو الفرعون الذي ادعى الألوهية، ذلك ببساطة لأنهم لم يفهموا أن جلالة الملك رمسيس اسمه "رع مسيس" ويعني ابن الإله رع، لأن أجدادنا لم يعبدوا سوى ما اعتقدوا قدرته على خلق الكون، وكانوا يعطون الملوك درجة القدسية فقط لا أن يدعى الملوك الألوهية كما حال العرب.

في الواقع إن عقدة العرب هي الحضارة الجبتية القديمة، لأنها تكشف فجوة في تاريخهم، فهم ليسو من شعوب الحضارات التي تدمن العلم والعمل والبناء والإنتاج، إنما هم من مجتمعات القبائل الهكسوسية، وبرغم أن هذا الفرعون ليس وحده في التاريخ، فليس خليفة العرب المسلمين الأموي الوليد ابن يزيد بأفضل حالٍ منه، وليس الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بأفضل حالٍ منه، بل إننا نجد ملايين الفراعين في مكة، ليسو فراعنة حضارة، وإنما فراعنة شرك ونفاق من أمثال أبي لهب وأبي جهل الذي قال عنه النبي (ص)" هذا فرعون هذه الأمة".

إذن النبي عندما ضرب بأبي لهب مثلا للتمرد الديني لم يكن يقصد الجبتيين وإنما العرب والقومية العربية، ولهذا قال له الله تعالى: وأنذر عشيرتك الأقربين" وهذا أيضا يؤكد أن القومية العربية هي محل الإنذار وليس معنى ذلك انطلاق هذه القومية المريضة لاجتياح العالم بالسيوف ونشر الإسلام بجرائم الحرب ثم يقولون أنها جهاد ! .. فالأعراب أشد كُفرا ونفاقا، أما العرب برغم أنهم أقل كُفرا ونفاقا، لكنهم نجحوا في الترويج لتشويه غيرهم من الحضارات اللامعة كي يتمكنوا من تفتيت قومية الشعوب التي احتلوها وكسر شوكتهم وطمس هويتهم ودمجهم في القومية العربية حتى وإن انتهكت القومية العربية مبادئ الدين نفسه، كي يتمكنوا من تحقيق السيادة والسيطرة، ومن هنا ظهرت نظرية الخلافة باعتبارها نظام حكم ديني، بينما في الواقع هي محض نظام حكم عربي متخلف، فالدين ليس نتاج الحضارة والعقلية العربية وإنما هو مطر السماء الصافي، بينما نظام الخلافة فهو نتاج العقلية والبيئة العربية أيا كانت إيجابياتها، فهذا لا يجعلها دينا للشعوب.

بل إننا عندما نتصفح آيات القرآن نجد فيها كثافة غير عادية، وجرعات علاج مكثفة للغاية من ظاهرة النفاق والكفر والشرك والسخرية من العبادة، وبالطبع فإن الأصل هو براءة الإنسان، أي أن الله عندما أنزل الدين الإسلامي لم يكن يسئ الظن بالبشرية جمعاء، لأنه ليس الأصل في البشر هو

الجحود والتمرد كما العرب، وظاهرة التمرد بوجهٍ عام في المجتمع العربي لها خصوصية غير عادية وغير موجودة في الشعوب الأخرى، فلم يكن التمرد والتعالي فقط على الأعمال اليدوية والبسيطة كما سبق وأن بيناها، أو تمرد على المكان وحب الترحال أو التمرد على نظام حكم مركزي أو تعالى على الناس وحب استعبادهم والتسلط عليهم، أو التمرد على الحق وجحوده، أو التمرد على العلم والانصراف إلى الشعر والزجل.. بل إن حياتهم كلها قائمة على التمرد، وليس فقط التمرد على الأديان، ولذلك نجد كثافة غير عادية في الآيات التي تتحدث عن النفاق والمنافقين والكفر والكافرين والشرك والمشركين والظلم والظالمين..إلخ، هذه الآيات في مجملها متعلقة بوقائع محلية معاصرة لنزولها، وهو ما يجعلها تتسم بطابع القومية المحلية.

هذه السمات العربية تتبين لنا في حجم النفاق الذي عم المدينة على عهد رسول الله، واتهامهم للسيدة عائشة في شرفها وترويج الشائعات طعنا فيها وفي نبيهم، ثم اتهامهم للسيدة مارية زوجة رسول الله بذات التهمة !، وحتى وصل بمجموعة من المنافقين لمحاولة اغتيال النبي في جيش العسرة وهم يسيرون تحت لوائه، فلماذا ساروا معه طالما لا يؤمنون به؟ هل كان يهددهم؟ بالطبع لا ولكنها طبيعة المجتمع العربي، ونزلت سورة التوبة شخصت ملامح المجتمع وعددت فئات كثيرة، وظهر كذلك في حركة الردة الجماعية بعد رحيل النبي برغم أنه لم يكن يجبرهم على إسلام. بينما انطلق الصحابة بخيولهم وسيوفهم يحرقون الأخضر واليابس ويحسبون أنهم ينشرون السلام !! وفي ذات الوقت يقولون "المسلم من سلم الناس من لسانه ويده" !

وظهر كذلك الشقاق السياسي الرهيب بين الصحابة أنفسهم وسرعة وجاذبية للقتال والفتن والمكر والنفاق.. لدرجة أن شب خلاف بين عبد الله ابن الزبير حاكم مكة وعبد الحكم ابن مروان، فراح الأخير وأنشأ كعبة ثانية في فلسطين حول صخرة اليهود وجعل الناس يطوفون بها ويحجون إليها بدلا عن بيت الله الحرام ! بل أننا نجد حاكم المدينة المقدسة بعد رسول الله، "خالد العشري" والي مكة أثناء حكم هشام عبد الملك يتحدث في جمع من الناس فيقول: (أيها الناس؛ أيهما أعظم؛ خليفة الرجل على أهله أم رسوله إليهم !) في إشارة إلى رفعة منزلته مقارنة بالرسول! .

وغيره الخليفة الأموي الوليد ابن يزيد عندما قلب صفحات المصحف فوقع نظره على ورقة بها آية " وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ" ١٥/إبراهيم، فأمر بالمصحف فعلقوه وأخذ يقذفه بالنبال حتى تمزق ثم قال بعدها أبياتٍ من الشعر يهجو القرآن" أتتوعد كل جبارٍ عنيد.. فها أنا ذاك جبارٌ عنيد.. إذا لقيت ربك يوم حشرٍ.. فقل يا ربي مزقني الوليد..! ويقول ابن الأثير في التاريخ، ٥/ ٢٨٩: تولى الوليد بن يزيد

الأموي الخلافة متأخرا وكان قريبا من عهد النبي.. قال: ملأ بركة من الطيب (عطرا) وكان يشرب الخمر، فإذا سكر قفز في البركة، وقال: أطير إلى أين أطير ـقل: إلى جهنم فيطير على وجهه".. والأمر هنا لا يتوقف عند مسألة الإيمان أو الإلحاد، أو أن هذا هو نموذج خليفة العرب، فمجرد وصفه بالإلحاد لا يمكن أن يفسر سلوكه، لأن الإنسان الملحد يكون لديه فكر وقناعة يعتبر من خلالها أن الطبيعة تسير نفسها بقوانينها دون حاجة إلى خالق يُسَيِر الكون، إنما مشكلة العرب في من يهوى السخرية من فكرة الإيمان، فهذه الدرجة من الفجر لا علاج لها.. هذه خصائص كائنات صحراوية برية وليس كائنات مدنية كما طبائع شعوب الحضارات.. فما بالنا إذا جاء أحدهم ليحكم إيجبت ؟ فهل هناك أمل أن يبني فيها حضارة مثل تحتمس الثالث؟

غير أن الأمر لا يتعلق بشخص الوليد، كونه كفر بعد إيمان، فهذه طبيعة المجتمع العربي، قبل وبعد بعثة النبي محمد عليه السلام، فلا غرابة من أن يلحد شخص أو يسخر من كتاب الله ويمزقه بالسهام، لكن الكارثة في هذا المجتمع الذي يقول بأن تاريخه تاريخ إسلامي، وأن خير القرون قرن النبي والذي يليه من الصحابة والتابعين، ولو كان هذا الكلام صحيحا وأن هذا المجتمع لم ينقلب بعد الرسول وظل متمسكا بكتاب الله، لكان من الأولى بدلا من أن يسجل المؤرخون أبيات الشعر الذي قالها هذا الخليفة، أن يقوموا بثورة حارقة، فليس من العادي أن يكون هذا سلوك وفكر خليفة رسول الله ولا تقوم ثورة في شبه الجزيرة تحرق الأخضر واليابس لتخلعه من عرشه وتعدمه في ميدان عام أمام جموع الشعب، إنما هو مجتمع ملئ بالنفاق، ولم تقم ثورة إلا بسبب السياسة والصراع على الحكم والسلطة، حتى أنهم لم يقتربوا من هذا الخليفة الذي يكفر بالله عيانا بيانا ويسخر من كتابه بأبيات الشعر، لكنهم أجمعوا وقتلوا عثمان ابن عفان بسبب انفراده بالسياسة، وأجمعوا وقتلوا محمد ابن أبي بكر وجرجروه من ساقيه في شوارع القاهرة وحشروا جثته في جيفة حمار وأحرقوه بالنار...

ألم يكن هذا الخليفة الوليد أولى بالحرق؟ ألم يكن هذا الخليفة أولى أن تشتعل الثورات لخلعه وعقابه على الاستهزاء والسخرية من كتاب الله؟ أليس المجتمع كله مذنب؟ لم يكن هناك أي رد فعل من الشعب العربي! فالأمر لا يتعلق بشخص الخليفة وإنما بمجتمع بأكمله لم يشغله كفر الخليفة وإلحاده، بل إنهم استمروا في تلقيبه بلقب "خليفة" وأمير المؤمنين ! أي مؤمنين هؤلاء الذين يثورون من أجل الحكم والسياسة ولا يأبهون لكفر الخليفة وإلحاده وسخريته من كتاب الله؟ فقط خلدوا أشعاره الإلحادية، وذكروها هم في كتب تاريخهم، بل إن الغريب أن أبناء عمومته

تآمروا ضده وثاروا عليه فيما بعد واتهموه بهذه التهم وقتلوه، لكن ليس للإساءة للدين، ولكن قتلوه من أجل السياسة !

والمتأمل في كتاب الله يجد كثافة غير عادية في ورود كلمات من نوعية (قتال – اقتلوا – قاتلوا – قتلوا – تقتيلا –يقتلون ويقتلون) فقد ذكرت آيات القتل (٩٦) مرة في القرآن، هذا عدا المرادفات اللغوية أو المترادفات مثل اللعن والسب والتب والتهديد والوعيد.. ذلك كله جاء بشأن الجزيرة العربية على وجه الخصوص وليس لسائر شعوب العالم، لأن الله بعث نبيه في كهف الثعابين البشرية المعادية لعبادة الله، فتعامل الله –ولله المثل الأعلى- مع العرب معاملة الحاوي للأفعى المكارة، وهم لم يتوانوا في اضطهاد النبي وإزائه والتنكيل بأتباعه، ثم شنوا كثيرا من الحملات العسكرية للقضاء عليه وأتباعه في المدينة، فالقرآن جاء كتالوجا كاملا للرسالة محملا بالمضادات الحيوية اللازمة لبقائه على قيد الحياة.

ومن طبيعة الحال فالإسلام كان في مهده، في مرحلة الحضانة، كما البذرة التي تحتاج عند غرسها إلى الحماية من البيئة المحيطة بها حتى تنبت وتستقر سيقانها، خاصة إذا كانت البيئة مليئة بالعدائيات من نوعية العرب، ولذلك جاء القرآن محملا بالكثير من الأوامر والنواهي الوقتية، وهي ليست من أصول الدين المستمرة والمستديمة، لكنها أوامر وقتية خاصة بحالة الطوارئ التي وقعت في جزيرة العرب عند بعثة النبي محمد عليه السلام.. ولو كان النبي محمد بعث في إيجبت أو في غيرها من بلاد الأمن والسلام الاجتماعي لما كان القرآن قد نزل بهذا الكم من التحصينات أبدا، ولا كان في حاجة إليها، لكنها وجهت خصيصا لجزيرة العرب، وهم ليس من طبيعتهم السلام الاجتماعي ولا اليقين ولا الإيمان، ونشاطهم تغلب عليه النزعة الحربية والوحشية، ولهذا جاء القرآن محملا بالتحصينات اللازمة والملائمة لهذه البيئة حصريا. ولذلك ليس لأحدٍ أن يحزن لكون القرآن قد احتوى ألفاظ وعبارات كثيرة تعبر عن القتل والعنف والقسوة والتهديد والوعيد؛ لأن ذلك ليس من مكونات الدين الإسلامي كعقيدة وإنما مجرد تحصينات موجهة خصيصا للعرب.

فالإسلام كمنهج أخذه العرب جرعة علاجية خلال حقبة زمنية، وبقي السؤال عن مدى تأثير هذه الجرعة العلاجية، لا أن تكون سلوكيات المريض بعد تلقي الجرعة هي المنهج العلاجي ذاته. بل إننا صرنا كمن يتلقى العلاج من المريض ذاته وليس من الطبيب، لأن الإسلام جاء علاجا للمجتمع العربي من فساده وفسقه، وهداية وبشرى للمجتمعات غير العربية، وأما الطبيب هو الله، والنبي هو الصيدلي والروشتة العلاجية هي القرآن، والمريض هو المجتمع العربي، إنما نحن تركنا الطبيب

والصيدلي وتركنا الوصفة العلاجية وتلقينا تعليمات العلاج التي نقلها لنا المريض وهو يقول أنه لا يكذب! بينما هو ينفس بخره بالعدوى في وجوهنا، مع أن مرضه وسبب العلاج كان كذبه هو وفسقه هو ونفاقه هو وليس نفاقنا نحن وإلا كان النبي قد بعث في القاهرة! وتلقينا الدين من المريض باعتباره شريك في التطبيب وشريك في النبوة ومستشار للدين وخبير لأنه صاحب اللغة وهو أول من تلقى علاجا. فكل إنسان يحتاج علاج عليه أن يأخذ علاجا معقما وليس بقايا مريض آخر كالمريض العربي القرشي الذي تبنينا ثقافته باعتبارها الطريق إلى الجنة.

لأن أبسط قواعد الطب أن يحذر أي شخص من تناول أدوات مريض آخر أو تلقي علاجه أو استعمال ذات الأدوات حتى لا تنتقل عدوى المريض في العلاج أو الأدوات لأن المعتاد أن تتلوث أدوات العلاج بعدوى المريض أي عدوى الغبار الثقافي العربي، وقد يصاب الطبيب نفسه بعدوى المريض ويموت قبل المريض، وحاشا لله أن تصيبه عدوى النفاق العربي لكنه حذر نبيه محمد عليه السلام من عدوى العرب حينما قال له: وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ)٣٧/ الرعد.

وقال تعالى: (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) ٦٨ الأنعام. فهذه الآية تحصين مسبق للنبي من العدوى العربية، ولا يمكن فهمها على أنها تحذير له من عدوى العرب دون الصحابة لأن ذلك ضمنيا معناه أن الصحابة المقربين ليسوا بحاجة إلى تحذير وتحصين مثل النبي ! إذ أنهم حتى لو كانوا شركاء في النبوة لسرى عليهم تحذير الله من العدوى، فما بالنا إذا كان الصحابة هم جزء من نسيج هذا المجتمع المعدي؟ بل إن تحذير النبي كان من المجتمع بأكمله وفكره وثقافته، وهذه الآية تبين لنا وتثبت بالدليل أن العرب الذين جعلوا أنفسهم شركاء في النبوة واجتاحوا العالم بالسيوف والخناجر لينشروا الدين في الشعوب الأخرى، كما المريض الذي تلقى جرعة العلاج وهرب من المشفى وصار يتقافز هنا وهناك ليطعن كل الناس بحقنة من علاجه حتى غير المريض منهم اعتبره مريض وحتم عليه تجرع العلاج وإلا دفع الجزية ! بينما تبخرت جرعة العلاج التي تلقوها من النبي بمجرد وفاته.. وابتعدوا عن دينهم وانقلبوا عليه.

وبوجهٍ عام، الأديان هي ثقافة سائلة مرنة بيد الشعوب تلونها وتشكلها بلون وشكل عقول المجتمع والعصر والظروف الاجتماعية والثقافية والنفسية العامة، وكل أمة من الأمم التي اختصها الله برسالة شكلت هذه الرسالة وحرفت وغيرت فيها بقدر ما تلاءم مع ذهنياتها، لأن الأديان وهي

ثقافة سائلة مثل كافة السوائل الشفافة تأخذ لون وشكل وحجم الإناء الذي تصب فيه، وبما أن العقلية العربية وهي الإناء المستهدف، هذه العقلية لم تكن عادية ولا طبيعية بأي حال، بل كانت مريضة بمجموعة متشابكة من الأمراض المستعصية كما بني إسرائيل سواءً بسواء، فالقومية العربية كانت مصابة بعدوى النفاق والإلحاد والفجر والتمرد الديني والسخرية من العبادة، وإدمان الشرك في العبادة، كما بني إسرائيل بمجرد أن تركهم النبي عيسى عليه السلام أربعين ليلة وصعد الجبل ليكلم ربه، وخلال هذه المدة القصيرة –برغم أنه ترك أخاه هارون معهم حارسا لعقيدتهم ووصيا عليهم- إلا أنهم جمعوا ما معهم من مجوهرات وصنعوا بها عجلا ليعبدون !

هكذا فعلت القومية الإسرائيلية، لكن هناك فارق جوهري بين القومية الإسرائيلية والقومية العربية، وظهر هذا الفارق بجلاء بمجرد رحيل أنبيائهم عنهم، فالعرب انحرفوا بالجملة كما انحرف الإسرائيليين بالجملة انحراف جماعي لأن المرض في الأصل جماعي ومستعصي كما كان قوم لوط.. لكن اختلاف نمطية الانحراف عقب اكتمال كل رسالة ورحيل نبيها ظهر فيما بعد بصورة مختلفة حسب الطبيعية الذهنية للقومية، فبني إسرائيل احتكروا الدين عليهم وأغلقوا حدود الرسالة على أنفسهم ورفضوا قبول يهود جدد من عرقيات أو قوميات أخرى، مع أن كافة الرسالات السماوية هي شرائع متعددة مستقاة من دين واحد هو الإسلام، فهي تشريعات مختلفة نابعة من ذات المنهج الإلهي، وهذا ما يعني أننا حتما سنجد مبادئ هذا المنهج متجسدة في كافة الشرائع المشتقة منه (اليهودية والمسيحية والرسالة المحمدية) وأما الخلافات الجوهرية فتبقى من أثر الشعوب ذاتها وليست أصلا في الشريعة.

وبالنظر إلى أن هذه الشرائع هي هدي من الله للجميع وليست حكرا على عرقية معينة ولا حصرا عليها حتى وإن كانت روشتة علاجية مخصصة بشكلٍ مركز لهذه القومية، لكن هذا لا يمنع استفادة القوميات والأعراق الأخرى من هذه الشرائع لأنها في الأصل هدي من الله ورحمة وسلاما للعالمين، أما بني إسرائيل فقد احتكروا الرسالة وأغلقوا حدودها في ذريتهم ورفضوا قبول يهود جدد من قوميات أخرى.. بينما المسيحية لم تتطرق لفكرة الاحتكار وتركت حدودها مفتوحة للجميع... أما الكارثة فقد وقعت في الرسالة الخاتمة، رسالة محمد عليه السلام بسبب تفاعل الذهنية العربية مع هذه الشريعة ما أدى لتشويهها ومسخها تماما وصبغها بطابع العقلية والقومية العربية، بالنظر إلى أنهم كانوا ناصية الرسالة وجاءت بلغتهم وهي لغة معقدة ومفرطة في معانيها

وألفاظها ومن الصعب على القوميات الأخرى فهم أبعادها ومرامي معانيها وألفاظها، وهذا ما مكن العرب من ناصية الإسلام أكثر فشوهوه ومسخوا مبادئه بسهولة ويسر.

فهم لم يفعلوا ما فعله بني إسرائيل بأن أغلقوا حدود الرسالة على قوميتهم ورفضوا دخول مسلمين جدد من قوميات أخرى، ولم يفعلوا مثل المسيحيين ويتركوا حدود الرسالة مفتوحة للجميع ترحب بالجميع في سلام، وإنما استخدموا الرسالة في تحقيق غاياتهم وتوسعاتهم وطمعهم في ثروات الشعوب الأخرى ففرضوها على كافة القوميات، وعلى من يرفض الإسلام أن يدفع الإتاوة ! أي أن العرب انحرفوا بالرسالة المحمدية ١٨٠ درجة مقارنة باليهود، حيث قاموا بتوظيف حرفتهم الأصلية (الإغارة وسلب ونهب القبائل والقوافل العابرة وسبي النساء والأطفال والبنات وبيعهم في أسواق النخاسة) انتقلت هذه المهنة الجماعية في صورة دينية حديثة هي الجهاد، وانتقلت كافة فعاليات وممارسات مهنة الإغارة إلى مهنة الجهاد، وأصبحت حرفة الإغارة القرشية في العصر الجاهلي دينا للشعوب في العصر العلمي !.

غير أن هذا العلاج - المنهج القرآني - وإن كان منهجا عاما لكل الشعوب والأمم إلا أنه حمل روشتة علاجية خاصة لشعب شبه الجزيرة الذي فشت فيه العدوى والمرض قبل بعثة النبي، ولذلك نجد الكثير من الآيات في القرآن توضح ذلك، فيقول جل علاه: وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)/ ٤٤ فصلت. أي أن الكفر والنفاق والفجور كان سمة اجتماعية وثقافة متجذرة بعمق فيهم فأنزل الله هذا القرآن علاجا عربيا لهذه النفوس المريضة.

ويقول أيضا: وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) ١٠٣/النحل. وعندما يحاول المريض الهروب من طبيبه وينعته بعدم الاختصاص.. هكذا فعل العرب وقالوا أن القرآن ليس عربيا وادعوا أن هناك شخص أعجمي يترجم للنبي هذا القرآن، فقال له الله أنه يعلم ما يقولون لك وأن هذا القرآن بلسان عربي مبين. إذن اقتران القرآن باللغة يؤكد اقترانه بعلاج العرب تحديدا وعلاج عقلياتهم وخلفياتهم الثقافية الاجتماعية والعقائدية.. أما نحن فقد تركنا خلفياتهم العقائدية قبل الإسلام وتبنينا كل ما تبقى من ثقافتهم الجاهلية باعتبارها خلفية ثقافية للغة العربية، ثم بمرور الوقت وجهود الفقهاء تحولت إلى قواعد دينية للشعوب ..

وليس معنى ذلك أن القرآن أو الإسلام انحصر في المحلية المتمركزة في شبه الجزيرة كعلاج روحاني مركز ومكثف لهذه المنطقة الموبوءة بالتمرد والنفاق، لكن القرآن جاء بخطاب مزدوج؛

خطاب رقيق مبشر يتوجه إلى العالم في نطاق " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"، وخطاب آخر للمحلية العربية حمل ملامح المجتمع في طياته اللغوية ولهجته الحادة الرادعة، وجاء مركزا ليضع الإصبع على الجرح، فقد وصف أحوال المجتمع العربي بدقة، وشخص وحلل عقلياتهم وسماتهم وأفكارهم وسلوكياتهم، وكل ذلك جاء في نطاق القومية العربية، دون الإشارة للقوميات الأعجمية الأخرى في ذلك الوقت، لأن الله لم يتحدث إلى نبيه عن أحوال الصينيين مثلا، ولم يذكر ملامح مجتمعاتهم ولو عرضا في القرآن، ولم يتحدى إشكالياتهم العقائدية كما تحدى الإشكالية العقائدية للعرب، بل جاء القرآن بلسان عربي مبين ليتحدى العقلية العربية اللغوية. لدرجة أنهم العرب اتهموا النبي بأنه يتلقى القرآن عن شخص أعجمي (أي أنهم يدفعون بعدم الاختصاص القومي) فأكد لهم أنه بلسان عربي أصيل وليس مستنسخ وليس أصله أعجمي.

ولم يكن النبي مأمورا بالسياحة في العالم مثل الرحالة ابن بطوطة أو الشريف الإدريسي، بقدر ما كان موجها ومأمورا بأولوية القومية العربية في المقام الأول، وهي بؤرة الفساد العقائدي، حتى أنه لم يهجر مكة إلا بأمر من الله، ثم عاد إليها مأمورا، فلماذا لم يترك النبي المنطقة العربية برمتها ويذهب لقوم آخرين يصدقونه ويحترمونه منذ الوهلة الأولى؟ .. ثم يقول تعالى: وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)/الزخرف. وهذا ما يعني أنهم تهاتروا على النبي وقالوا لو أن الله أرسل لهم شخصا عظيما من (القريتين)يكون نبيا لهم لاتبعوه، فهم يعلمون جيدا أن المخاطب بهذه الرسالة هي قومية معروفة وهي محل الإنذار، وقد رد الله عليهم بذات المنطق القومي الإقليمي فقال تعالى: أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ)٣٢/الزخرف

ومن هذا الخطاب المتبادل بين الله والقومية العربية حصرا نتأكد من سببية اختصاص هؤلاء القوم بالرسالة على درجة الأولوية والضرورة القصوى. فالقرآن لم يأت كنصوص عامة مجردة مثل نصوص القوانين والمعاهدات الدولية التي يتم تطبيقها على جميع شعوب العالم دون قدرة حتى على تمييز فردٍ أو شخص طبيعي أو اعتباري يكون مختصا ومخاطبا بنص محدد في هذه الاتفاقية، بل تسير نصوص الاتفاقيات بصياغة عامة مجردة دون الإشارة إلى شخص معروف أو فعل قام به شخص محدد أو حادثة معينة أو غير ذلك كما نصوص الدساتير بوجهٍ عام، فالدستور لا يخاطب شخص محدد وإنما يرسي المبادئ والحقوق والواجبات والالتزامات التي لا يمكن أن تميز شخص عن آخر أو

قرية عن أخرى أو مدينة عن أخرى، فنصوص الدستور عامة مجردة، بينما القرآن جاء على هيئة مزدوجة (نصوص عامة مجردة ونصوص قومية مخصصة إقليميا وعرقيا ونصوص قومية مخصصة زمانيا أيضا).

أي هناك نصوص في القرآن عملت مبادئ عامة في الحكمة والخير وأصول العبادة لكافة البشر. ونصوص أخرى عالجت إشكاليات عقائدية خاصة بالقومية العربية الفاسدة ومتجذرة فيها بأعمق من قواعد فندق فيرمونت بالحرم المكي، لدرجة أن نجد مطربة سعودية فاجرة تنهي حفلة رقصها بقراءة سورة الفاتحة بلحن غنائي! ونصوص أخرى مخصصة من جانبين فهي عالجت أحداث معينة في زمن معين في قومية عربية معينة بالذات (مثل مهاترات قريش في رفض الاعتراف بالنبي والقرآن والدفع بعدم الاختصاص القومي وتعليق القرآن على الأحداث المختلفة مثل حادثة الإفك والمعارك ومعاهدات الصلح والحوارات القرآنية الخاصة بأحداث معاصرة مع النبي).

وهذا ما يعني أن الفئة الأولى من النصوص القرآنية العامة المجردة موجهة لجميع شعوب الأرض لأنها جاءت رحمة وهدى وسلاما للعالمين (دون نذير؛ أي دون رسول للصينيين ورسول للجبتيين ورسول للبلجيك ورسول للصينيين..إلخ، وليس بلغتهم). وأما الفئتين الأخريين من نصوص القرآن فهي تناولت أحداث ووقائع وإشكاليات عقائدية وسلوكية خاصة بالعرب والقومية العربية أحداثا وزمانا ومكانا وأجناسا.

بل إن مجرد اختصاص القومية العربية برسول من بينهم يعرفونه معرفة شخصية وبقرآن نزل بلغتهم خصيصا مع تكرار التأكيد على ذلك، فهذا قد يحمل غبنا بالشعوب الأخرى التي خلقها الله بلغات مختلفة ولم يرسل لهم قرآن بلغتهم ونبي بلغتهم، فهذا يعتبر غبنا مقارنة بالعرب، لكن الرسالة جاءت على البؤرة ذات الأولوية الحرجة، وهذا ما يؤكد حتمية اختلاف العرب عن غيرهم من الشعوب لأن الله لم يختصهم بجائزة على إحسانهم وإنما بدأ بهم في جرعات علاج مكثف، أرسل إليهم أسمى الشرائع كي تكون بشرى وإنذار لهم وتكون بشرى للشعوب الأخرى مثل الفرنسيين والصينيين والإندونيسيين التي ليس من شأنها المهاترة بأن القرآن ليس فرنسيا أو صينيا أو ليس بلغتها الأم وأن النبي ليس فرنسيا أو ليس من قومهم وغير ذلك من مهاترات كما قال العرب، وهذا ما يبرر لنا القول بأن القرآن جاء إنذارا وبشرى للعرب، بينما جاء بشرى للشعوب الأخرى.. ((وهذا ما ينفي أحقية العرب في إخضاع الشعوب الأخرى للإسلام أو دفع الجزية أو الخضوع لحكم العرب كما حدث في حقبة

الفتوحات وحروب خالد الولد وطارق زياد وعقبة نافع، لأن العرب محل إنذار أصلى بينما الشعوب الأخرى محل بشرى)).

غير أنه طالما لم يأمر الله تعالى بسحق جميع لغات العالم واختزال كل الألسنة في اللغة العربية، فهذا معناه أن الشعوب الأخرى تعتنق الدين الإسلامي بلغاتها كما خلقها الله على لسانها، وهذا معناه إسقاط كل ما يخص القومية العربية من القرآن واعتباره محض قصصٍ قرآني للحكمة والعظة فقط، ومفهوم القومية العربية هنا يأتي على (اللغة العربية والثقافة العربية والأدب والتاريخ العربي وأنظمة الحكم العربية). ولذلك من الضروري التفرقة ما بين القومية العربية ومبادئ القرآن الكريم وتعاليم الإسلام، لأن الله طالما لم يأمر بسحق وإعدام لغات الشعوب الأخرى كشرط لاعتناق الإسلام أو إسباغ الإيمان فهذا معناه حتمية إسقاط القومية العربية من الإسلام وعدم إلزاميتها للشعوب الأخرى التي لا تتحدث العربية ولا تنتمي للقومية العربية.

فلا يمكن أن يخلق الله عقلية علمية عملية تطبيقية مثل الجبتيين ثم يحتم عليهم تقمص العقلية العربية الأدبية الشرسة سلوكيا وفكريا هذه من أجل معرفة الدين، وهذا معناه أن هناك خطورة في انتقال القومية العربية مع الدين إلى باقي الشعوب لأن ذلك معناه مسخ جميع شعوب العالم وعقلياتها واختزالها في نوعية واحدة فقط أدبية حربية؛ إما عرب وإما هكسوس، فتظل هذه العقليات هي السائدة وتطمس كافة العقليات العلمية من أجلهم!. فالشعوب المجاورة للعرب لم تصبح مسلمة وإنما أصبحت عربية، وعربية يعني أنها تطبعت بالعقلية العربية وتقمصت ملامحها وتشربت سماتها، وهي التي نزل الإسلام لعلاجها في الأصل!. فمسألة انتشار الإسلام مندمجا في القومية العربية جاء وبالا على الإسلام ذاته وعقبة كؤد أمام اتساعه وانتشاره، لأن العرب جعلوا ضمنيا قوميتهم قرينة بالدين، وهذا ما لم يقل به الله، بل إن الدين نزل في الأصل لعلاج قوميتهم لا دمجها في الدين وتعميمها بما تحمله من خطورة كارثية سنتعرف عليها في الإضاءة الأخيرة.

بل إن مجرد تأكيد الله عز وجل وتكراره التأكيد على الاختصاص القومي بالقرآن وأنه نزل عربيا وبلسانٍ عربي لينذر العرب ولعلهم يتقون وليحدث لهم ذكرا، فهذا معناه أن القرآن نزل في المقام الأول علاج لهذه القومية المريضة، وبالتالي عند نشره إلى الشعوب الأخرى لا بد أن يكون مُعقما وخاليا من آثار القومية العربية. إنما العرب ركبوا الدين كي يركبوا به الشعوب، استغلوا الدين وتسلطوا به على غيرهم، وحصروا الحكم والسلطة والخلافة في سلالة قريش، واجتاحوا العالم بالسيوف بدعوى نشر الدين دون حتى أن يتعلموا لغات هذه الشعوب كي يحدثوهم عن الإسلام !

وفرضوا عليهم الخضوع للحكم العربي ودفع الجزية، بينما نظام الحكم يمثل القومية العربية ولا يمثل الدين، والجزية لا تمثل الدين وإنما تمثل القومية العربية، فالعرب لم يبشروا الناس بالدين ولم يلزموهم به ولكنهم ألزموهم بالقومية العربية المريضة التي جاء القرآن لعلاجها.. برغم أن المقتضى هو إسقاط القومية العربية عن الدين وتنزيهه منها كي يكون ملائما للشعوب الأخرى.

فلا ينبغي أن نصدق العرب في كل ما قالوه عن نبيهم لأنهم في الأصل شعب ذا طبيعة برية وحشية ماكرة، حتى الصحابة أنفسهم المقربين من النبي لم ينشأوا في مجتمع مدني أو في سهول وادي النيل أو الفرات، ولم يتعلموا صناعة أوراق البردي ولم يشارك أحدهم في بناء الهرم ولم يصعد واحد منهم لمنارة الإسكندرية أو يعرف كيف يتم تزويد مشاعلها بالوقود لتضيء البحر على اتساعه.. ولم يطلعوا على علوم طبيعية وإنسانية مثل علوم العظماء الآشوريين والبابليين، ولم يتأملوا في خلق الله بفطرتهم وبدوافع الفضول العلمي الذاتي، ولم تكن الأخلاق غريزة مولودة مع طفولتهم، ولم يكن في مجتمعهم علماء ولا مكتبات ولا حدائق، بل إن الصحابة هؤلاء بذرة نبتت في ذات المجتمع العربي الحربي الموحش، وبإمكاناته المتواضعة ونزعاته النفسية وثقافته البدائية، وهؤلاء الصحابة أنفسهم هم أحفاد العماليق الجبارين والفجار، والإنسان مهما تعلم الأخلاق فليس من السهل التخلص من النزعة البيئية التي تربى عليها وتغذت نفسه على مفرداتها، فالطبع يغلب التطبع. خصوصا أنهم لم يتربوا على مبادئ الدين والأخلاق في صغرهم وفي مجتمع سوي، بل كانت نفوسهم وعقلياتهم مشوهة من الأساس، وإن تلقوا الدين على كِبر، فكان ذلك علاجا لأمراضهم العقلية والعقائدية والأخلاقية، ولا يمكن أن يتحول المريض بعد تلقي جرعة علاج إلى طبيب استشاري. فلا يمكن المساواة بين أخلاق النبي وأخلاق الصحابة باعتبارهم تلامذته لأن المادة الخام مختلفة، هؤلاء مرضى، وهذا طبيب معالج، ولأن الله عندما اختار رجلا من العرب يحمّله مسؤولية الدين اختار أفضل الخلق وليس أفضل العرب، ورباه وأدبه على يده، أما النبي فلم يختر من العرب أفضلهم كي يتلقى الدين عنه، لأنه موجه إلى أكثرهم فسادا وشركا. أي أن الدين انتقل مرتين في مرحلتين متتابعتين، وهنا يظهر الفارق بحسبة بسيطة:

ـ النقلة الأولى ((الله ألقى الدين إلى محمد وهو مؤهل تربويا خلقيا ونفسيا وعقليا قبل التلقي ومنذ طفولته، فكانت النتيجة: محمد نموذج حقيقي وتطبيق عملي مثالي للدين))

ـ النقلة الثانية ((النبي محمد ألقى الدين إلى الصحابة ولم يكونوا مؤهلين تربويا ولا نفسيا وعقليا وخلقيا من الأساس الاجتماعي الذي نشأوا فيه)) فهل تكون النتيجة مماثلة للنقلة الأولى؟!

فالمرحلة الثانية "المتلقي" مختلفة في النقلة الأولى (من الله إلى محمد) عن النقلة الثانية (من محمد إلى الصحابة) من حيث المادة الخام الوعاء المستقبل المتلقي للدين، لأنه كان مؤهلا تربويا وأخلاقيا وعقليا قبل بدء البعثة، فنقل الرسالة صحيحة بقدر تأهيله من البداية، على عكس حالهم تماما لأن أغلبهم كان يناصبه العداء حتى بعد بدء رسالته، حتى عمر نفسه حاول قتله أكثر من مرة.. فالمسألة بحسابات منطقية بسيطة لا يمكن أن تتماثل النتائج، ولهذا كان النبي ﷺ حريصا على تدوين الوحي أولا بأول، وكان دقيقا في توجيهاته وتعليماته في كتابة الآيات ورسمها ونطقها وترتيبها في السور والسطور، ولم يترك العرب يتداولونه شفويا بأي حال..

وكما قلنا أن قناة النقل لم تكن متماثلة في كافة المراحل، فكانت القناة النبوية التي انتقل خلالها الإسلام من المولى عز وجل إلى العرب ملائمة ومُجهزة برعاية ربانية فائقة لحمل الرسالة ونقلها إلى المجتمع العربي، ولذلك انتقلت الرسالة بسلام، بينما القناة العربوية التي انتقل من خلالها الإسلام إلى الشعوب الأخرى لم تكن على ذات الكفاءة للقناة الأولى ولم تكن متماثلة معها لأن الصحابة ليسو شركاء في النبوة بل مُخاطبين بها، وبالنظر إلى خصوصية المجتمع العربي والقومية العربية (الطبيعة الحربية – البيئة الصحراوية القاسية - المكر والدهاء القبلية والعصبية والعنف والتقلب المزاجي – التمرد بألوانه – النفاق بأنواعه – والعقلية الأدبية) هذه البيئة الاجتماعية كانت أشبه بتربة نزل فيها الإسلام، كان الإسلام صافيا نقيا كما مطر السماء العذب، لكن التربة لم تكن خصبة بأي حال، بل كانت مالحة، بل زائدة الملوحة إلى درجة الطفح الذاتي، وهذا ما يعني أن ما يتسرب من ماء خلال هذه التربة لن يكون صافيا بأي حال وعلى درجة عذوبته التي نزل بها من السماء، بل من المحتم أنه يحمل ملوحتها إلى حيث تتسرب المياه.. وهذا ما يحتم إعادة تكرير وتنقية الإسلام من آثار هذه القومية العربية وخصوصيتها ليعود عذبا نقيا نظيفا كزهرة اللوتس.

وفي الواقع كان على الصحابة إذا قرروا فعليا نشر الإسلام في شعوب العالم أن يقيموا مشروعا قوميا لترجمة علوم القرآن والحديث ومبادئ الإسلام قبل تصديرها للشعوب الأجنبية كي يسهل هضمها ويساعد ذلك في توسيع دائرة انتشار الإسلام لأن اختلاف اللغة يعتبر عائقا ماديا أمام انتشار الإسلام إذا انحصر في اللغة العربية، لأنه ليس من السهل أن تتنازل الشعوب عن ثقافاتها ولغاتها وإرثها الثقافي كي تتعرف مبدئيا على دين لم تعرفه ولم تهضمه بلغاتها، فعلى الأقل كان ينبغي أن يكون مشروع ترجمة العلوم الشرعية وتفسير القرآن إلى لغات العالم هو المشروع القومي بعد رحيل

النبي، لا أن تكون الفتوحات والحروب هي المشروع القومي.. أن يكون صوت القلم أعلى من صوت السيف..

لكنهم تركوا ذلك وعادوا إلى نشأتهم وطبيعتهم الحربية التي ورثوها من البيئة العربية.. غير أن استمرار الارتباط والاندماج بين الإسلام والقومية العربية بملامحها سيضع عقبة كؤد أمام عولمة الإسلام لأنه من غير المتصور بل من المستحيل طمس هويات جميع الشعوب ولغاتها وقومياتها وجعلها تعيش على قومية العرب وتتغذى من عقلية العرب وترتدي ثوب العرب الثقافي.. أو ما يمكن وصفه بفكرة عولمة اليونيفورم الأعرابي على مستوى جميع شعوب الأرض في نمطية عربية متماثلة، فهذا محض خيال نابع من نظرية الخلافة التي أبدعتها العقلية العربية السادية، لأن التنوع بين الشعوب هو الأساس الذي خلق الله عليه الكون، فالشعوب أنسجة حيوية متنوعة كأنسجة الجسم وليست متماثلة، ولهذا قررت مواثيق حقوق الإنسان " حق تقرير المصير لكل الشعوب.

ويقول جل وعلا: وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا) ١١٣/ طه.. وهذا ما يوضح أن القرآن في كثير من مواضعه حمل نبرة تهديدية بالوعيد للقومية العربية (لغة وعقلية)، أي أن الله يقول أنه أسرف في لغة الوعيد والتهديد، هذه اللهجة التهديدية لا تخص الجبتيين والنرويجيين والعالم بل تخص العرب فقط لأنهم قوم شرك ونفاق، على أمل أن يجد ذلك في قلوبهم الصدئة صدى ويحدث لهم ذكرا، وقد حدد الله تعالى المرض والعلاج وشخص المريض باسمه ولغته ومحل إقامته ورقمه القومي وما بقي إلا البصمة الوراثية حتى يصدقوا أنهم مرضى فكريا وخلقيا وهذا علاج لهم..

ويؤكد ذلك في قوله تعالى: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ)٧/ الشورى. وهذا تصنيف واضح وتحديد دقيق لنطاق الرسالة وهدفها الأول (أم القرى وهي مكة ومن حولها من الشعب باللسان العربي، وهذا ما يؤكد أن أصحاب اللغة العربية هم المرضى التي وجهت لهم الروشتة العلاجية، وأنها صرفت بلغتهم لتكون حجة عليهم ودليل الإدانة، بينما هم نسوا أنفسهم وأجبروا الشعوب المجاورة لهم على تجرع العلاج وإلا الدفع.. وهذا لا يعني أن العرب عرب شبه الجزيرة هم المختصين بالرسالة دون غيرهم، لأن الرسالة لم تغلق حدودها، ولكن الخطاب الذي جاء للعرب تحديدا يختلف عن سواهم من الشعوب والقوميات، وله خصوصية وله نبرة حادة وله لهجة خاصة اتسمت بالشدة؛ لأن العبد يُقرع بالعصا.. أما الحر تكفيه المقالة.. فمجتمع شبه الجزيرة اختصه الله بلهجة تحذيرية مشددة بالوعيد، أما

سواهم من الشعوب الأخرى فهو بشرى لهم إن آمنوا به لأن القرآن يحتوي منهج حياة كامل ويحوي كنز من الحكم والعبر، وليس فقط كتالوج خاص بحياة العرب. ولذلك نجد الله تعالى يقول: وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ)١٢/الأحقاف

وكذلك يقول تعالى: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣)/ الزخرف.. ويقول جل شأنه: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢)/ يوسف .. ويقول: وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ سلطان نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ سلطان عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ سلطان بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)١٩٥/الشعراء... ويقول: قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)٢٨/الزمر .. ويقول: كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)٣/فصلت .. وهكذا وردت الإشارة باللغة العربية لتحديد الشعب العربي وتشخيص المرض وصرف العلاج الروحاني، ولذلك نلاحظ أنه في كل مرة ذكر الله " قرآنا عربيا " جاءت في سياقاتٍ توعوية تحذيرية من نوعية (لعلكم تعقلون.. تعقلون.. لقوم يَعْلَمُونَ.. لعلهم يتقون.. وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .. لينذر الَّذِينَ ظَلَمُوا.. لِتُنْذِرَ أم القرى.. وينذر.. وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ... مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ.. إلخ).. وفي كل مرة إما أن يأتي الخطاب موجها إلى العرب مباشرة بصيغة المخاطب، وإما أن يأتي موجها للنبي قاصدا العرب تحديدا.. هذا فضلاً عن أن النبي نفسه جاء مُوجها للعرب، أي لم يخرج منهم نبي باعتبار أفضليتهم ومحاسن أخلاقهم، بل موجها لهم منهم ليكون حجة عليهم لا على غيرهم، ومع ذلك كانوا يتفاخرون ويتعالون على الناس بحجة أنه خرج منهم نبي وكأن هذا النبي نتاج حضارتهم وثقافتهم، مع أنه جاء منهم ليس ليفتخروا به بل ليكون شاهدا ودليل الإدانة عليهم.. لكن هكذا نرجسية العرب، اعتبروا النبي نتاج رقيهم الفكري وارتقائهم المعرفي، وكأن النبوة نتاج معرفي عقلي فيفتخروا به، مع أنه جاء بلسانهم ليكون شاهد عيان عليهم.

وبرغم أن الله ذكر اللغة العربية ١١ مرة في القرآن وجاءت في سياق تحذيري للعرب كي يثبت الله عليهم بأنفسهم وبلسانهم ويبين لهم قبل أن يحاسبهم على فسادهم.. لكنهم اعتبروا نزول القرآن بلغتهم تعظيما لها ولأهلها وقالوا لأنها أعظم اللغات عند الله ولأنها لغة أهل الجنة، وأن الشعوب ستتكلم لغتهم في الجنة.. وهذا نابع من نرجسية العرب كعادتهم، فلماذا كلم الله نبيه موسى باللغة السريانية ؟ ولماذا كان إبراهيم أبو الأنبياء خليل الرحمن يتحدث السريانية؟.

بينما الله استخدم اللغة العربية للقرآن ليس لأنها أفضل اللغات عند الله بل لكي تكون حجة ودليل إدانة عليهم، بالإضافة إلى أنها هي موضوع التحدي اللغوي في القرآن.. وهذا التحدي اللغوي

القرآني يخص العرب وليس الجبتيين ولا الكوريين ولا البلجيك، لأنهم مهما أبدعوا وتفقهوا في اللغة العربية لا يمكن أن يصلوا إلى درجة إتقان العرب لها واحترافهم استخدامها، لأنهم ليسوا عرب، وليست صنعتهم التلاعب بالكلام وتخليق الضفائر الكلامية كما العرب، وهذه اللغة وإمكاناتها الأدبية ليست نتاج نسيجهم العقلي ونشاطهم الذهني، فخلق الله للشعوب بلغات مختلفة لم يأت عبثا وإنما لحكمة جليلة.

وبرغم أن الله ذكر اللغة العربية ١١ مرة في القرآن وجاءت في سياق تحذيري للعرب مباشرة وتحديدا لينذر أم القرى "مكة" وما حولها، وهي المنطقة من الكرة الأرضية التي شاعت فيها عدوى الفجر والنفاق، كي يثبت الله عليهم بأنفسهم وبلسانهم، وليكون دليل الإدانة نبي منهم وقرآن بلسانهم وفي بلدهم "أم القرى" ومع ذلك نجد أن العرب تركوا بلادهم خالية من أي نشاط ديني، وجاء نشاطهم كله خارجي، ولم تستقر العاصمة في بلادهم إلا عقدين، ثم قفزوا على الشعوب بوحشية وأوقعوا مجازر دموية رهيبة في أنحاء الأرض باسم الدين، بينما كان المطلوب منهم ومناط الرسالة أن يتفقهوا هم في الدين، فقد قال تعالى: وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ "

ومع ذلك لم يخرج منهم فقيه واحد أو عالم، وجاء جميع الفقهاء من الأجانب، مع أن مهمة النبي أن ينذر العرب ذاتهم لا أن ينذر العرب غيرهم وهم محل الإنذار، ومن تفقهوا في الدين أن ينذروا قومهم في بلدهم إذا رجعوا.. فالله جل وعلا كان يعلم علم اليقين الطبيعة النفسية والعقلية لمنطقة العرب الموبوءة وأنزل لهم علاجا روحانيا جميلا لكنهم فعلوا كما الصبي المتمرد، رفضوا العلاج وهجروا المنزل هددوا غيرهم عنوة ليأخذ العلاج، وفي كل الحالات سيدفع، إما الجزية والخراج لو رفض، وإما الخراج لو قبل. مع أن الله يقول: وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا " أي أن الله عقد الأمل على أن يحدث القرآن في قلوبهم صدى، لكن ما حدث كان العكس، فالله تعالى قبل أن يبعث محمدا نبيا فيهم أعده إعدادا جيدا ورباه على مكارم الأخلاق حتى أنه كان عليه السلام يقول: أدبني ربي فأحسن تأديبي" وآتاه جوامع الكلم، أي أنه سلح نبيه بسلاحهم قبل بعثه لهم، وسلح القرآن بسلاحهم ليكون حجة دامغة عليهم. أما العرب فكانوا مجتمع موبوء فكريا وخلقيا، كانوا مجتمعا متوحشا ماديا ومعنويا فجاء الإسلام تهذيب لهم وعلاج روحاني، أما أنهم بمجرد وفاة النبي اختالوا أنفسهم مؤهلين لنشر دينه ! كيف وأنتم ما زلتم في حاجة إلى تأهيل ولم يكتمل أثر الدين في نفوسكم؟ كيف جاء الإسلام لترويض هذه النفوس

المتوحشة، ثم فجأة في يومٍ وليلة يصبحون هم مؤهلين لنشر دين! فقال تعالى: أفإنْ مَات أوْ قتِلَ انقلبْتمْ علَى أعقابكمْ ! . وبالنظر إلى الوقائع التي حدثت بالفعل في المدينة عقب رحيل النبي عنهم والحروب الأهلية المكثفة بينهم والفتن والخلافات والنزاعات على السياسة والسلطة، فلنا أن نتساءل، هل كان مثل هذا المجتمع مؤهل لنشر دين؟ هل كانت أخلاقه مثل أخلاق النبي حينما شرع في الدعوة؟

ويقول تعالى: لِسَانا عَرَبِيًا لِيُنْذِرَ الذِينَ ظلمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ". فالقرآن جاء بخطابين مزدوجين، الخطاب الأول ملئ بالتهديد والوعيد، والخطاب الثاني بالبشرى، إذن الإسلام جاء لينذر ويتوعد العرب بلغتهم وبشرى للجبتيين، فلا يجوز للجبتيين أن يتبنوا ثقافة العرب وإلا جنسوا أنفسهم بجنس العرب الموبوء وأصبحوا من المنذرين، فليس من المنطق أن يخاطب الله الهكسوس بذات اللهجة التي يخاطب بها الجبتيين لأن العقلية مختلفة فطريا، هذا شعب قبلي حربي شرس وهذا شعب مدني متسامح.. هذا شعب هجومي وهذا شعب دفاعي. فقد حذر الله نبيه من عدوى العرب، وأنذرهم مرارا حينما قال: وَأنذِرْ عَشِيرَتكَ الأقرَبِينَ (٢١٤)/الشعراء.. فما بالنا نحن من هذه العدوى! ولو قلنا أنه ليس العرب جميعا منذرين وأن فيهم عناصر جيدة، فعلى الأقل جاء الإنذار للقومية العربية باللغة العربية ولم يأت للقومية الجبتية باللغة الهيروغليفية.

فالنبي بدأ بأولوية الحاجة إلى الدين، وما زلنا نتبنى ثقافتهم وشعرهم ونثرهم وجهلهم ولغتهم بخلفياتها الثقافية القذرة، وننتسب لقوميتهم وما هي إلا قومية المنذرين، ألسنا نحن الأولى بالتحذير من النبي ! غير أن القرآن في حد ذاته جاء بمعجزة لغوية بلاغية ليتحدى العرب في بلاغتهم وفصاحتهم، وهذا ما يعني القرآن لم يتحدى غيرهم من الشعوب الأعجمية التي لا تتحدث اللغة العربية وقت نزول القرآن، فالله أرسل الأنبياء بمعجزات مختلفة دالة على نبوتهم ورسالتهم، وجميعها كانت معجزات مادية محسوسة، بينما أرسل الله نبيه محمد إلى العرب بمعجزة لغوية فكرية، وجاء خطاب التحدي الإعجازي موجها للقومية العربية، وتحداهم في صياغة آية من مثله، فهذا التحدي غير سارٍ على غيرهم من القوميات والشعوب كالجبتيين الذين يتحدثون اللغة الهيروغليفية لأن عقليتهم علمية عملية وتطبيقية، وإنما جاء تحدٍ حصريّ للعرب، والأمر ليس محصورا في اللغة وقواعدها وإنما في العقلية العربية التي تفوقت على شعوب الأرض في تطويع اللغة واشتقاق ١٢ مليون كلمة من أصل ١٦ ألف جذر لغوي، وصياغة التراكيب الشعرية والضفائر اللغوية والمعاني المجازية، لأن عقليتهم أدبية نظرية وهذه صنعتهم.

ودائما ما يسعون لتركيع الشعوب الأخرى مثل المغاربة والجزائريين والجبتيين، كلما حاول أبناء هذه الشعوب أن ينتسبوا لأصولهم الأمازيغية الجبتية أو الشامية، فيأتي العرب بمقولة " النبي عربي "... وفي الواقع حتى وإن كان النبي عربي فلا يشرفنا أن نكون عرب لأن العروبة موجودة قبل النبي وكان فسادها وشركها هو الداعي لنزول الرسالة عندهم، ولأن عروبة النبي ليست شرف وإنما فساد العرب وشركهم وإلحادهم هو ما جعل النبي عربي، إنما هم جعلوا العروبة نبوة وأن النبوة هي نبات من تربة العروبة لخصوبتها الزائدة مثلاً.. ولو لم يكن المجتمع العربي على هذا القدر من الفساد والانحراف الأخلاقي ما كان النبي جاء عربيا، لأن الأنبياء والرسل إنما يبعثون إلى الأقوام الأكثر فسادا.

فبني إسرائيل بعث الله لهم نبي ورسول هو موسى عليه السلام ليس لأن بني إسرائيل هم أشرف الخلق مثل العرب بل لأنهم كانوا أفسد خلق الله، تركهم النبي أربعين ليلة ليكلم الله فوق الجبل ولما عاد إليهم وجدهم يعبدون العجل، ثم إذا أرسل الله لهم نبي آخر قتلوه، وهكذا قتل بني إسرائيل كل أنبياء الله، ثم إذا أرسل لهم عيسى عليه السلام حاولوا قتله أيضا، فلا يعني أن الله اختصهم بنبيه موسى أنهم خير من غيرهم بل العكس فاختصاص الله لقومٍ بنبي فهذا إنذار من السماء موجه لهم...

وهو ذات الوضع عند العرب، فكون النبي محمد جاء عربي فهذا ليس لأن السلالة العربية أشرف من غيرها أو أنها من جمالها أنبتت نبي، بل إن النبوة هي رسالة من الله وليس نبت القومية العربية، ولما جاءت النبوة موجهة للعرب بسبب فسادهم فهذا لا يعني أن ننتمي للعرب أو نتشرف بذلك، لأن عروبة النبي نشأت بسبب فساد العرب وليس طهرهم. كما أن إسرائيلية موسى وجدت بسبب فساد بني إسرائيل وليس طهرهم. فأفضل شعوب الأرض هي تلك التي لم يرسل الله لها رسلاً لأنهم أقل الشعوب فسادا وشركا ونفاقا وإضلالا في الأرض. والأقل منها فضلاً هي تلك التي تركها الله بفطرتها تبحث عنه ولم يرسل لهم رسل ولا أنبياء. وبطبيعة الحال أفضل الخلق هم أولئك الذين اصطفاهم الله رسلاً وأنبياء في مجتمعاتٍ طفحت فسادا وكلفهم بعلاج مجتمعاتهم.. وكاد الله أن ينتقم من العرب، لكنه عاد وترأف بهم ومنحهم فرصة كما منح إبليس، فقال" وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم" لعلهم يستغفروه ويتوبوا .

والأمر أشبه بطبيب دخل مستشفى للأمراض العقلية، ولما كانت هي أكبر مستشفى، وبها أكبر عدد من المرضى والمختلين عقليا، فكان لزاما على الوزير أن يكون الطبيب المنتدب لهم هو أمهر الأطباء وأفضلهم على الإطلاق حتى يتمكن من ترويض الحالات المستعصية.. ثم إذا تمكن هذا

الطبيب الماهر من شرح برنامج العلاج لهم جميعا وقد شفى نصف المرضى.. ثم بعد انتهاء المأمورية ورحيل الطبيب.. انطلق جميع سكان المشفى وكسروا البوابات وحطموا الأسوار (من شفي منهم ومن لم يستجب للعلاج) تحالفوا جميعا في القفز خارج الأسوار وتحطيم البوابات، وانطلقوا يعرفون الناس بروشتة علاجهم ويفتخرون بأنه جاءهم خير الأطباء الحاصل على رسالة الدكتوراه من السماء مباشرة، ومنحهم درجة الدكتوراه الفخرية، وأنهم تتلمذوا على يده وصاروا خير الأطباء في كل الدنيا ... بينما نسوا أنهم من الأصل ليسوا طلاب طب وليسو أطباء امتياز ولم يذهبوا للمدرسة طلبا للعلم، بل هم مرضى جاءهم الطبيب لعلاج قوميتهم المريضة في منازلهم...

فهم حاولوا أن يقنعوا الناس بأن القرآن والإسلام جاءهم بصفته علم لأنهم خير البشر واصطفاهم الوزير بهذا العلم، بينما في الحقيقة المنهج لم يأتهم بصفة علم لطلاب علم بل بصفة علاج لمرضى عقائديا، والفرق شاسع بالنسبة للطبيب بين المرضى والطلاب، لأن الطلاب يأتون للطبيب الأستاذ في بيته، بينما الطبيب يذهب إلى المرضى في بيوتهم.. ولذلك نقول لا يشرفنا أن نكون عرب ننتظر الطبيب لعلاجنا في منازلنا، ويشرفنا أن نكون فراعنة طلاب نذهب نحن لتلقي العلم في بيت الأستاذ، حتى وإن كان مكتبه في هذه المستشفى العقائدية السلوكية الأخلاقية، لا أن يخرج المرضى من المستشفى بعد تلقي العلاج للتدريس في جامعات القدماء..

ولذلك ليس صدفة أن نجد أسوأ شعوب الأرض هي تلك التي أرسل الله لها رسل، فنجد قوم سيدنا إبراهيم أحرقوه وطردوه من بلدهم في النهاية، وقوم سيدنا لوط سخروا منه فأطبق الله عليهم الجبل في النهاية، وقوم سيدنا موسى هم بني إسرائيل شر خلق الله، وقوم سيدنا عيسى أيضا هم بني إسرائيل، وقوم سيدنا نوح الذين اكتسحهم طوفان لأن الله أدرك أنهم حالة مستعصية العلاج فأمر نوحا بتوفير وقته وصناعة الفلك، وقوم عاد، وقوم طالوت الذين دفعوا بانعدام الصفة وطعنوا في أهلية الرسول كما العرب، فقال تعالى: وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا، قالوا أنا يكون له الملك ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال.." ..إلخ.. أما الأنبياء فكانت مهمتهم أخف في العلاج كونهم عبارة عن "ممارس عام" وليس طبيب أستاذ يحمل رسالة ممهورة بخاتم السماء.. فقد وجه الله الأنبياء لعامة الناس وللحالات المرضية البسيطة التي لا تحتاج استشاري ويكفيها ممارس عام.. أما العرب فقد كانوا بمثابة القرحة المريضة في جسد البشرية ! فالله تعالى يدرك منذ البداية أنه لن ينفعهم ممارس عام ولا أي طبيب متخصص ولا استشاري، ولذلك انتقى أمهر رسله وكلفه بالمأمورية... والغريب أن يتحول لفيف المرضى إلى استشاريين فجأة !

فعندما كان الشيخ الشعراوي وزيرا للأوقاف عام ١٩٧٦سافر إلى إنجلترا في مؤتمر انعقد لحوار الأديان في لندن وطلب وفد من كبار أحبار اليهود أتوا إنجلترا وعلموا بعلمه وقوته وأرادوا أن يجادلوه وطلبت تلك الجماعة من اليهود مقابلة الشيخ الشعراوي، فقبل ذلك فسألوه: قائلين: نحن معشر اليهود فضلنا الله عليكم بكثرة الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله لنا، أما أنتم كمسلمون فليس لكم إلا رسول واحد هو محمد فقط، فسر لنا ذلك ؟ فأجابهم الشيخ الشعراوي رحمة الله عليه إجابة موجزة أدهشتهم قائلا: إنما كثرة الأنبياء تدل علي كثرة العلل وأمراض القلوب..

وبالتالي علينا الحذر من القومية العربية جملة، لأنها من القوميات صاحبة الرسالات، وأي قومية صاحبة رسالة لا بد أن نحذر منها بشدة، ولا بد أن ندرك جيدا أنها مريضة بعاهة عقائدية مستديمة، وأن مرضها كان سبب اختصاصها كبؤرة لهبوط الرسالة، والرسالات السماوية بوجهٍ عام تكون محملة بمحتويين ضروريين يمثلان قوامها، المحتوى الأول يبدأ بإنذار لهذه القومية، وتشخيص وتوصيف لحالتها ومعالجة لإشكاليتها العقائدية(وهذا سبب نزول القرآن بلغة العرب وعلى هيئة حوار مع القومية العربية والأحداث المعاصرة لنزوله وتشخيص للإشكاليات العقائدية في حدود القومية، ولم يأت في صياغة الدساتير والمواثيق الدولية، ولم يذكر الشعوب الأخرى مثل البلجيك واليونانيين والصينيين..إلخ من غير الناطقين بالعربية لأن الإنذار موجه لهدف محدد، (وحدد نطاق الإنذار في كافة الآيات التي اختصت بمعالجة إشكالية القومية العربية وأغلقته في حدود أم القرى وما حولها من العرب، وفتحت نطاق المحتوى الثاني فقط. وأما المحتوى الثاني يحتوى منهج هداية عامة، كما كل استشارة طبية، تحمل في طياتها جرعات العلاج ومضادات حيوية وتحصينات خاصة بحالة المريض وبرنامج وقاية دائم يصلح للجميع... إنما نحن (الشعوب التي وقعت تحت الاحتلال العربي) اعتنقنا القومية العربية بكاملها وتقمصنا عقليتها وتبنينا ثقافتها وعاداتها وأعرافها ولبسنا ثوب المريض دون حتى أن نتخذ سبل الوقاية والتعقيم.

ثم تستمر نرجسيتهم ويقولون أن الله أخبرهم أنهم أفضل شعوب الأرض، تمسكا بقوله تعالى: كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ" مع أن الحقيقة أن الآية تتحدث عن أفضلية الشريعة الإسلامية على باقي الشرائع الربانية، لأن الخير المراد في الآية هو المنهج وليس الجنس والعرق البشري، وكلمة أمة تعني منهج وشريعة ولا تعني جنس بشري، لأن الله أخرج للناس شرائع كثيرة ضمن الدين الإسلامي، وجاءت شريعة محمد خيرها، وجاءت موجهة للعربان، فالله خلق الناس وأخرج لهم شرائع ولم يخرج لهم بشر، حتى أنه قال متحدثا

عن المشركين في آية أخرى: بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ".. إنما العرب كان أكثر نشاطهم في الغزو والقتل والسبي ولم يأمروا بالمعروف ولم ينهون عن المنكر، ولا وجود لهم لا في العلم والفقه والفهم، وليس لهم تجربة حضارية سابقة مثل القدماء والبابليين فكيف يصفهم الله بأنهم خير الناس؟ .

وكل ما حدث أنه بمجرد دخول الثقافة العربية لإيجبت تعطلت الملكة العلمية لدى الجبتيين وبدؤوا يتطبعون بطباع العربي وتعطلت مدارسهم وحل محلها ثقافة العرب ولغتهم وشعرهم في الهجاء والفخر والحماسة، ونثرهم وحكاياتهم عن الفروسية والبطولات ورباطة الجأش(الشراسة والتوحش الفكري والسلوكي)، وهذا ما تبناه الأزهر أو الفكر الديني الذي جاء به العرب، وغرس في الأطفال والطلاب صورة العربي كنموذج وقدوة، لأن العرب لم يقدموا لنا الإسلام على حقيقته وإنما قدموه بفلسفتهم وفكرهم وعاداتهم وأعرافهم الشيطانية، ولأن الجبتيين كانوا ساذجين للغاية، فقد اعتبروا العرب هم مصدر اللغة والدين والثقافة، وأن الإسلام قدسهم واختارهم وجاء قرآنه بلغتهم، وينبغي فهم الدين واللغة بناءً على فهم العرب، وهذا ما جعل من العرب آباء روحيين لنا !

علينا أن ندرك جيدا أننا لا نتلقى الدين من نبي وإنما من مجتمع كان مريضا وحصل على جرعة من العلاج (العلاج العقائدي الأخلاقي وليس علاجا عقليا كاملا لأن الله خلقهم بالفطرة كائنات برية ومجتمعات قبلية صحراوية وعقلية أدبية ليس بها عمود فقري علمي يحفظ قوامها الفكري، فظلت كما النباتات الزاحفة بلا سيقان رأسية، بل هي متوحشة سلوكيا وفكريا. والإسلام جاء علاجا عقائديا لهذه العقلية الأدبية وليس تحويلا للكيان العقلي من أدبي إلى علمي بأي حال، وليس تحويلا من مجتمع قبلي إلى شعب مدني، وليس تحويلا من نباتات زاحفة إلى أشجار ذات سيقان وأغصان تنمو رأسيا، لأن مثل هذا التحويل الفسيولوجي يقوم على جراحات زرع الأنسجة وتغيير في النسيج الذهني وليس بتغيير في المعلومات. ولذلك علينا أن ندرك جيدا أننا نتلقى الدين من شعب لا يختلف عن بني إسرائيل ولا يختلف عن قوم لوط ولا يختلف عن أي شعب من أولئك الذين اختصهم الله بالرسالات والإنذارات.

غير أن العرب لا يمكن ائتمانهم على دين، ويمكن اعتمادهم فقط مصدر اللغة، أما الدين فهو ليس ثقافتهم، وإنما نداء سماوي جاء علاج لفسادهم وفسقهم، حتى أنهم قدموا لنا " الإغارة " على أنها جهاد في سبيل الله، بينما في الحقيقة هي عادتهم الجاهلية، وقدموا لنا مرويات وتفسيرات وهمية لنصوص وآيات القرآن، أي مزيج من ثقافتهم وأعرافهم وتاريخهم مع الإسلام ولذلك تعطل العقل الجبتي

عن الهضم والفهم والإبداع، فلا هو قادر على تمصير هذه الثقافة وهضمها بما يتلاءم مع النسيج الذهني الجبتي ويدفعه للإبداع، ولا هو قادر على فهم الدين بعيدا عن ثقافة العرب وشعرهم ونثرهم وتاريخهم، كل هذا أدى إلى عطب في العقل الجبتي في العلوم الطبيعية وفي علوم الدين والفقه إلا ما كان مبتذلا عاجزا ومقتصرا في حدود حفظ القرآن دون فهم وحفظ المرويات وحفظ تفاسير وشروح من قبلهم، وفي الواقع فهذا لا يرضي طموحنا، وكان ينبغي تجريد المنهج الديني من كافة مؤثرات المجتمع العربي، لأن هذا المجتمع هو منشأ ومنبت اللغة فقط وليس الدين، وهو مجتمع مصاب بعاهة عقائدية مستديمة شفاهم الله منها وهدانا.

من هنا ننتهي إلى نتيجة مفادها أن العقل يعمل بناءً على معطياته الجينية الوراثية العرقية، وأن الفكر لا يسير بمعزل عن العقيدة الدينية التي يتبناها الشخص، أو الوازع الديني بوجهٍ عام، وكذلك ما إذا كان نسيج العقل أدبيا أو علميا كما أوضحنا سابقا الفروق الجوهرية بين طريقتي التفكير.. وبالتالي فلا مسوغ لما ذهب إليه الدكتور الجابري من استخدام اصطلاح "العقل العربي " للدلالة على عموم الفكر في الشعوب الناطقة بالعربية، لأنها تفكر بطرق قومية مختلفة لكنا القومية العربية قد هيمنت عليها بشكل مؤقت لحقبة أو حقب من الزمن لظرف معروف يجب دراسته، فتجعلها تتقمص عقليتها وتفكر على طريقتها مع تأثيرات مثل المانع الأدبي، ومع ذلك تظل كل قومية وكل عرقية محتفظة بخصوصيتها ولو في الحدود الدنيا.. وأبسط دليل على هذه الخصوصية العقلية القومية كان هو تركز الرسالات السماوية في الشعب العربي دون غيره، مع الوضع في الاعتبار كافة مظاهر الفساد العقائدي التي تعرضنا لها في السلالة العربية، وتمتعها بظواهر استثنائية مثل التمرد والنفاق والتورية والظاهرة الشعرية والكبرياء والاستعلاء والفكر الأدبي والعقلية السادية وغير ذلك من الملامح العقلية التي تشكل في المجمل ملامح المنتج الفكري النهائي.





الإضاءة السادسة

تحول الحركة الفكرية في إيجبت

من علمية إلى أدبية دينية

عندما دخل العرب إيجبت لم يستوعبوا طبيعة العقلية الجبتية ولا ثقافتها ولا علومها، حتى أن عمرو العاص عندما فكر في بناء مسجده بمعسكر الفسطاط الكبير ذبح بقرة وأمر بتشريح جلدها خيطا واحد، وعلى طول هذا الخيط من جلد البقرة وضع حدود الجامع فكانت مساحته كبيرة جدا بمساحة جلد البقرة بعد نسره خيوطا، واتبع أساليب البناء المعروفة في قريش، فجاء الجامع عبارة عن سور مربع دون سقف وعلى ركنٍ فيه قبة أشبه بالكوخ لا يقارن أبدا بمنارة الإسكندرية وقت دخول عمرو العاص إيجبت.

لأنهم وكما يقول ابن خلدون:" والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم، فصار لهم خلقا وجبلة، وكان عندهم ملذوذ لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد لسياسة وهذه الطبيعة منافية للعمران. فالحجر مثلا أنما حاجتهم إليه لنصبه أثافي القدر، فينقلونه من المباني ويخربونها عليه ويعدونه لذلك. والخشب أيضا إنما حاجتهم إليه ليعمروا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه لذلك فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران هذا في حالهم على العموم" ..

ونجد هنا أن ابن خلدون قد سبر النفسية العربية وغاص في أعماقها من خلال تحليل سلوكياتها وتصرفاتها الساذجة والتي تعبر عن طبيعة المصدر المعرفي لهم وتحمل الملامح العقلية التي تجسدت في هذا السلوك. فطبيعتهم منافية للعمران، فهم (يهدمون كي يستهلكون)، ولا يبنون كي يستخدمون، وهذه طبيعة العقلية الاستهلاكية وليست الإنتاجية.. وهذا ما كان يحدث عند دخول العرب إيجبت، ولذلك نجد بعض المساجد العريقة بالقاهرة بها أحجار فرعونية منقوشة تم انتزاعها من المعابد الفرعونية القديمة، فكان العمال ينتزعون أحجار المعابد والقصور الفرعونية لاستخدامها في بناء المساجد، والأمر هنا لا يتعلق بالعبادة إطلاقا لأن هؤلاء الذين انتزعوا الأحجار

الفرعونية من المعابد لم يكن دافعهم هو هدم المعابد لاعتبارها وثنية، وإنما لاستخدام أحجارها في البناء..

والأمر أيضا لا يتعلق بالمفاضلة بين معبد قديم ومسجد، لأن المسجد أولى بطبيعة الحال فهو بيت من بيوت الله، لكن الجبتيين على مدار تاريخهم لم يهدموا هذه المعابد لاستخدام أحجارها في بناء بيوتهم أو بناء كنائس جديدة حتى بعدما اعتنقوا المسيحية، ففكرة الهدم ذاتها – هدم بناء قائم – ليست موجودة في العقلية الجبتية، حتى وإن لم تعرف فائدة أو قيمة لهذا البناء، فالبناء طالما كان قائما لا يُهدم ويُترك على حاله.. ولهذا بقيت الأهرامات إلى يومنا هذا، ولم يفكر في اختراقها وكسر جدارها إلى خليفة العرب.. حتى محمد علي باشا عندما شرع في بناء القناطر الخيرة، وأعجزته الميزانية عن البناء بسبب ارتفاع تكلفة الأحجار اللازمة، وعرض عليه مهندس فرنسي هدم المعابد الفرعونية والأهرام لاستخدام أحجارها في بناء القناطر، رفض محمد علي ذلك وتوقف المشروع، إلى أن جاء حفيده الوالي سعيد واستأنف مشروع القناطر.

وأما الأثافي التي يتحدث عنها ابن خلدون فهي النموذج الذي بناه خالد الوليد ليشوي عليه رأس مالك ابن نويرة بعد ذبحه، حيث قام بوضع حجرين متجاورين ووضع رأس مالك في زاوية ثالثة لهما لتشكل بذلك الثلاثة زوايا موقدا للطهي، فكانت عادة العرب في الطهي تبدأ بتسوية الأثافي، فيضع ثلاثة أحجار متجاورة في مثلث حاد الزوايا ويضع فوقهما قدر الطهي، وإن لم يجد ثلاثة أحجار يضع حجرين إلى جوار بروز في الجبل، هذا البروز يشكل ناصية الحجر الثالث أو الزاوية الثالثة، وبذلك يتشكل الموقد ويكون جاهزا للطهي.. وكان العرب ينتزعون الأحجار من أي بناء حولهم لوضع الأثافي والطهي عليها، وهذا بطبيعته مخالف للعمران.

لأن الجبتيين في هذا الوقت كانوا يستخدمون بوتاجاز محلي الصنع في المطبخ الجبتي. والبوتاجاز الجبتي عمره أكثر من ٣٢٠٠ عاما، ربما يكون أول موقد في التاريخ يمكن التحكم في حرارته، وبه ١٢ عين للإشعال بأقطار مختلفة، مصنوع من البرونز ومنقوش علية اسم الملك رمسيس الثاني، ولكنه وجد في مقبرة الملك بسوسينيس الأول في تانيس، توقد النار بداخله تحت قرص المشاعل فتسخن السطح وتخرج مباشرة من الفتحات الأربعة الخلفية، وتوجد ثمانية فتحات ذات سُمك وقطر مختلف للحصول علي درجات حرارة مختلفة... وقد تنوعت أطباق المطبخ الجبتي الفرعوني بين أطباق الخضر واللحم والحلويات، وكانت الأبقار والضأن هي المصدر الأساسي للحوم الحمراء، ولم يقبل الجبتي القديم على تناول الخنازير نظرًا لارتباطها في معتقداتهم بالإله "ست" إله الشر.



لكن عمرو العاص تعالى على علوم الجبتيين لأنه لم يكن يتحدث اللغة الهيروغليفية، ولم يندمج في ثقافة الجبتيين ويتودد إليهم، ولم يستخدم الأدوات والمعارف والمهندسين الذين شيدوا المنارة وأشرفوا عليها وثبتوا عدساتها وأوقدوا مشاعلها.. لم يستخدمهم في بناء مسجده واكتفى بنسر جلد البقرة بدلا من المساطر والأقلام. بينما الجبتيون في هذا الوقت كانوا يعرفون الكثير في العلوم الهندسية والمعمار ويصنعون مساطر مدرجة بذات دقة المساطر التي نستخدمها في القرن الحادي والعشرين، استخدموها لقياس منسوب النيل أوقات الفيضان وحددوا زوايا النجوم والأبراج مع زوايا الهرم، واستخدموها في بناء المعابد والقصور والأهرام ودقتها لا تخطئ ملليمترا واحدا، لكن العرب لم تكن ثقافتهم علمية بأي حال، ولم يتمكنوا من هضم العلوم والمعارف الموجودة في إيجبت، فقط هضموا ثروتها بنهم. ولذلك نجد الأثر الاقتصادي السلبي على المجتمع الجبتي خلال عصر الدولة العربية يفوق الأثر الثقافي والديني الإيجابي بمراحل عديدة.



ففي هذا الوقت لم يكن العرب يسمعون عن هذه الفروع والتخصصات العلمية، كانوا قبائل بدوية صحراوية، ولم يكن ممكنا ترجمة هذه العلوم والمعارف إلى اللغة العربية لأن اللغة

العربية لا تقوى على حمل هذه العلوم والمعارف، فليس فيها المصطلحات العلمية لأن مورثوها الثقافي شعر ونثر وزجل وهجاء فقط، هذا هو عماد اللغة العربية وكانت في حاجة ضرورية إلى عمليات تعريب أي ابتكار ألفاظ ومصطلحات تحمل العلوم الجبتية؛ طب وفيزياء وكيمياء وفلك ورياضة، لكن العرب لم تكن صنعتهم العلم ولا شغلوا أنفسهم به ولا نسيجهم الذهني يؤهلهم للعمل بهذا النوع من المعرفة، فقط اهتموا بما جاؤا من أجله، حيث قاموا بتعريب ديوان الخراج والضرائب والجبايات وتعلموا من الموظفين الجبتيين العلوم الإدارية والمالية، ورغم أنها كانت صعبة عليهم لكنهم تعلموها ليضمنوا حجم الثروة وتحصيل الإنتاج الاقتصادي الجبتي ويمنعوا التهرب الضريبي، أما العلوم الطبيعية مثل الطب والفلك والكيمياء فلا هي صنعتهم ولا مصلحة لهم فيها، ولا لغتهم تستوعبها، ولهذا بقيت اللغة العربية عاجزة في هذه الفروع العلمية، بينما تضخمت في الجانب الأدبي بشكل مبالغ فيه إذ وصلت إلى ١٢ مليون كلمة مقابل صفر مصطلحات علمية !.

فالعرب حتى لم يسمحوا للجبتيين أن يتعلموا الدين الإسلامي بلغتهم، فكان على العرب إذا كانوا يزعمون أنهم إنما جاؤا يعلمونا دين الله لا لينهبوا ثرواتنا، فكان عليهم أن يتعلموا لغتنا أولا ويتقربوا إلينا كي يعلمونا دينهم، فليس منطقيا أن تطلب من نمساوي أو بلجيكي أن يتعلم لغتك كي تعلمه دينك، أو أن تحكم بلده عنوة وتفرض عليه لغتك كي تعلمه دينك!. وفي الواقع برغم أن العرب قالوا أنهم جاؤا لينشروا الدين لكننا لا نرى لهم أي أثر في نشر الدين إطلاقا، لأن مسألة نشر الدين لا بد أن يسبقها تمهيد وإعداد للأدوات، فإما أن يتم ترجمة هذا الدين إلى اللغة الجبتية وتقديمه للجبتيين كي يتعرفوا عليه عن قرب، أو أن يتم تعليمهم اللغة العربية كي يتعرفوا فيما بعد ومن خلال التواصل والاندماج الثقافي على الدين الإسلامي، إنما الحقيقة أن العرب لم يبذلوا أي جهد في موضوع الترجمة لأن الترجمة علم دقيق والعرب ليس من شأنهم الانشغال بالعلوم، ولهذا أمروا فقط بترجمة دواوين الجزية والخراج ليتمكنوا من حصر الثروات، ولم يترجموا معاني القرآن ولا مرويات وأحاديث النبي للغة الجبتية حتى قضى الجبتيون ٤٠٠ سنة بعد دخول عمرو لا يتحدثون اللغة العربية فكيف سيعرفون دينها؟.

وكلما انتشرت اللغة العربية بمحتواها الثقافي العربي الشفوي، كلما قلت أعداد الطلاب المتقدمين للمدارس الجبتية القديمة لأنها بعد حظرها بأمر الحاكم وصيرورة اللغة العربية لغة رسمية للدولة، أصبحت اللغة الجبتية كاللغات الأجنبية ومحصورة في الكنائس والأديرة والصوامع العلمية ومطلوب ممن يتقدم لها أن يتعلمها في المدرسة لأنه لا يتحدث بها في منزله ولا في الشارع بعد حظرها، ولهذا تكاسلت الناس عن تعلم اللغة الجبتية كلغة علم بجوار اللغة العربية

كلغة شارع عامية، وأغلقت بذلك المدارس الجبتية التي كانت تقدم لطلابها العلوم (طب وفيزياء وكيمياء وأحياء وفلك وفنون وآداب وأديان..إلخ، أغلقت أبوابها وحل محلها الكتاتيب العربية، وهي عبارة عن غرفة أو غرفتين يجلس فيها الأطفال لتحفيظ القرآن وتعلم اللغة العربية مع بعض من الشعر العربي.. واكتفوا باللغة العربية وانتشرت الكتاتيب التي تدرس فقط معرفة شفوية نظرية أدبية من الموروث الثقافي العربي وتغافلت الناس عن الموروث الثقافي الجبتي العلمي (وهنا البداية الفعلية للاحتلال الثقافي العربي لإيجبت، بحلول اللغة العربية بخلفيتها الثقافية الأدبية محل اللغة الجبتية بخلفيتها العلمية)

ومن هنا تحولت تدريجيا ثقافة الشعب الجبتي وانحصرت في موروث اللغة العربية (الشعر والنثر الجاهلي، وأضيف عليه علوم الدين الإسلامي وتاريخ العرب باعتباره تاريخ إسلامي) وزادت الأمية وانتشر الجهل وتآكلت العلوم في المجتمع الجبتي، وتعطل عقله بتجمد علومه ولغته، الأمر الذي وصل إلى حد أنه لم يبق في إيجبت من يعرف القراءة والكتابة باللغة العربية ذاتها، ليس سوى ما يقرب من الخمسين شخصا حسب ما جاء في رسالة القنصل الروسي في إيجبت للقيصر عندما تولى محمد على السلطة في إيجبت[1] . رغم مرور ٨٠٠ سنة على اعتماد اللغة العربية في إيجبت.

إن الغبار العربي الذي حل مع اللغة العربية في إيجبت منذ ألف عام كما الغبار الذري القادم من الصحراء أحدث انفصاما في الذهنية الجبتية، حينما جعلها تتبنى ثقافة ليست من جنسها، وتلبس ثوبا لا يحمل قسماتها وملامحها، وجعلها تتنفس غبارا عربيا بديلا عن أفكارها، مسخ النسيج الذهني الفرعوني وطمس ملامحه وجعلنا نتنكر لأجدادنا وجعلنا ننسى لغتنا الجبتية الأصلية التي نشأ عليها أجدادنا وشيدوا حضارتهم على مفرداتها ومعانيها.. أو لنقل طمست الذهنية الفرعونية بطمس لغتها، وذبل نسيجها عندما تبخرت لغته..

فخلال فترة الحكم العربي لم تشهد إيجبت أي إنجازات من أي نوع، لا علمية ولا اقتصادية ولا معمارية سوى فقط حفر الترعة الفرعونية القديمة الواصلة بين نهر النيل والبحر الأحمر لتنقل ثروات الجبتيين والجزية والخراج إلى السعودية بالمراكب، والتي كان سنوسرت الثالث قد حفرها وحملت اسمه، لكنها في عهد العرب أصبح اسمها قناة أمير (المؤمنين)، وتم تخصيصها لنقل الغلال والحبوب والضرائب والخراج والجمارك إلى السعودية، ولم ينشئ العرب أي مشروعات قومية في

---

١ ـ الأستاذ الكاتب: محمد البدري – مقال بعنوان: الحاكم بأمر الله حرم استخدام "القبطية" حتى في صلاة المسيحيين" منشور بتاريخ الخميس، ٢٠ نوفمبر ٢٠٠٨ ١١:٥٢ ص على موقع جريدة اليوم السابع: https://www.youm7.com/story/2008/11/20/

إيجبت لأنهم لا يعرفون معنى المشروعات الاقتصادية وليست من ثقافتهم أصلا فهم شعب بادية وخيام وسيوف وحروب قبلية فقط. وأما على مستوى المعرفة العلمية فقد هبط مستوى الجبتيين إلى الحضيض وأصابهم الفقر والهم بسبب ارتفاع التكاليف والضرائب لأن العرب كانوا متطفلين على أرزاق الجبتيين، بمعنى كل إيجبتي يعمل لينفق على أسرته ومعهم عشرة من العرب لأن العرب لا عمل لهم سوى تحصيل الجبايات كما أجدادهم الهكسوس، ولذلك فنحن بحاجة إلى أحمس جديد لطرد العرب من إيجبت وتطهيرها من غبار الاحتلال العربي، وفي حاجة إلى تحتمس جديد ليبني إيجبت الجديدة.

ولهذا انحدر مستوى المعرفة بين الشعب الجبتي خاصة بعدما تبنى الأزهر الثقافة العربية الشفوية لخدمة علوم الدين، وأصبح رجال الدين في إيجبت هم مركز النشاط الثقافي ووسيلتهم هي اللغة العربية أو أصبحت اللغة العربية هي وسيلة الخطاب اليومي بين الناس، وفي ذات الوقت هي وسيلة العلم، مع أنها لا تحمل إلا ثقافة شفوية تضم علوم الدين وتاريخ العرب والشعر الجاهلي، وابتعدت اللغة الجبتية وانحصرت في الصوامع الدينية والأديرة البعيدة عن الحياة والمجتمع، وما زالت إلى يومنا هذا، لكن ربما حان الوقت لاستعادتها لأن الشعوب لا تنهض إلا بلغاتها الأم، لأنها جزء من نسيجها الذهني شئنا أم أبينا.

وفي الواقع اجتهد رجال الدين في لملمة كل الخلفية الثقافية التي تدعم اللغة العربية لتسهل عليهم دراسة الدين الإسلامي في هذا الوقت، لكنهم لم يستطيعوا التمييز بين ما يخدم هذا الدين وما يضره، فما يضره كان هو الغبار الثقافي الملحق بهذه اللغة من تاريخ العرب وثقافتهم وطابعها الأدبي البحت وخلوها من أي رصيد معرفي علمي. فاللغة العربية هي لغة أدبية وثقافتها شفوية وليست علمية؛ ذلك أن المادة العلمية لا تنتقل شفويا أبدا، ولا يوجد في أي ركنٍ في العالم أي نوعٍ من الثقافة العلمية المنضبطة قد انتقل شفويا أبدا، فقط المعرفة الأدبية هي التي تنتقل شفويا لأنها في الأصل سائلة وغير منضبطة كما روايات الرواة وروى فلانٍ ابن فلان عن فلان ابن علان. فيقول الجاحظ: " اللسان أكثر هذرا والقلم أبقى أثرا، والكتاب يُقرأ في كل زمان، واللسان لا يعدو سامعيه ".

وبرغم أن القرآن على الجانب الظاهر له يبدو نصا أدبيا فضفاضا في المعنى واللفظ، إلا أنه في الواقع مادة علمية بحتة كما الفيزياء، ولذلك نجده يبدأ بكلمة اقرأ، وهي لهجة علمية باعثة على الفضول وليست أدبية باعثة على النشوى، وهي تحمل دلالة من الفضول والبحث العلمي بالقراءة

والاطلاع والتأمل لا مجرد الاستمتاع ببلاغة نصٍ أدبي، وبرغم أن القرآن جاء بنظمٍ بلاغي مجازي إلا أنه مع ذلك نص علمي وليس أدبي لأنه لم يحمل أي لحظة من الخيال، ولم يتحلل من المعايير الفكرية في أي لحظة، ولم يعتمد على المترادفات وإنما جاءت صياغته دقيقة بدرجة تجعله يتساوى مع المعادلات الرياضية، وكل ما في الأمر أنه جاء مادة علمية بأسلوب علمي متأدب، وهذا ما يعني أنه يتطلب عقلية علمية لاستيعاب مضمونه.

ولأن العقل العربي في الأساس عقل أدبي وليس علمي، فلهذا نفر العرب من علوم الفقه والتفسير والطبيعة ولم يخرج منهم علماء يتفقهون في القرآن ويفسرونه ويبذلون فيه جهدهم كما بذل الأعاجم، برغم أن العرب هم أصل اللغة ومهبط القرآن، لكنهم لم يبرعوا فيه كما غيرهم، فقط لأن القرآن مادة علمية وليست أدبية، والعقلية العربية لا تتعامل إلا مع مادة أدبية بالغناء والحقي والرواية الشفوية المرنة. وبالنظر إلى هذه المعطيات، وأن رجال الدين في إيجبت جعلوا علوم اللغة هي قاعدة أساسية للقرآن، وهذا صواب، لكنهم جعلوا الثقافة العربية خلفية ورصيد معرفي يمكنهم بالاعتماد عليه تفسير وفهم القرآن والتفقه في أحكامه، وهنا وقعت الكارثة، لأن الخلفية الفكرية العربية ذات طبيعة مختلفة عن طبيعة القرآن، فهم جعلوا تاريخ العرب "الصحابة"مادة خصبة يدور في فلكها القرآن، بينما تاريخ العرب دار في أفلاك بعيدة جدا.

هذه العوامل أدت إلى انحراف الفقه والمعرفة الدينية منذ البداية على ثلاث محاور، الأول هو افتقاد العقل الفقهي للموضوعية العلمية بسبب خلو اللغة من أي رصيد علمي واعتمادها الكامل على المعرفة الأدبية، والمحور الثاني هو تاريخ العرب وأعرافهم التي اندمجت في الثقافة الدينية. والمحور الثالث هو إصابة الشعوب التي احتلها العرب بمتلازمة ستوكهولم (الخضوع المازوخي للعرب) ما جعلهم يؤمنون بفكر العرب أكثر من تدبرهم للنص القرآني، وفي المجمل طالما افتقدت الثقافة الجبتية جناحها العلمي فحتما ستنهار لأن العقل الجبتي نسيجه وغذاءه هو العلوم والمعرفة التطبيقية وليس الأدبية العربية.



الإضاءة السابعة

حلول اللغة العربية محل اللغة الوطنية

منذ نعومة أظفارنا ونحن نسمع من أساتذتنا ومعلمونا أن اللغة العربية لغة غنية جدا بالمعاني والألفاظ والتعبيرات، وأنها تتمتع بثراء لغوي كبير جدا... هذه العبارة طالما أزعجت آذاننا صغارا وكبارا، وإلى الآن لم نفهم ما قيمة هذا الثراء اللغوي ؟! هي بالفعل لغة ثرية وغنية بالمعاني والألفاظ، لكن ما الفائدة من هذا الغنى والثراء ! ... سيقولون لك تنوع في التعبير والبلاغة والفصاحة والبيان والشعر والنثر وفنون الكلام والخطابة ...إلخ.

بينما في الواقع هذه اللغة فقيرة جدا في المصطلحات العلمية بقدر غناها وثراءها في التعبيرات والمعاني الأدبية، فلو نظرنا إلى البنود التي عددناها في السطر الأول واعتبرناها عوامل الثراء اللغوي والفائدة من هذا الثراء سنجدها كلها كلام أدبي لا يغني ولا يسمن من جوع ! لا الشعر يصنع لنا طعاما، ولا البلاغة تصنع لنا أهراما، ولا النثر يصنع لنا العلوم والهندسة والفيزياء والطب والعمارة... أي أن اللغة العربية هي نصف لغة برغم كل هذا الغنى والثراء، تخيّل ! فلا يوجد بها اصطلاح علمي واحد تخيّل !

ذلك ببساطة لأن اللغة العربية هي مشتقة على لسان العرب، ولما كان العرب أمة جهل ورواية وحكاية شفوية، ولا يعرفون عن العلم بقدر ما يرون تحت أظافرهم، ولهذا جاءت اشتقاقاتهم اللغوية جميعها في ميدان احتياجهم ولعبتهم وحرفتهم فقط (الشعر والبلاغة والكلام) إنما العلم والعمل والبناء والإنتاج، فما حاجتهم إلى هذه المصطلحات !

ونتساءل هنا، لماذا أخبرنا أساتذتنا ومعلمونا وأكدوا علينا أن نضع حلقة في آذننا مثل البنات، هذه الحلقة هي أن اللغة العربية لغة غنية وثرية، فلماذا قالوا عنها ذلك برغم أننا أثبتنا – والقارئ النبيل يعرف مسبقا أنها لغة أدب وليس علم- أثبتنا أن اللغة العربية هي نصف لغة برغم أنها تحتوى ١٢ مليون كلمة، في حين اللغات الأخرى لا يتجاوز عدد كلماتها ١٥٠ ألف كلمة، فلماذا يصر معلمونا على أنها لغة غنية وثرية ! برغم أننا نحن الجبتيون أصول نسيجنا الذهني (علمية عملية تطبيقية) وليس بها شعر ولا بلاغة ولا بيان ولا مجاز مثل العرب، بل يكاد يكون لدينا قصور واضح في الجانب الأدبي وتضخم واضح في الجانب العلمي، فكيف يصر معلمونا (ذوي النسيج العلمي بالأساس) على أن اللغة العربية غنية وثرية برغم عجزها وقصورها العلمي ! ألا يعد ذلك

تناقضا صارخا من هذه العقلية العلمية التي تبحث بفطرتها عن الفكرة والكيفية والسببية والرمز والرقم والمقدار، لأن العلوم الطبيعية هي العمود الفقري للحضارات ؟! هم يصرون على ذلك لأن الخصائص الذهنية العلمية في أمخاخهم تعطلت وتقمصت عقولهم العقلية العربية الأدبية، فصاروا وكأنهم يتحدثون بعقلية العرب ونيابة عن العرب، يتجاهلون القصور الواضح في اللغة العربية ويتفاخرون -مثل العرب- بالغنى والثراء اللغوي الأدبي ! وهذا ما يؤكد وجهة نظرنا في أن عقول الشعوب الناطقة بالعربية حاليا منبطحة لصالح العقلية العربية، وتفكر بلسان حال العرب وتعبر عن العرب وتراثهم وثروتهم المعرفية ولا تعبر عن ذاتها، لأنها لو عبرت عن ذاتها لشعرت بالقصور الواضح البيّن في هذه اللغة بشأن التراكيب والاصطلاحات العلمية، فهذه اللغة تعاني فقرا مدقعا في الجانب العلمي وليس بها إلا ما قام أبناء هذه الشعوب - وليس العرب- قاموا بتعريب الكثير من المصطلحات العملية الأعجمية، وقاموا بابتكار الكثير من القوالب والتراكيب اللغوية العربية كي تحمل معانٍ علمية.. لكنها مع ذلك وقفت عاجزة أو مقعرة وغير مستساغة على اللسان في كافة الأحوال.

ونحن للأسف لم نتلق من العرب (الدين واللغة) ولكن رشحت في نسيجنا العقلي ثقافتهم كاملة؛ شاملة الدين بخلفياته التاريخية العربية وجرائمه واقتنعنا أنه الإسلام، وأن هذا تاريخ الإسلام وهو جزء من الدين حتى أن كثير من الأحكام الفقهية لدينا مصدرها التاريخ وليس الدين، حتى أنهم أقنعونا بأن جرائم خطف الأطفال والنساء في الحروب من الدين، واقتنعا !! ثم تلقينا اللغة العربية، ليس بصفتها أداة التواصل الفكري والثقافي، ولكن تلقيناها بشحمها ولحمها وخلفياتها بشعرها ونثرها نتاج العقلية العربية البدوية، حتى وإن كان ذلك حضارة أدبية، لكنها بالفعل فلسفة نظرية بحتة، ولا يمكن أن يتقدم بها شعب من الشعوب، وإلا كان تقدم العرب أيام أبدعوا معلقاتهم الشعرية وهم يسكنون الخيام في الصحراء..

وكما عرفنا إنه في عصرنا لم تعُد الاكتشافات العلميّة وتقدّم العِلم مرتبطين بمنطق تراكُم المعرفة فقط، بل أصبحت الاكتشافات وحركة التقدم العلمي تُقاس بمقدار القطيعة المعرفيّة مع التراكم المعرفي السابق، وهو ما يعرف بظاهرة " الثورات العلميّة، التي تناولها فيلسوف العلوم "توماس كون" في كِتابه (بنية الثورات العلميّة). فالعلم هو العمود الفقري للحضارة، بينما الأدب محض مُحسنات ذوقية. ولهذا ارتقى الجبتي القديم بالعلم، بينما سكن وثبت العربي القديم رغم عبقريته الأدبية. هذا فضلاً عن وباء النوستالجيا العربية القديمة، لأن الخلفية الثقافية تأتي محمولة على ملايين من الصور الذهنية التي تجسد معانيها ومضامينها، وجميعها مشتقة من الصحراء المعادية

للحضارات بالفطرة. فكل شعب يبنى ثقافته ولغته على أساس النسيج العقلي له، فالنسيج العقلي للشعب اليهودي مختلف تماما عن أي شعب في العالم، ولذلك اختلفت لغته وطريقة تفكيره، وكذا النسيج العقلي الفرعوني مختلف تماما عن النسيج العقلي في منطقة الصحراء الليبية، ولهذا اختلفت لغته وأفكاره، والنسيج العقلي العربي مختلف تماما عن النسيج الفرعوني ولهذا اختلفت لغته وأفكاره.

فالعرب لم يكن لديهم أفكار وإنما فقط معاني وتصورات، هذه المعاني والتصورات هي المعين الخصب للشعر والنثر والأساطير والحكايات والخرافات، ولهذا لم يتجسد نتاجهم المعرفي في البناء والهندسة والعمارة، بل تجسد فقط في الشعر والنثر وتطويع اللغة والتلاعب بمفرداتها، ولهذا جاءت لغتهم غنية جدا بالمفردات والمرادفات، وهي أغنى لغات العالم على الإطلاق، ذلك لأن النسيج الذهني العربي نشاطه هو الشعر والتلاعب بالكلمات والمعاني، ومن الطبيعي أن يعمل طول الوقت على اشتقاق الكلمات من بعضها لتكوين كلمات جديدة، حتى أننا نجد اللغة العربية بها ١٦٠٠٠ جذر لغوي، وجميعها مصطلحات وألفاظ أدبية (ولهذا فهي تعتبر نصف لغة لأنه ينقصها الجانب العلمي، لأن البيئة العربية ليست بيئة خضراء بل هي بيئة صحراوية وليست غنية بمفردات الحضارة ومعانيها..)، وتم اشتقاق مفردات منها حتى وصلت إلى ١٢ مليون كلمة، فبحسب المصادر والمراجع ومعاجم اللغة العربية، فإن عدد الكلمات في اللغة العربية - سواء المستخدمة أو المهملة - تبلغ ١٢٣٠٢٩١٢ كلمة دون تكرار وتبلغ ٢٥ ضعفًا عدد كلمات اللغة الإنجليزية التي تتكون من ٦٠٠ ألف كلمة.. وفيما يلي عدد الكلمات في أبرز اللغات حول العالم: - اللغة العربية ١٢,٣ مليون كلمة - اللغة الإنجليزية ٦٠٠ ألف كلمة - اللغة الألمانية ١٦٠ ألف كلمة - اللغة الفرنسية ١٥٠ ألف كلمة - اللغة الروسية ١٣٠ ألف كلمة.

وكما يتضح أن اللغة العربية ليست لغة تواصل بالمعني المتعارف بين الشعوب وإنما هي أداة حضارة، لكنها حضارة أدبية خالصة، فالحاجة أم الاختراع، وجميع الاشتقاقات جاءت أدبية شعرية وليست علمية، وهذا ما مثل مادة خصبة وفيرة للشعر، ولهذا أيضا نزل القرآن بلغتهم متحديا حرفتهم وصنعتهم الوحيدة، وتحداهم بأن يأتوا بآية من مثله.. فعلى مدار تاريخهم كان الإبداع بالنسبة لهم هو البناء اللغوي وليس المعماري. ولهذا جاءت معجزة القرآن لغوية عقلية لتتحدى العرب تحديدا.

فالحضارة الجبتية القديمة تجسد النسيج العقلي الجبتي، وهو مختلف جذريا وعرقيا عن النسيج الذهني العربي، لأن العربي حينما رسم تصوراته وخيالاته رسمها بالكلمات والألفاظ وتلاعب بمفردات اللغة، وهي فلسفة نظرية بحتة، بينما الجبتي حينما فكر في رسم تصوراته وأفكاره أمسك بالريشة والألوان والأزميل والمساطر والخيط والميزان ونحت بأنامله الدقيقة على جدران المعابد والقصور أروع آيات الفن.. بينما العرب تلاعب بلسانه نثرا وشعرا وزجلا وخطابة، ثم جاء الغراب الصحراوي ليضع بيضه في بيت النعام.. فنثر غباره.. ونشر العدوى.. ونسخ اللغة وحطم الأقلام وكسر الإزميل والمساطر، ولهذا نسينا اللغة الجبتية ألف عام كاملة ودفنت ذكريات أجدادنا في التراب وحل محلها الشعر والزجل العربي، وذبل نسيج العقل الجبتي.

والتمييز بين الحضارتين الجبتية والعربية في هذا السياق ليس نابعا من نزعة عنصرية ولا من غرور أو تعالٍ وإنما من باب التخصص والملاءمة الوظيفية للنسيج العقلي، وهو صرخة استغاثة لرفع الظلم الذي وضعه العرب على الجبتيين في الماضي واستمرت آثاره في الحاضر، فالعرب حضارتهم أدبية لغوية، بينما الجبتيون حضارتهم علمية عملية تطبيقية، وتاريخهم خير شاهد على نوعية الفكر والإنتاج المعرفي، والذي ظهر فيه بجلاء قصورٌ في الجانب الأدبي مقارنة بالحضارات الأخرى، أو مقارنة بحضارة العرب الأدبية الشعرية الخالصة، بل إننا نرى أن نتاج العقلية والحضارة الجبتية انحصر في العلم والحكمة فقط دون الأدب الزجلي بالشكل أو النمط العربي، فكل شعب هو نسيج اجتماعي متماثل من حيث التكوين العقلي والنفسي ومتماثل من حيث النشاط الثقافي والحضاري، وما يتلاءم مع العقلية الجبتية قد لا يتلاءم مع العقلية العربية، وما يتلاءم مع العقلية العربية قد لا يتلاءم مع العقلية الجبتية... فهذا التمييز بين النسيجين الاجتماعيين العربي والجبتي ليس من باب التفرقة العنصرية ولكن من باب رفع غشاوة العقل التي وضعتها حضارة العرب على عقول الجبتيين، وتحرير العقل الجبتي من القيود الفكرية التي هاجرت إليه من شبه الجزيرة، والتي جاءت منغمسة في أمور الفقه الديني فحصلت على قدسية دينية بينما هي في الأصل جرائم ارتكبها العرب ضد الجبتيين أنفسهم وضد ثقافتهم وقوميتهم.

يقول الأستاذ أمين:" اختلفت آراء الباحثين في هذا اختلافا كبيرا في طبيعة العقلية العربية، ونحن نستعرض بعضها، فإذا نظرت إلى اللغة العربية والأدب العربي في ذلك العهد رأيته نتيجة طبيعية لتلك الحياة، وصورة صادقة لهذه البيئة. فألفاظ اللغة مثلا ً في منتهى السعة والدقة إذا كان الشيء الموضوع له اللفظ من ضروريات الحياة في المعيشة البدوية، وهي قليلة غير دقيقة فيما ليس كذلك. فالإبل هي عماد الحياة البدوية، هي خير مأكلهم ومشربهم وملبسهم ومركبهم، فحياة

العرب في الصحراء تكاد تكون مستحيلة لولا فضل الجمل، من أجل هذا مُلئت اللغة العربية بالإبل، يترك فلم يترك العرب صغيرة ولا كبيرة مما يتعلق بها إلا وضعوا لها اللفظ أو الألفاظ . فوضعوا الألفاظ لها ولحَملها ونتاجها، ووضعوا الأسماء لأسنانها و أعمارها وحلبها ورضاعها وفطامها، ونعوتها في طولها وقصرها وسمنها وهزالها، وأصواتها وأوبارها، وعلفها واجترارها، ورعيها وبروكها، وأبوالها وحركة أذنابها، وأنواع سيرها ورياضتها، والرِحال وما فيها، وكل ما يشد عليها، وقيودها ونزع قيودها، وسماتها وعيوبها، وجربها وأمراضها، وأدوائها ...إلخ، ولم يقتصروا على اللفظ الواحد للمسمى الواحد، بل وضعوا له الأسماء المتعددة (على اعتبار أن الجمل هو سفينة السفر في صحراء العرب). فإذا انتقلت من الجمل إلى السفينة (البحرية) رأيت اللغة العربية غاية في القصور، فهم لم يوفوها حقها كما وفوا الجمل، ولم يصفوا كل أجزائها، ولم يضعوا الأسماء لكل نوع من أنواعها، نعم هناك ألفاظ تتعلق بذلك، ولكنها لا تكاد تذكر إذا قيست بالألفاظ الموضوعة للإبل وشئونها، بل إنك إذا فحصت الألفاظ المستعملة في السفن ومتعلقاتها وجدت كثيرا منها معربا وغير عربي، كالسيابجة واليماسرة، والأنجر، وكثيرا منها لا نشك في أنه وضع بعد العصر الجاهلي.. هذا مثل واضح".

ويقول:" وحسبك دليلا على هذا أنك إذا نظرت في كتاب كالمخصص لابن سيده وميزته أنه يجمع الكلمات المتعلقة بموضوع واحد في موضع واحد، أمكنك أن تقارن هذه المقارنة بوضوح، فقد استغرق فيه الكلام على الإبل وما يتعلق بها ١٧٦ صفحة كبيرة عدا ما ذكر متفرقا في مواضع أخرى منه. على حين أن السفينة استغرقت منه أقل من سبع صفحات، وبعبارة أخرى: إن الكلام على الإبل أخذ نحو جزء من أجزاء الكتاب السبعة عشر، فأنت إذا قلت إن ما ورد في كلام العرب مما يتعلق بالإبل جزء من سبعة عشر جزءا من مجموع اللغة العربية، لم تكن بعيدا عن الحقيقة، وهي نسبة جد كثيرة، ولكنه الجمل عماد الحياة العربية البدوية. <u>هذا في المحسات، وإنك تجد مثله في المعنويات</u>، فكلمات السرور واللهو واللعب والمزاح أقل من كلمات البؤس والقتال والحزن والويل، ألم ترهم تفننوا في الداهية، فصاروا يخترعون لها من الأسماء ما أتعب اللغويين؟ حتى جمع حمزة من أسمائها ما يزيد على أربعمائة، وحتى قالوا أن كثرة أسماء الدواهي من الدواهي ! ذلك لأن طبيعة البيئة تستدعي ذلك، فهي بيئة شقاء وفقر لا بيئة رخاء ونعيم[1] .

---

(١) ـ كتاب ملامح الحياة العقلية في عصور الإسلام الأولى. الأستاذ أحمد أمين- تصنيف محمد جمال إمام ص٣٤

ومن كلام الأستاذ أمين وتشخيصه الدقيق للعقلية العربية نفهم أن اللغة العربية هي وليدة العقل العربي ومعبرة عن همومه وما يجول في صدره، وما يشغله في حياته اليومية، وأن هذه اللغة على اتساع ألفاظها ومعانيها قاصرة على حدود البيئة العربية المقفرة التي لم تتمتع بأي قدر من معالم الحضارة والرفاهية، فكيف جاء ثراء وغنى هذه اللغة ؟ أو لماذا لم يستخدم العرب كلمة واحد للدلالة على كل معنى مخصص بها؟ لماذا استخدموا بدائل متساوية وأطلقوا عليها مترادفات؟

ذلك لأن اللسان العربي مفرط في ألفاظه واشتقاقاته لأداء أغراضه، وكل قبيلة لا تحترم ضوابط اللغة، ولا تحترم نظام عام، فكما أنهم لم يخضعوا لنظام حكم موحد وإنما عاشوا شتات كل واحد يركب عقله، وكل قبيلة أو عشيرة تستقل بلهجة، أي جنوح إلى الحرية الفوضوية وهو نوع من التمرد على النظام، ولهذا وجدنا الأعراب هم الأقدر على نسج وصناعة ألفاظ عربية جزيلة وتوسيع اشتقاقاتها، فالتمرد على المدنية والاستيطان هو تمرد على نظام الحكم الموحد هو تمرد على ضوابط الفكر وضوابط اللغة وخروج عن كل ثابت في الحياة، فكانت كل عشيرة لا تلتزم بنظام اللغة وإنما تنحت باستمرار مئات الكلمات الدالة علي ذات الشيء، فلا يعتمدون ضوابط توحيد اللغة إنما كانت كل عشيرة لها توليفة لغوية مختلفة نسبيا عن غيرها، وكون قريش كانت تسيطر علي الحرم وسوق عكاظ فقد فتحت بذلك مستودعا للكلمات والألفاظ التي وردتها من كافة القبائل والقوافل، كان الغرب هو معرفة هذه الألفاظ لسهولة التواصل مع كافة العشائر العربية بشأن السوق والحج والرفادة وجمع الإتاوات، ثم استخدمت قريش كل هذا العباب معينا خصبا للشعر كي تتباهي علي القبائل باتساع حصيلتها اللغوية وقدرتها وبراعتها في نسج الأشعار، على اعتبار أنه (هكذا قالت العرب).. واللسان البدوي هو الأقدار علي توليد واشتقاق الكلمات والألفاظ ليس لأن عقله مبدع ولكن لأن عقله فوضوي يستخدم مسميات مختلفة وملتوية للدلالة علي ذات الشيء متخطيا بذلك الضوابط التي هي من سمات المجتمع المدني، وهذا ما يخالف مبدأ القرآن في استخدام اللغة، إذ أنه لا ترادف ولا مجاز في القرآن وإنما لكل كلمة معني واحد واضح وصريح.

وأبسط دليل على ذلك هو اسم مكة نفسها، واختلاطها بين (مكة وبكة) وتوليد عشرات الأسماء لها من صفاتها أو صفات متلازمة معها، ففي الأصل نقرأ في تفسير الطبري: قوله تعالى: " للذي ببكة مباركا "،، فإنه يعني: للبيت الذي بمُزدحم الناس لطوافهم في حجهم وعمرهم. وأصل " البكّ": الزحم، يقال: منه: " بكّ فلانٌ فلانا " إذا زحمه وصدمه -" فهو يبُكه بكًا، وهم يتباكّون فيه "، يعني به: يتزاحمون ويتصادمون فيه. فكأن " بَكّة "" فعْلة "من " بكّ فلان فلانا "زحمه، سُميت البقعة بفعل المزدحمين بها.

فإذا كانت " بكة " ما وصفنا، وكان موضع ازدحام الناس حول البيت، وكان لا طواف يجوز خارج المسجد = كان معلومًا بذلك أن يكون ما حول الكعبة من داخل المسجد، وأن ما كان خارج المسجد فمكة، لا " بكة ". لأنه لا معنى خارجه يوجب على الناس التباكَّ فيه. وإذ كان ذلك كذلك، كان بيّنًا بذلك فساد قول من قال: " بكة " اسم لبطن " مكة "، ومكة اسم للحرم".

وأما اسم " مكة " فهو ربما مشتق من كلمة "المِكْتان " والتي تعني في قاموس المعاني: الكَفيل، حيث كانت قبائل قريش مسيطرة على الحرم وتقتسم فيما بينها القوافل الأدبية وقوافل الحج والعبادة القادمة وتستقل كل قبيلة من قريش بخدمات الرفادة والإشراف وجمع الإتاوات في النهاية، وهو ما يعني عمل الكفيل بالنسبة للقوافل القادمة من الخارج، وما زال هذا التقليد سائرا حتى اليوم، نظرا لضخامة العائد من الإتاوات التي يفرضونها على الحجاج منذ قديم الأزل وتصارع العرب على هذه العوائد كونها مصدر دخل قومي أساسي لهم . وكلمة "مكة " تطلق اسما على الإقليم كله وفق هذا المعنى، وهذا هو الصواب في رأينا، لأن كلمة بك وبكة تختص أفعالها ومشتقاتها في نطاق الحرم فقط، بينما المِكْتان ومكة تمتد نشاطها إلى الإقليم المحيط بالحرم.

بينما لو نظرنا إلى لسان العرب الذي برع في الاجترار اللغة وطحنها وعصرها وهضمها وطي وليّ وثني الكلمات واشتقاق الأسماء، نجد أسماء مكة قد وصلت سبعين اسما متداولا على لسان العشائر العربية، وأسماء مكة المشهورة علي ما ذكر الأزرقي، والفاكهي، وابن ظهىرة، وقطب الدىن النهروالي، والفىروز آبادي وغىرهم سبعين اسما، هي: ١ ـ مكة ٢ ـ بكة ٣ ـ أم القرى ٤ ـ القرىة ٥ ـ معاد ٦ ـ الوادي ٧ ـ البلدة ٨ ـ البلد ٩ ـ البلد الأمىن ١٠ ـ حرم آمن ١١ ـ حرم ١٢ ـ المسجد الحرام ١٣ ـ البىت العتىق ١٤ ـ مخرج صدق ١٥ ـ العروض ١٦ ـ أم رحم ١٧ ـ صلاح ١٨ ـ الرأس ١٩ ـ البلد الحرام ٢٠ ـ النساسة ٢١ ـ الباسة ٢٢ ـ الناسة ٢٣ ـ بساسة ٢٤ ـ كوثا ٢٥ ـ أم كوثا ٢٦ ـ فاران ٢٧ ـ المذهب ٢٨ ـ قرىة النمل ٢٩ ـ الحاطمة ٣٠ ـ الحرم ٣١ ـ برة ٣٢ ـ طىبة ٣٣ ـ القادس ٣٤ ـ المقدسة ٣٥ ـ القادسة ٣٦ ـ القادسىة ٣٧ ـ المعطشة ٣٨ ـ الرتاج ٣٩ ـ أم زحم ٤٠ ـ أم صبح ٤١ ـ أم روح ٤٢ ـ بساق ٤٣ ـ المكتان ٤٤ ـ النابىة ٤٥ ـ أم الرحمة ٤٦ ـ الناشتة ٤٧ ـ سبوحة ٤٨ ـ السلام ٤٩ ـ نادرة ٥٠ ـ النجز ٥١ ـ الحُرمة ٥٢ ـ الحِرمة ٥٣ ـ قرىة الحمس ٥٤ ـ أم راحم ٥٥ ـ نقرة الغراب ٥٦ ـ البنىة ٥٧ ـ ناشة ٥٨ ـ تاج ٥٩ ـ كبىرة ٦٠ ـ أم رحمن ٦١ ـ السىل ٦٢ ـ العذراء ٦٣ ـ حرم الله تعالى ٦٤ ـ بلد االله تعالى ٦٥ ـ العرش ٦٦ ـ العروىش ٦٧ ـ العُرْش ٦٨ ـ العُرُش ٦٩ ـ العروش ٧٠ ـ العرش.

هكذا حالة من الطفح اللغوي والانشطار لا قيمة لها إلا تفسخ المعنى وتشتته.. بل إننا سنجد من اللغة ما يمثل القومية العربية بكامل ملامحها، يقول الأستاذ محمد عابد الجابري؛ أن فقهاء اللغة العربية عندما بدؤوا تدوين (أو بالأصح اختراع) اللغة العربية في العصر العباسي، كانوا يعتقدون أن اللغة العربية الأصلية هي لغة " الأعراب" في البوادي البعيدة، ولهذا كانوا يسافرون طويلا وبعيدا لجمع الكلمات والمفردات شراء ! وهذا السوق اللغوي دفع بعض الأعراب إلى الارتزاق بتلفيق كلمات غريبة والادعاء أنها ألفاظ عربية أصلية وبيعها لجامعي اللغة.. واعتقد أن ١٥٠٠ اسم للأسد اخترعها الأعراب الجائعين وباعوها لجامعي اللغة، فعاد اللغويون بأسماء لم يعرفها العرب ولا قالوها عن حيوان لم يعرفوه ولا شاهدوه، وعاد الأعراب بالنقود والذهب، وورثنا نحن وهما لغويا ثريا. وهذا هو السبب في الثراء غير الطبيعي للغة العربية في المترادفات (٢٠ إلى ٣٠ اسما للشيء الواحد) لكنه ثراء يعتمد على نقود مزيفة".

وهذا ما درسناه في كتبنا التعليمية، أن الشعراء كانوا يجوبون البوادي ويحتكون بالأعراب في الصحارى البعيدة القاسية مثل المتنبي وغيره، كي يلملموا مفردات اللغة الفصحى التي هي ذخيرة الشعر بالنسبة لهم، وهي مصدر الثروة اللغوية.. (إذن وفق كلام العرب وبلسانهم أن الأعراب الجهلاء المنافقين والأشد كفرا ونفاقا هم مصدر اللغة العربية الفصحى)، ثم في يوم من الأيام أصبح شعوب الحضارات المدنية يتحدثون لغة الأعراب... هذا الثراء فيما بعد ساهم في أكبر مشكلة نعيشها في عصرنا وكل عصر، وهي تشابه وتعدد واختلاط المعاني، وظهرت مذاهب شتى في تفسير القرآن، كل مذهب يتبنى وجهة ومعنى واستخدام مختلف للكلمة أو العبارة، فالمعاني وفق هذا الثراء الفوضوي لا ضابط لها، وتصبح متعددة وكلها صحيح على لسان العرب الأعراب. ذلك لأن هذه اللغة لم تتربى على لسان منضبط وذا ضمير حي أو عقلية علمية منظمة، وإنما نبتت وترعرعت على لسان الأعراب المنافقين بشهادة أشقائهم العرب.

ولما كانت كل عشيرة تستخدم مجموعة من الأسماء كدلالة على مكة مثل فاران وقدس وقادس وغيرها ما أوقع جميع الأمم في ورطة الإسرائيليين الذين استخدموا اسما نادرا أو لم يعد مشهورا... بينما لو نظرنا إلى منف العاصمة الجبتية القديمة سنجد لها اسما واحدا على مدار خمسة آلاف عام منذ تأسيسها، أي قبل مكة بألفي عام، شيدها الملك مينا واعتمد اسمها " مانفر " أي القلعة البيضاء" وبعد ثلاثة آلاف عام دخل اليونان بلادنا فنطقوه " مانفيس" أو ممفيس، ثم دخل الرومان ونطقوه على وضعه، ثم دخل العرب بلادنا فنطقوه منف. بينما نطقه أجدادنا "مانفر" كما كان منذ آلاف السنين، واستمر على ذلك حتى يومنا هذا، وهذا لا يقارن بأي مكان في جزيرة العرب حيث

تجد لمكة أكثر من سبعين اسما وكل عشيرة تختار لها اسما مختلفا عن غيرها من العشائر، ما تسبب في ورطة الإسرائيليين، حيث استخدموا الاسم القديم "فاران" كاسم لمكة ووديانها وجبالها، ولما كان العرب قد هجروا هذا الاسم، وذكرته التوراة مئات المرات، فسهل ذلك على اليهود قلب الجغرافيا ونقلها بجذرها إلى فلسطين وشبه جزيرة سيناء المصرية، وقالوا أن إبراهيم (ع) أودع زوجته وطفله إسماعيل في برية فاران أي في العريش من سيناء!، وهكذا كي يقتلعوا أنفسهم وجذورهم من صحراء الحجاز ويغرسوها في فلسطين حيث الخصب والنماء.

وكل هذا نابع من خاصية الانشطار اللغوي في شعوب الجزيرة العربية، إذ أنهم في الأصل كانوا شعب واحد أو عشيرة (عشيرة نوح (ع) وكانت تتحدث اللغة الآرامية الأصل، ثم وتفرعت هنا وهناك وانتشرت العوائل وتضخمت فأصبحت قبائل، ثم القبائل تضخمت فخرج منها عشائر مثل قريش وبني إسرائيل والحميريين في الجنوب والسبأيين والنبطيين والعمونيين والموآبيين والفلستيين والكنانيين (الكنعانيين) ...إلخ. وكل عشيرة من هؤلاء اتخذت لها ركنا من الجزيرة، واتخذت لهجة مستقلة عن غيرها من العشائر، ثم زاد استقلال اللهجات فتطورت إلى لغات وأصبح لكل عشيرة خط للكتابة خاصة بهذه اللهجة دون غيرها، فظهر خط المسند والخط النبطي والخط العبراني في الجنوب اليمني، وظهر السرياني والخط العربي في الحجاز وظهر الخط الكنعاني كذلك، وبذلك أصبحت هناك عدة لغات مستقلة استقلالا كاملا، برغم أنهم جميعا سلالة واحدة يقيمون في جزيرة واحدة لا تتجاوز مساحتها 3,2 مليون كم^2 أي ثلث مساحة أمريكا.. لكن نظرا لأن العرب ليسو شعب مدني ولكن قبائل فهم يمارسون الانشطار في كافة جوانب حياتهم وليس فقط اللغة.. فهل معنى ذلك أن جزيرة العرب تتمتع بالثراء اللغوي رغم صغر مساحتها تتحدث عشر لغات ! (عربية وعبرية وسريانية وحميرية وسبئية وآرامية وكنعانية ..إلخ !

فاللغة العربية واللغة العبرية صنوان شقيقات متفقتان في اللفظ والمعنى ولا خلاف بينهما سوى في نطق بعض الحروف لأنهما في الأصل لهجتين متفرعتين عن لغة واحدة، أو بالأحرى هما لهجة واحدة تطورت، والاثنان يتفقان في أغلبية الحروف أيضا. ولو أخذنا مثال على ذلك نجد أن قادش هي نفسها قادس لتبادل الشىن مع السىن خاصة بىن العبرىة والعربىة مثل اسم موشيه أو موشي العبري الذي ىصحف في العربىة إلي موسى، وقادس هي نفسها قدس لأن حرف الألف هنا هو حرف مد، وقادس كانت من أسماء مكة في الماضي. وبذات القدر سنجد العقلية العربية والعقلية

الإسرائيلية صنوان، بل توأم متماثل، لكننا نخشى الجهر بذلك حياء واستحياء من تجريح (سلف الأمة).

فاللغة العربية والعبرية والسريانية جميعهم مشتقات من عائلة لغوية واحدة من اللغة الأم وهي الآرامية، حتى أن الأبجدية العبرية تشترك مع العربية في ٢٢ حرفا وتنفرد الأبجدية العربية بستة أحرف إضافية. وهناك جذور لغوية كثيرة مشتركة بين العبرية والعربية ودون تغيير في الأحرف في بعض الأحيان ومع تحول في الأحرف في أحيان أخرى. وهناك ظاهرة مشهودة كثيرا في وهي القلب اللساني الاستبدال؛ أي قلب الأحرف في الجذر المشترك بين لغة وأخرى، وكذلك بين لهجة وأخرى في اللغة الواحدة. وهذا كله ليس نابعا من إبداع العقلية العربية، بل نابع من الطبيعة الانشطارية، وكانت قريش تجلس في الحرم لتحلب كل هذا الانشطار العشائري، تحلب الفلوس والألفاظ والكلمات والمعاني من صدور الحجاج والتجار، فتضخمت بذلك حصيلتهم اللغوية لأنها الوحيدة التي جمعت من كافة العشائر.

بينما كانت اللغة الفرعونية الجبتية لغة علم وليس أدب، ولهذا كانت منضبطة في ألفاظها ومعانيها ودلالاتها، وكل معنى يلزمه كلمة واحدة محددة للتعبير عنه بدقة، ولا يوجد عشائرية ولا قبلية ولا شللية في طول وعرض وادي النيل من خزان أسوان وحتى الإسكندرية ودمياط إلى ميناء العقبة شرقا، كل هذه المساحة تتجاوز المليون كيلو متر مربع يسكنها شعب يتجاوز تعداده الخمسة ملايين (أي خمسة أضعاف العشائر العربية) ومع ذلك لم توحدت لغتهم في طول وعرض القطر، وأن اختلفت اللهجة نسبيا بين الوجهين البحري والقبلي، فمثلا اسم بلادنا " كِميت" ينطقه أهل الصعيد " كِميت" وينطق أهل الدلتا " كيمي "، وكان الخط المستخدم واحدا في طول البلاد وعرضها هو الخط الهيروغليفي، ثم تطور منه الخط الهيروطيقي، ثم تطور منه الخط الديموطيقي، ثم تطور منه الخط القبطي المتأخر، وجمع هذه كانت مجرد خطوط متوازية متقاربة، وفي كل الأحوال لم ترق الاختلافات إلى درجة الانشطار أو ظهور لغة مختلفة، بل كانت جميع جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية يميزها عنصر الوحدة، وظهر ذلك في وحدة السياسة التي يمارسها الملك، مقارنة بالعرب كان لكل قبيلة ملكها.

وكانت لغة أجدادنا الجبتية لغة علم وليس أدب، بينما اللغة العربية هي لغة أدب وليس علم، لأن كل نسيج عقلي لكل شعب يؤسس لغته ومفرداته على لسانه بما يجسد ملامحه الذهنية وبيئته الاجتماعية وما شغل عقله من محتويات هذه البيئة، وكانت اللغة الفرعونية تستخدم

رموزا من البيئة الجبتية مثل الحيوانات الجميلة والعصافير وحركة مياه النهر والفراشات والزهور والنباتات والمحاريث والأدوات التي كان الجبتي القديم يستخدمها في بيئته، كان الجبتي يستخدم رسومات بسيطة لهذه الكائنات في لغته المكتوبة، أي أن حروف اللغة مشتقة من النماذج العملية والتطبيقية في حياته اليومية..

فالكتابة عند العرب تبدأ برسم بيضاوي لوجه ثور ذي قرنين هو الرمز الأول في كلامهم وكتابتهم وهو الرمز " أ " ويسمونه " ألِف " والألف عندهم هو ثور القطيع وهو كبش القطيع. وهو الأول من كل شيء، والرمز الثاني من كتابتهم وفي كلامهم هو " ب " ويسمونه " باء ". ثم عنق ورأس جمل وهو الرمز الثالث من كتابتهم وفي كلامهم هو " ج " ويسمونه " جيما" ويرمزون إليه برأس ورقبة الجمل وهكذا تسير كتابة الرموز والأرقام... هذه الرمزية على التوالي وبالترتيب هي الرمزية التي اعتمدتها اللغة السامية الأصل، خاصة العربية والعبرية والكنعانية القديمة.

بينما الهجائية الهيروغليفية تبدأ برسمه جانبية لطائر كرمز لصوت " أ "، ثم برسمة الريشة كرمز للصوت " إ "، وينطق " ألفا " ثم رسم الساعد كرمز للصوت " ب "، وهكذا وفي الترتيب السابع للرموز تأتي رسمة واجهة معمارية لمعبد كرمز للصوت "ج" وليس خصا أو كوخا أو بيتا كما عند العرب والآراميين، بل إن ثقافته البدوية البدائية تظهر بجلاء طريقة ابتكار الخطوط العربية جميعها، وهي غير منسجمة مع النظام الجبتي.

واللغة الجبتية كانت لغة علمية منضبطة بمعايير الحضارة المدنية وليست بمعايير أدب الأعراب في الصحارى، وأما الأبجدية الفرعونية فكانت معقدة جدا بمنظور الحضارة العصرية، إذ أنها لم تكن ساذجة كأبجدية العرب بل إنها دمجت نظامين للأبجديات في نظام واحد، فاللغة العربية مثلا تعتمد علي نظام الحرف المفرد، والأبجدية كلها ٢٨ حرف وتتشكل الكلمة من مجموعة حروف بعد ضمها لبعضها.. أما اللغة اليابانية فتتشكل من حوالي٣٠٠ ألف كلمة ثابتة بتشكل ثابت ولا تخضع لنظام تجميع الحروف لتكوين كلمة، فكل كلمة رمز واحد معقد وثابت، وعلي من يتعلم اللغة أن يحفظ كل الـ ٣٠٠ ألف رمز، هذين نظامين مختلفين في الأبجديات، العربية والانجليزية واللاتينية تتبع نظام الحروف، بينما اليابانية والكورية والصينية تتبع نظام الكلمات المرمزة.

أما القدماء فقد دمجوا النظامين معا في ثلاث أبجديات، فاللغة الفرعونية غنية جدا باللحن الصوتي ما جعل حروفها ٣٢ صوت أي ٣٢ حرف منفرد، ولمن يريد الكتابة أن يقوم بتجميع الحروف

المناسبة لتكوين الكلمة مثل اللغة العربية والانجليزية .. ثم قاموا بتأليف تجميعات لغوية رمزية لكل كلمة، بما يمكنك اختصار مجموعة حروف كلمة (سلسبيل مثلا) في رمز واحد مختصر مثل نظام اللغة اليابانية والصينية.. وهذا ما صعب في عملية اكتشاف اللغة الفرعونية لأن فيها رموز تقرأ حرف، وفيها رموز أخرى تقرأ كلمة كاملة، وهو نظام الاختصارات المتبع في اللغة الانجليزية حاليا مثال كلمة يونسكو UNESCO هي رمز واحد مركب، يشير إلى عبارة كاملة أو عدد أكثر من الحروف لو عددناها ستملأ سطر كامل (منظمة الأمم المتحدة للثقافة والعلوم والتعليم) (The United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization).



وهذا ما يؤكد هوية هذه اللغة وقيامها على الضبط والإحكام، فكانت تميل إلى الضبط والربط والتقعيد وليس السيولة والفوضوية مثل لغة العرب، وكانت اللغة الجبتية تكتب بثلاث خطوط مختلفة، أي ثلاث أبجديات مختلفة، الأبجدية الأولى شعبية لكافة الناس، والأبجدية الثانية للكهنة والمعرفة الدينية حصرا، والأبجدية الثالثة للدولة وشؤون الحكم، وبعد دخول اليونان مصر، تأثرت الأبجدية الجبتية باليونانية فأصبحت الأبجدية القبطية المعروفة حاليا، مع بقاء الصوتيات والألفاظ والجمل والتراكيب اللغوية مصرية صرفة، كامتداد للغة الفرعونية القديمة، إنها فقط صورة الكتابة "طريقة رسم الحروف بالقلم" التي تغيرت.. وصارت اللغة الجبتية

بأبجدية واحدة هي التي مازلت سارية إلى يومنا هذا بمسمى اللغة القبطية، حيث أطلق العرب على الجبتيين مصطلح" القبط" ولغتهم " القبطية " وأبجدية الكتابة " قلم الطير " [1].

جدول يوضح الحروف المصرية القديمة (الديموطيقية) التي دخلت الأبجدية القبطية وتطورها

القيمة الصوتية	هيروغليفي hieroglyphic	هيراطيقي hieratic	ديموطيقي demotic	قبطي Coptic	اسم الحرف	
š3				ϣ	شاي	Shai
f				ϥ	فاي	Fai
ḫ3				ϧ	خاي	Khai
h				ϩ	هوري	Hori
ḏ3				ϫ	جنجا	Djandja
k				ϭ	تشيما	Itshima
ti				ϯ	تي	Ti

وفي كافة الأحوال كان الاختلاف في الأبجديات لا يتجاوز ٢٠٪ في طريقة رسم الحروف بين الهيروغليفية والديموطيقية والهيروطيقية والقبطية.. كانت الاختلافات بذات معدلات اختلاف الخط العربي ما بين خط النسخ وخط الرقعة والخط الديواني والخط الكوفي وغيره.. وفي جميع المراحل تبقى اللغة الصوتية وتراكيب الكلمات والعبارات والنطق ثابت، فقط تتغير أبجدية الكتابة. وبعد مرور ألفي عام جاء شامبليون لمحاولة فك شفرات الأبجدية الفرعونية، وكانت ثلاث أبجديات قديمة وواحدة يونانية، وكانت الأبجدية الأولى الهيروغليفية معقدة جدا نتيجة الترميز المركب، وهذا ما صعب من عمليات اكتشاف هذه الأبجدية..

حيث كانت مرحلة ابتكار التدوين يعاصرها فكر مدني متطور. هذا من حيث النشأة، وذلك يؤكد أن لغة الجبتي تحمل الملامح والسمات الذاتية لنسيجه الذهني. حتى اللحن الصوتي كان غنيا مقارنة باللغة العربية، بل يقول المؤرخون أن الكتابة العربية ليست من ابتكار العرب وإنما اقتبسوها عن الكتابة السريانية، لأن العرب بطبيعتهم شعب استهلاكي وليس إنتاجي، لا إنتاج صناعي ولا إنتاج معرفي من أي نوع سوى الشعر وترتيب الكلام، والشعر في حد ذاته ليس إنتاج وإنما إعادة اجترار للرصيد المعرفي.. حتى أن قواعد النحو والصرف تم بناءها في العصر العباسي على أساس قواعد النحو والصرف السرياني، لأننا كما قلنا العقلية العربية ولغتها سائلة وليست منضبطة، وهكذا اقتبست قواعد لها سواء خط ونقش الكتابة أو قواعد نحوها وصرفها من لغات غيرها، فهذا يؤكد أن ضخامة المخزون اللغوي والثراء اللغوي هذا الذي تحفل به اللغة العربية ما هو إلا غثاء لأنه

[1] - هذا المقال ليس لنشر معلومة تاريخية وإنما لإعادة استنبات الحضارة من جديد

ليس له قوام، فكيف للغة تتجاوز عدد كلماتها ومفرداتها خمسة وعشرين ضعفا من اللغات الأخرى، بينما هي تقتبس خطها ونقشها وقواعد نحوها وصرفها واصطلاحات علمية من لغات أخرى! إلا إذا كان هناك شيء ما خطأ في وعينا ! فلو كانت هذه اللغة على ثرائها وغناها بدأت من قاعدة فكرية قومية متينة مثلت عمودا فقريا لكان المنتظر أن تعطي هي للغات الأخرى قواعدها وخطها ونقشها ومفرداتها العلمية.

غير أن اللغة العربية برغم أن حضارة العرب قائمة على الإبداع النظري والشعر وصناعة الكلام إلا أن لغتهم ظلت حتى العصر العباسي بدون تنقيط ولا تشكيل، وهو ما يعني استحالة فهمها بواسطة شخص غير عربي حتى وإن تعلم اللغة العربية، ذلك لأن العقلية العربية مستقلة بسمات فسيولوجية تجعلها تفهم بعضها بطريقة مختلفة عن كل شعوب الأرض، وبمعايير الذكاء (IQ) فالعقلية العربية هي الأكثر ذكاءً بين شعوب العالم، لكن معايير الذكاء هذه أدبية وليست علمية، أي تبتعد كليا عن حالة الفضول والتنقيب المعرفي، وإنما ترتكز على تقنية المسح المعرفي فقط ولهذا لم نجد شخص واحد عبقري حصل على معدل ذكاء عالٍ بهذا المعيار، وهذا النوع من الذكاء أو بالأدق هو دهاء يصلح في الشعر والأعمال المخابراتية فقط حيث تتجلى التورية والنفاق والمجاز والكناية وسرعة المسح المعرفي، وهذا هو سبب ثراء اللغة العربية؛ أنها بالفعل تجسد ملامح العقلية العربية وتحمل ذات سماتها، لأن اللغة هي وعاء الفكر.. وهي سمات مختلفة عن عقلية الشعوب الأعجمية المجاورة لهم.

ونلاحظ اختلافا جوهريا بين اللغة العربية وكافة لغات العالم من حيث الكتابة والحروف، فجميع لغات العالم ما زالت محتفظة بحروفها مفككة مستقلة، كل كلمة تتكون من عدة حروف متراصة دون التحام، ويتم رسم الحرف بذات الهيئة سواء كان منفردا أو ضمن كلمة، بينما الحروف العربية يتم رسمها بطريقة مختلفة عندما تكون منفردة، ثم عند دمجها في كلمة يتغير رسمها ويتم حذف الكثير من أطراف الحرف ودمج رأسه فقط، وليس ذلك كسلا في الكتابة، وإنما نابع من مهارة العرب في اشتقاق الكلمات وقضم ودمج وتحوير وتطويع المعاني من بعضها بطريقة سائلة دون ضبط وإحكام دقيق.

وبرغم أن الأصوات التي تمثلها هذه الحروف مستقلة ومفصلة عند خروجها على اللسان إلا أن العرب استطاعوا دمجها وتسييلها عند الكتابة، كما استطاعوا كذلك دمجها وتسييلها عند النطق لدرجة أن ثقافتهم كلها جاءت غنائية سائلة، فدمج وتسييل الحروف هو نموذج من دمج وتسييل

المقاطع الصوتية في الغناء والشعر والزجر.. وعدم تركيزهم على ضوابط للكتابة يؤكد عدم اهتمامهم بضوابط فكرية علمية، ما يعني في النهاية عقلية سائلة ليس بها عمود فقري يحفظ قوامها.. وهذا بخلاف كل لغات العالم، ما يعني تميز العرب بعقلية أدبية سائلة لا مثيل لها في العالم، لكنها في المقابل لا تنتج علما منضبطا، وليست نهضوية، إنما فوضوية..

وهو ذاته عنصر السيولة الذي ظهر في تحويل قراءة القرآن في العصر الأموي إلى نظام التلاوة الغنائية الجميلة، ففقد بذلك القرآن عنصرا من عناصره الجوهرية وهو التدبر في المعنى والفكرة وملاحقة السببية إلى التغزل في جمال الصوت، فكان القرآن يقرأ كما لو كنت تقرأ كتاب في التاريخ أو في الفقه أو القانون، أما في العصر الأموي دخلت المقامات الموسيقية الغنائية على القرآن فلحنته بها، فصار القرآن اليوم تتم تلاوته بمقامات الموسيقى العربية مثل مقام حجاز ونهاوند ..إلخ وهي مقامات العزف الموسيقي التي اخترعها المطربون العرب في القدم، وما زال تلحين الأغاني حتى يومنا هذا يتم على أحد هذه المقامات، وتحويل القرآن من القراءة التدبرية التأملية (كما قراءة كتب الفقه والقانون) إلى القراءة الغنائية على المقامات الموسيقية، هذه نتج عن جنوح العقل العربي من الفكر المنضبط إلى الحالة الشعورية السائلة، فتحول بذلك القرآن من فكر إلى مجرد حالة شعورية سائلة تتلاءم مع العقلية العربية.

فالعقلية العلمية مختلفة حتى في طريقة اشتقاق الكلمات والمصطلحات العلمية، نجد الشعراء ماهرون في تطويع الكلمات واشتقاقها من الأفعال والجذور والأسماء بطريقة سائلة ولينة تناسب الشعر، بينما العلماء عند ابتكار المصطلحات العلمية يعتمدون على تقنية الصب الهيكلي للفظ والكلمة.. ولذلك نجد عدد كلمات اللغات العلمية قليل جدا مقارنة بعدد كلمات اللغات الأدبية، ونسبة الاشتقاق والتحوير والتمويع والتسييل أعلى بكثير جدا في اللغات الأدبية، وكذلك نجد اللغات العلمية ما زالت تحتفظ بشكل حروف الكتابة كاملا سواء كان منفردا أو مندمجا ضمن كلمة، بينما اللغة العربية سالت حروفها واندمجت في بعضها، فاللغة هي وعاء الفكر وتحمل ملامح النسيج الذهني، واللغة يشكلها الفكر وليس العكس، وطالما كان العقل سائلا جاءت اللغة سائلة، وطالما كان الفكر أدبي فلا بد أن تحمل اللغة ملامحه، وإذا كان الفكر علمي منضبط ستحمل ملامحه وسماته.

سؤال: هل نحن نحكم اللغة ؟ أم أن اللغة هي التي تحكمنا ؟!

الأصل أن اللغة هي أداة تواصل بين الأفراد، وطالما كانت أداة فهذا يعني أنها من صنع الإنسان وتطويره هو، وهو المتحكم فيها كما يتحكم النجار في إزميله والرسام في فرشته، أي أنه باعتياده استخدام كلمات ومصطلحات معينة هو بذلك الذي يصنع اللغة، وينقلها من مجرد كلمات أو صفات عارضة إلى اصطلاحات ثابتة، ويحدد لها معالمها واستخداماتها وقواعده ونظمها، والفصيح منها والعامي...إلخ. فهو بذلك العنصر المنتج المؤثر في كيان اللغة، هو الذي يطوع اللغة بأنامله، حتى في داخل المجتمع الواحد، نجد الإنسان المتحضر هو الذي يتحكم في اللغة ويستبق غيره بنحت وابتكار ألفاظ ومصطلحات وتعبيرات جديدة (مثل الشعراء عند العرب ومثل العلماء عند العجم)، وهو الذي بإمكانه تطويع اللغة كيفما شاء، بينما الشخص العادي فأقصى إمكاناته أن يخضع هو للغة ويستخدمها بذات الطريقة التي يستخدمها غيره، ومثال عند العرب كان الشعراء هم أقدر الناس على تطويع اللغة واشتقاق وابتناء ألفاظ جديدة، حتى أنه كان مقبولا منهم كسر قواعد النحو والصرف لضبط أبياتهم الشعرية، وقيل في ذلك أنه مسموح لضرورة الشعر، لكن ذلك خطأ والصواب هو أن الشعراء هم من تمكنوا من التغلب على الثوابت والقوالب اللغوية وكسرها وطيها وثنيها دون اعتراض من أحد، لأنه لا أحد يملك تطويع اللغة أكثر منهم، فأصبحوا بذلك (مسألة أمر واقع بالنسبة للمجتمع فسمح باستمرارهم على ما هم فيه، أي كانت لهم اليد العليا في صناعة اللغة وضبطها، حتى أنهم يأخذون قواعد اللغة عن المتنبي).. إذن اللغة لا تحكم المجتمع وإنما المجتمع هو الذي يطور اللغة، والأشخاص السبّاقون في الفكر هم من يتحكمون في عناصر اللغة، وبوجه عام فكر المجتمع هو الذي يحدد هوية اللغة.

وإذا نظرنا إلى سيطرة الشعوب والحضارات على بعضها، فإنه كلما امتدت سيادة شعب على شعب آخر تمددت لغته إلى هذا الآخر، ما يعني أن استمرار انتشار اللغة العربية في كل هذه الشعوب حتى الآن (الشام والعراق وإيجبت وشامل إفريقيا) يرجع في الأصل إلى حدث سيادة العرب خلال حقبة الفتوحات على هذه الشعوب، بينما كانت هذه في الأصل لهجة عشيرة من الأعراب والمطاريد والصعاليك المنتشرين في صحراء الحجاز بدأت في الألف الأول قبل الميلاد وتطورت على لسان قريش وهم أيضا عشيرة من البدو الصحراويين .. لكن تمددت وانتشرت هذه اللغة حتى وصلت إلى شعوب عديدة واستمرت إلى الآن، ما يعني أن هذه العشيرة سيطرت حقبة من الزمن على كل هذه الشعوب (حقبة الأمويين والعباسيين) وما زال أثر هذه السيادة والهيمنة لهذه العشيرة مستمرا حتى اليوم، بدليل استمرار لغتهم في هذه المناطق.

بل إننا نحكم لساننا بلسان العرب ! وإذا اختلفنا حول عبارة أو كلمة ما يكون المعيار والفصل هو (هكذا قالت العرب) ولا نضع قواعد للغتنا باستقلال عن العقلية العربية، إنما نحتكم إلى قواعد اللغة التي وضعتها عشيرة قريش! (بشأن النحو والصرف والبلاغة والبيان) فقد تفوق الذوق البلاغي للعشيرة على كل هذه الشعوب ولا زال يحكم أذواقها في التحدث ! كل هذه الشعوب تضع معيار البلاغة ليس من فنوها وذوقها وحسها وإنما معيارها هو معيار عرب الجاهلية ! ومذوقتهم الفنية الأدبية هي مذوقة عرب الجاهلية ! كيف تكون قواعد البيان بالنسبة لنا هي قواعد البيان التي تبنتها عشائر العرب! لماذا لم نختلف عنهم بمعايير بيان مدنية ! فالوسيلة التي اعتمدها العرب في تواصلهم ووصفوها بأنها بيان وبلاغة ما زلنا نحن إلى اليوم نسير على هذه القواعد! برغم أن العرب هؤلاء كانوا عشيرة مطاريد وانسلخت لغتهم من اللغة السريانية شبه المدنية ! أي أن هذه اللغة ليست من اللغات التي خلقها الله وإنما من اللهجات التي ابتكرها وطورها المطاريد! وما زال هؤلاء الجاهليين هم القدوة اللغوية والآباء الروحيين! في الأدب والبلاغة والتعبير المجازي!

فلماذا لا تكون لنا لغتنا نحكمها بلساننا وفقا لقواعدنا ومذوقتنا الذاتية النابعة من أنفسنا لا من نفوس العرب ! فهؤلاء العرب (جرهم والعماليق) آباء العربية البدوية التي نتحدث بها إلى اليوم ! بل إن مجرد نسيان لغتنا الهيروغليفية لهو طمس لهويتنا واعتراف مباشر بهيمنة العرب ولغتهم وثقافتهم علينا، وسيادتهم علينا فكريا أيضا دون أن ندري، فقد تحولت عقليتنا من علمية إلى أدبية على يدهم ! وتحولت لغتنا من علمية إلى أدبية على يدهم! وتحولت أساليب البلاغة والبيان إلى العربية البدوية على يدهم وتعاملنا معها بنبرة تقديس، فصارت قواعد البيان العربية وكأنها قرآن يدرس في الجامعات!. فمجرد أننا نقتدي بكلام العرب في البيان ونسج المعاني والكلمات والعبارات، فنحن كما المجتمع العربي الذي كان يقتدي بالشعراء في نسج المعاني والألفاظ والعبارات، أو بمنظور أوسع، فالعرب بالنسبة لنا صاروا هم أصحاب الريادة في اللسان والبيان برغم أنهم لا عقل لهم ولا خلاق! لكن على كل حال فهذه اللغة العربية لم يبق لها في إيجبت أكثر من مائة عام حتى تغادر إلى صحراء الحجاز وتنكمش مرة أخرى، وتسود لغتنا الهيروغليفية حاملة معها هويتنا وسيادتها وهيمنتها.

فانحصار الريادة الشعرية للعرب خلال هذه الحقبة لا معني له إلا هيمنة العقلية العربية علي هذه الشعوب، فلم يثبت أن شاعرا من عرقية غير عربية أجاد شعرا مثل أشعار العرب أو قارع شعراء العرب.. والنقطة الثانية هي انحصار التحكم في اللغة العربية في يد العرب يعني هيمنة وسيادة العقلية العربية علي هذه الشعوب، فلم يرد أن شعبا من هذه الشعوب قد مارس عملية الخلق اللغوي

مثلما مارسها العرب، فاللغة بطبيعة الحال تنمو كل يوم وتزداد كلماتها وألفاظها ومعانيها وتراكيبها باستمرار، وهذه الزيادات جاءت بلسان العرب بعد تطور حياتهم عندما انتقلوا إلي المدنية وتنوعت واغتنت مظاهر الحياة فتطورت لغتهم واتسعت واتسع استخدامها ودخلتها ألفاظ أعجمية تعربت وولدت هي ألفاظ واشتقاقات جديدة حسب الحاجة للاستعمال، وكذا عمليات النحت الخاصة بالظاهرة الشعرية المستمرة في لسان العرب.

فاللغة لم تبدأ ١٢ مليون كلمة وإنما بدأت ١٦ ألف جذر فقط ونمت وترعرعت حتى وصلت ١٢ مليون لفظ عبر الزمن وكان مورد الزيادة والنمو هنا بلسان العرب وحدهم ولم يشاركهم العجم في هذا إلا بنسب ضئيلة جدا، بل إن العجم اقتصر دورهم في الحياة اللغوية علي انحسار لغاتهم وتعلم بعض من ألفاظ وكلمات العربية تساعدهم في التواصل مع العرب ثم تساعدهم في هضم معارف العرب وتراثهم وشعرهم ونثرهم، ما يعني صراحة أن الهيمنة كانت للعقل العربي وأن هذه الشعوب كانت تابعة فقط للعقل العربي ولا تمارس أي دور ريادي أو حركة مبادرة لغوية من أي نوع، وهذا ما يؤكد خضوعية هذه الشعوب للعقل العربي طوال هذه القرون وبالتالي خضوعية فكرية، حتى أن آداب العرب احتلت الساحة وغطت علي آداب هذه الشعوب، يعني كانت قومية العرب في تمدد وقومياتهم في انحسار مستمر، هوية العرب في تمدد وهوياتهم في انحسار، ما يعني حتمية تبعية وخضوعية هذه الشعوب للعقل العربي، حتى أن الكثير من أبناء هذه الشعوب خاصة في الشام والعراق كان يحاول الانتساب إلى قبائل ذات أصول عرقية عربية كي يحمل شرف الانتساب لهم وهذا كان يخدمه في مباشرة الأمور السياسية، والكثير من فعاليات الوجاهة..

وكانوا فقهاءهم يتلقفون لغة العرب بنهم ويجعلون مرجعهم في نطق اللغة وصياغة تراكيبها هم العرب أي لم تصل المبادرة العقلية لديهم إلي درجة التحكم في اللغة وتطويعها كما العرب، فالعرب كانوا يسيطرون علي الوعي والعقل الجمعي كما يسيطرون علي السياسة، ولكن السياسة يتحكم فيها عنصران فقط هم الأمر السياسي والتهديد بالقوة العسكرية... أما الهيمنة العقلية والسيطرة المعرفية كانت تابعة لذلك وكانت تتم من خلال التأثير غير المباشر علي عقل هذه الشعوب مثل جعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية، وتقديس الشعر والأدب العربي، الحط من شأن كل من يحتفظ بدين غير دين العرب، واهتمام الحكام فقط بالمؤلفين والكتاب بالعربية دون غيرها من اللغات والثقافات أي تبني رسمية الثقافة العربية وهي في طياتها تحمل ملامح العقل العربي ومحتواه وبذلك هيمنت هذه الملامح علي الشعوب غير العربية

وبالتالي من غير المسوغ إطلاق اصطلاح العقل العربي علي الشعوب الناطقة بالعربية لأنها لم تمارس ذواتها ولم تمارس أي مبادرة عقلية تنم عن هويتها الفكرية بل فقط قلدت وتقمصت عقلية العرب، حتى وإن كان ذلك عن قناعة فهي قناعة منقوصة منعدمة الإرادة، فنحن قد نكون مقتنعين الآن باللغة العربية ليس لأننا اخترناها وطورناها، وليس لأنها تراث أجدادنا، ولكن لأنها فرضت علي أجدادنا وتجرعوا هم مرارة الألم بينما نحن لم نشعر به، إذن لا نحن اخترناها ولا أجدادنا اختاروها بل هي فرضت عليهم ونحن فقط رضينا بالأمر الواقع.. وهذا الأمر لا يمكن فهمه واستيعابه إلا إذا أدركنا أن العقل الجمعي للمجتمع هو كائن حي يحيا بشكل جماعي ويسكن ويصيبه الخمول بشكل جماعي ويدخل بيات شتوي بشكل جماعي ويزدهر أيضا بشكل جماعي ويثور بشكل جماعي، أي أن الإرادة العامة للشعب يمكن تشخيصها والتعامل معها باعتبارها إرادة شخص واحد لكن من جنس تستمر حياته آلاف السنين، وكذلك مواسم ازدهاره آلاف السنين ومواسم خموله أيضا آلاف السنين كذلك.

فعند دخول العرب إيجبت اصطدموا بهذه الحضارة العجيبة، وبدأ تغيير جديد على لغة الجبتيين، قام الخليفة الأموي عبد الملك مروان سنة ٨٥ هجرية بتعريب الدواوين أي بمنع اللغة الجبتية من الكتابة في السجلات الإدارية الجبتية، وهي سجلات الأملاك والأموال والأراضي والتقسيمات الإدارية للقرى والمدن والأقاليم.. تم تحويلها إلى اللغة العربية تحويلا قصريا، حتى يسهل على العرب تجميع الضرائب والجزية والخراج، ولم يكلفوا أنفسهم مثل هذا الجهد لترجمة كتب الفقه والدين، واستغرقت عملية الترجمة فترة طويلة، ولم تكن عملا سهلا، ولم تكن ترجمة في الحقيقة، بل كانت تعريب لأن اللغة العربية كانت فقيرة في هذا الميدان، وليس لدى العرب أي خبرة فنية عن العلوم الإدارية والمالية، فتم نقل المصطلحات كما هي ونطقها وكتابتها بحروف عربية، وتعلم العرب من الموظفين الجبتيين أصول هذا العلم..



مرحلة دخول اللغة العربية في مصر على اللغة الفرعونية في عام ١٠٠٠م

ولك أن تتخيل كيف لطفلٍ أهبل أن يجلس على عرش جلالة الملك رمسيس الثاني ويطمس حضارة بأكملها.. (وهذا يؤكد انسلاب الإرادة من العقل الجمعي الجبتي خلال هذه الحقبة، ففيما بعد أمر الحاكم بأمر الله[1] بمنع استخدام اللغة الجبتية في الحياة اليومية، وكانت الضربة

١ ـ الحاكم بأمر الله" هو أحد الخلفاء الفاطميين في مصر، تولي الحاكم بأمر الله السلطة خلفا لأبيه العزيز بالله سنة ٩٩٦ م / ٣٨٦ هج وكان في الحادية عشر من عمره فتولي الوصاية عليه أبو الفتوح برجوان، الذي تنسب إليه حارة برجوان. ثم انفرد الحاكم بالسلطة وهو في الخامسة عشر من عمره. ويعد عهد الحاكم من أغرب العهود التي عاشتها مصر، فبعد أن أمسك الحاكم بمقاليد السلطة من برجوان تحول إلي سفاك للدماء وأتي بأمور تشير إلي أنه ربما كان مختلا عقليا، فقد قتل الحاكم أبا الفتوح برجوان خوفا من سلطانه، واضطهد العلماء، واضطهد الأقباط وهدم كنائسهم وأجبرهم علي لبس أجراس ثقيلة في رقابهم، ولكنه عاد و عدل عن سياسته. كما ادعي الحاكم بأمر الله الإلوهية و معرفته بالغيب، و هناك مخطوط بعنوان "رسائل الحاكم بأمر الله و القائمين بدعوته" تبين ما يدعيه الحاكم من صفات الألوهية.

لنقرأ من كتاب الإمام الذهبي حول ما فعله الحاكم بأمر الله بالمسيحيين واليهود والكنائس :في سنة اثنتين وأربع مئة حرم بيع الرطب وجمع منه شيئا عظيما فأحرقه ومنع من بيع العنب وأباد الكروم (حتى لا يستخدمه المسيحيين في التناول (وأمر المسيحيين بتعليق صليب في رقابهم زنته رطل ربع بالدمشقي وألزم اليهود أن يعلقوا في أعناقهم قرمية في زنة الصليب إشارة إلى رأس العجل الذي عبدوه وأن تكون عمائمهم سودا وأن يدخلوا الحمامات بالصليب وبالقرمية ثم أفرد لهم حمامات وأمر في العام بهدم كنيسة القيامة وبهدم كنائس مصر.

ويضيف المقريزى: فعم الهدم فيها لمدة تزيد عن السنتين من الهياكل التي بنها الروم والكنائس ونهب ما فيها وقبض على أوقافها وكانت أوقاف جليلة على مبان عجيبة، وألزم النصارى أن تكون الصلبان في أعناقهم حتى إذا دخلوا الحمامات ثم ألزم اليهود أن يكون في أعناقهم الأجراس ثم ألزم اليهود والنصارى بخروجهم كلهم من أرض إيجبت إلى بلاد الروم فاجتمعوا بأسرهم تحت القصر بالقاهرة واستغاثوا ولاذوا بعفو أمير المؤمنين. حتى أعفوا من النفي، وفى هذه الحوادث أسلم كثير من النصارى.

اغتيل الخليفة الحاكم بأمر الله عام ١٠٢٠ م / شوال من عام ٤١١ هج بعد أن أمضي ٢٤ عاما في الحكم، و لا يعرف يقينا كيف ولا من قتله، و تقول المصادر التاريخية أن أخته ست الملك تآمرت مع الوزير سيف الدين بن رواس عليه فبعثوا بعبيد خلفه فقتلوه و هو يتنزه في صحراء حلوان.

القاضية التي تلقتها اللغة الجبتية في عهده بمثابة نهاية للغة القدماء، فقد أصدر أوامر مشددة بإبطال استخدام اللغة الجبتية في التعامل الشعبي نهائيا فأصدر الأوامر بإبطال التكلم أو التلفظ باللغة الجبتية في الشوارع والأسواق وغيرها من الأماكن العامة ومعاقبة كل من يتكلم بها بقطع لسانه، ثم ضيق على الأولاد والبنات والسيدات في بيوتهم، فأمر بأن يقطع لسان كل سيدة تتكلم مع أولادها باللغة الجبتية، ولم تمض مائتي عام من هذا العهد حتى اختفت اللغة الجبتية من القرى والنجوع وظلت كلمات غير مفهومة يصلى بها القداس الذي ترجم إلى العربية حتى يستطيع الأقباط الصلاة. وإن ظلت الجبتية العامية هي لغة الكلام بين أهل الصعيد حتى عصر المؤرخ تقي الدين المقريزي عهد المماليك، ولكنه منذ القرن السادس عشر تحولت اللغة الجبتية إلى لغة ميتة ولم تعد محفوظة إلا في القداس.

وهي ذات السياسة التي اتبعها الإنجليز حينما دخلوا إيجبت في القرن العشرين، حيث حاول الإنجليز السيطرة على الشعب من خلال فرض اللغة الإنجليزية في مصر، ليس بشكلٍ مباشر وساذج كما فعل العرب وإنما بالتحكم في خطة التعليم والمناهج الدراسية للطلاب، وتعميم اللغة الإنجليزية في دواوين الحكم وشؤون الدولة الإدارية، لكن الزعيم الجبتي سعد زغلول كان نبيها جدا لنوايا الاستعمار، بصفته كان مثقفا ووزيرا للمعارف (وزارتي التربية والتعليم العالي حاليا)، فحارب مشروع "الجلنزة" وأصر أن يحتفظ الشعب الجبتي بلغته لأن الاحتلال لا بد أن يرحل.. أما في عهد الحاكم بأمر الله، فكان الشعب الجبتي في حالة من القمع السياسي والعسكري، ولم يكن هناك من يقف لهذا الطفل ويرده عن سلوكه، فتمكن من هدم حضارة القدماء ثقافيا، لأن مجرد تحول الكتابة الهيروغليفية إلى لغز بعد تناسي الجبتيين معنى ودلالة الحروف المكتوبة في عهد الرومان لا يعني طمس للهوية الثقافية والقومية الجبتية، إنما تغيير اللغة والثقافة الاجتماعية والتاريخ الاجتماعي في عهد الفاطميين هو ما أدى فعليا لطمس الهوية الجبتية والحلول محلها بلغة وقومية العرب وثقافتهم، ولهذا بدأ الأزهر بتدريس اللغة العربية وآدابها وشعرها الجاهلي وتاريخها الدموي، واستبعد تماما تاريخ مجتمعنا الجبتي العلمي الفرعوني... وكان على الأزهر أن يتبنى فقط "الدين الإسلامي" وليس القومية العربية... فمن هنا اختفت عن المجتمع الجبتي قوميته وثقافته، ولم يبق من لغة الجبتيين سوى بعض الكلمات التي تستخدم على ألسنة الناس من أمثلة؛

قول الأم لطفلها عندما تقد له الطعام كلمة (مم) وهي في الأصل الفرعوني (موم) ومعناها " كُل أو أكل" .. وكلمة (امبو) هي في الأصل الفرعوني (امبمو) بمعني" اشرب ". وكلمة (واوا) معناها

في الهيروغليفية ألم أو وجع. وكلمة "تاتا" الفرعونية تظهر في قول الأم لطفلها" خطي العتبة.. تاتا" معناها الهيروغليفي امشي . وكلمة (بخ) كلمة فرعونية (بيخ) ومعناها بعبع، عفريت. وسمعنا عندما يطرق أحد الباب كلمة (مين ؟) وهي من أصل فرعوني ويقابلها في العربية (مَنْ ؟) وتعنى الاستفهام عن شخص مجهول. وعلمتنا أمهاتنا أن ننادي علي القطة باسمها الفرعوني "بس"، وكلمة "ست" تعني مدام أو هانم.

وتطورت الحياة وتبدلت وتغيرت ولكن بقيت الكلمات تؤكد علي خلود النطق الفرعوني الذي توارثناه من أجدادنا ليظل حاضرا علي أرض الأهرامات. لهذا نقول كلنا علي الكبابجي "حاتي" واسم اللحمة الجبتي هو حات، والعظم اسمه بات بالفرعونية، والبعض لا يزال يقول أنه (كان جعان ونزل علي الأكل) "حتتك بتتك" أي أنه لم يفرق بين اللحم والعظم، وقولنا (يا مطرة رخي رخي)... وهي الكلمة (رخ) بالفرعونية ومعناها ينزل. وعندما نصف شخص إذا كان خفيف العقل نقول أن (عقله تراللي..) ومن أسماء المكاييل التي لا تزال سائدة الأردب وأصله أرطبة، ولكن العرب عندما دخلوا إيجبت نطقوه إردب. ونقول عن الطماع أنه يكوش، أي يستولي علي كل شيء.. ونقول (كاني وماني) أي السمن والعسل، أما دكان الزلباني فهو صانع الفطير ..

وفي طعامنا نقول الفول المدمس، ومدمس فرعونية الأصل وهي (متمس) أي المدفون أو المنقوع. أما (البصارة) أصلها الفرعوني ومعناه الفول المطبوخ. وكذا قولنا (العيش باش خلاص) كلمة "باش" كلمة بالطبع ليست عربية ولكن جبتية ومعناها لان أو طري. وفي قولنا (ده ياما) كلمة "ياما" هي كلمة (آما) بالفرعونية ومعناها كثير. وكلمة الجو (صهد) كلمة فرعونية ومعناها لهيب. وحينما ننادي على شخص (يا فلان..) فيرد (ها) عايز إيه؟ كلمة (ها) أصلا جبتية (اها) ومعناها نعم. وهناك بلاد اسمها جبتي مثل دمنهور (دمي) أي مدينة، (هور) أي الإله حور فتكون مدينة الإله حور. أما بسيون كلمة جبتية خالصة معناها الحمام. ولا تزال الكثير من البلاد الجبتية تبدأ أسماءها أصلية مثل كلمة "ميت" مثل ميت غمر أو ميت برة وميت أبو الكوم، وقرية ميت رهينة، وكلمة "ميت" تعني بالفرعونية (طريق). وكذا كلمة منيا مثل منيا القمح ومنيا البصل، ومحافظة المنيا، وكلمة منيا تعني (محطة) باللغة الفرعونية...[1].

١- مع التصرف نقلا عن صفحة جريدة " حديث المدينة المصرية"

وهناك من الكلمات العملية؛ كلمة (طبة) وتعني غطا، وتنطق هكذا منذ آلاف السنين، وما زالت في لسان الميكانيكية والسباكين: طبة زيت الماتور- طبة زيت الفتيس -طبة عميا- طبة تسليك - طبة بلاستيك - طبة خزان - طبة ماسورة لغلق أي ماسورة أو خرطوم، والفعل منها ؛ يطبب.

ومما ذكر يتضح لنا أن اللغة الجبتية العامية ما زالت تحمل الكثير من لغتنا الأم، وقد كانت هناك محاولة من نابليون بونابرت خلال مرحلة الحملة الفرنسية على مصر لإعادة إحياء هذه اللغة واستنطاقها من جديد وتعميمها نظرا لأنها لغة الشعب الأم الأصلية ، وكان يدرك أن اللغة العربية ما هي إلا لغة الاحتلال العربي السابق عليه ، لكن واجهته عدة عقبات ربما في بلاده ولم يستمر.. وما زلنا إلى الآن نستخدم عشرة آلاف كلمة من الجبتية القديمة مندمجة في اللغة العربية وهو ما يعرف بالعامية المصرية، وذات الوضع نجده في الشام والعراق، إذ يحتفظون بذات القدر من لغاتهم الأصلية، بينما الفصحى في إيجبت اتخذت اللغة العربية كأصل، فكما يقول الدكتور طه حسين أن الفصحى المصرية أقوى من الفصحى السورية بينما العامية السورية أقوى من العامية الجبتية؛ ربما ذلك لأن الجبتيين شعب له حضارة أصيلة عميقة ضاربة في الجذور بعمق قواعد الهرم ولذلك لم يتخلوا عنها بسهولة فهي مغروسة في النسيج الذهني للشعب.

وهناك سمات فسيولوجية للسان الجبتي تختلف تماما عن اللسان العربي مثل عادة أخراج اللسان عند العرب في حروف بين الأسنان (ث/ ظ/ ذ)، وهي حالة اعتيادية ومسترسلة في لسان العرب، بينما نحن إلى الآن، ومهما علمونا في المدارس عنوة لا نعرف أن نخرج لساننا مثل هذه في الحروف، لا في الوجه القبلي ولا البحري، لأن عادة إخراج اللسان عند المصريين في الأصل عيب، وهي غليظة جدا على اللسان الجبتي لا يستطيع نطقها بسهولة وأريحية، ولا هي من نشاط لسانه فسيولوجيا، وكانت هذه هي الوسيلة التي كان أجدادنا يفرقون بها بين الجبتي الأصلي والعيرة، (وكان البدو العرب الذين كان يتم أسرهم في الحروب وجلبهم إلى إيجبت وختانهم، كانوا يخرجون ألسنتهم في نطق هذه الحروف). فإخراج اللسان عادة لغوية أجنبية عربية فرضت علينا بعدما احتل العرب بلادنا. هكذا انقلبت الأحوال، لكن هناك فرق شاسع بين العرب الذين كانوا يخطفون الأطفال ويقومون بخصيهم للعمل في الخدمة المنزلية في بيوت الخلفاء والسلاطين أو بيعهم في أسواق النخاسة، وبين أجدادنا الجبتيين الذين كانوا يقومون بختان رجال الأسى من البدو العرب من أجل الطهارة حتى يسمح لهم بدخول المعابد.

ولم يكن حرف الـ(ث) موجودا أصلا في اللغة الجبتية بنطقه العربي، بل كان مقابله صوت (تش). ولذلك نحن إلى اليوم ننطق حرف الثاء بطريقة معوقة كما في نطق رقم (ثمانية) ننطقه : تمانية، بينما العرب ينطقونه بطريقة صحيحة وفقا للغة العربية فهي لغة لسانهم الأصلية.. وكذلك في صيغ المثنى والجمع، مثل يذهبون – يأكلون – يلعبون..إلخ، فنحن إلى اليوم ننطق هذه الكلمات بطريقة معوقة، فلا ننطق نون الجمع ولا نون النسوة ولا نون المثنى وإنما نستعيض عنها جميعا بحرف الواو للجمع والمثنى، وهو ما يعني فعليا أننا غير قادرين على الانسجام مع اللغة العربية لأنها ليست لغتنا التي خلقها الله على لساننا، فكل لسان مخلوق بفطرته لأداء مجموعة أصوات معينة تنسجم معها أعضاءه الوظيفية وعضلاته ومخارج الأصوات والألفاظ.. أي وكأننا في عصر حضارتنا القديمة كنا نعمل بأيدينا اليمنى، فلما دخل العرب أجبرونا على العمل بالأيدي الشمال، ولذلك تعطلت عقولنا عن الإبداع والإنتاج الفكري والمعرفي وتعطلت قرائحنا واضمحلت حضارتنا وساءت أحوالنا.. ومهما أضعنا عمرنا كله في تمرين اليد الشمال على العمل فلن تبرع ولن تبدع في العمل لأنها أصلا مخلوقة بكفاءة مختلفة فسيولوجيا عن الأيدي اليمين. ومهما أضعنا من أعمارنا وأجيالنا في تعلم اللغة العربية وفنونها وبلاغتها فلن نبدع فيها بالطريقة التي أبدع بها أعراب الصحراء الجهلاء، فهم ما زالوا أكفأ منا في التلاعب بأوتار اللغة وأجراسها.. وعلى علماء الفسيولوجيا اللغوية أن يبحثوا جيدا هذه المسألة، فهي الأكثر خطروة في حياتنا؛ إذ كيف يتحدث شعب بالكامل لغة غير لغته على مدار ألف عام ومازال ينطقها بطريقة معوقة !! برغم أننا نكتبها في الكتب بالطريقة الصحيحة ومع ذلك يعجز لساننا عن نطقها صحيحة ! ألا يعتبر ذلك خلل لغوي لساني وإن استمر ألف عام !

وبرغم أن حرف الـ(ث)، موجود في اللغة اليونانية، وقد احتلوا بلادنا ٣٠٠ سنة، ومع ذلك لم ينتقل إلينا، وأيضا موجود هذا الحرف في لغة الرومان الذين احتلوا بلادنا ٦٠٠ سنة، ومع ذلك لم ينتقل إلينا، وكذلك موجود في لغة العرب الذين احتلوا بلادنا ومازلنا نتحدث لغتهم على مدار ألف عام، وإلى الآن لم نستطع نطقه برغم أنه موجود في لغة العرب بكثافة عالية جدا ، لأن كلامهم كله ث×ث .. ومع ذلك إلى الآن لا نستطيع إخراج لساننا لا في حرف الـ(ظ)، ولا الـ(ذ)، ولا الـ(ث) ! وأيضا صيغ الجمع والمثنى

ذلك لأن النسيج الفسيولوجي للسان لم يتطبع على شيء لم يخلق عليه. وحتما سيعود إلى فطرته السليمة يوما ما. فمجرد استمرار اللسان الجبتي على وضعه وفطرته حتى الآن دون إجادة نطق

هذه الحروف مثل العرب، فهذا معناه أن اللسان الجبتي عاجز عن التطبيع على لسان العرب، وأنه مجبول فسيولوجيا على أداء وظيفي معيّن، هذا الأداء الوظيفي الفطري هو الذي يتحقق به عنصر الملاءمة الوظيفية، ولا يتحقق ذلك إلا إذا كان العقل في كامل لياقته الذهنية، وغير خاضع لأي نوع من المؤثرات في الوعي. ثم أن هذه اللغة الجميلة الرومانسية لم يخلقها إبليس ولا أوزوريس إنما خلقها الله على لسنا شعبها، فلا يسعنا إلا أن نقول "رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ".

وعلينا أولا أن نعرف طبيعة اللغة الهيروغليفية (الجبتية القديمة) تعتبر هي اللغة الوحيدة التي تتكون فيها جذور الكلمات من المثاني المكونة من حرفين اثنين فقط والعجيب أن اللغة الجبتية القديمة التي تتكون أساسا من عشرات المئات من المثاني (الكلمات الثنائية الصوت) قد كتبها أجدادنا بعلامات بيانية واضحة وقاطعة والتي تعرف اليوم بالعلامات الهيروغليفية وعددها حوالي ٢٥٠٠ علامة ثنائية النغمة (المثاني) وأكثر من ٥٠٠٠ علامة مركبة ذات نغمات ثلاثية ورباعية تعطي منطوقا لكلمات جبتية كاملة التكوين الأبجدي ..

والكلمات الثنائية تتكون من حرفين فقط أولهما متحرك وثانيهما ساكن؛ مثل (رع ـ سِت – قِنْ – جبْ ـ ممْ – واوا ـ حاتْ – باتْ – بسْ ـ رخ – سو – دشْ ـ توتـ) وكلمات أخرى مثل(زي) بمعنى مثل و(بص) بمعنى انظر و (شِبْ) بمعنى قم أو انهض و (أر) بمعنى حسد).. بينما أصل الجذور اللغوية في العربية هي من الفعل الثلاثي، وإن وجدنا فعلا ثنائي فذلك في القليل النادر جدا، وهذا ما يعني أن اللغة العربية مُعقدة وغليظة وثقيلة على اللسان الجبتي وغير منسجمة مع لحنياته الصوتية الخفيفة، لأن أصل اللغة (عدد الأصوات أو الحروف في اللغة الجبتية أكثر من اللغة العربية ، إذ يصل إلى ٣٢ صوتا بينما العربية ٢٦ صوتا فقط، وهذا ما يعني ثراء اللغة الجبتية في الأصوات التي يتم منها صياغة عدد كبير من الكلمات سهلة وبسيطة دون حاجة لتعدد الحروف وتعقيد الكلمة كما في اللغة العربية.

وهذا ما يعني حتمية رجوع اللغة الأصلية مرة أخرى عندما ينشط النسيج الذهني الجمعي لمجتمعنا كي يعمل بكامل كفاءته الذهنية وكامل لياقته.. ولو قال الأشاوس أن اللغة القبطية الحالية ليست كاملة أو ليست هي اللغة الجبتية القديمة التي كان يكتبها أجدادنا بالخط الهيروغليفي، فإن هذا الافتكاس مردود عليه بأننا أصلا عاجزين عن نطق اللغة العربية بشكلها ولفظها وصوتها العربي الأصيل، فهلا كانت لغتنا الناقصة أفضل من لغة الغرباء العاجزين عن هضمها !

فمسألة اللغة هي مسألة صحية للعقل الجمعي وليست فقط مسألة ثقافية.. وبعد مرور مائتي عام من الآن سيكون أحفادنا يتحدثون اللغة الجبتية بمهارة وبراعة فائقة ، وسينظرون إلينا بنظرة الكسول المهمل المستسلم العاجز عن الفكر والوعي والفهم.. وبعد مرور ألف عام من الآن سيأتي أحفادنا ويسخرون منا ومن كل أجيال الحقبة السابقة التي تحدثت اللغة العربية على مدار ألف عام بداية من عصر الحاكم بأمر الله وحتى عودة اللغة الجبتية، سيعتبرون عصرنا هو أسود عصور التاريخ على الإطلاق وسيتندرون علينا بأننا تركنا لغتنا القومية وهويتنا وتحدثنا لغة الأعراب الذين احتلوا وطننا فترة .. سيقومون بتدريس حقبة عصرنا التاريخية بداية من عام ٦٤٠ م إلى عام ٢٢٠٠م في خانة واحدة باعتبارها عصر اضمحلال، وسيقسمون تاريخنا إلى نوعين من الاحتلال؛ النوع الأول هو احتلال شعوب مدنية مثل الفرس واليونان والرومان الإنجليز والفرنسي، والنوع الثاني هو احتلال القبائل البدوية الهكسوسية والعربية والمغولية، وسينظرون إلى عصرنا بذات نظرتنا لعصر احتلال الهكسوس، ويقولون أن هذا هو العصر الهكسوسي الأول، وذاك هو لعصر الهكسوسي الثاني.

على كل حال، نعود إلى موضوعنا، فبعد قرار الحاكم بأمر الله الذي طمس لغتنا الوطنية أصبحت اللغة العربية في ذلك التاريخ هي اللغة الرسمية للدولة، لغة الحاكم ولغة الحكومة والدواوين والموظفين والشعب، ومع ذلك ظل كثيرون من الجبتيين يذهبون إلى المدارس الجبتية التي ظلت قائمة لعلة.. ليدرسوا الطب والرياضة والفلك والعلوم باللغة الجبتية، وهذه العلوم هي موروث فرعوني متراكم عبر العصور وتخلوا منه اللغة العربية وثقافتها. فاللغة العربية قادمة من الصحراء وليست لها خلفية علمية أو أي رصيد علمي.. وبمرور الوقت ذهبت هذه الخلفية العلمية الجبتية مع ذوبان لغتهم الأصيلة، وحلت محلها اللغة العربية بثقافاتها، وهي لغة أدب وحكايات خيالية، وخلفيتها الثقافية قادمة من عقلية صحراوية برية تختلف عن المجتمع الجبتي، لأن المجتمع الجبتي مجتمع مدني بطبيعة تكوينه ونسيجه الذهني، ولا يختلف اثنان على أنّ لغة كل شعب هي وسيلة التواصل بين أبنائه، وبوابته لفهم تراثه وواقعه الثقافي والمعرفي، وأنها تكتسب قيمتها أمام الشعوب الأخرى بقدر تقدُم أصحابها وإضافتهم إلى رصيد العلم والتقدم ما يحمّس أبناء الثقافات الأخرى ليتعلموها كي ينهلوا من رصيدها المعرفي. أما العرب فقد فرضت علينا لغتهم فرضا وهي خالية من أي رصيد معرفي، أي لم يقبل الجبتيون عليها لتعلمها كي ينهلوا من علومها ومعارفها بل فرضت عليهم وتنازلوا عن لغتهم قهرا، ولا يمكن لشعبٍ أن يتنازل عن لغته ولسانه قهرا إلا إذا كان في أقصى درجات الانهيار للإرادة، وهذا ما يثبت أن الجبتيين تشربوا الثقافة العربية بحكم الواقع

وبحكم الظرف القهري المفروض عليهم وليس اختيارا طوعيا إراديا. ولذلك وجدنا اللغة العربية حلت بثقافتها الصحراوية البرية، وبدأ أطفال الجبتيين جيل بعد جيل يتشربون العقلية الصحراوية البرية ويتشبعون بثقافتها وطريقة تفكيرها، وسأكتفي هنا بمثال واحد أو اثنين على الأكثر مع تحليله من ناحية الفكر الإنساني الحضاري؛

المثال هو مثل شعبي درسناه في مراحل التعليم المتوسطة، برغم خطورة هذه المرحلة نتيجة مرور الطلاب بمرحلة تكوين عقلي ونفسي هي مرحلة المراهقة التي تنطبع فيها الأفكار والمشاعر المرهفة في العقل وتظل خلفية لأفكارنا ومشاعرنا مدى الحياة. هذا المثل يقول: " رجع بخُفي حنين " وهو مثل عربي يضرب عند اليأس من إدراك الحاجة والرجوع بخيبة الأمل. وفيما يلي قصة مضرب المثل:

القصة هي أن رجلا كان يُدعى حنين يعمل مصلحًا وصانعًا للأحذية في مدينة الحيرة، وكان مشهورًا بصناعته وإتقانه وخبرته بها، وفي يوم من الأيام مر أمام دكانه أعرابي يركب على بعير، فأناخ بعيره جوار الدكان ودخل إلى حنينٍ يسأله وينظر للأحذية التي يصنعها ويدقق فيها، وقد أعجبه أحد هذه الأحذية فسأل عن السعر وبدأ بالجدال والمساومة حول السعر كأنه يريد أن يشتريه، وبعد طول جدال أخذ الكثير من وقت حنين اتفق معه على سعر، وإذا بالأعرابي يترك الدكان ولم يأخذ الحذاء ولم يشتره ولم يُعِر حنين أي اهتمام، فسبب هذا التصرف لحُنين الغضب لأن هذا الأعرابي أخذ منه الكثير من الوقت وعطله عن عمله وعن زبائنه الذي رأوه منشغلا به عنهم فانصرفوا عنه، فخسر زبائن اليوم ولم يبع حنين شيء.

لذلك أراد أن ينتقم من تصرف الأعرابي وأن يفرغ غضبه بطريقة انتقامية، فراح يلحق به وسلك طريقا جانبيًا أسرع من الطريق الذي سلكه الأعرابي فأصبح أمامه بمسافة، وأخذ الخفين ووضع أحدهما على الطريق، وعلى بعد مسافة كافية منه وضع الحذاء الثاني واختبأ في مكانٍ يراقب منه الأعرابي عندما يصل لهذه المنطقة. وعندما وصل الأعرابي ووجد الحذاء، قال ما أشبهه بخفي حنين، لكن هذا حذاء واحد فلو كان الثاني معه لأخذته، فتركه وسار في طريقه، وبعد مسافة وجد الحذاء الثاني، وقال كأنه هذا وذاك خفي حنين، فأخذ الثانية ورجع للأولى كي يلتقطها، وترك دابته مكان الحذاء الثاني، وهنا كان حنين يتربص به فلما ترك دابته ورجع للحذاء الأول، أخذ حنين دابته وهرب بها، وعندما عاد الأعرابي لمكان الدابة لم يجدها وعاد إلى أهله فارغ اليدين

وقد كان عائدًا من السفر محملا بالأغراض والهدايا، فاستغرب أهل الحي عودته راجلا، ولما علموا بما حل به، قال أحدهم :عاد بخفي حنين ,فذهب قوله مثلا.

ذهبت العلوم والمساطر والأقلام من المدارس والعقلية الجبتية وحل محلها حكايات العرب وطريقتهم في السرد والحكي والكيد والانتقام والنصب على بعضهم، فهذه طبيعة الحياة في الصحراء وشظف العيش والجفاف والغلظة وفقر المعرفة الإنسانية والرحمة، فبدلا من أن يتعلم الأطفال كيف بنا جدهم الهرم الأكبر، وما هي نظرية البناء الهندسية التي اتبعها، أو كيف صنع أجدادهم أوراق البردي، صاروا يتعلمون كيف نصب أعرابي على عربي! ليتعلم الطفل كيفية الإبداع إذا أراد أن يجرب النصب، أو يتعلم آخر كيف يكون مضادات حيوية ضد هذا النوع من النصب والاحتيال..

وهذه جميعها أفكار وثقافات وليدة عقلية صحراوية بدوية لا تغني معنا ولا تشفع ولا تنفع لأن العقلية الجبتية نسيجها عملي تطبيقي، والإنسان الجبتي بطبعه ميال إلى حسن النية والصدق والوفاء، بعيدا عن الاحتيال العربي والأعرابي هذا، فلا الطفل الذي أراد أن يبدع استفاد في شيء، ولا الذي أراد أن يتحصن بمضاد حيوي استفاد أو أفاد بلده في شيء لأن العقلية الجبتية وقودها ليس من هذا النوع من الثقافة.. ومن هنا تفتت العقلية الجبتية وجفت منابعها وذابت طاقتها سدى كما السيارة التي تعمل ببنزين ٩٨ وتم تموينها بشحم. والخطورة أن نأتي بأغلظ أنواع الشحوم في مرحلة عمرية هي الأكثر رهافة في الحس والشعور والفكر !.. هكذا درسنا مادة الأدب العربي في المراحل الإعدادية والثانوية ! وهي قمة الصراع والتناقض المعرفي الذي ينشأ عليه عقل الطفل حينما يدرس نموذج الحضارة الفرعونية العظيمة وفي ذات الفصل الدراسي يدرس نموذج حياة عرب قريش في الصحراء والحكم والأمثال الشعبية والشعر والتاريخ الجاهلي، وأنواع السيوف التي كان يستخدمها الجاهليون العرب وخاصة تلك المستوردة من الهند!، ثم ينتمي إلى القومية العربية هذه عمليا !

أما المثل الثاني من عينات الأمثال الشعبية العربية فهو يقول: "جزاءه جزاء سنمار"

وهو من الأمثلة العربية الشهيرة، والتي ما زالت تستعمل حتى اليوم، فقد ذكر في كتب السير عن إمارة الحيرة، أن النعمان ملك الحيرة أراد أن يبني قصرا ليس كمثله قصر، يفتخر به على العرب، ويفاخر به أمام الفرس، ووقع اختيار النعمان على سنمار لتصميم وبناء هذا القصر، وزعموا أن سنمار هذا كان رجلا روميا مبدعا في البناء. استدعى النعمان هذا البناء أو المهندس وكلفه ببناء قصر ليس

له مثيل، يليق بالملك النعمان. ونحن نظن أن سنمار طارت به أحلامه وآماله في عطية ملك العرب بعد أن يبني له القصر الأعجوبة، وكان ذلك حتى قبل أن يظهر النفط. يقولون: استغرق سنمار في بناء هذا القصر عشرين سنة، وانتهى سنمار من بناء القصر وأطلقوا عليه اسم الخورنق، وكانت الناس تمر به وتعجب من حسنه وبهائه. انتهى سنمار من بناء القصر على أتم ما يكون وجاء النعمان ليعاين البناء. استعرض النعمان القصر وطاف بأرجائه، ثم بعد محادثة قصيرة مع سنمار، أمر رجاله بإلقاء سنمار من أعلى القصر فسقط سنمار على الأرض، فقال وهو يلفظ أنفاسها الأخيرة: ((جزاني لا جزاه الله خيرا... إن النعمان شرا جزاني.. رصصت بنيانه عشرين حجة أتممته عنه رماني...)). ولكن ما هذا الحوار الذي انتهى بقتل سنمار؟ يزعم كتاب السير أن سنمار قال للنعمان) أما والله لو شئت حين بنيته جعلته يدور مع الشمس حيث دارت. فسأله النعمان: إنك لتحسن أن تبني أجمل من هذا؟ ثم أمر برميه من أعلى القصر حتى لا يبني لأحد غيره مثل هذا القصر الجميل) وأيا كان السبب فهذا هو جزاء المعروف عند هذا الملك، ومن يومها ضربت مثلا يقولون جزاء سنمار.

هذا المثل صار أشهر من النار على العلم، ليس فقط في أوساط المثقفين، بل حتى على ألسنة عوام الناس، وهذه كارثة كبرى، أن تشيع مثل هذه الثقافة وهذه الأفكار الشيطانية لأنها حتما ستلد في عقول الناس شياطين صغيرة، ليس شرطا أن تكون بحجم قصر النعمان لكنها تتمثل في المعاملات البسيطة بين الناس، غير أنها تقلل من شأن الرادع العام وهو الضمير الإنساني... والغريب أننا لو نظرنا في عين الحضارة العربية خلال كافة عصورها (الخلافة الراشدة والعصر الأموي في دمشق والعباسي في بغداد والأموي في الأندلس سنجد أن سياساتها في الغالب قامت على هذه الفلسفة، حيث كان الحكام يقتلون أعز أقربائهم وأصدقائهم خوفا على سلطانهم ووجاهتهم، فهذا طابع أصيل في الذهنية العربية، فالأمر لا يتوقف على مجرد مَثل شعبي من وحي الخيال، بل إن الثقافة والتاريخ والتراث العربي يكاد يجمع على تأصُل هذه الظاهرة في العقلية العربية)..

ومن خلال قراءة ابن خلدون، نكتشف ونتأكد أن من يتبنى حضارة العرب وتاريخهم لن يتقدم إلا بقدر ما تقدموا، ولن يرتقي إلا على طريقتهم وبعقليتهم الوحشية، ومن يحتفي بتاريخهم لن يأتي بجديد للبشرية سوى ما قد يجسد تاريخهم الهمجي الفارغ من كل معاني الحضارة والرقي. وما يجدر بنا التنويه إليه في هذا المقام هو مدى تأثير بعثة الرسول محمد على هذه العقلية الهمجية، ومدى التزام مجتمعهم بمبادئ الإسلام السمحة الراقية، ثم مدى انحراف العقلية الجمعية بعد رحيل

الرسول عنهم بسبب ما ترسب في نفوسهم من البداوة والهمجية التي منبعها البيئة والتربة والمنشأ، ومدى تلويثهم للتراث الديني خاصة المرويات لأن عقلياتهم أصلا ليست عقليات علمية منظمة، فمن الطبيعي أنهم جعلوا من الدين وسيلة لهدم الحضارات ونهبها، ونجحوا في هدم الدين وتطويعه واستخدامه كأداة للسطو على الشعوب. وهذا ما يحتم علينا إعادة إجلاء الدين الإسلامي وتراثه مما علق به من مؤثرات هذا المجتمع الهمجي. وفي هذا المقام من السهل على الباحث تحويل سيل الاتهامات التي يلقيها القراء إلى ابن خلدون؛ لأنه أول من بحث بعمق في العقلية العربية وصرح بأنها لا تصلح لبناء حضارة، وهو أول من صرح بأن العرب استغلوا الدين الإسلامي في هدم الشعوب لخدمة إيديولوجيتهم السلطوية الهمجية، وهو أول من أشار إلى أنهم من طبيعتهم لا يظهر لهم صوت إلا بنبوة أو ما شابه، فهم يسرعون إلى استغلالها والتسويق بها وكأنهم شركاء في النبوة مع أنها كانت موجهة إليهم بسبب فسقهم.

وفي الواقع لا يشغلنا ولن تعود علينا أي فائدة من نقد المجتمع العربي وثقافته وعقليته وتاريخه، ولكن الفائدة في إدراك إمكاناته وطبيعته ومنتجه الفكري ونسيجه العقلي من أجل تحقيق الاستقلال الفكري، حتى نتمكن من تحقيق ذاتنا بإمكاناتنا، بأيدينا لا بعقولهم التي تحركنا من الماضي، ولأننا لن نثمر إلا إذا تغذينا على بيئتنا المحلية بملامحنا الخمرية، فمهما اجتهدنا ودرسنا وبحثنا، فعقولنا قاصرة عن أن تبدع أشعارا مثل أشعار المتنبي وامرؤ القيس، لأن نسيجها الذهني غير مصمم لهذه النوعية من الإبداع، غير أننا لو قمنا بتهجين جيناتنا وراثيا كي نكتب شعرا عبقريا مثلهم، فحتى هذه لن تنفعنا في شيء لأن الشعر لا يبني حضارة، بل إنه يتبنى الفوضى العقلية من النوع الذي عاشه العرب في الصحراء على مدار آلاف السنين لأن الشعر الأصيل في الأساس هو منتج صحراوي، فعلينا أن نعترف ونعود لما جبلت عليه عقولنا من طبيعة البحث والفضول العلمي، ورقة المشاعر الإنسانية، لا الوحي والإلهام الشعري.

أما الصياح بنعرة القومية العربية فهي محض وسيلة سياسية يجب أن يتولاها السياسيين وحدهم وفي حدود السياسة، دون أن يؤدي ذلك إلى دمج الثقافات وطمس الهوية الوطنية لصالح العرب، ودون مساس بالغشاء البريتوني الذي يحفظ خصوصية النسيج اجتماعي الجبتي وملاءمته الوظيفية الثقافية، لأنه ليس من المنطق أن نترك تاريخنا وحضارتنا الجبتية لندرس مواسم الذبح العباسي والأموي باعتبار هؤلاء رموز تاريخية لنا، برغم أنهم كانوا أجانب يتحدثون العربية التي لا نعرفها، وليس من المنطق أن نترك علومنا وآدابنا الحضارية الجبتية لندرس الأدب الجاهلي وملاحم الفروسية والإغارة.. باعتبار ذلك بطولات قومية لنا.. لدرجة أن حلت ثقافة الصحراء العربية محل

ثقافتنا المدنية، برغم أنها في الأصل ليست ثوبنا ولا بيئتنا، وإن تلبسناها عنوة باسم الدين، وحل التاريخ العربي محل الأولوية من تاريخ أجدادنا، في الوقت الذي يتجاهلون فيه تاريخنا وحضارتنا ولا يفتحون لها صفحة في مناهجهم الدراسية.

ولذلك لا مفر من إعادة بعث وإحياء واستنبات جذور الحضارة الجبتية من جديد، لا أن تظل طي النسيان متلفعين بعباءة العرب أو تبقى جذورنا ساكنة خاملة في صوامع باحثي الآثار وعلم الجبتيات.. فأجدادنا القدماء لم يكونوا عباقرة وإنما كانوا يعملون بجدٍ وإتقانٍ فقط، وكانت عقليتهم علمية جادة وليست أدبية هذلية، فنسيجهم الذهني ليس من نوعية النباتات الزاحفة أفقيا وإنما من أنسجة الأشجار ذات السيقان والأغصان الفارعة، ولهذا كانت حضارتهم قائمة على عمود فقري قوي.. وقد بدأت جهودٍ فعلية ليس بهدف كشف عبقرية القدماء والفخر بإنجازاتهم وإنما بهدف إعادة استنبات جذور الحضارة الجبتية، وإعادة تنشيط النسيج الذهني الذي بنا هذه الحضارة العظيمة، فقد بدأت في أماكن عديدة مراكز لتعليم اللغة الجبتية القديمة "الهيروغليفية" وقواعد النحو والصرف والمقاطع الصوتية الخاصة بها، بالاعتماد على النصوص الجبتية القديمة ومختارات من الأدب الجبتي القديم وما حوته البرديات والمدونات الأثرية، مع العلم أنه لا مقارنة إطلاقا بين الأدب الجبتي القديم المبني على الحكمة، والأدب العربي المبني على النفاق والتورية. وقد استقطبت فئاتٍ عديدة من الشباب الجبتي من لجنسين، ومنها الدورات التي تقد بصفة دورية في بيت السناري بالقاهرة التابع لمكتبة الإسكندرية، ويقوم بالتدريس فيها أستاذة من كلية الآثار، ومعاهد الإرشاد السياحي، لهذا نتوقع أن يصدر أول كتاب باللغة الجبتية إلى الشعب قريبا جدا.



الإضاءة الثامنة

متلازمة ستوكهولم العربية

يقول ابن خلدون: **من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر، وإن كان منهم العربي في نسبه فهو أعجمي في لغته ومرباه ومشيخته، مع العلم أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربي. والسبب في ذلك أن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة. وأما العلوم العقلية أيضا فلم تظهر في الملة إلا بعد أن تميز العلم ومؤلفوه واستقر العلم كله صناعة فاختصت بالعجم وتركتها العرب وانصرفوا عن انتحالها فلم يحمله إلا المعربون من العجم شأن الصنائع كما قلنا أولا** [1].

برغم قدرة ابن خلدون العبقرية في سبر النفس البشرية وخاصة من المنظور الجمعي، وهذا ما جعل من مقدمته أساسا لعلم الاجتماع، إلا أنه وقف عاجزا عن تفسير السبب في انصراف العقلية العربية عن العلم.. ولم يفسر سر إبداعهم وعبقريتهم الشعرية والأدبية، ربما لم يدرك أن العقلية العربية في الأصل من نسيج أدبي وهذا ما مكنهم من الإبداع في الأدب وأعجزهم عن هضم العلم.. حتى أن العرب لم يدونوا سيرة نبيهم محمد عليه السلام، ولم يكتبوا عنه كلمة واحدة ولم يكتبوا تاريخه كما كتبوا أشعارهم وقصائدهم وعلقوها على أستار الكعبة، إنما النبي فتركوا سيرته وتاريخه الدعوي حتى جاء أحد الأطفال السبايا من الموالي أسرى الحروب التي خاضها العرب ضد العراق وفارس، وعاش هذا الطفل عبدا في بلاد العرب مع الموالي، ثم كبر وأنجب أطفالا، وجاء من بين أطفاله "ابن إسحاق " الذي دون وأرخ لسيرة النبي محمد عليه السلام بعد وفاته بمائة وخمسين عاما، لكن العرب نسو سيرة نبيهم وزعموا أنهم نشروا دينه !

والموالي هم العبيد والخدم الذين جاء بهم الصحابة سبايا وأسرى من البلاد التي غزوها بجيوشهم، فعاشوا في بيوت العرب باعتبارهم عبيد للخدمة، أو من أسلموا في بلادهم فاعتبرهم العرب مواطنين من الدرجة السابعة، بينما كانوا هم أفضل من أسيادهم العرب في الميزان العقلي والعلمي، لملموا

---

١ ـ المصدر: كتاب مقدمة ابن خلدون ـ الفصل الخامس والثلاثون؛ باب: حملة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم (٥٤٣)

المعرفة الدينية وأجادوا علوم القرآن والفقه واللغة وتخصصوا فيها وبرعوا فيها أكثر من أسيادهم العرب الذين تركوا العلم والدين للعبيد يتفقهون فيه وانشغلوا هم بالسيوف والسبايا.. هؤلاء العلماء الأجانب اعتبروا العرب هم مصدر التشريع ووضعوا الصحابة في منزلة مقدسة وكأنهم شركاء في النبوة ونسوا أنهم عرب وجزء أصيل من نسيج المجتمع العربي! ونشو أن الإسلام إنما جاء لعلاج هذه القومية المريضة بعاهة مستديمة، هؤلاء الفقهاء الأعاجم لملموا المعرفة الدينية من المجتمع العربي بحسن نية ولم يدرسوا طبيعة العرب وأعرافهم وتقاليدهم وتكوينهم واعوجاجهم النفسي كما فعل ابن خلدون، فمعظم رواة الأحكام والأخبار ومعظم الفقهاء والمفسرين والعلماء هم من الفرس، من بقايا الحضارة الفارسية، وحضارة الفرس هدمها العرب تحت أقدامهم الهمجية خلال مرحلة الفتح. أما ابن خلدون كان نبيها وأدرك حقيقة العرب باعتباره عالم اجتماع نابغة، غاص في التكوين النفسي والتشكيل العقلي العربي بعمق، وكان يقول " أن الإنسان ابن نشأته ومألوفه ". أي كان ابن خلدون يقصد " الكاريزما العربية ".

بينما الفقهاء لم ينتبهوا إلى أن العرب انحرفوا بعد وفاة الرسول وعادوا إلى عاداتهم وتقاليدهم الجاهلية وانقلبوا على الإسلام. هؤلاء الفقهاء تلقوا ثقافة العرب على وضعها باعتبار العرب هم " الصادق الأمين" وخدعتهم الكاريزما العربية، ولم يستطيعوا الفصل بينها وبين مبادئ الإسلام، وطالما قال لهم العرب أن هذا هو الإسلام فوثقوا فيهم واعتبروا كل ما نقلوه عنهم دين الله، لكنهم لم يسألوا أنفسهم كيف دخل العرب بلادهم بهذه الهمجية وهم يحملون الدين؟ فاعتبروا طريقة الدخول الهمجية هذه دين لهم.. وصارت ركنا أساسيا في الدين باسم الجهاد؛ أي الهجوم والإغارة على الشعوب الآمنة وخطف النساء والأطفال واستعبادهم ونهب بيوتهم وبلادهم.!! فقد تلقى هؤلاء العلماء والفقهاء الأعاجم ثقافة العرب باعتبارها هي الدين.

وكنا قد تعرضنا للمانع الأدبي، وذكرنا نص القانون الذي يحل إشكالية المانع الأدبي، لأن الإنسان قد يحجبه الحياء عن التحدث بالحق، هذا على مستوى الإنسان الفرد، قد يستحي المطالبة بحقه إذا ما كان هذا الحق عند والده أو والدته أو شقيقه الأكبر، فقد يمنعه الحياء، لكن هل نتصور أن ذلك المانع يتجسد في مجتمع بكامله ! هل يظهر أثر لهذا المانع الأدبي على مستوى العقل الجمعي ؟! والإجابة نعم ! فكل ما يتناوله علم النفس على مستوى الإنسان الفرد، يتناوله علم الاجتماع على مستوى المجتمع كله.

وهناك عامل نفسي آخر لدى هؤلاء العلماء والفقهاء، فليس الاعوجاج النفسي في الجنسية والعرقية العربية والكاريزما العربية وحدها، إنما في هؤلاء العلماء والفقهاء الذين جاؤا في حقبة كلها اضطرابات نفسية جمعية، صعود أهوج مفاجئ للعرب وانهيار عنيف مفاجئ للشعوب المجاورة، فلما خرج أبناء هذه الشعوب المكسورة يتفقهوا في ثقافة العرب فكانوا في مزاج نفسي عام هو مزاج الخضوعية المازوخية وفقا لمتلازمة ستوكهولم تجعلهم يخضعون لا إراديا للعرب ويؤمنون بوجهات نظرهم ويعتنقون ثقافتهم ويبررونها حتى في العدوان على بلادهم وبيوتهم، غير أنهم قد تربوا نشأوا في بيوت العرب وتحت سلطانهم؛ لأن بلاد هؤلاء العلماء كانت في هذه الحقبة واقعة تحت الاحتلال العربي التي انعدمت وأعدمت إرادتها الشعبية الجمعية، وبخاصة بلاد فارس والعراق التي خرج منها معظم علماء الإسلام، مع الوضع في الاعتبار أنها المنطقة التي شهدت أكبر مجازر بشرية جماعية في التاريخ عند دخول العرب، وبما أن هناك متلازمة نفسية تجعل الرهينة يخضع للغاصب ويستسلم له، ثم بمرور الوقت يؤمن بأفكاره ويتبنى ثقافته، فلهذا جاء الفقه الإسلامي عبارة عن فلسفة العرب خلال هذه الحقبة، وليس فلسفة الإسلام..

فهؤلاء الفقهاء والعلماء جاء علمهم وفقههم ترجمة عملية لمتلازمة ستوكهولم أكثر منه تعبيرا عن الغريزة الدينية، أو لنقل اندماج الغيرة الدينية في متلازمة ستوكهولم، وما يثبت إصابة جميع فقهاء الأمة الإسلامية بعدوى المازوخية العربية بمتلازمة ستوكهولم، هو موقف الفقهاء من ظواهر تاريخية مثل (ظاهرة السبي وخطف الأطفال النساء واسترقاقهن في الحروب ومضاجعتهن عنوة دون رضا ودون عقد زواج باعتبار ذلك من الحقوق الشرعية للمحاربين ـ الحروب الهجومية التي قدسها الفقهاء ووصفوها بأنها جهاد "جهاد الطلب" برغم كونها جرائم حرب عدوانية يرفضها الإسلام – ظاهرة سبي النساء والأطفال في الحروب العربية التي حولها الفقهاء إلى حق ديني مقدس – نظرية الخلافة التي هي في الأصل نظام حكم بدئي اتبعه العرب فجعله الفقهاء نظرية الحكم الإسلامي وقولهم أن الحاكم لا بد أن يحمل لقب خليفة، وأنه لابد أن يكون من أصل قرشي– تسمية تاريخ العرب الأموي والعباسي بالتاريخ الإسلامي برغم أنه دموي عنيف ويتناقض مع الإسلام ـ اعتماد الكثير من أعراف وعادات المجتمع العربي باعتبارها طقوس دينية ـ تفادي البحث في الأخطاء السياسية التي وقع فيها العرب الصحابة الأوائل، وهي تعني تمجيدهم فوق كلمة الحق، وإعلاءهم عن البحث العقلي ما يثبت خضوع العقل لهم – الدفاع عن تاريخ العرب بلهجة دينية مشتقة من الدفاع عن الدين)

وما يؤكد إصابة هؤلاء الفقهاء بمتلازمة ستوكهولم العربية هو أن جميع الفقهاء والعلماء شرعنوا ما اقتنع به العرب وما مارسوه فعليا، آمن به الفقهاء وجعلوه دينا للشعوب دون أن يتفقهوا في الدين الإسلامي بعقولهم الحرة، لأنهم لم يملكوا عقولا حرة خلال هذه الحقبة وإنما كانت مكسورة إرادتها جمعيا تحت سطوة العرب، غير أن الجينات الوراثية العربية لا تعرف ولا تعترف بالعلم ولا العلماء ولن تعرفها إلا إذا تحوّرت هذه البنية الوراثية الجينية.. فالوحيد الذي حطم متلازمة ستوكهولم العربية هو ابن خلدون، إذ أنه لم يعتمد على الرصيد المعرفي السابق كما غيره من الفقهاء وتجاوز طريقة تفكيرهم وهي طريقة تراكُم الرصيد المعرفي التي يسميها توماس كون بالطريقة العادية لتقدم العِلم، وإنما اتبع طريق الثورات العلمية التي تتمثل في اكتشافات غير تراكمية. فتلك الثورات العلمية تحدث عندما يتجاوز المفكر الإطار الفكري السائد بإطارٍ فكريٍ جديد يمثل ثورة علمية ذات قطيعة مع الفكر المهيمن في عصره.. فقد استبق ابن خلدون علماء ومؤرخي المسلمين في عصره بألف عامٍ من الزمن عندما وضع أسس عِلم الاجتماع.

والمشكلة الآن لم تعد عند الأئمة والفقهاء بل عند المصريين الذين يتشبثون بالثقافة العربية، ويجعلون من هوجة العرب رمزا تاريخيا لهم وللإسلام، ويجعلون تاريخ العرب تاريخ لدينهم، ويجعلون حكام العرب خلفاء للنبي، ويقحمون نظرية الحكم والسيادة عند العرب في الدين ويجعلونها أصلا للدين ! جعلوا كل ممارسات العرب المسلمين الأوائل نماذج دينية وقدوة وتشريعا دينيا، والغريب أن الفقهاء وعلماء الدين بالإجماع أيدوا هذه الممارسات الإجرامية واعتبروها دينا للشعوب، بينما علماء الطبيعة بالإجماع رفضوا هذه الممارسات الإجرامية واعتبروها جرائم حربٍ ضد الإنسانية، ولا يمكن احتساب ذلك مجرد اختلاف وتنوع في الرأي، بل إن القارئ الذكي لا بد أن يدرك الفرق بجلاء، فكيف بعلماء الطبيعة بالإجماع يرفضون هذه الممارسات (الفتوحات والهجوم والقتل والذبح والسبي ونظرية الخلافة وغيرها من ملامح القومية العربية التي صارت دينا للشعوب)، ربما ذلك لأن علماء الطبيعة بطبيعة عملهم وعلمهم تكون أدواتهم هي العقل، بينما الفقهاء فالدافع عندهم ليس العقل وليس الدليل وإنما تبعية غيرهم فيما فعل وما قال.

ونقرأ في الويكيبيديا عن" متلازمة ستوكهولم" هي ظاهرة نفسية تصيب الفرد عندما يتعاطف أو يتعاون مع عدوه أو من أساء إليه بشكل من الأشكال، أو يظهر بعض علامات الولاء له مثل أن يتعاطف المخطوف مع الخاطف، وتسمى أيضا برابطة الأسر أو الخطف، وقد اشتهرت في العام ١٩٧٣ حيث تظهر فيها الرهينة أو الأسير التعاطف والانسجام والمشاعر الإيجابية تجاه الخاطف أو الآسر،

تصل لدرجة الدفاع عنه والتضامن معه. هذه المشاعر تعتبر بشكل عام ميول خضوعية مازوخية غير منطقية ولا عقلانية في ضوء الخطر والمجازفة التي تتحملها الضحية، ونتيجة لبشاعة الإساءة والجبروت، فإنها تفهم بالمقابل وبشكل خاطئ أن عدم الإساءة من قبل المعتدي يعتبر منة وإحسانا ورحمة، ولهذا يشعر بمشاعر إيجابية نحوه ويتضامن معه. وقد سجلت ملفات الشرطة وجود متلازمة ستوكهولم لدى ٨٪ من حالات الرهائن في جرائم الخطف. وأطلق على هذه الحالة اسم "متلازمة ستوكهولم" نسبة إلى حادثة وقعت في ستوكهولم في السويد حيث سطا مجموعة من اللصوص على بنك "كريدي بانكين Kreditbanken " عام ١٩٧٢م، واتخذوا بعضا من موظفي البنك رهائن لمدة ستة أيام، خلال تلك الفترة بدأ الرهائن يرتبطون عاطفيا مع الجناة، وقاموا بالدفاع عنهم بعد إطلاق سراحهم.

واحدى الفرضيات التي تفسر هذا السلوك، تفترض أن هذا الارتباط هو استجابة الفرد للصدمة وتحوله لضحية. فالتضامن مع المعتدي هو إحدى الطرق للدفاع عن الذات بالتخلص من نزعة المقاومة حيث يحل محلها نزعة الخضوع والمازوخية، ولذلك تؤمن الضحية بنفس أفكار وقيم المعتدي. وهذا ما حدث مع كافة أبناء الشعوب التي وقعت تحت الاحتلال العربي خلال فترة الفتوحات، لأن الجيوش عندما تقتحم بلدا بالطريقة الوحشية التي اقتحم بها العرب البلاد حتما ستحدث صدمة و رضة نفسية عميقة في نفوس هذه الشعوب تجعلها تفقد ثقتها بذاتها، ثقتها في حماية أوطانها، وتفقد ثقتها في إعمال إرادتها واختياراتها، ومجرد فقد المواطن ثقته في حماية نفسه فهذا معناه انهيار تام للإرادة، وانعدام تام لحرية العقل وقدرته على التفكير خارج الصندوق الذي وقع فيه.

وما حدث في بنك "كريدي بانكين " هو هو ما حدث في نموذج فتوحات العراق، لكن بدلا من كريدي بنك، نضع "عين التمر" باعتبارها عينة عشوائية من أحداث الفتوحات، حيث يروي الإمام البخاري والطبري وابن كثير عن وقعة عين التمر، وهي الأكثر كارثية في تاريخ السعودية، بينما هم افتخروا بها كما لو كان مشهدا سينمائيا، فيقول: وقصد خالد حصن عين التمر، فلما بلغ مهران هزيمة عقة وجيشه، نزل من الحصن وهرب وتركه، ورجعت فل النصارى الأعراب إلى الحصن، فوجدوه مفتوحا فدخلوه واحتموا به، فجاء خالد فأحاط به، وحاصرهم أشد الحصار، فلما رأوا ذلك سألوه الصلح، فأبى إلا أن ينزلوا على حكمه، فنزلوا على حكم خالد، فجعلوا في السلاسل وتسلم الحصن، ثم أمر فضربت عنق عقة، ومن كان أسر معه، والذين نزلوا على حكمه أيضا

أجمعين، وغنم جميع ما كان في ذلك الحصن، ووجد في الكنيسة التي به أربعين غلاما يتعلمون الإنجيل، وعليهم باب مغلق، فكسره خالد وفرقهم في الأمراء وأهل الغناء، وكان فيهم حمران، صار إلى عثمان عفان من الخمس، ومنهم سيرين والد محمد سيرين، أخذه أنس مالك، وجماعة آخرون من الموالي المشاهير".

وذكر "الطبري" أن "خالد بن الوليد" وجد في بيعتهم أربعين غلاما يتعلمون الإنجيل، عليهم باب مغلق، فكسره عنهم، وقال: ما أنتم قالوا: رهن، فقسمهم في أهل البلاد" ونجد في الموارد الأخرى، إن "خالد بن الوليد"، لما فتح حصن "عين التمر" وجد في كنيسة جماعة يتعلمون سباهم، فكان من ذلك السبى: "حمران التمري"، و"سيرين" و "أبو عمرة" و "يسار" و"نصير" ... أي أنه بعد أن فتح خالد (عين التمر) قاموا بالتحفظ على عينة من الأطفال وأسرهم ونقلهم إلى السعودية، وتم توزيعهم على الصحابة الأبرار خدما وعبيدا للخدمة.. فأسلم منهم الأول "سيرين" وأنجب .. محمد بن سيرين .. الذي أصبح فيما بعد (التابعي والإمام القدير في التفسير والفقه والحديث..) وأسلم الثاني "يسار" وأنجب إسحاق الذي جاء من نسله محمد بن اسحق بن يسار ..(صاحب كتاب المغازي الشهير.. وصاحب كتاب "السيرة" الذي دون فيه سيرة حياة الرسول من أفواه وشهادات المناضلين الذين أسروا والد..) وأسلم الثالث "نصير" وأنجب موسي بن نصير .. (الفاتح الإسلامي والقائد الشهير).. وأسلم الرابع "أبو عمرة" وأنجب (عبد الأعلى الشاعر الكبير).

ولما كان الجناة الذين سطوا على بنك "كريدي بانكين Kreditbanken"، قد اتخذوا بعضا من موظفي البنك رهائن لمدة ستة أيام، وخلال تلك الفترة بدأ الرهائن يرتبطون عاطفيا مع الجناة، وقاموا بالدفاع عنهم بعد إطلاق سراحهم.. وهو أكثر الشبه بسطو الصحابة على "عين التمر" وخطف الأطفال المعتكفين في بيت من بيوت العبادة واستعبادهم للخدمة في بيوتهم"مدى الحياة"...

وتبدأ قصة المتلازمة بهذه الأسماء: بريغيتا لاندبلاد، وإيليزابيث أولدغرين، وكريستين إنمارك، وسفين سافستروم، من مواطني مملكة السويد، وهي أسماء أربعة من الموظفين في أحد البنوك هناك. ففي الثالث والعشرين من أغسطس عام ١٩٧٣، احتجز الأربعة داخل بنك "كريديت بانكن" بستوكهولم من قبل مجموعة من طلقاء السجون الذين اعتادوا ممارسة مهنة السطو والإغارة. وبعد ستة أيام ومع انتهاء ذلك الاحتجاز، بدا على المخطوفين أنهم قد بنوا علاقة إيجابية مع

هذين الخاطفين.. ومن هنا نشأت فكرة متلازمة ستوكهولم. حيث كان الطبيب النفسي والباحث في علم الجريمة نيلز بيجيروت هو أول من صاغ هذا المصطلح، وأظهر الطبيب النفسي فرانك أوشبيرغ اهتماما بهذه الظاهرة وقام في السبعينيات من القرن الماضي بتعريف المتلازمة وتوضيحها لمكتب التحقيقات الفدرالي وجهاز الشرطة البريطانية "سكوتلاند يارد."حيث كان يعمل في ذلك الوقت على مساعدة فرقة العمل الوطنية الأمريكية لمكافحة الإرهاب والفوضى في وضع استراتيجيات للتعامل مع حالات احتجاز الرهائن.



وتضمنت معاييره ما يلي: "في البداية، يتعرض الناس فجأة لشيء يحدث رعبا في نفوسهم، مما يجعلهم متأكدين من أنهم مشارفون على الموت. ثم يمرون بعد ذلك بمرحلة يكونون فيها كالأطفال غير قادرين على الأكل أو الكلام أو حتى الذهاب لقضاء الحاجة دون الحصول على إذن". ويقول أوشبيرغ أن قيام المختطف ببعض الأعمال الطيبة تجاه المخطوفين، كتقديم الطعام لهم، من شأنه أن يحفز لديهم شعورا بالامتنان "لمنحهم الحياة." و"يتكون لدى الرهائن شعور إيجابي قوي أصيل تجاه خاطفهم، يرفضون من خلاله أن يكون ذلك الشخص هو من عرضهم لذلك الموقف، ويتأصل لديهم شعور بأنه هو الشخص الذي سيمنحهم الفرصة للعيش".

ويبقى السؤال هنا: ما الذي حدث داخل ذلك البنك وأدى إلى ظهور تلك المشاعر الإيجابية لدى المخطوفين تجاه خاطفيهم، على الرغم من تعرض حياتهم للخطر؟ ففي مقابلة أجريت معها عام ٢٠٠٩ على قناة راديو السويد، قالت كريستين إنمارك، وهي إحدى ضحايا تلك الحادثة: "إنه نوع من مجريات الأحداث التي تتعرض لها، للدرجة التي تحدث بطريقة ما تغييرا في قيمك وأخلاقياتك

كلها". وطبقا للتقارير الواردة، كانت إنمارك صاحبة أقوى العلاقات بين الرهائن الأربعة مع محتجزيها. ففي إحدى المكالمات الهاتفية التي أجرتها من داخل أحد أقبية البنك مع رئيس الوزراء آنذاك أولوف بالم، كانت إنمارك تتوسل إلى هذا الأخير حتى يسمح لها بمغادرة مبنى البنك مع الخاطفين، وقد منحتهم الثقة الكاملة..! وقد أعربت في مكالمتها الهاتفية لرئيس الوزراء عن "خيبة أملها" فيه، وقالت: "أعتقد أنك لا تقوم بشيء سوى الجلوس هناك واللعب بأرواحنا. إنني أثق بكلارك وبزميله، ولا أشعر بأي نوع من اليأس. هم لم يرتكبوا أي أمر سيء معنا. بل على العكس، كانوا لطيفين جدا معنا".

وكان الصحفي الأمريكي دانييل لانغ قد قام بعد عام بإجراء حوار لصحيفة "ذا نيو يوركر" مع كل من حضروا تلك القصة، وكان من شأن ذلك الحوار أن يسلط الضوء على معظم ما حدث وكيف كانت طريقة تفاعل الخاطفين والمخطوفين مع الأحداث. وكتب معلقا أن الرهائن كانوا يتحدثون عن حسن معاملتهم من قبل خاطفيهم. بل إنهم بدوا في لحظة ما وكأنهم مدينون لخاطفيهم بحياتهم. ففي إحدى المرات أثناء حادثة الاختطاف تلك، سمح لإيليزابيث أولدغرين -وكان لديها رهاب من الأماكن المغلقة- بالخروج من ذلك القبو الذي كانوا محتجزين فيه والتحرك في الخارج وهي تربط شريطا حول عنقها. وقالت إنها شعرت في ذلك الوقت بأن السماح لها بالتجول يعد لطفا من خاطفها أولسون. كما أن زميلها سافستروم، وكان أحد المخطوفين، قال إنه شعر بالامتنان عندما أخبره أولسون بأنه ينوي إطلاق النار عليه حتى يبين للشرطة جديته في الأمر، إلا أنه أضاف بأنه سيتأكد من أنه لن يقتله إلا بعد أن يكون مخمورا تماما. (لاحظ كان مجرد موافقة الخاطف على عدم قتل الضحية إلا بعد أن يكون مخمورا تماما، كانت هذه الموافقة تعد لطفا من الجاني في نظر الضحية، ولم يدرك الضحية أن الحياة بحرية كاملة حقٌ أصيل له؛ لأنه فقد حرية الإرادة وصار فكره محصورا داخل صندوق الأحداث وظروفها، فهو مضطرٌ للتفكير فقط في حدود صندوق الظروف).

ويعرف الغالبية من الناس اليوم مصطلح "متلازمة ستوكهولم" نتيجة لاستماعهم إلى عدد من القصص الشهيرة عن حالات الاختطاف واحتجاز الرهائن، خاصة في الحالات التي كانت الرهينات والمختطفات فيها من النساء. وغالبا ما يجري ربط هذا المصطلح بما حدث لباتي هيرست، وهي ابنة أحد

الأثرياء من كاليفورنيا، والتي كان قد اختطفها بعض المسلحين الثوريين عام ١٩٧٤، لتبدي تعاطفا مع مختطفيها وتشاركهم في إحدى عمليات السطو..١. إذ أن الجناة استطاعوا إقناعها واستمالة مشاعرها حتى تقمصت عقليتهم واقتنعت تماما بأن سلوكهم نضالي شريف وشاركتهم في نشاطهم.. حتى تم القبض عليها ومحاكمتها، إلا أن محامي الدفاع عن هيرست قال إنها قد خضعت لعملية غسيل دماغ، وأنها كانت تعاني مما يعرف بمتلازمة ستوكهولم، والتي اصطلح عليها مؤخرا لتفسير المشاعر غير المنطقية التي يشعر بها المختطفون تجاه مختطِفيهم.. وكانت آخر تلك القصص التي وصفتها التقارير الإعلامية بنفس الوصف هي حالة ناتاشا كامبوش، والتي كانت قد اختطفت وهي في العاشرة من عمرها من قبل وولف غانغ بريكلوبيل واحتجزت داخل أحد الأقبية لمدة ثمانية سنوات. حيث نقل عنها أنها أجهشت بالبكاء عند سماعها خبر موت مختطِفها، وقامت بإشعال شمعة حيث يرقد جسده.

فهل من المتوقع أن يخرج أطفال عين التمر للدفاع عن خالد ومجموعته الذين أسروهم وتحفظوا عليهم في بيوتهم حتى كبروا وصاروا فقهاء وعلماء وشعراء وقادة عظام ؟ وهل تتواتر هذه المتلازمة النفسية في جينات الأجيال بالتتابع لتنتج رهائن شعبية بذات المواصفات والملامح النفسية يدافعون عن الجناة الذين أسروهم ؟ وهل تستمر هذه المتلازمة النفسية أجيال طويلة تصل إلى ألف عام أو أكثر على مستوى الشعوب؟ فقد كانت جملة هؤلاء الأطفال المختطفين من كنيسة عين التمر هم نواة الحضارة العربية بكاملها، وهم نواة العلم والعلماء والشعراء والمدونين، ومنهم جاء أول عالم صاغ سيرة حياة النبي محمد عليه السلام سماعا شفاهيا من أفواه هؤلاء ودونها تحت رعايتهم وهو "ابن إسحاق"، وتبعه على ذات النهج في صياغة السيرة "ابن هشام"، ثم انطلقت الحركة الفكرية والعلمية في ذات الاتجاه، وتشعبت في كافة البلاد التي دخلها العرب بذات الطريقة وتناقل هؤلاء العلماء علمهم واستعاروا كتبهم من بعضهم وتشابهت أفكارهم، وجميعها يحاكي بعضه بعضا ويحاكي الأصل الذي تم تنفيذه عمليا بحق آبائهم وأجدادهم.

خصوصا أننا إذا نظرنا إلى الحضارة العربية سنجدها في حقيقتها لم تكن حضارة وإنما هوجة حضارية، فكيف تؤسس دولة على عوائد الجيش من السطو والنهب والسلب وخطف النساء ! بداية من عهد الخلافة التي قيل أنها راشدة، ثم مرورا بخلافة الأمويين والعباسيين، فطريق البناء والصعود المفاجئ الذي ظهرت به دولة العرب واستقرارها في دمشق ثم بغداد ثم الأندلس وتفرعها ثم انكماشها..

١- رابط الموضوع: http://www.bbc.com/arabic/worldnews/2013/08/130825_stockholm_syndrome

ما كان إلا أشبه بمجموعاتٍ من العصابات الصحراوية حاولت أن تحكم مستعمرة لها، فلو نظرنا في أصل النشاط العربي ذاته سنجده قائمٌ على الإغارة، فكانوا يهجمون على بعضهم البعض ويهجمون على القبائل التجارية والأدبية وقوافل الحج والعبادات وينهبونها حتى أنهم حرموا الأشهر الحرم عاما وأحلوها عاما كي يطعمون، وقالوا لو التزمنا بها لنهلكن من الجوع.. إذن كان نشاطهم الرئيس هو الإغارة والإغارة فقط.. ولهذا شدد الله عليهم حرمة القتل في الأشهر الحرم وضاعف فيها العقاب حتى يوفر الأمن والأمان للقبائل والقوافل التجارية والأبية وقوافل الحجاج القادمة والعابرة، ولهذا فرض الأشهر الحرم.. ولو نظرنا للحضارة العربية خلال ٥٠٠ سنة من تاريخ قيامها في عهد الخلافة وحتى سقوطها، سنجدها نموذج مُكبر من هذه الإغارات، أي إغارة حضارية كُبرى بحجم ٥٠٠ إغارة موسمية من تلك التي كانوا يباشرونها قبل الإسلام، فطبيعة الإغارة أنها تتخذ محطات مختلفة في الطريق لتعيد حساباتها كل فترة وتراقب الطرق والحركة ومراكز القوى ولا تستقر في مكان واحد.. وهكذا كانت حضارة العرب لها محطات مختلفة ما بين المدينة ومكة ثم الكوفة بالعراق ثم دمشق بالشام ثم بغداد بالعراق ومحطة أخرى منعزلة في قرطبة بالأندلس، ثم تنازع حكام الأندلس وشكلوا عصابات مستقلة، وصارت لكل عصابة محطة مستقلة تنازعوا فيما بينهم.. ثم في النهاية ما نهبه بني العباس في ٤٠٠ سنة أخذه هولاكو في ليلة.. فالحضارة العربية كما سنرى في الإضاءة القادمة كانت أشبه بهجمة كريدي بنك لكنها لم تتوقف عند حدود الستة أيام بل استمرت أكثر من ذلك، وتركت آثارا مشابهة لها.

إذ أننا عندما نتصفح مواقع التواصل الاجتماعي نجد عينة من أبناء العراق اليوم الأستاذ عمر الشيخ حامد عمر[1] من سكان العاصمة العراقية بغداد يترحم على سيده خالد ابن الوليد ويقول:

((ماذا لو أن خالد بن الوليد فجر كنيسة (عين التمـــر) بمن فيها ؟؟!! فكان هناك كنيسة اسمها عين التمر بالعراق كان بها ٣ غلمان بها لدراسة الإنجيل ونشر المسيحية في أرض العراق وجزيرة العرب وأسماؤهم سيرين، يســـار، نصـير .. فلما فتح خالد بن الوليد عين التمـــر تعرفوا على الإسلام، فاسلم الأول وأنجب محمد بن سيرين من أئمة التابعين في الحديث والفقه وحتى تفسير الرؤى، وأسلم الثاني وأنجب إسحاق أبو محمد بن اسحق بن يسار صاحب كتاب السير والمغازى المعروف باسم (سيرة بن إسحاق) وأسلم الثالث وأنجب مـــوسى بن نصير فاتح الأندلس وشمال أفريقيا. هذا هو نتاج الإسلام الذي

١ ـ رابط: https://www.facebook.com/profile.php?id=100010554378800&fref=ufi&rc=p

فهمه خالد والصحابة الكرام ولم تستطع أن تفهمه داعش. فماذا لو أن خالدا فهم كما فهمت داعش ودمر الكنيسة بمن فيها ؟؟!!)) أي أن الأستاذ عمر الشيخ حامد عمر كنموذج من أبناء العراق ينتقد تصرفات داعش الإرهابي لأنهم يقومون بتفجير الكنائس، وكان عليهم أن يفعلوا ما فعله خالد ابن الوليد بأن يقوموا بخطف الأطفال فقط دون تفجير الكنيسة !!.. نعتقد بشدة أن هذه هي آثار متلازمة ستوكهولم في صيغتها العربية الشعبوية، لأن تماثل الأحداث والظروف والأسباب من شأنه توحيد النتائج .. فلا غرابة أن يتحدث هؤلاء العلماء والفقهاء الثكالى المغبونين باسم الخاطفين ونيابة عنهم ويتقمصوا عقليتهم.

وليس غريبا أن ندرس التاريخ بلسان العرب وبعقليتهم وفكرهم، حتى أن المدارس السورية تقدم للطلاب – إلى اليوم معلومات تربوية مضمونها أن العرب هم أصل الحضارات! وأصل وجذر كل الشعوب التي شيدت حضارات البابلية والأشورية والسومرية والأكادية ! برغم أن العرب هم قبائل بدوية تعلمت الكتابة من هذه الشعوب!



قدمتِ القبائلُ العربيَّةُ القديمةُ من شِبْهَ الجزيرةِ العربيَّةِ على شكلِ موجاتٍ، واستقرّت في بلادِ الشّامِ والعراقِ، فسكنَ الأكاديّونَ والبابليّونَ والآشوريّونُ في العراقِ، وأسَّسوا ممالكَ ودولاً مزدهرةً.

الحضارةُ السومريّةُ | الدولةُ الأكاديّةُ | الدولةُ البابليّةُ | الدولةُ البابليّةُ الثّانيةُ | الدولةُ الآشوريّةُ

بدليل أننا نحن المصريين نتقمص عقلية العرب كما العراقيين سواءً بسواء، فحينما نتحدث عن وطننا إيجبت بداية من عصر الاحتلال الروماني، جميع الكتب والمراجع التاريخية تتحدث عن المصريين بلسان الحاضر وتتحدث عن الرومان بلسان الغائب أو الأجنبي الداخل على أهل البيت.. المتحدث يصف نفسه وأهله وبلده وأحواله بلسانه ولا يتحدث عن روما مثلا... بينما عندما ننتقل إلى فترة الحكم العربي في إيجبت تجد كتب التاريخ تتحدث بلسان العرب وتتحدث عن إيجبت بلسان الغائب، وكأننا حدث لدينا انفصام في الشخصية نتيجة الصدمة وتقمصنا العقلية العربية وصرنا

نتحدث عن أنفسنا بصيغة الغائب، كما يقول أحدنا (عرض عمرو ابن العاص على عمر أن يفتح مصر ويضمها لحكم المدينة، فتوجه عمر من الشام إلى مصر، وعبر حدودها الشرقية ثم دخل العريش ثم ذهب إلى الفرما، وكان أهل مصر أقباط ولم يتعرضوا له، تقدم عمرو إلى حصن بابليون واستمر في حملاته على الحصن ستة أشهر حتى جاءه المدد من الشام، ثم تمكن من كسر الحصن وذهب إلى الإسكندرية ففتحها، وعاد إلى القاهرة واستقر بالفسطاط، وأرسل إلى عمر بالبشرى والخمس والغنائم إلى الخليفة يبشره بفتح مصر، ثم أصدر عمر ابن الخطاب أمرا لعمرو أن يجمع الجزية من الأقباط ويرسلها إليه، وكان عمرو العاص حازما في معاملته مع الأقباط أهل مصر، وكان يجمع منهم الجزية ١٢ ألف دينار كل عام خراج ووضع للمصريين نظام .... ثم عزله عثمان وعين بدلا منه عبد الله ابن سعد أبي السرح حاكما على مصر .. إلخ).

في هذه الفقرة التي وردت في كل كتب المدارس والجامعات المصرية عند تحليل لغة الخطاب فيها نجد أن المتحدث عربي وليس هناك أي شخص مصري ظهر في الصورة، وأن عدسة الرصد تقف خارج الوطن وتحديدا تقف في شبه جزيرة العرب، وترصد حركة العرب الداخلين إلى الشام والعراق ومصر ولا ترصد حركة المصريين أنفسهم بالداخل، فهو يتحدث عن الأقباط بلغة الغائب، ثم بعدما انتشر الإسلام وأصبح هؤلاء الأقباط مسلمين استمروا في الحديث عن أنفسهم بلغة الغائب !، فالمتحدث في هذه الفقرة ليس واحدا من الأقباط أهل مصر، وإنما من خارجها، ومصر ورد ذكرها بضمير الغائب، بينما ضمير الحاضر انحصر فقط على المتحدث والذي يتضح من كلامه أنه عربي من قبائل شبه الجزيرة أو كان مساعدا للخليفة وليس من أبناء مصر .. والغريب أن هذا الكلام يدرسه المصريين أنفسهم اليوم في مدارسهم وجامعاتهم بذات الصياغة وكأنهم يتحدثون أن أنفسهم بضمير الغائب !! إنما لو تحدث أحد من المصريين فمن الطبيعي أن يقول (جاء عمرو إلى مصر ولن يقول ذهب إلى مصر بالطبع)، لأن ذهب إلى مصر معناها أن المتحدث ليس مصريا ويتحدث من خارج مصر وليس من داخلها.. هذا ما يؤكد إصابة العقل الجمعي المصري بمتلازمة ستوكهولم التي جعلته في حالة فصام عقلي يتقمص شخصية الغير في الحديث عن نفسه، ويتقمص الشخصية والعقلية العربية عندما يتحدث عن نفسه.. هذا الفصام العقلي يؤدي إلى انعكاس المفاهيم الوطنية في العقل الجمعي، كما حدث وأن قام العرب عمديا بأن عكسوا المفاهيم الدينية، فمعارك النبي كانت دفاعية أسموها غزوات، مع أن الغزو لغويا وفعليا وتاريخيا يعني حرب هجومية..إلخ. إنما المصريين نتيجة حالة الاضمحلال الحضاري وانسلاب الإرادة قلبوا المفاهيم الوطنية إلى عكسها دون وعي.. بينما لوعدنا لعهد الحكم الروماني في مصر نجد أن التاريخ يتحدث بلسان مصر...

ومن آثار متلازمة ستوكهولم العربية أيضا هو اقتناع المصريين والشاميين والعراقيين بأن النجاسة دين شريف حنيف جاء رحمة للعاملين... هذه النجاسة صارت شعيرة دينية مقدسة، فقط لأن الصحابة العرب مارسوا النجاسة وقالوا أنها دين ! واستمرار خضوع العقلية الجبتية للعقلية العربية تحت وطأة هذه المتلازمة لأكثر من ألف عام جعل المصريين يعتنقون عقول العرب ويقدسون ويمجدون أفكار العرب وسلوكياتهم وتصرفاتهم الإجرامية باعتبارها دين.. خاصة بشأن شرعية الجهاد وشعرية كونه هجومي في مواعيد تحصيل الإتاوات السنوية، واقتران ذلك بحق شرعي للمجاهد هو سبي ووطء النساء ! وسبي الأطفال وبيعهم في أسواق النخاسة واستعبادهم... هكذا جعل العرب النجاسة جزء من الدين ومكافأة على الجهاد ! وصدقهم المصريون بأن النجاسة دين حنيف يأمر بالعدل والرحمة والسلام للعالمين ! هكذا صارت النجاسة (سبي ووطء النساء بدون رغبتهن ورغما عن أزواجهن) صارت هذه النجاسة جزء من الدين احتراما للصحابة الذين مارسوا هذه النجاسة ! وبالطبع على كل من يحترم الصحابة ألا ينطق بأن هذا الفعل نجاسة ! لأن ذلك يمس شخصيات الصحابة ! ومن يتجرأ على القول بأن ذلك نجاسة فيعتبر متبجحا في الصحابة، بغض النظر عن كون هذه النجاسة تبجحا في الدين نفسه ! وذلك كله من أثر الفصام العقلية الذي أحدثته متلازمة الاحتلال العربي، فلا يمكن أن نطلب من شخص مصاب بالفصام العقلي أن يحكم بالعدل، لأنه بالطبع سيقع تحت تأثيرات نفسية خارجة عن إرادته.

فمن الوارد (بالنظر إلى الطبيعة النفسية للإنسان بوجهٍ عام) من الوارد أن نجد إنسان يخشى شخص ما أكثر من خشيته من الله ! والدليل ليس من عندياتنا ولا من عيادات الطب النفسي وإنما من نص القرآن ذاته نسوقه في سيقام عام غير السياق الخاص الذي نزل فيه للاستدلال فقط على إمكانية حدوث هذا الفصام العقلي... فيقول تعالى في سورة الحشر: لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٣)/الحشر. ويقول المفسرون في مناسبة نزول هذه الآية؛ يقول الله للمؤمنين: لأنتم أيها المؤمنون أشدّ رهبة في صدور اليهود من الله، أي أن يهود بني النضير يخشون المؤمنين أكثر من خشيتهم لله، فهم يرهبونهم أشدّ من رهبتهم من الله، والسبب (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ) فهم لذلك يستخفّون بمعاصيه، ولا يرهبون عقابه قدر رهبته من المؤمنين.

والشاهد أن اليهود لأنهم لا يفقهون، فجهلهم هذا وقلة وعيهم جعلهم يخشون البشر أكثر من خشيتهم لله، وجعلهم يستخفون بمعصية الله ولا يستخفون بقدرة البشر، ذلك لأنهم بلا وعي ولا إدراك... وهذه حالة نفسية، أو إشكالية عقائدية عالجها القرآن في سياق خاص، في سياق حدث

معين، لكننا سنحاول الانسلاخ بالآية من الخاص إلى العام كمضرب للمثل كي نثبت أن الشعب الذي لا يفقه سيخشى الناس أكثر من خشيته لله، ويستخف بمعاصي الله ويوقر ويحترم الأشخاص، لأنه مصاب بمتلازمة نفسية هي غياب الوعي وانسحاب الإرادة الحقيقية، وهذا ما حدث مع الشعوب المجاورة للعرب التي فتح العرب بلادهم مثل العراقيين والشاميين والمصريين أصبحوا يوقرون العرب وإن استخفوا بحدود الله وآياته، وأبسط مثال هو ظاهرة السبي، وهذه الظاهرة النجسة مارسها العرب الصحابة واعتبروها من الدين، بينما في الواقع هي جريمة ضد الإنسانية، وجريمة ضد الدين نفسه لأن الإسلام جاء رحمة وسلاما لعالمين، فكيف يسمح بسبي واستعباد الأطفال والنساء وكيف يسمح بوطء بالاتصال الجنسي بفتاة دون رغبتها إذا كان رحمة وسلاما للعالمين؟

لكن ما كان للشعوب المصابة بمتلازمة ستوكهولم العربية أن تخشى الله أكثر من خشية العرب أو أن تعقل وتحترم كلام الله أكثر من احترامهم لكلام العرب وسلوكياتهم وتصرفاتهم، فالمتلازمة النفسية (غياب الوعي والإرادة تعمل كقيدٍ على العقل، وتحجبه عن رؤية الحق والعدل وتجعل من الأشخاص قدوة وأحق بالرهبة والاحترام، ولذلك قال الله: لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ" وهكذا أصبح العرب الصحابة أشد رهبة في قلوب المصريين من الله لأنهم ذاقوا رهبة العرب قبل أن يعرفوا الإسلام، فمن الطبيعي أن تستمر معهم مشاعر هذه الرهبة وتؤثر على وتشكل كل تصرفاتهم وأفكارهم فيما بعد لأن القيد النفسي شكل غطاءً على العقل. كما الجندي المستجد في الخدمة العسكرية يتم استقباله بحفلة مبدئية حتى يتنازل عن قيمه وأخلاقه ويتحول إلى عبد لقادته حتى وإن خالفوا الحق والعدل والرحمة، ويستمر في ذلك طوال مدة الخدمة، وهذا ما يسميه العسكريين بنظرية الصدمة (على مستوى العالم، وبخاصة في الجيش المصري والروسي)، وهذه النظرية تقوم على إحداث صدمة نفسية للجنود المستجدين كي يخضعوا بسهولة للأوامر العسكرية طوال فترة الخدمة، ويتم ذلك بطرق عديدة من خلال التدريب الشاق المفاجئ الذي يصل بالجندي المستجد إلى مرحلة سلب إرادته، وهناك نظرية بديلة تقوم على الترويض والتدريب لبطئ الهادئ لكنها مكلفة وقت وجهد للقادة، ولذلك تعتمد أغلب جيوش العالم على نظرية الصدمة.

وهناك دليل آخر على هذا الفصام العقلي الذي يقلب المشاعر ذاتها في العقل الجمعي وليس المفاهيم الوطنية فقط، فلدينا في مصر فئة السلفية، وهم مصريون من أبناء مصر أبا عن جد، لكنهم ينفرون من تاريخ الفراعنة وحضارتهم ويشعرون بحميمية الانتماء للعرب وقوميتهم، برغم أننا لو

بحثنا في أصولهم وجذورهم الوراثية سنجدهم أحفاد الفراعنة وما زالوا يحملون جيناتهم الوراثية، فهل انقلب الأبناء على الآباء لمجرد أنهم عرفوا الله ؟ هل انقلب سيدنا إبراهيم على أباه لمجرد أنه عرف الله ؟ هل مجرد أن الابن عرف الله وعرف الإسلام أن يعادي أباه وينفر منه؟ وهل هذه مبادئ وتعاليم الإسلام ؟

بالطبع لا ولكن لأن الشعب هو كائن اجتماعي يشعر بذات المشاعر التي يمر بها الإنسان الفرد، فعلينا النظر إلى الشعب المصري كإنسان فرد واحد، أو كائن اجتماعي، هذا الكائن ينشط ويسكن على فترات دورية موسمية متكررة عبر الزمن مثل تعاقب الليل والنهار، يخرج من مرحلة سكون ليدخل في مرحلة نشاط ثم يخرج من مرحلة النشاط ليدخل مرحلة سكون وبعدها يتجدد النشاط مرة أخرى عبر آلاف السنين.. ولا توجد حقبة زمنية يعيشها الشعب في خط مستقيم مستمر أفقي أبدا، إنما دائما ما يكون إما في زيادة مطردة لمعدلات نشاطه وازدهاره وإما في تناقص مستمر لمعدلات نشاطه وازدهاره، أي مرحلة الصعود باتجاه القمة ومرحلة الهبوط من القمة باتجاه القاع ثم العودة.. وخلال كل مرحلة من هاتين يتبدل الطابع الفكري للكائن الاجتماعي بوجهٍ عام، ففي مرحلة النشاط والازدهار الذهني ينتج كل إبداعاته علمية الطابع عملية تطبيقية، ثم في مرحلة السكون الذهني والاضمحلال ينقلب الفكر إلى الطابع الأدبي، أي ينتج عكس ما كان في المرحلة الأولى، كما الطبيعة سواء بسواء لها نوعية من المحاصيل تنتج في الصيف، بينما تنتج محاصيل وثمار أخرى مختلفة تماما في فصل الشتاء. ولهذا كان المصريين إبداعهم ونتاجهم الفكري علمي بحت في مرحلة الازدهار والنشاط الذهني، بينما هم في مرحلة الاضمحلال تبنوا ثقافة أدبية عربية وتشبعوا بها واقتنعوا بعكس ما كان عليه حالهم في مرحلة الازدهار تماما، لأن طبيعة المرحلة وذهنيتهم انصرفت لهذا النوع من التفكير بإرادة مسلوبة.

تقول امرأة سعودية على مواقع التواصل الاجتماعي: " أنا سعودية وأقول للمصريين الذين تأثروا بلباسنا التقليدي أن هذا ليس لبس إسلامي أو مظهر من مظاهر التدين حتى تقلدونا.. هذا لبسنا القومي، فمنذ الأزل والبدو يلبسون البرقع هذا في النساء وهو لبس تقليدي بدوي لبسه من باب الأعراف والتراث القومي.. وبالنسبة للرجال لبس الثوب هذا أيضا من لباسنا البدوي القومي وليس من أجل الدين.. للأسف أنتم تدفنون هويتكم بأيديكم وتتخذون من هوية بلاد أخرى هوية لكم.. والله أن هذا اللباس تقليدي قومي وفي البادية عندنا النساء لا يلبسن العبايات بل يلسن ثياب عادية طويلة وبعض القبائل تلبس البرقع فقط.. والقبائل الأخرى يلبسون طرح عادية وهندام بدوي.. أفيقوا يا مصريين هذا ليس تدين هذا تراثنا.. استعجب من بعض المصريين الذين يقلدون السعوديين بالملي.. ويتفاخرون بذلك.. أي فخر !! هل رأيتم سعودي يلبس اللبس الصعيدي ؟! يا جماعة هذا لبس قومي

وليس له دخل بالإسلام.. استغرب من بعض العقول الهشة التي تقلد تقليد أعمى.. أنا أتكلم وأنا حزينة على الشياكة المصرية التي كنا نراها من خلال التليفزيون".

أي أن المصريين تقمصوا العقلية العربية البدوية ولم يستوردوا منها الدين، بل استوردوا حتى آدابها وعاداتها وأعرفها القومية ولغتها وثقافتها وطريقة التفكير، فتعطل النسيج الذهني المصري عن الإبداع وصار تابعا ومُتيما بالعقلية والهوية العربية.. وهذا ما يعي أن دخول العرب مصر كان في ضمن رحلة هبوط النشاط الذهني وفي طريقه إلى السكون؛ لأن ما بعد دخول العرب مصر لم يكن أفضل مما قبله بل كان أسوأ مراحل التاريخ المصري على الإطلاق، وذلك يظهر بمقارنة نسبة عدد المصريين الذين يعرفون القراءة والكتابة في عهد الفراعنة وعهد البطالمة وعهد الرومان وعهد العرب حتى عصر محمد علي باشا، إذ ورد برسالة السفير الروسي إلى حكومته عن مصر بأن عدد من يعرفون القراءة والكتابة العربية لا يتجاوز الخمسين فردا في مصر كلها، بينما كان المصريون في العصور الأقدم ماهرون جدا في الكتابة لدرجة أنهم ابتكروا الكتبة الهيروغليفية للعلماء والكهنة وكانت مزدوجة ومرمزة، والكتابة الديموطيقية لعامة الشعب والهروطيقية للكتابة الرسمية والحكام والملوك، وهذا الثراء والغنى في الكتابة مع احتراف صناعة ورق البردي يدل على اتساع مهنة التدوين وانتشار الكتابة والقراءة حتى بين عامة الناس ومن لم يكن سيدنا ولا رضي الله عنه...

بينما كان عصر العرب سيئا للغاية إلى درجة جعلت المصريين يسنون أصولهم وحضارة أجدادهم بعدما طمست اللغة الهيروغليفية، فانقلب فكر الأجيال الحديثة ولم تعد نظرتها للماضي نظرة حنين للأصل كأصل عام لدى كل إنسان طبيعي مستقر نفسيا، بل حنين للعرب القدامى والصحابة، وتنكَر للأهل والأجداد والأصول... وقد تحدث قطيعة بين الابن والأب فينقلب الابن معاديا أباه معتقدا أنه عدو له.. ثم بمرور الوقت يعود الابن لرشده رغم احتفاظ كل منهم بقناعاته الدينية، فالدين ليس سببا للقطيعة الأسرية.. وليس من الممكن للابن المتنكر لأصله أن ينجح في حياته أو على الأقل يعيش حالة من الاستقرار النفسي، بل تظل لديه عقدة نفسية من أصله ومنشأه.. ولن ينجح إلا إذا كان متسامحا مع ماضيه، متسامحا مع أصله ونسبه ومنشأه.. والمسلمون المصريون ليسو متسامحين مع أصولهم الفرعونية بل يشعرون بالحنين أكثر تجاه قريش وصحراء العرب وفتوحات الصحابة.

وليس الأمر بالنسبة للسلفية في مصر مجرد اندماج للشعب المصري في الشعب العربي؛ لأن السلفية لم يكتفوا بهذا الاندماج ولكن تنكروا لأصولهم وأجدادهم وانتموا كليا للقومية العربية، حتى أننا وجدنا رمزا من رموز السلفية عقب ثورة ٢٥ يناير د. عبد المنعم الشحات وكان مرشحا لعضوية البرلمان يضف الحضارة الجبتية بأنها حضارة "عفنة" وآخرين سلفيين حرضوا على هدم آثار الحضارة الجبتية، وتنكروا لها ورفضوا الاعتراف بأصولهم. فمجرد الاندماج القومي قد يعني المساواة في لانتماء بين الفراعنة والعرب، إنما الأمر بالنسبة للسلفية ليس اندماج ولكن تنكر وتملص من طرف وتشبث بطرف.. وكل ذلك بحجة أن أجدادنا الفراعنة لم يكونوا مسلمين ! فهل كان أجداد العرب مسلمين؟ وهل تنكر العرب لأصولهم وقبائلهم وأنسابهم بعدما عرفوا الإسلام؟ أم استمروا في حفظ أنسابهم وأصولهم وألقابهم ؟ وهل يسمح لنا أي عربي بأن نسب أصله وقبيلته وقوميته؟ بل إن النبي ذاته لم يتنكر لأمه برغم أنها لم تكن مسلمة ولم يتنكر لأبيه وأعمامه برغم أنهم لم يكونوا مسلمين، لأن النبي لم يكن يعاني من فصام في الشخصية كما يعانيه السلفيين الذين تنكروا لأصولهم وقوميتهم.. فالإنسان المتزن نفسيا يسعي دائما للتستر علي عيوب أجداده وأصوله ويبرز محاسنهم لا أن يفضحهم ويتجاهل حضارتهم وإنجازاتهم التي حيرت العالم ويركز فقط على إبراز العيوب والنقائص كما يفعل السلفية في مصر أو يختلقون مبررات لاستهجان الحضارة الجبتية القديمة والتنكر لها.. فهم يعيشون حالة من الاغتراب مع ماضيهم وأصلهم إن كانوا من أصول مصرية، ولم يستقر في وجدانهم أي انتماء لوطنهم وقوميتهم. إذن المسألة ليست فقط انقلاب للمفاهيم الوطنية بأن يتحدث المصريون عن أنفسهم بضمير الغائب خلال حقبة وجود العرب، ولكن أن يتنكر بعض المصريون لأصولهم وينتمون بحميمية للقومية العربية ويشعرون بالحنين الوطني تجاهها وينفرون من وطنهم وأصولهم.

ولا يغرنا القول بأن متلازمة ستوكهولم تصيب الأفراد المذعورين فقط الواقعين تحت سطوة الاختطاف أو الاحتجاز كرهائن أو التهديد والقمع من قبل غيرهم. فمتلازمة ستوكهولم تحدث على المستوى الفردي (مجموعة أشخاص تعرضوا للاختطاف معا وأصيبوا بذات الأعراض النفسية) فهل ممكن أن يصاب بها مجتمع بأكمله بذات الأعراض إذا تعرض المجتمع بكامله لذات الظروف وعلى مدار حقب زمنية؟ فإذا كانت متلازمة ستوكهولم فردية من حيث الأطراف (المعتدي والمعتدي عليه الرهينة)، فإنها جماعية من حيث الاحتلال (الجيوش المعتدية والشعوب المتعدى عليها). فهذا ما يعتبر مدخلا للتعميم بالنسبة لكل من تعرضوا لذات الظروف.. وقد جاء ارتباط علم النفس بالعلوم البوليسية ليكشف لنا عن متلازمة ستوكهولم التي تصيب الأشخاص المحتجزين كرهائن بنسبة ٨٪

منهم يعانون ذات الأعراض، وينقلبون على أنفسهم أو كأنهم يعادون أنفسهم ويؤمنون بأفكار المعتدي عليهم ويتعاطفون معه ويتضامنون معه ويدافعون عنه لفترة نتيجة الصدمة النفسية التي تعرضوا لها، ويأتي هذا التعاطف والتضامن مع الجناة بسبب فضلهم في منح الضحية والمن عليه بـ" سر الحياة" كأن يعطيه شربة ماء أو وجبة تنعشه من الموت جوعا وعطشا في ظل ظروف الارتهان القهري هذا..

فمن شأن الدراسات الاجتماعية وعلم الاجتماع أن يكمل علم النفس، فإذا كان علم النفس يرتكز محوره على دراسة الأشخاص كأفراد، فإن علم الاجتماع يرتكز على دراسة المجتمعات باعتبار المجتمع "كائن بشري" واحد وليس حبات خرز متناثرة بعيدا عن بعضها. فيتمكن علم الاجتماع من وضع نظرية التعميم إذا تطرق إلى الشعوب ووضعيتها وظروفها النفسية الجمعية (التي يشترك فيها جميع الأفراد أو أغلبهم) تحت الاحتلال ليخرج بنتائج تفسر لنا متلازمة الاحتلال؛ فليس ببعيد أثر الجيوش وقوات الاحتلال والاستعمار على الشعوب ذاتها بالعقلية الجمعية، فهي تمارس ذات الفعل على الشعب، وتحتكر حركته وتتحفظ عليه وعلى أملاكه وتكسر إرادته وتتصرف فيه كيفما شاءت، فمن الطبيعي أن يصاب أبناء هذه الشعوب بمتلازمة الاحتلال، خاصة إذا استمر هذا الاحتلال حقبة زمنية طويلة مع التأكيد على فاعلية " سر الحياة " .. وبالتالي فإن صياغة مصطلح "متلازمة ستوكهولم " في نطاق علم النفس، يقابله تكميلا وتتميما مصطلح " متلازمة الاحتلال" في علم الاجتماع. لأن علم النفس يتناول الحالات الفردية للأشخاص على حده وعلم الاجتماع يتناول الحالات الجماعية للشعوب والمجتمعات.

وللمرة الثانية يتحفنا ابن خلدون بعبقرية الفذة في تحليل العقل الجمعي للشعوب المقهورة "متلازمة الاحتلال" في صياغتها الخلدونية، فيقول؛ " في أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده: والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال في مَن غلبها وانقادت إليه إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب. فإذا غالطت بذلك واتصل لها اعتقادا فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاقتداء. ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبدا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها بل وفي سائر أحواله، حتى أنه إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير ". انتهى

وما يصفه ابن خلدون هنا هو الصيغة المعظمة من متلازمة ستوكهولم، فهو يصف حال المقهور بعد استسلامه، ولا يمكن لعلماء الأزهر أن يدركوا ذلك طالما أنهم ما زالوا في ظروف الاستسلام هذه،

لأن الضحية الرهينة لا يدرك تناقض مشاعره وأفكاره إلا بعد تحسن أوضاعه النفسية، وحصوله على قسط من الهدوء والاعتدال والاتزان النفسي. وبطبيعة الحال لم يكن ابن خلدون يقرض شعرا من وحي خياله كما العرب وإنما غاص في أعماق نفسه ومجتمعه وعقله الجمعي الذي خضع للاحتلال العربي، فلم تكن هناك في عصر ابن خلدون تجربة جمعية يمكن أن يستقي منها نظريته سوى ما عاصره شعبه وشعوب جواره تحت ظروف الاحتلال العربي، وما تحدث عنه ابن خلدون هو النموذج الشعبي المعظم من متلازمة ستوكهولم، حيث تتطابق الظروف والمسببات والنتائج. فما بالنا إذا خضع شعب للاحتلال العربي مئات السنوات متواصلة، وهذا الاحتلال مقترن بالقمع السياسي والعسكري والأمني والاقتصادي والفكري.

وأذكر مثالا بسيطا على ما ذكره ابن خلدون من عادات وشهوة الشعوب المغلوبة في تقليد الغالب المنتصر السائد المسيطر، فما زالت هذه الملامح سارية في عصرنا، وأولها أننا مازلنا نعتبر من احتل وطننا بطلا، ونتشبث بمسمياتهم وألقابهم، لدرجة أن السلفيين في مصر وهم الموالي الأكثر ولاءً للعرب، عندما يبرز اسم شيخ سلفي فيختارون له اسما أعرابيا من الأسماء السائدة في شبه الجزيرة، ويا حبذا لو كان من جيل الأوائل الذي احتلوا وطننا، وفي أضعف الأحوال، ومتلازمات العرب هي "أبو" و"ابن " فمثال" أبو إسحاق الحويني" وحازم صلاح أبو إسماعيل، وأحيانا يضعون لاسمه متلازمة "بن" فيصير كما العرب، مثال" الشيخ السلفي محمد إسماعيل المقدم، زعيم السلفية بالإسكندرية، يصبح اسمه " محمد بن إسماعيل المقدم" كما عادة العرب أن يتفاخروا بالأنساب والأصول العرقية فيضعون قبل كل اسم متلازمة "بن " مثل عمرو بن العاص، وعقبة بن نافع..إلخ.. وكأنها علامة الشرف وبرغم أن السلفية في مصر لا يعرفون المغزى من هذه المتلازمة ولا صلة لها بالدين إطلاقا سوى كونها من بقايا العرب في مصر، لكنها دليل على ما يقوله ابن خلدون من شهوة المغلوب المركوب في التشبه بالغالب.. وكذلك أفتى الشافعي بأن الخليفة لا بد أن يكون قرشي الأصل.. فالعقل في هذه الحالة يفقد إرادته ويفقد بوصلته الحرة ويعتبر القوة هي الحق، وأن المنتصر هو صاحب الحق، وتجعله يتضامن مع المنتصر ضد الضعيف المهزوم بل ويحمله الذنب.. كما كثير من الناس اعتادوا أن يحملوا الضحية المسؤولية عما يحدث له ويلقون عليه باللوم، وهذه ظاهرة رصدها علم النفس حديثا.. فنحن بهذه الجريمة نشارك العرب في الإجرام ضد وطننا باسم الدين...

والغريب أن السلفيين في مصر يلقنون الأطفال عقيدة عبودية غريبة، فهم حريصون كل الحرص على أن يكون كل عربي وأعرابي "سيدا لهم" طالما كان مسلما عاش في صحراء العرب، حتى الفاسقين والسفاحين وأولاد الدعارة والمنافقين منهم أمثال الخليفة معاوية أبي سفيان حصل على لقب

" سيدنا ". فكل عربي وأعربي مسلم هو صحابي جليل، وكل صحابي هو سيدنا، وسيدنا هذا بالنسبة للمرويات المقدسة فقط، أما بالنسبة للمستوى الحضاري والعلمي فهو لا يصلح أن يكون عبدا حتى هذا بمعيار الحضارات العلمية. وبالتالي يجب على المدارس السعودية أن تعلم أطفالهم أن الملك رمسيس سيدا لكل العرب، وعليهم أن يتعلموا من سيدهم تحتمس النزاهة والإنسانية مع البطولة، وعليهم أن يتعلموا الوطنية والزعامة من سيدهم مينا نارمر، وعليهم أن يتعلموا التضحية والفداء من سيدهم سقنن رع، وعليهم أن يتعلموا الوطنية والشجاعة من سيدهم أحمس، وعليهم أن يتعلموا الأدب والحكمة من سيدهم الحكيم المصري " آني "..إلخ. وشرف لهم لو كان يعلمون أن يكون أسيادهم هم أجدادنا أصحاب الحضارة والعلوم. وعليهم أن يخلصوا أنفسهم من السادية لأن النفط لن يدوم...

وقد يقول قائل بأن نظرية متلازمة ستوكهولم ليست عامة أي لا تنطبق على جميع الأفراد المرتهنين الواقعين تحت التهديد والتحفظ والارتهان، وأن نظرية ابن خلدون عن متلازمة الاحتلال ليست عامة ولا تنطبق على جميع أفراد الشعب وطوائفه، بدليل أن هناك في مصر يهود ومسيحيين تعرضوا لذات الظروف ولم يستسلموا ولم يؤمنوا بأفكار العرب ويتبنوا تصوراتهم عن الجهاد والفتوح، وما زالوا يطلقون عليه احتلال.. في الواقع إن الأثر النفسي لا يظهر بذات الملامح وبذات الدرجة في كافة الحالات، وإنما يكون الأثر على حسب التكوين النفسي، لأن الأثر الخارجي هو عامل أو عنصر واحد متفاعل مع عنصر آخر هو المكون النفسي الداخلي للإنسان، وهو الوعاء العقلي المستقبل للأثر الخارجي. وهذا ما يعني أن النتيجة لا تتحدد فقط بحجم الأثر الخارجي الفاعل، وإنما حسب المحتوى المستقبل لهذا الأثر أيضا، بل إن إمكانات الوعاء وظروفه وسماته تكون لها الأثر الأكبر في تحديد وجهة النتائج، فلو تعرض رجل وامرأة لذات ظرف الارتهان والاحتجاز، بالطبع ستكون حال المرأة مختلفة تماما عن حال الرجل حتى وإن استسلما معا وخضعا للارتهان، لأن التكوين النفسي والوعاء مختلف.

وبالنظر إلى أن المجتمع متنوع كذلك من حيث التكوين النفسي للأفراد، ما بين رجال ونساء وأطفال وشباب وكهول..إلخ. ويتنوع كذلك ما بين سكان القرى وسكان المدن وسكان الصحارى المتاخمة للقرى..إلخ. فيختلف التأثير بالطبع على كل فئة من هؤلاء رغم وحدة العامل المؤثر الخارجي، وتختلف معدلات الاستجابة لهذا الأثر الخارجي، وفي الوقت ذاته تختلف صور التعبير أو الاستجابة لهذه الأثر رغم وحدة العامل الخارجي. وبالنظر إلى انقسام المجتمع المصري ما بين مسلمين وأقباط مسيحيين، فالمسلمين هم من استسلموا بسرعة لهذه المؤثرات الخارجية وتضامنوا مع العرب الفاتحين ووالوهم على وطنهم ومالهم وجيرانهم واقتنعوا بأفكارهم وطريقتهم في السطو والهجوم

واعتبروها نضال وجهاد مقدس، وساعدوهم في اضطهاد المسيحيين في مصر.. أي أنهم فقدوا تماما القدرة على التمييز العقلي وانهارت قدرتهم على المقاومة، وقبلوا الخضوع للعرب واقتنعوا به وتقمصوا عقليتهم. أما المسيحيين فقد كانوا أكثر صمودا أمام هذا المؤثر الخارجي فرفضوا الخضوع وتمسكوا لأطول فترة ممكنة ثم بدؤا يتساقطون واحدا تلو الآخر بعدما انهارت تماما روح الصمود والمقاومة في نفوسهم وأجيالهم، حتى تحول أغلبية الشعب إلى مسلمين

وهذا شيء جيد لكن الطريقة هي الخطأ، فلم تكن اختيار قرين بحرية الإرادة الكاملة، وحرية الإرادة قرينة بحرية الوطن في المقام الأول، بينما الوطن عاش ٢٠٠٠ سنة متواصلة تحت الاحتلال، وهذا ما يعني أن الإرادة العامة لم تكن حرة خلال الفترة التي دخل فيها الإسلام مصر، ولذلك يجب علينا إعادة صياغة المفاهيم الدينية والوطنية بشأن الجهاد والفتح الإسلامي والخضوع للخلافة القرشية وغير ذلك من المفاهيم التي نشأت واستقرت خلال حقبة الألفي سنة احتلال تنازل المصريون فيها تدريجيا عن هويتهم حينما غيروا خط الكتابة من الهيروغليفية والديموطيقية والهيروطيقية إلى الخط اليوناني في عهد الاحتلال اليوناني، وغيروا لغتهم كاملة في عهد الاحتلال العربي وما زالوا في غيبوبة ولم يدركوا أنه احتلال، ولأن المفاهيم الصحيحة هي تلك التي أرساها أجدادنا الفراعنة خلال عصور الدولة القديمة والوسطى والحديثة، وحتى عصر احتلال اليونان فقط أو حتى توقفوا عن تحنيط موتاهم، حيث كانت الإرادة الجمعية قبل ذلك حرة في ظل وطنٍ حرٍ يملكونه ويتحكمون فيه بإرادة حرة، وقد بدأ انهيار الإرادة وخضوعها لاحتلالات متوالية عبر ٢٠٠٠ سنة وجفت منابع العقلية العلمية وانحصرت الثقافة في قربة المعرفة السائلة الراكدة متمثلة في الثقافة الدينية والتراث الشعبي فقط ما أدى لترهل العقل المصري ودخوله مرحلة السكون الشتوي، بما يعني أن العمود الفقري للحضارة الجبتية قد انحنى وانبطح ألفي عام، لهذا يجب إعادة النظر في المفاهيم الاجتماعية التي تم صياغتها واستقرت خلال هذه الحقبة كاملة، لأن سقف الحريات لم يكن ملكا للمصريين.

حتى وإن قلنا أن العرب ليسو هم سبب حالة الاضمحلال الحضاري التي أصابتنا هذه لأنهم دخلاء عليها، ولأنها بالفعل بدأت قبل ظهور العرب وبداية دخول عصر اليونان، فالعرب لم يكونوا السبب في اضمحلال مصر ألفي عام حتى يومنا هذا، لكن تراثهم وثقافتهم أصبحت غبارا على العقل المصري الذي اعتنقه خلال فترة الاضمحلال الطويلة هذه، وما كان ممكن للمصريين أن يعتنقوا ويقتنعوا بهذا الغبار إلا إذا كانوا فعلا في حالة غيبوبة، وهذا الغبار أصبح مانعا حاجبا للأفق وعقبة كؤد أمام نهوض العقل المصري مرة أخرى، وعليه إعادة تطهير عقله ومفاهيمه وإنعاش ذهنه وتصفيته من كل

ما علق به من آثار الصحراء العربية أولا. فهناك قرينتان تدفعان العقل المصري إلى إعادة تدوير قناعاته ومعتقداته وإعادة صياغة المفاهيم الدينية والاجتماعية والوطنية التي استقرت خلال حقبة الألفي عام هذه. القرينة الأولى هي انحلال العمود الفقري للحضارة الجبتية (فقدان الإرادة وسكون العقلية العلمية في ظل حالة التردي الحضاري، وتحول العقل الجمعي من طور الراعي للشعوب المجاورة له إلى دور الرعية للروم واليونان والعرب ثم المماليك والعثمانيين والإنجليز..إلخ) والقرينة الثانية مزدوجة على محورين؛ الأول أن المصريين استقبلوا الدين والثقافة العربية واللغة العربية قرينة بسيادة وسطوة العرب وتسلطهم على مقاليد الحكم في مصر، أي استقبلوا الدين وهم في دور الرعية وليس الراعي، كان العرب في السيادة السياسية والعسكرية بينما المصريين في طور الرعية مسلوبة الإرادة، والثاني أن العقلية العربية أدبية متوحشة سلوكيا وفكريا ولا تستأمن على دين بينما كانت العقلية الجبتية علمية وأطفئت شعلتها بمضخات الأدب العربي.

وبالتالي فإن المصريين الذين اعتقوا الإسلام خلال أي فترة من هذه الألفي عام لم يعتنقوه بإرادة حرة حرية كاملة لأنهم لم يتمتعوا بحرية الإرادة الكاملة ولم يكن وطنهم حرا، استسلم أغلبهم لكثير من عوامل وظروف مفروضة عليه فكريا وثقافيا واجتماعيا وأمنيا وعسكريا..إلخ. وبقي الأقلية المسيحية حتى عصرنا، برغم أنهم أيضا بحاجة لإعادة صياغة المفاهيم الدينية والاجتماعية خاصة في مسائل الطلاق وحالات الانفصال التي تفرض على الإنسان أن يعدم نفسه إن لم ينجح الزواج الأول، وإلا ستطلق الكنيسة عليه كلاب الحراسة، لأنهم جميعا اعتنقوا المسيحية خلال فترة الاحتلال الروماني، وإن كان بحرية كاملة لكن الإرادة العقلية ذاتها كانت تعيش حالة من القهر العام ولم تتمتع بسقف الحريات، وكل الفرق أن المسيحية دخلت مصر على منبر الدعوة، بينما الإسلام تعرض للسحق والظلم العربي إذ بشروا به الشعوب على نصال السيوف وأسنة الرماح وحوافر الخيول والبغال.. ولكن لا يمكن القول بأن أثر متلازمة الاحتلال لم تظهر عليهم أو أنهم لم يخضعوا للعرب.. هم خضعوا للعرب وظهرت عليهم الأعراض الخاصة بمتلازمة الاحتلال لكن بصورة مختلفة نسبيا، وهي تتمثل في حجم القمع والظلم الذي تعرضوا له في مصر على مدار ألف عام من العرب ومن المسلمين أنفسهم، لأن أجدادنا المسلمين الأوائل كانوا مؤمنين بفلسفة العرب ومن ثم عاملوهم بذات فلسفة العرب ومن هنا ظهرت الطائفية في مصر واصطلاح "عنصري الأمة" المقيت،[1] وفي كل حادثة يكون

[1] ـ اصطلاح "عنصري الأمة" الذي يتم تداوله في المحافل الوطنية والسياسية ليس صحيحا، لأنه نشأ على قاعدة تفرقة دينية وليست وطنية مدنية، في حين أن المناسبة تكون سياسية وطنية مدنية، مع أن أصل ملكية الوطن بالتساوي وليس حسب الديانة، فكل مواطن مسلم يمتلك من الوطن بقدر ما يمتلك المسيحي، والحقوق المدنية متساوية والحقوق السياسية متساوية، وحقوق الدفاع وواجباته متساوية، وكلمة "الأمة" هي مفهوم مدني وليس

المسلمون هم المنتصرون بظلم، ويتراقصون فرحا بسذاجة وكأن إيقاع الظلم على المسيحي عقوبة له لعدم اعتناقه الإسلام، فيقومون بهدم الكنائس وإشعال النار فيها وقتل وتهجير وتفجير وعمليات إرهابية كل يوم ضد المسيحيين، واتهامهم بالكفر... حتى قالت إحدى السيدات وهي مسيحية مصرية، قالت: قتلتمونا بإيمانكم ولم نؤذكم بكفرنا "..

وهذا ما قد يعني أن المسيحيين في مصر أكثر إنسانية وتسامحا من إخوانهم المسلمين (ليس بسبب الإسلام ولكن بسبب متلازمة الاحتلال التي جعلت المسلمين يتصرفون بعقلية العرب) إذن فالمسيحيون قد استجابوا لمتلازمة الاحتلال لكن بصورة مختلفة، هي خضوع اضطراري للاضطهاد، وخضوع اضطراري لدفع الجزية، وخضوع اضطراري لمصطلح أهل الذمة الذي يكرهونه، وخضوع اضطراري للتحدث باللغة العربية، وهي لغة المحتل وهجر لغتهم الأم، وخضوع اضطراري لتجهيل الثقافة والتاريخ طالما تم هجر لغته الأم، وخضوع اضطراري لدراسة تاريخ الفتوحات الإسلامية المقدسة في المدارس لأبنائهم المسيحيين، وخضوع اضطراري لتبني الثقافة العربية، واقتناع اضطراري بأن مصر دولة عربية، وجزء من تاريخ وثقافة شبه الجزيرة العربية الصحراوية المجاورة لنا، وخضوع اضطراري لأن تكون أجازاتهم وأعيادهم في أيام العمل الرسمية، وخضوع اضطراري لاعتبار شخصيات الاحتلال العربي رموز قومية لهم يدرسها أبناءهم في المدارس، وخضوع اضطراري في تحجيم بناء الكنائس إلى حدٍ ما، وخضوع اضطراري للعيش في خانة "الأقلية" والازدراء دائما من قبل المسلمين...

هذا ليس دفاعا عن المسيحيين ولا أتمنى أن يقرءوه، لأنه عيب في حقنا نحن المسلمين، إنما تحليل للحالة النفسية التي يعيشها المواطن المصري (مسلم ومسيحي على السواء)، لأن المسلمين أغلبهم للأسف يتحامل على المسيحي ويظلمه، وتناسي أن النبي كان كريما حليما في أخلاقه ومعاملاته عطوفا على الغير، بل إن اضطهاد المسلمين في مصر للمسيحيين لهو الدليل الأقوى على خضوعهم لمتلازمة الاحتلال وشعورهم بالضعف النفسي المستمر (بلا وعي ودون إدراك)؛ لأن الضعيف هو الذي يؤذي غيره في مشاعره وينتهز الفرصة للانتصار عليه والإجرام بحقه والرقص فرحا بهذا الانتصار في أي مناسبة وكأن الإجرام بحق غير المسلم هو جهاد!، إنما القوي دائما يكون كريم الأخلاق، يُعطي قبل أن يأخذ، يمنح الأمان للضعيف ولا يستقوي عليه أبدا، وليس في حاجة لأن يستقوي بنفسه على

ديني لأن مفهوم الأمة من الناحية الدينية يعني أم المسلمين أمة مستقلة والمسيحيين أمة واليهود أمة..إلخ. أمم مستقلة، إنما اصطلاح الأمة المصرية فهو يحمل مفهوم وطني بحت، وكما قلنا من حيث الحقوق الوطنية فالجميع متساوٍ تماما، فلماذا يتم شطره نصفين على أساس ديني ! .. هذا كان صدعا ثقافيا في جسد الوطن عندما دخله العرب لماذا نحافظ عليه إلى الآن !

الآخرين الضعفاء الأقلية. فعقب وقوع مجزرة في مسجدين بنيزلندا في مارس ٢٠١٩ راح ضحيتها خمسين مسلما على يد إرهابي عنصري، خجل الشعب النيوزلاندي بإنسانيته وتضامن مع المسلمين وأهالي الضحايا، وأشعلوا الشموع وملأوا الشوارع بالورود والبالونات عليها أسماء الضحايا وقدموا تبرعتا لأهالي الضحايا وصلت إلى ٣,٥ مليون دولار ومراسم تأبين للضحايا حضرها ٢٥ ألف مواطن.. لكن العكس ما يحدث في بلادنا أننا نستقوي على المسيحيين في مصر بالغلبة، بل إن الإخوة السلفيين رفضوا المشاركة في ثورة ٢٥ يناير ضد الظلم والفساد على خلفية مشاركة المسيحيين فيها !

كتب الأستاذ شنودة عز تحت عنوان " إذلال الأقباط في المنيا! " في منتصف العام الجاري ٢٠١٩م

" هل تذكرون السيدة القبطية "فرنسا يوسف" التي اختفت من سنه وأهلها وزوجها كانوا فاكرينها مخطوفة!

لا يا مؤمن الأخت فرنسا لم تكن مخطوفة ولا حاجة كما كنا نظن.. بل كانت هاربة من زوجها وتركت أسرتها وعائلتها وبيتها عشان بتحب واحد مسلم وعايره تتزوجه وأشهرت إسلامها عشانه وتزوجته بالفعل! طبعا لو كان العكس والسيدة كانت مسلمة وتنصرت وتزوجت قبطي كانت ستعتبر جريمة زنا لأنها جمعت بين زوجين!

لكن على العموم ليست هذه هي المشكلة.. عارفين المثل المصري بيقول "ساكتناله دخل بحماره " ..هو بالضبط ما حصل مع أقباط قرية "على باشا" البلد التي يعيش فيها الزوج القبطي المغلوب على أمره .. فالأستاذة الفاضلة فرنسا بعد ما هربت من زوجها مع "البغل" بتاعها قررت بكل بجاحة أن تعود مرة أخرى هى وزوجها المسلم إلى منزلهم في القرية بجور منزل زوجها القبطي!

متخيل أنت يا مؤمن إن سيدة تهرب من زوجها القبطي وترجع تعيش مع زوجها المسلم في منزل قريب من منزله .. متخيل شعور أخواتها وأهلها والذل والمهانة التي ستلحق بأسرة الزوج القبطي.. متخيلين شعور الزوج القبطي وهو شايف زوجته التي هربت وتركته لتعيش في الحرام مع شخص آخر بتقول عليه جوزها!

وبرضو يا مؤمن مش دى المشكلة خالص .. إنما المشكلة يا مؤمن هى باختصار بعد ما الزوج المغلوب على أمره وأقباط القرية قبلوا بالأمر الواقع.. الإخوة المسلمين الأفاضل في القرية قاموا بكل بجاحة ووقاحة بعمل زفة فرحا وفخرا بعودة السيدة القبطية الهاربة إلى القرية بعدما أعزت الإسلام

والمسلمين وحققت لهم النصر المبين وأشهرت إسلامها! لكن وقاحة أهل القرية المبجلين لم تنتهي عند الاحتفال فقط، بل قاموا بدعوة الزوج وأخواتها إلى إشهار إسلامهم أيضا حتى يلحقوا بالزوجة الخائنة في موكب النصر الديني المزيف!

طبعا أنا لست في حاجة لتذكيركم إن لو كان حصل العكس والسيدة كانت مسلمة وهربت مع شاب قبطي إيه ماذا كان سيحدث مع أقباط القرية، وأكيد هذا الشاب القبطي كان هيروح ورا الشمس ولن يعرف له أحد طريق جره.. وحاليا أقباط قرية "على باشا" يستغيثوا بالمسئولين طالبين النجدة والمساعدة .. يطالبون أن يتم تفعيل القانون وإنقاذهم من هذا الذل والمهانة .. فهل من مستجيب ؟!

الحقيقة أنا عاجز عن مساعدتهم ولا أملك غير قلمي الذي أكتب به قصتهم في هذه المقالة، فأرجوا المشاركة.. حتى يصل صوتهم للرئيس والهيئات الدولية والحقوقية ويتم تفعيل القانون وإنقاذهم ومعاقبة هؤلاء المتطرفين ".

ومن هذه الواقعة التي اشتهرت في كافة وسائل الإعلام بذات التفاصيل التي ذكرها الأستاذ شنودة عزت في مقالته، نفهم أن هناك أزمة وإشكالية في الوضع الاجتماعي، والأكثر انحرافا في العقل الجمعي هنا هم المسمون كما يتضح، إذ أنهم لم يدركوا كون هذه السيدة تركت أطفالها وهربت وراء الخليل، بل فقط يفكرون أنها أعزت الإسلام والمسلمين مع أنها لم تسلم في الواقع هي لبت رغبة خليلها كي تتزوج منه فقط، ولا علاقة لها لا بإسلام ولا مسلمين، ثم أنها ماذا أضافت للإسلام والمسلمين ؟! فهم كثر وبالملايين لكنهم كغثاء السيل ! إنما المشكلة في غريزة الشعور بالانتصار على فئة مسيحية في القرية واستضعافها وإهانتها وإذلالها، وهذا نابع من شعور بالضعف والخزي يسكن العقل الجمعي وهذا الشعور دائما ما يبحث له عما يعوضه ..

فكلا الفئتين من المواطنين الجبتيين قد تعرضوا لمتلازمة الاحتلال وجاءت استجاباتهم متنوعة، كما تتنوع الاستجابة بين الرجل والمرأة حال تعرضهم لذات الظرف أو لتهديد واحتجاز وارتهان، ولا نقصد تشبيه المسلمين بالمرأة التي استجابت أسرع وانهارت واستسلمت دون مقاومة، لكن في الواقع نجد أن المسلمين المصريين -في الغالب- عاطفيين أكثر من المسيحيين، حتى أننا نجد فئة السلفية التي تقوم ثقافتها بالكامل على المشاعر الجياشة والخطب الرنانة دون أي موضوعية أو عقلانية في الفكر، وتبعية كاملة للماضي ونوستالجيا الصحراء العربية دون أي وجهة نحو المستقبل، هذه الفئة بمشاعرها السائلة المرهفة لا نجد لها مثيلا عند المسيحيين في مصر، وهذا يؤكد أن المسلمين في

الغالب عاطفيين أكثر ولهذا كانوا هم الفئة التي استسلمت للعرب بسهولة وأصبحوا موالي. ربما نجد المسيحيين موضوعيين أكثر إلى حدٍ ما، لكن الحقيقية أنهم عقلانيين أكثر نسبيا، فالفئة الأكثر عاطفية قد مالت واستمالت للعرب وخضعوا سريعا لمتلازمة الاحتلال العربي وشكلوا هم نواة "الموالي" الذين استسلموا وتضامنوا مع العرب عند دخولهم مصر، وأصبح الموالي هم أغلبية الشعب اليوم وارتضوا بما ارتضى به أجدادنا الموالي الأوائل، حتى أنهم تطبعوا بطبع العرب وأسموا دولتهم دولة عربية واعتبروها مجرد امتداد لصحراء شبه الجزيرة، وتجاهلوا تماما الحضارة الجبتية العريقة العظيمة..

برغم أننا إذا عدنا لتاريخ أجدادنا الفراعنة الجبتيين سنجد عندهم تنوع في الديانات والعبادات كثير جدا، لكننا لا نعثر على أي أثر للتمييز بين المواطنين على أثر اختلاف الدين، لم يردنا وصف مواطن أو تعريفه بديانته، ولم يتم تفتيت القومية وتصنيف المواطنين بين من يعبد الشمس ومن يعبد آمون ومن يعبد حورس.. فبرغم هذا التنوّع إلا أنهم عاشوا في وفاقٍ تام، وكان الحديث عن الديانات يأتي في سياق الديانة نفسها وطقوسها دون علاقة بشخص أو أشخاص يمارسونها دون غيرهم، حتى أسماء الكهنة لم تكن رموز لامعة في المجتمع المصري القديم ولم تلتصق بالشعائر الدينية عندهم برغم أن الحضارة الجبتية هي أكثر الحضارات القديمة التي ارتبطت بفكرة الدين والعبادة، لكنهم كانوا متسامحين مع أنفسهم ومع غيرهم، لا يعاقب أحدهم أو يزدري آخر على عدم اتباعه ديانته، كان الدين حرية وخصوصية كاملة بين الفرد وقناعته..

فإلى الآن لم يتمكن باحثوا الآثار من تمييز الديانات الجبتية القديمة حسب أشخاص يمارسونها دون غيرهم ولا نجد تقسيم لفئات المجتمع بين آمونيين وحورسيين ولا دينيين...إلخ. فلم يكونوا طوائف دينية أو مذاهب وفرق، كان لديهم ديانات بدون زعامات دينية، إنما كانت الديانات كيانات عقائدية، بينما المواطنون أفراد وليسو كتل أو كيانات وتحالفات ضد بعضهم البعض، والحديث فقط يدور عن الديانة ووجودها وطقوسها، دون رموز وشخصيات مسيطرة على طوائف..[1] بينما خلال حقب

١- وأيا كان الوضع، سواء كان أجدادنا الفراعنة كافرين أو ملحدين أو مشركين أو يعبدون آمون وحورس.. فبوجهٍ عام أنا لست مقتنعا بأفكار والدي وعقائده، وأمي قد لا تعرف شيئا عن الدين، لكنني مضطر لاحترامهما وتقديرهما شخصيا كما يأمرنا ديننا الحنيف، فقد قال الله في حق الوالدين ما لم يقله بشرٌ من قبل، وما قيل في حق الوالدين يقال في حق الجد والجدة حيا وميتا، وما يقال في حق الجد والجدة يصل إلى الأجداد الفراعنة القدامى الذين جئنا نحن من أصلابهم، ولولاهم ما كنا موجودين على وجه الأرض، فالله تعالى هو المسبب وجعلهم سبب في وجودنا.. وليس من الحكمة التنكر لهذا السبب باعتباره سبب كافر، لأنه لم يؤذنا إنما أفاض علينا بعلمه وخيره وحضارته، ومن الحكمة أن نحسن إليه بقدر ما أحسن إلينا، لا أن نأخذ حضارته وعلمه ونتهمه بالكفر ونعامله بازدراء... إنما العرب هم من تعاملوا مع أجدادنا الفراعنة بهذه النظرة لأن العرب لا يملكون حضارة مثلهم وبالتالي دائما ما يسعون لتشويه الحضارة المصرية لأنها تكشف عوراتهم وتفضح جهلهم

الضعف التاريخي والاضمحلال الحضاري وانسلاب الإرادة الجمعية بداية من عصر الرومان وحتى يومنا هذا ألفي عام وقد فشت التفرقة والتمييز بين المواطنين، والتباغض بين أصحاب الديانات المختلفة، بدأ الاختناق النفسي وضيق الأفق نتيجة التعرض لضغوط الحياة المختلفة وفي ظروف الاحتلالات المتوالية، ضاقت النفوس وذابت سعة الصدر ولم تعد قادرة على استيعاب وهضم الاختلافات، تحولت نظرة التنوع إلى نظرة اختلاف، والاختلاف أصبح تنافر وتباغض، وبداية من عصر دخول العرب مصر كان كل مواطن يتم بصم قفاه بخاتم يحمل ديانته، وكان الختم أصناف (موالي ومسيحيين ويهود) وللأسف ما زالت مصر تضع بصمة هذا الختم إلى اليوم ليس على قفا المواطن ولكن أنزلته إلى بطاقة رقمه القومي، فصارت خانة الديانة بديلة عن الختم. أي أن الدولة تتبنى توجه الطائفية، ثم تعود لتحارب الطائفية والإرهاب !

هذا ما حدث في مصر عقب دخول العرب فالعرب حينما دخلوا مصر وفرضوا حكمهم على الشعب المصري حطموا معنوياته تماما واستطاعوا أن يجعلونا نكره حضارتنا وتاريخنا ونتنكر لأجدادنا المصريين الفراعنة ونتملص من قوميتنا ونتبنى قومية العرب، واستمر الأزهر يدرس طريقة الاقتحام ويصفها بالقدسية.. فقد آمن أبناء هذه البلاد بأفكار العرب وقيمهم ومبادئهم واقتنعوا أنه دين الله، حتى صار العرب آباء روحيين للشعوب ترتمي في أحضانهم، وتقدس ذكراهم وعاداتهم وتحتفي بتاريخهم وتعتبره قدوة روحية، ولذلك نجد كافة عادات العرب وسلوكياتهم وحتى أمراضهم وعللهم النفسية نجدها صارت قواعد دينية في كتب الفقه، وبالتعمق والبحث في القرآن لا نجد لها أي أثر سوى في المرويات، وهي الثقافة الدينية الشفوية التي نقلها العرب إلى هذه الشعوب، بينما الدين برئ منها. وكانت هذه المرويات هي التربة الخصبة التي يستطيع العرب تطعيمها للشعوب لأنهم لم يستطيعوا العبث بالقرآن، فمالوا إلى تعطيل سلطاته وتجميد صلاحياته بالنسخ والمنسوخ وغيره، وفي المقابل نجد المرويات زادت صلاحياتها وزهوتها في التشريع.

دائما وهي وصمة عار في ظل حضارتهم الهوجة التي لم تستمر ٢٠٠ سنة بسواعد الغير وسقطت بسواعدهم... بل الأكثر من ذلك أن نجد اليوم سعودي يتفاخر بنفسه ويتهكم على المصريين، فيقول: عندما كان العرب ينشرون اللغة العربية، كان المصريون يرسمون طيور على جدران المقابر (يقصد الأهرامات والمقابر الملكية الفرعونية) فحينما كان أجداده الصحابة يكتسحون العالم بالسيوف لنشر الإسلام، ودخلوا مصر وشاهدوا حجم العمارة والحضارة أطلقوا على كتابات ورسوم المصريين - قلم الطير- ولم يفهموه بالطبع لكنهم الآن يتفاخرون بأنهم نشروا لغتهم العربية .. بينما كان أجداده الصحابة يقولون أنهم ينشرون الدين وليس اللغة، لكنه يحاول الهروب من وصمة العار التي ألحقوها بالدين من جراء فتوحاتهم وغزواتهم، فيحاولون العدول بالغاية من سبب ديني جهادي إلى سبب حضاري - نشر اللغة - !! فأكنهم قتلوا ملايين البشر وسبوا مئات الآلاف من النساء والفتيات والأطفال واستعبدوهم لنشر اللغة العربية !

فأغلب العلماء الشرعيين النابغين في العلوم الفقهية كانوا من غير العرب، كانوا من البلاد الأجنبية المكسورة تحت أقدام العرب. ذلك لأن العرب ذاتهم لم يعتادوا فكرة الارتقاء الحضاري أصلا، فلم يفكروا أن يأكلوا من عمل يدهم ولم يجلسوا في بلادهم ومزارعهم ومصانعهم ليعمروا ويبنوا ويبتكروا ويعمروا الأرض ويبنوا الحضارة، ومن ثم ينتشر الدين بسمعة الحضارة أخلاقها ودينها، لأنهم لا يعرفون العمل والبناء والإنتاج، هم فكروا في الغزو والكر والفر بالسيوف في الصحارى لنهب غيرهم لأن هذه عادتهم وهذه حياتهم الإغارة. ولم تكن حياتهم منذ البداية قائمة على اعتبار الحاجة أم الاختراع أو استزراع الأراضي وتصنيع وابتكار ما يلزم حياتهم من حاجات سواء صناعية أو زراعية أو معمارية، بل توقفت حياتهم عند حدود الخيمة وأوتادها وحياة الرعي في الصحراء بنمط ثابت على مدار آلاف السنين لا يتغير قيد أنملة، فلم يكن في أذهانهم وعي أو إدراك أن البشر يتقدمون جيلا بعد جيل، فجميع الشعوب والحضارات ابتكرت وصنعت الورق والكتابة، وبرع المصريون في صناعة البردي منذ العصر الحجري بينما بقي العرب يكتبون أشعارهم على جلد البعير تارة وعظمه تارة أخرى. حتى في عصرنا الحالي نهضت دول العرب على الاستهلاك من عائدات النفط لا على الإنتاج والعمل والبناء، فقط نبغوا في الشعر والهجاء والفخر والفروسية. ولم يخرج من العرب عالم واحد على مدار التاريخ البشري بأكمله؛ أي أن نهضة العرب حتى امتنعت عن هضم ما قدمه لهم النبي وحرفوه بعد وفاته، فقد انحرفوا عن مساره وبدؤوا في طريق الغزو. استغلوا جيش الدفاع النبوي في مهمة شيطانية لغزو بلاد العالم وهدم الحضارات.

وفكرة الغزو هذه فكرة بشرية شيطانية ومارستها كافة الشعوب لكنها حرفة العرب، وكافة الشعوب نجحت في الغزو والبناء والصناعة والتجارة والحضارة عدا العرب نجحوا في الغزو وفشلوا في بقية المواد البشرية.. ولم يأت بها الإسلام إطلاقا، إنما العرب بعد وفاة النبي محمد تركوا منهجه وعادوا لطبيعتهم البشرية ومارسوا الغزو والعدوان على الشعوب المجاورة لهم واحتلال أراضيهم ونهب واستغلال ثرواتهم وخطف نسائهم وأطفالهم بذرائع مختلفة مرفوضة شرعا لكنهم جعلوها جهادا في سبيل الله، ولما كان الفقهاء قد اعتبروا عصور الصحابة الأوائل هي عصور راشدة ويجب الاقتداء بها باعتبارها نموذجا حيا لتطبيقات النبي للإسلام، فلما انحرف العرب وغيروا غاية الحرب الدفاعية في الإسلام إلى غايات هجومية لتوفير مصدر دخل لهم، انحرف معهم الفقهاء بذات القدر وشرعوا للقتل والغزو والعدوان بحجج وذرائع فقهية مختلفة ليست من الإسلام في شيء، بل إن الكثير منهم قد اخترع بابا من الفقه أسماه (جهاد الطلب) وحين تعريفه يقول الفقهاء "الإغارة " أي الغزو الهجومي للشعوب المجاورة واعتمدوا في تأصيل ذلك على تأويل الآيات التي تساعدهم على تحفيز

الناس، واعتبروها بأنها أمر لقتال من عليهم الدور من الشعوب المجاورة، اخترعوا لأنفسهم وظيفة جديدة في الحياة وهي الغزو للشعوب المجاورة بالدور، أي الأقرب فالذي يليه، وبذلك استمرت آلات القتل البشع حتى جابت العالم شرقا وغربا وكانت في الواقع وبعد مرور أكثر من ألف عام، كانت في الواقع عقبة في سبيل انتشار الإسلام إلى اليوم. لأن المقبلين على الإسلام يقرؤون عنه فيجدونه مندمجا بالتاريخ، وكثير من أحكامه الفقهية مشتقة من أحداث تاريخية ملوثة بالدماء، وما هو تاريخ الإسلام ولكنه تاريخ العرب..

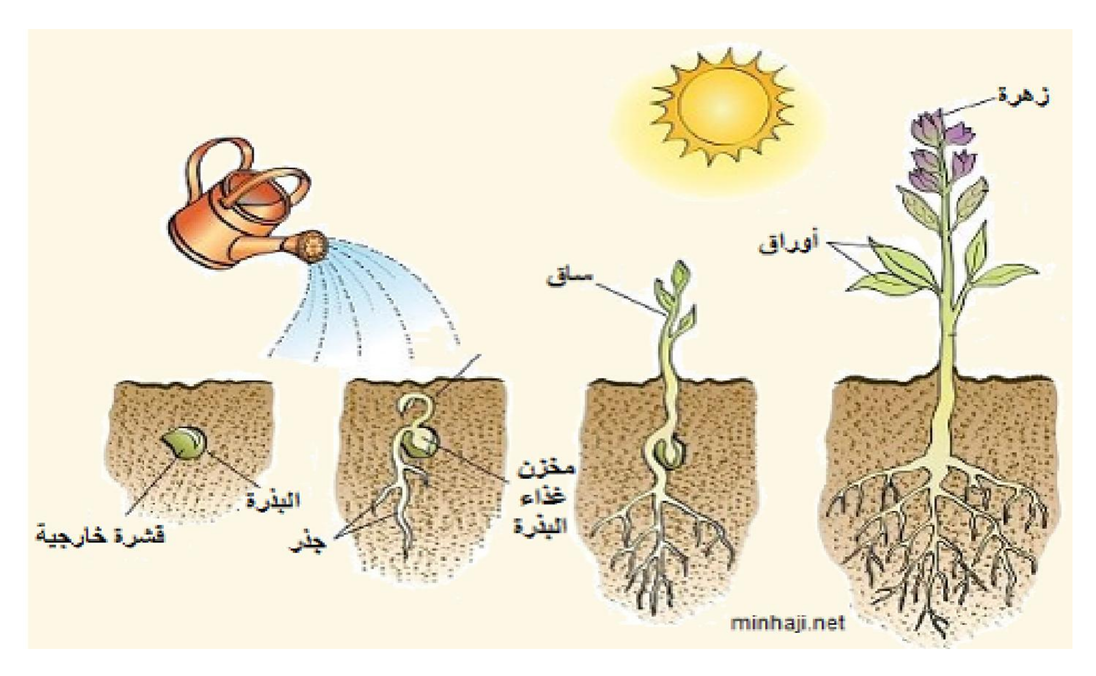
على كل حال، الإنسان الجبتي حياته وفكره وسلوكه وأخلاقه مختلفة جذريا عن العربي، فهناك فرق بين القط الأليف الذي اعتاد العيش في مجتمع مدني نظيف، يدمن العمل والبناء والفكر والإنتاج، وبين ثعلب الصحراء الذي اعتاد الخطف والهرب في الجبال، ولا يمكن لهذا الثعلب البري أن يتحول إلى قط مدني أليف حتى وإن جاء الطوفان مرة أحرى.. إلا إذا تمت إعادة ترتيب جيناته الوراثية وتهجين الحمض النووي؛ لأن الله أراد أن يكون خلقه متنوع الأشكال والألوان والطباع.. ولهذا كانت رؤية ابن خلدون ثاقبة جدا إذ أنه قام بتحليل العقلية العربية وغاص في عمقها النفسي وأدرك أنها لا يمكن أن تبني حضارة، برغم سيطرة العرب وقتها على نصف العالم تقريبا، لكن كانت ما تزال النفسية البدوية الفوضوية مغروسة بداخلهم، فابن خلدون تحدث عن ميلهم لهدم العمران لعدم قدرتهم العقلية على استيعاب معنى العمران، والعمران في لغة ابن خلدون يعني الحضارة البشرية، ويؤكد ابن خلدون أن العرب ليسوا من أصحاب الحرف والصنائع أو العلوم، وأن الأثر الديني في نفوسهم لم يغير من طبيعة العقلية الهمجية القائمة على النهب والسلب والهدم والسطو على الشعوب والمجتمعات، فهم بطبيعتهم لا يعون معنى الانضواء تحت لواء أو العمل بنظام والخضوع لمنظومة قانونية وسياسية، وهذه هي الأدوات المبدئية لبناء الحضارات، هذه المقومات الأساسية افتقدها العرب.

ومن خلال قراءة ابن خلدون، نكتشف ونتأكد أن من يتبنى حضارة العرب وتاريخهم لن يتقدم إلا بقدر ما تقدموا، ولن يرتقي إلا على طريقتهم وبعقليتهم الوحشية، ومن يحتفي بتاريخهم لن يأتي بجديد للبشرية سوى ما قد يجسد تاريخهم الهمجي الفارغ من كل معاني الحضارة والرقي. وما يجدر بنا التنويه إليه في هذا المقام هو مدى تأثير بعثة الرسول محمد على هذه العقلية الهمجية، ومدى التزام مجتمعهم بمبادئ الإسلام السمحة الراقية، ثم مدى انحراف العقلية الجمعية بعد رحيل الرسول عنهم بسبب ما ترسب في نفوسهم من البداوة والهمجية التي منبعها البيئة والتربة والمنشأ، ومدى تلويثهم للتراث الديني خاصة المرويات لأن عقلياتهم أصلا ليست عقليات علمية منظمة، فمن الطبيعي أنهم جعلوا من الدين وسيلة لهدم الحضارات ونهبها، ونجحوا في هدم الدين وتطويعه واستخدامه كأداة

للسطو على الشعوب. وهذا ما يحتم علينا إعادة إجلاء الدين الإسلامي وتراثه مما علق به من مؤثرات هذا المجتمع الهمجي. وفي هذا المقام من السهل على الباحث تحويل سيل الاتهامات التي يلقيها القراء إلى ابن خلدون؛ لأنه أول من بحث بعمق في العقلية العربية وصرح بأنها لا تصلح لبناء حضارة، وهو أول من صرح بأن العرب استغلوا الدين الإسلامي في هدم الشعوب لخدمة إيديولوجيتهم السلطوية الهمجية، وهو أول من أشار إلى أنهم من طبيعتهم لا يظهر لهم صوت إلا بنبوة أو ما شابه، فهم يسرعون إلى استغلالها والتسويق بها وكأنهم شركاء في النبوة مع أنها كانت موجهة إليهم بسبب فسقهم.

وفي الواقع لا يشغلنا ولن تعود علينا أي فائدة من نقد المجتمع العربي وثقافته وعقليته وتاريخه، ولكن الفائدة في إدراك إمكاناته وطبيعته ومنتجه الفكري ونسيجه العقلي من أجل تحقيق الاستقلال الفكري، حتى نتمكن من تحقيق ذاتنا بإمكاناتنا، بأيدينا لا بعقولهم التي تحركنا من الماضي، ولأننا لن نثمر إلا إذا تغذينا على بيئتنا المحلية بملامحنا الخمرية، فمهما اجتهدنا ودرسنا وبحثنا، فعقولنا قاصرة عن أن تبدع أشعارا مثل أشعار المتنبي وامرؤ القيس، لأن نسيجها الذهني غير مصمم لهذه النوعية من الإبداع، غير أننا لو قمنا بتهجين جيناتنا وراثيا كي نكتب شعرا عبقريا مثلهم، فحتى هذه لن تنفعنا في شيء لأن الشعر لا يبني حضارة، بل إنه يتبنى الفوضى العقلية من النوع الذي عاشه العرب في الصحراء على مدار آلاف السنين لأن الشعر الأصيل في الأساس هو منتج صحراوي، فعلينا أن نعترف ونعود لما جبلت عليه عقولنا من طبيعة البحث والفضول العلمي، ورقة المشاعر الإنسانية، لا الوحي والإلهام الشعري.

فقد نامت العقلية الجبتية شتاءً طويلا مملا امتد لأكثر من ألفي عام، سكنت مثل البذور الجافة وعلينا إعادة استنبات هذه البذور من جديد، مع ملاحظة أن البذرة عند غرسها في الأرض وغمرها بالمياه تبدأ أولا في إسقاط جذورها في عمق التربة، ثم بعدها ترفع ريشة لأعلى تحمل أول ورقة خضراء، فالبذرة لا تمد أطراف جذورها في الأراضي المجاورة وإنما تغرسها بعمقٍ عمودي في تربتها، وكذلك لا تبدأ بإخراج الورقة الخضراء أولا، إنما تمد أطراف جذورها في العمق أولا حتى تتمكن من امتصاص وتعبئة مخذونٍ غذائي ومقدارٍ كافٍ من الطاقة، وبعدها تخرج أول ساق لأعلى حاملة أول ورقة خضراء، ثم تتابع مراحل النمو الخضري حتى تكبر وتصبح ساقا كاملة تحمل أفنان فارعة. فكيف لحضارة قيل أنها مصرية وهي حينما تنمو تمد جذورها الثقافية يسارا لتغرسها في الصحراء السعودية !



أما الصياح بنعرة القومية العربية فهي محض وسيلة سياسية يجب أن يتولاها السياسيين وحدهم وفي حدود السياسة، دون أن يؤدي ذلك إلى دمج الثقافات وطمس الهوية الوطنية لصالح العرب، ودون مساس بالغشاء البريتوني الذي يحفظ خصوصية النسيج اجتماعي المصري وملاءمته الوظيفية الثقافية، لأنه ليس من المنطق أن نترك تاريخنا وحضارتنا الفرعونية لندرس مواسم الذبح العباسي والأموي باعتبار هؤلاء رموز تاريخية لنا، برغم أنهم كانوا أجانب يتحدثون العربية التي لا نعرفها، وليس من المنطق أن نترك علومنا وآدابنا الحضارية الفرعونية لندرس الأدب الجاهلي وملاحم الفروسية والإغارة.. باعتبار ذلك بطولات قومية لنا.. لدرجة أن حلت ثقافة الصحراء العربية محل ثقافتنا المدنية، برغم أنها في الأصل ليست ثوبنا ولا بيئتنا، وإن تلبسناها عنوة باسم الدين، وحل التاريخ العربي محل الأولوية من تاريخ أجدادنا، في الوقت الذي يتجاهلون فيه تاريخنا وحضارتنا ولا يفتحون لها صفحة في مناهجهم الدراسية.

ولذلك لا مفر من إعادة بعث وإحياء واستنبات جذور الحضارة الجبتية من جديد، لا أن تظل طي النسيان متلفعين بعباءة العرب أو تبقى جذورنا ساكنة خاملة في صوامع باحثي الآثار وعلم المصريات.. فأجدادنا الفراعنة لم يكونوا عباقرة وإنما كانوا يعملون بجدٍ وإتقانٍ فقط، وكانت عقليتهم علمية جادة وليست أدبية هذلية، فنسيجهم الذهني ليس من نوعية النباتات الزاحفة أفقيا وإنما من أنسجة الأشجار ذات السيقان والأغصان الفارعة، ولهذا كانت حضارتهم قائمة على عمود فقري قوي.. وقد بدأت جهودٍ فعلية ليس بهدف كشف عبقرية الفراعنة والفخر بإنجازاتهم وإنما بهدف إعادة استنبات جذور الحضارة الجبتية، وإعادة تنشيط النسيج الذهني الذي بنا هذه الحضارة

العظيمة، فقد بدأت في أماكن عديدة مراكز لتعليم اللغة الجبتية القديمة "الهيروغليفية" وقواعد النحو والصرف والمقاطع الصوتية الخاصة بها، بالاعتماد على النصوص الجبتية القديمة ومختارات من الأدب المصري القديم وما حوته البرديات والمدونات الأثرية، مع العلم أنه لا مقارنة إطلاقا بين الأدب المصري القديم المبني على الحكمة، والأدب العربي المبني على النفاق والتورية. وقد استقطبت فئاتٍ عديدة من الشباب المصري من لجنسين، ومنها الدورات التي تقد بصفة دورية في بيت السناري بالقاهرة التابع لمكتبة الإسكندرية، ويقوم بالتدريس فيها أستاذة من كلية الآثار، ومعاهد الإرشاد السياحي، لهذا نتوقع أن يصدر أول كتاب باللغة الجبتية إلى الشعب قريبا جدا. فيقول الدكتور وسيم السيسي، عالم المصريات، إن إضافة اللغة الجبتية إلى محرك البحث جوجل مهم جدًا بعدما كان قد تم تصنيفها ضمن اللغات المنقرضة، ويجعلنا نقوم بمزيد من البحث حول اللغة ومعانيها، ومن الضروري بتدريس اللغة الجبتية القديمة، إذ كيف أحيا الإسرائيليون لغتهم بعدما أخرجوها من المقابر وصرنا نحن ندرسها في جامعاتنا ولا ندرس لغتنا.

****



الإضاءة التاسعة

مسقط رأسي بين الإسلام والمجتمعات المجاورة

علاقة حربٍ دائمة، أم سلام اجتماعي؟

العلاقة بين المسلم وجاره علاقة مقدسة في الإسلام بغض النظر عن ديانة هذا الجار، فقد أوصى رسولنا الكريم بالجار السابع حتى ظننا أنه سيورثه... فهل علاقة المجتمع المسلم بالمجتمعات المجاورة له مشتقة منها لتضمن التعايش في سلامٍ اجتماعي؟ أم أنها تقوم على الحرب الدائمة ؟

سنفتح ملف مسألة شائكة لا يزال النزاع يدور فيها بين الفقهاء إلى اليوم، وهي مسالة العلاقة بين المسلمين وبين غير المسلمين، بين المسلمين والعالم، وهل الأصل فيها الحرب الدائمة أم السلام الاجتماعي ؟ فالعرب قديما فهموها على أنها علاقة حرب دائمة، لأنهم كمجتمع هذه صفتهم، الحربية والإغارة والنرجسية، ولهذا فهموا التعاليم الدينية من منظورهم الاجتماعي وفي حدود ثقافتهم وتقاليدهم وأعراف مجتمعهم. لكن الغريب أن الفقهاء المسلمين على مدار التاريخ ساروا على ذات النهج من دمج الثقافة التاريخية والأعراف الاجتماعية القديمة باعتبارها موروث ديني وجزء لا يتجزأ من الدين والعقيدة، فتصوروا أن دور المؤمن في الحياة هي شن الحروب بصورة متواصلة على الشعوب المجاورة لتوحيد عبادة الله، أو كما قالوا بتعبيرهم "تعبيد العباد لرب العباد " ! وفي الحقيقية في هذهِ المسألة للسادة العلماء ثلاثة أقوال، أي قد ذهبوا فيها مذاهب ثلاثة:

المذهب الأول: وفيها من رأى أن الأصل في العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين هي الحرب. وهذا في الحقيقة هو مذهب جماهير العلماء، إنه مذهب الأئمة الأربعة، والإمام ابن حزم ومعظم أتباع هؤلاء، ومذهب جميع الشعوب المسلمة في عصرنا الحالي بالطبع، فهم يشعرون بداخلهم أنهم مكلفون بحرب غير المسلمين والجهاد في سبيل الله بقتلهم وتخليص العالم منهم كما فعل الصحابة وإلا أصبحوا مقصرين في حق دينهم!.

وقد أقام هؤلاء وأتباعهم فكرهم على نظرية " النسخ" وهو يقوم على الطعن بالصورية في آيات القرآن ووقف نفاذها وسريانها، واعتبارها مجرد نص نظري صوري وموقوف عن العمل، وهو ما اصطلحوا عليه بنظرية النسخ أي حلول آية محل الأخرى، أو تغليب قاعدة على أخرى، ومعيار التغليب هنا هو عقل الفقيه، فهو الذي يحكم أي آية تتغلب على الأخرى دون أن يفسر لماذا تغلبت هذه ولم تتغلب الأخرى، فقالوا بأن آية السيف نسخت كل آيات الرحمة والعدل والسلام الاجتماعي ! وقالوا أن (الآيات المقيدة للقتال بشروط منسوخة)، بمعنى أن حكمها باطل لا يُعملُ به لأنه منسوخ، وقالوا الناسخ هي آية السيف نسخت الآيات اللاتي تأمرُ بالصفح والسلام والعفو والصبر وهي آيات كثيرة، يعني الآيات التي تتحدث عن علاقة السلام الاجتماعي بين الشعوب، آيات المصالحة والعفو في كتاب الله تبارك وتعالى كُلها منسوخة وبلغ الأمر ببعضهم كأبي بكر العربي القاضي المالكي الذي قال بأن آية السيف قد نسخت "مئة وأربعة عشر آية" تتحدث عن السلام الاجتماعي!، جميعها نسخت بآية واحدة ! برغم أن الفقهاء لم يُتفقوا على تعينيها تماما ولم يعرفوا مكانها في القرآن، فلم يحدد هؤلاء الفقهاء ما هي آية السيف وما هو منطوقها، ولكنهم جمعوا كل الآيات الخمسة أو الستة التي تأمر بالحرب عند توافر شروطها الضرورية، واعتبروها ضمنيا واصطلاحيا هي آية السيف سواء كلها أو إحداها، وقاموا بإلغاء

الشروط المقيدة لها وفتحوا مجالها في المكان والزمان، واتفقوا على أنها تنسخ وتلغي كل آيات العفو والسلام والإنسانية !

والغريب العجيب أن هذا النسخ لم يرد بالقرآن، ولم يرد به حديث عن رسول الله حتى ولو كان مكذوبا ! لكن نظرية النسخ هذه نشأت من اجتهاد الفقهاء لتعطيل آيات القرآن التي لا توافق هواهم في العدوان على الآدمية، واستخدموها في توسيع النطاق التنفيذي لآيات تأمر بالقتال بعد أن حرروا هذه الآيات من شروطها وفتحوا لها المدى والأفق على مصراعيه، برغم أن الآيات التي تحدثت عن السلام الاجتماعي مطلقة وغير محدودة بمكان أو زمان، وأن آيات القتال هي التي جاءت استثناء محدود ومقيد بشروط محددة، لكنهم على العكس قيدوا المطلق العام وعطلوه عن السريان، وفتحوا المجال أمام الأمر الاستثنائي المقيد بشروط، جعلوه هو المطلق العام وواجب مستمر طول الوقت، وبهذا حولوا العلاقة بين المجتمع من كونها قائمة على السلام الاجتماعي إلى فكرة الحرب الدائمة بين الشعوب والمجتمعات ! وهذا ما يوضح النفس العربي والزفير القرشي في الفقه الإسلامي؛ لأن الحربية في الأساس هي طابع المجتمع العربي وليست طابع الدين، وطالما انتهى الفقهاء إلى حتمية الطبيعة الحربية على المجتمع فهم بذلك يتفقهون في تاريخ العرب وليس في الدين، وهذا هو ما اتفق عليه جمهور الفقهاء والأئمة الأربعة. وفي الغالب أسسوا فقههم على فكرة إزالة العقبات بالجيش لنشر الإسلام أي الإطاحة بحكام هذه البلاد ليدخلها العرب وينشروا الدين فيها !

والأغرب من الخيال، هو ما ذهب إليه الفريق الثاني من الفقهاء والذي احتار في تكييف العلاقة بين المجتمعات وهل هي قائمة على السلام الاجتماعي أم الحرب الدائمة. واعترفوا بأن كل الآيات التي تحدثت عن القتل كانت مشروطة ومقيدة بظروف وأسباب واقعية تبرر الأمر بالقتال وهي أسباب جوهرية ومعقولة بالنسبة لكافة المجتمعات ولا تتعلق بحق حصري للمسلمين في حرب غيرهم، وأن هذه الآيات هي استثناء من الأصل العام القائم على السلام الاجتماعي، والاستثناء هو القتال إذا توافرت شروطه وأسبابه الملجئة، وأسباب الحرب هنا لا تختلف بين الشعوب والديانات، فالسبب المبرر للحرب في الإسلام هو ذاته مبرر للحرب عند الشعوب المسيحية واليهودية والزرادشتية والملحدة لأن مبررات الحرب في الإسلام هي الدفاع عن حق الوجود وهذا الحق مكفول لكل البشر بلا استثناء. وهو أمر من أمور الدنيا كما لو هطلت أمطار غزيرة أو رياح عاصفة فكيف يتصدى لها المجتمع؟ بالطبع سيكون التصرف وفقا للظروف الواقعية والأدوات والآليات المتاحة للتصدي لحالة الطوارئ. ولم يختلف فقهاء هذا الفريق حول الأسباب الشرعية المبررة للحرب، ووجود الأسباب والاعتراف بها هو ما يجعلنا نفرق بين الحرب ما إذا كانت هجومية وما إذا كانت دفاعية شرعية، فالأسباب الشرعية تجعل الحرب شرعية.

أما الغريب والعجيب أنهم اقتنعوا بذلك لكنهم اصطدموا بآية أخرى جعلتهم يتحللون من فكرة السلام الاجتماعي فقط مع الشعوب المجاورة ! فقرروا أن السلام الاجتماعي يكون فقط مع البلدان البعيدة والتي ليست من دول الجوار !، أما العلاقة مع دول الجوار والشعوب المجاورة فالأصل فيها هو الحرب الدائمة ! فالجوار أولى بالحرب والأقرب فالأقرب أولى بالقتال ! وهذا ما يتناقض مع مبدأ حسن الجوار سواء كان الجوار هنا للأفراد أو للشعوب، فكيف يأمرنا الله بحسن الجوار، ثم يأمر مجتمعنا بالعدوان على المجتمعات المجاورة !، والغريب أن استنادهم هذا لم يكن قائما على منطوق الآية التي اصطدموا بها أصلا، ولكن فقط قائم على تفسير خاطئ توارثته الأجيال عبر التاريخ دون أن يدرك أحدهم هذا الخطأ الجلي في التفسير وفهم الآية، وهو ما يخرجها تماما وكليا عن سياقها ومضمونها اللغوي والمعرفي! وبرغم استمرار الخطأ.. والحقيقة ليست في أن التفسير خطأ ولكن في انحراف النفوس التي اقتنعت بهذا الخطأ وجعلتها تغير قناعتها من فكرة قيام المجتمع على السلام إلى فكرة قيامه على الحرب الدائمة مع شعوب الجوار فقط!، فإذا لم تكن النفوس قد مالت بداهة إلى مفهوم الحربية الدائمة لكان مستحيلا اقتناعها بهذا التفسير الخاطئ. إنما هو تفسير خاطئ لكنه استمر لأنه وافق النفوس والغريزة النرجسية الحربية.

فيقول هذا الفريق الذي يتزعمه الإمام أبو حنيفة، وبعض أئمة الزيدية، ويرى هذا الفريق ضرورة التمييز بين حالتين، بين حالة يكون فيها الكفار أو أهل الحرب متاخمين للمسلمين، أي الجوار الملاصق عن قرب بلا فاصل أو حدود جغرافية بين المجتمعات، المسلمين وغير المسلمين، فقالوا أن الأصل في هذه الحالة الحرب لا السلام بشرط أن تكون الحرب دوارة بالأولوية أي قتل الأقرب فالأقرب!

وفي الواقع فإن هذا الفكر العدواني الغريب خارج تماما عن معاني الإنسانية والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، هو فقط نابع من النفوس التي حبذت قتل الشعوب المجاورة وأوجدت لها مبررا من الدين للاستفادة من الجزية والغنائم والسبايا من الأطفال والنساء الحسناوات، هذا المبرر كما زعموا هو قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) ١٢٣/التوبة، أما إذا كان هناك ثمة فاصل بين دار الإسلام ودار الكفر أو أهل الحرب بشكل عام، كصحراء أو بحار أو أي حواجز جغرافية، فالأصل يكون السلام لا الحرب ! (إشارة: دار الكفر عند الفقهاء هي هي دار الحرب أو هي البلاد الحربية التي يسكنها أهل الكفر، فلا يشترط الفقهاء لوصف بلد ما بأنها بلد حربية أن يكون جيشها ملتحما مع الجيش المسلم، بل فقط أن تكون بل غير مسلمة ولا تربطها معاهدات مع أي دولة مسلمة ! هذا هو مفهوم الفقهاء للبلاد الحربية،

وهذا المفهوم نابع من الغريزة النرجسية في إقصاء الغير وعدم الاعتراف به ومعاملته على أنه عدو ما لم يقدم ولاء الطاعة.

برغم أن المنطق الرباني والفطرة تقول أن الجوار أولى بالحسنى، لكنهم قالوا بأن الجار أولى بالحرب! وبهذه الفلسفة العكسية انقلب العرب عن منهج الإسلام، وقد بدأ هذا الانقلاب في المجتمع العربي من لحظة احتضار الرسول محمد عليه السلام، واستمر تحول الصحابة عن المنهج واندماجهم في ثقافة مجتمعهم الأصلي مع سيطرة فلول قريش على المشهد السياسي لدرجة أنهم برعوا في فنون السياسية والحرب وجعلوا لكل ذلك تخريجا دينيا سائغا في نفوس الجميع. وفيما يلي سنوضح الخطأ في فهم الآية التي اصطدموا بها فشرعوا الحرب الدائمة على المجتمعات المجاورة وشرعوا السلام الاجتماعي فقط للشعوب البعيدة عنهم.

أما الفريق الثالث من العلماء يرفضون الاقتناع بهذا الفكر العدواني، فهم يرون أن الله لم ينزل الإسلام ليعلن الحرب الدائمة على الشعوب الآمنة، ويرى هذا الفريق أن الأصل في العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين هي السلام لا الحرب، وبهِ قال عدد قليل من العلماء منهم سُفيان الثوري والأوزاعي وابن شُبرُمة، ومن المعاصرين جمعٌ غفير، بداية من العلامة محمد عبده، وتلميذه رشيد محمد رضا، وإمام الأزهر محمد الخضر حسين، والشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر في وقتهِ أيضا، والعلامة مُحمد عبد الله دراز، والشيخ عبد الوهاب خلاف، والدكتور محمد أبو زهرة، والدكتور مصطفى السباعي، الشيخ مُحمد الغزالي، والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، و وهبة الزُحيلي، والدكتور محمد البهي، والشيخ سيد سابق، كثيرون من المعاصرين ذهبوا هذا المذهب، أن الأصل في العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين هي السلام وليس الحرب[1] .

وهنا يتضح بجلاء أن أغلبية الفقهاء القدامى اعتقدوا بأن العلاقة بين المجتمع المسلم وغيره من المجتمعات قائمة على الحرب الدائمة مرضاة لله وطمعا في الجنة والحور الحين، وفي الدنيا سبايا وغنائم وجزية وخراج وعبيد وخير كثير!، ثم بدأ تراجع العلماء بداية من عصر التنوير الذي بدأه الشيخ محمد عبده الذي نفض غبار التراث عن الدين، واستمرت حركة التنوير، لكن بقى بعض المتأخرين فكريا والمتشبثون بجلابيب السلف يصرون على التأكيد على أن علاقة الإسلام بالمجتمعات هي علاقة حربٍ دائمة وليست قائمة على السلام الاجتماعي، وأنهم إذا تركوها للسلام الاجتماعي يصبحون بذلك مقصرين في حق دينهم لأنهم لم يقتلوا المخالفين لهم ! هؤلاء المتأخرين فكريا لا

١- رابط المصدر: http://www.dradnanibrahim.com/videos.php?action=show&id=440

يطيعون الله بقدر ما يلبون رغبة نفوسهم الدموية التي تطيع السلف والخلف، ولا يعبدون الله إلا كما ألفوا آباءهم يعبدون، يرون أن اتباع منهج السلف هو المنقذ في الحياة، ويطلقون على البلدان والشعوب التي لا تربط المسلمين بهم معاهدات أو اتفاقيات تعاون، يطلقون عليها مسمى "البلاد الحربية" هذا المصطلح اخترعه السابقون للتعبير عن رؤيتهم لموقف الإسلام من شعوب العالم، فكل شعوب العالم في نظرهم بلاد حربية ما لم يكن هناك معاهدة معهم تقيد المسلمين عن حربهم! وكل بلد لم يلتزم المسلمون معه بمعاهدات سلام فهو بلد حربي، أي تكون المعاملة مع أهله على أنهم أعداء وتحل أموالهم وأنفسهم وإعلان الحرب عليهم واجب مقدس ! هذا هو تاريخ بني أمية الإجرامي الذي تحوّل إلى دين عشقه الفقهاء وتغزلوا فيه على مدار الزمان.

هذه خلاصة المذاهب والأقوال في هذه المسألة، خاصة الفريق الأول وهو في الحقيقة الفريق الذي سيطرت أفكاره على شعوب المسلمين، والذي ذهب إلى أن الأصل بين الشعوب هو الحرب لا السلام، وهو ما لا نستريح إليه مبدئيا، لكن نفوسهم استراحت كليا لهذا الرأي كمبدأ عام برغم أن الله يقول: ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، لكنهم حاولوا قدر جهدهم تكييف القضية بقدر ما تستريح له نفوسهم، فابتكروا فكرة نسخ الآيات ليصلوا إلى النتيجة المرجوة، حتى ولو خرجوا عن موضوعية النص القرآني، فقد تمكنوا من تخريجه بالطريقة التي استراحت لها نفوسهم. بل وصل الأمر إلى الادعاء بأن كافة المعارك التي دخلها النبي ص كانت هجومية وليست دفاعا شرعيا، بل إن هناك منهم الكثير من يغضب إذا قلنا بأن معارك الرسول كانت دفاعية ! برغم أن الرسول في حياته كاملة لم يعتد على أحد، لكنهم رغبوا أن يكون عدوانيا ليبرروا عدوانيتهم الكامنة في نفوسهم. ثم يعودون للقول بأن للحرب في الإسلام أحكام وآداب، لكن كيف تكون الحرب هجومية، وفي ذات الوقت تلتزم بتعاليم الإسلام بعدم العدوان؟ أليس فعل الهجوم والمبادرة في حد ذاته عدوان؟ وكيف تكون للحرب آداب وأحكام دينية وفي ذات الوقت تبيح السلب والنهب وخطف الأطفال والنساء واغتصابهن واستعبادهن؟

إن إسلام الفطرة التي خلقنا الله عليها أنقى من إسلام الفقهاء الذين شربوه من تاريخ العرب ودسوه في عقول تلاميذهم على أنه دين، فالعداء بين الشعوب والمجتمعات سمة من سلوكيات الشياطين والمجرمين لا البشر الأسوياء، ولا دخل للدين بهذا ولا يمكن أن يكون الدين سببا لهذا العداء، بل إن البشر إذا وجدوا نفوسهم تميل للعدوان والحرب يسعون جاهدين لإيجاد مبرر ويقدسونه بغلاف ديني، يسعون جاهدين لتوظيف آيات الجهاد الدفاعي حتى لتبرير العدوان على الشعوب، هم يبدؤون العدوان تحت مسمى الدفاع ويخترعون أسباب وهمية تستدعي هذا الدفاع الموهوم، وإذا ما اصطدموا بأوامر الله ونواهيه بعدم العدوان قالوا أن هذه الآيات منسوخة، أي معطلة عن العمل، وبرغم أن الله يقول: " وقلِ

الحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ... (٢٩)/ الكهف، ويقول:" ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين" ويقول :" وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩)/يونس، ويقول :"وما على الرسول إلا البلاغ " والكثير من الآيات القرآنية الأخرى. لكنهم لا يحبذون العمل بهذه الآيات، فيقولون بنسخها تارة وتارة أخرى يغلبون عليها أحاديث مدسوسة من صنع أفكار العرب المسمومة بما يحقق ذاتهم في العنصرية والنرجسية. فالأصل هو التعايش السلمي بين الشعوب، ومن أراد أن يدعو إلى الله وينشر دينه فليدعو إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا عدوان إلا على الظالمين.

يقول الشيخ متولي إبراهيم صالح:" أرانا اليوم ندفع ثمن تقليدنا الأعمى لمن سلف بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، ومن سلف فيهم الصالحون وفيهم الطالحون، والطالحون فيهم منافقون تظاهروا بالإسلام وأخذوا يهدمونه من الداخل بالإلحاد في آيات الله وبتحريف كلم القرآن عن مواضعه وبمحاولة تبديل ألفاظه إن استطاعوا ليضيع كما ضاعت التوراة والإنجيل، والصالحون فيهم غافلون خالت عليهم تزيينات الطالحين فتلقوها وأشاعوها على أنها الإسلام، وفيهم أغبياء كانوا يكذبون فينسبون إلى النبي ما يستنبطونه من القرآن على أنه إسلام، وقد يكون استنباطا خاطئا مفسدا للقرآن نفسه حتى قال قائلهم (كنا إذا استحسنا الأمر جعلناه دينا). وقد كانت البداية إكراها فكريا ساد في سياق سياسي استغل فيه الدين لتسويق أهواء حكام كانوا فاسدين، فاستخدموا فاسدين ظاهرهم العلم والدين فاختلقوا لهم أحاديث تخدم أهواءهم السياسية ونسبوها إلى النبي وإلى الدين، ثم زاد الأغبياء الطين بلة فطفقوا ينسبون إلى النبي ما يستحسنونه دون أن يثبت لهم أن النبي قاله ولا دليل لديهم على أنه قاله إلا أنهم يرونه كلاما حسنا وأن النبي أولى من غيره بهذا الذي يرونه حسنا فلا يليق أن يتميز أحد عليه بشيء حسن فلا بد إذن أنه قال هذا الذي يرونه حسنا ".

وهكذا توارثت الأجيال أقوالا ومأثورات شعبية تاريخية رأوها السلف حسنة فاعتبروها دينا، وتوارثوا تفسيرات وتأويلات خاطئة رأوها السلف حسنة فاعتبرها الخلف دينا، فإذا عدنا إلى الآية الثالثة والعشرين، والتي قالوا أنها تحكم العلاقة بين المجتمع المسلم والمجتمعات المجاورة له وتحسمها في ديمومة الحرب عليهم بشرط القربى أي الأقرب فالأقرب!

فنقرأ في تفسير الطبري:

القول في تأويل قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(١٢٣).. قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله:" يا أيها

الذين صدقوا الله ورسوله، قاتلوا من وليكم من الكفار دون من بعُد منهم، يقول لهم: ابدؤوا بقتال الأقرب فالأقرب إليكم دارًا، دون الأبعد فالأبعد. وكان الذين يلون المخاطبين بهذه الآية يومئذ، الروم، لأنهم كانوا سكان الشأم يومئذ، والشأم كانت أقرب إلى المدينة من العراق. فأما بعد أن فتح الله على المؤمنين البلاد، فإن الفرض على أهل كل ناحية، قتالُ من وليهم من الأعداء دون الأبعد منهم.

ثم يقول الطبري مبررا: "ولصحة كون ذلك كذلك، تأوّل كلُّ من تأوّل هذه الآية، أنّ معناها إيجاب الفرض على أهل كل ناحية قتالَ من وليهم من الأعداء." ! فالطبري قد برر تفسيره بأن كل من فسر هذه الآية قبله قال بوجوب تفعيل نظرية الحصادة الدموية في قتل الشعوب المجاورة أولا بأول وعلى كل أهل ناحية أن يبادروا بقتل جيرانهم أولا بأول، وهذا أمر عجيب غريب أن يعتمد في تفسيره وإصداره لمثل هذا الأمر الخطير على تأويل وتفسير السابقين عليه دون تفسير أو تدليل أو تعليل أو إقناع أو تفصيل ولكن هذه عادة فقهاء الدين أن يثقوا في آراء سلفهم دون تعليق. لكن بوجه عام هذه هي مشكلة التبعية، فكل من ارتكب خطأ في تفسير كلمة يجد خلفه جيوش من المفسرين الجهلة يتبعونه دون العودة إلى الأصل وهو القرآن، ويبرر قوله بأن ذلك كذلك لأن السلف قالوا ذلك !. برغم أن الله يقول " إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ(١٦٧)/البقرة

ويسند الطبري ذلك كذلك إلى ما ورده من روايات السلف حيث حدثهم فلان ابن فلان عن فلان ابن علان كذلك؛

–17481حدثنا ابن وكيع قال، حدثنا أبي، عن سفيان، عن شبيب بن غرقدة البارقي، عن رجل من بني تميم قال، سألت ابن عمر عن قتال الديلم قال: عليك بالروم ! (الديلم هي منطقة تابعة لحضارة الفرس، والروم كانوا موجودين في منطقة الشام) وبالتالي فهم شرعوا الحرب على هذه الشعوب بلا سبب، فقط قالوا أن ذلك أمر من الله وعليهم تنفيذه !

–17482حدثنا ابن بشار، وأحمد بن إسحاق، وسفيان بن وكيع قالوا، حدثنا أبو أحمد قال، حدثنا سفيان، عن يونس، عن الحسن : (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار)، قال: الديلم.

–17483حدثنا ابن وكيع قال، حدثنا أبي، عن الربيع، عن الحسن: أنه كان إذا سئل عن قتال الروم والديلم، تلا هذه الآية:(قاتلوا الذين يلونكم من الكفار).

-17484حدثنا ابن حميد قال، حدثنا يعقوب قال، حدثنا عمران أخي قال: سألت جعفر بن محمد بن علي بن الحسين فقلت: ما ترى في قتال الديلم؟ فقال: قاتلوهم ورابطوهم، فإنهم من الذين قال الله):قاتلوا الذين يلونكم من الكفار.

-17485حدثني المثنى قال، حدثنا أبو نعيم قال، حدثنا سفيان، عن الربيع، عن الحسن: أنه سئل عن الشأم والديلم، فقال(قاتلوا الذين يلونكم من الكفار(الديلم).

-17486حدثني علي بن سهل قال، حدثنا الوليد قال، سمعت أبا عمرو، وسعيد بن عبد العزيز يقولان: يرابط كل قوم ما يليهم من مَسَالحهم وحصونهم، ويتأوّلان قول الله: قاتلوا الذين يلونكم من الكفار.

-17487حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال، قال ابن زيد في قوله) :قاتلوا الذين يلونكم من الكفار، قال: كان الذين يلونهم من الكفار العرب، فقاتلهم حتى فرغ منهم. فلما فرغ قال الله: قاتِلوا الذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ، حتى بلغ، (وَهُمْ صَاغِرُونَ) ٢٩/ التوبة: .قال: فلما فرغ من قتال من يليه من العرب، أمره بجهاد أهل الكتاب. قال: وجهادهم أفضل الجهاد عند الله... !

هكذا كان حال الصحابة والتابعين وتابعي التابعين في تفسير وفهم كتاب الله، ولطالما صدع الفقهاء رؤوسنا بقولهم أن الصحابة هم صحبة رسول الله وأفضل الناس وأكثرهم فهما للدين ولأوامر الله ونواهيه ومعاني القرآن ومضامينه لأنهم شربوه رأسا من النبي دون وسيط ولأنهم تربوا على يد رسول الله فهم أفضل الخلق بعده... بينما كان الصحابة والتابعين هم آحاد وأفراد المجتمع العربي ذاته المفعم بالجهل والهمجية والعنف والمادية والسادية والعنصرية والحربية والصلف.. هذا هو المجتمع المحيط برسول الله، وما كان لهذا المجتمع أن يكون أفضل الخلق بعده لمجرد أنهم عاشوا حوله ومعه لأن نفوسهم نشأت في بيئة قاسية وما زالت تغالب طباعهم والطبع أقوى من التطبع، فلم يستمر الصحابة على نهج رسول الله ولكنهم انحرفوا وفق طبيعة المجتمع العربي بعد رحيله خاصة عندما سيطر فلول قريش على المشهد وافتتن الجميع ونجحت فلول قريش في النهاية في إعلان الحرب على الدين والتنكر لمدينة رسول الله وضربها بالمدفعية وتحويل المسجد النبوي الشريف إلى حظيرة للخيول.. ثم بعد ذلك تطهروا وقرروا أن يكتبوا لنا سيرة النبي محمد عليه السلام وآراءهم واجتهاداتهم في تفسير القرآن !! ثم جاء الفقهاء ليلتقموا الطعم ببراءة.

أما تفسير ابن كثير فيقول:

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولا فأولا الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام؛ ولهذا بدأ رسول الله عليه السلام بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة، والطائف، واليمن واليمامة، وهجر، وخيبر، وحضرموت، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجا، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لكونهم أهل الكتاب"..

هكذا يعترف ابن كثير أن الروم وسكان الشام هم أهل كتاب، وبرغم أن الآية تقول " قاتلوا الذين يلونكم من الكفار" إلا أن ابن كثير استرسل في الحكاية والرواية متباهيا بالحرب معتبرا إياها تطبيقا عمليا نموذجيا للآية، ومنهجا لنشر الإسلام في المنطقة، ولم يدرك أن المعارك التي خاضها النبي كانت جميعها دفاعية وليست هجومية، ولو لم يهاجمه الأعداء لما دخلها، لكن ابن كثير فهم ممن سبقوه أن الحرب كانت منهج النبي لنشر الدين ولذلك يقول أن النبي بدأ بالحرب بتسلسل تدريجي الأقرب فالأقرب، بينما الحقيقة أن معارك الرسول كانت دفاعية انتقائية ولا علاقة لها بنشر الدين أصلا.. ولم ينتبه إلى كون الآية تتحدث عن المنافقين لا عن الحصادة الدموية التي تصورها هو كما نفذها الصحابة والتابعين قبله. لكنهم كعادتهم فسروا القرآن بما يوجد مبررا لما في نفوسهم، لا وفقا لما يقتضيه التفسير الموضوعي للنص القرآني، وحولوا كل أمر بالقتال وكل أمر بالجهاد إلى (أوامر حربية للجيش بحصد المجتمعات الأقرب فالأقرب) مع أن أوامر القتال والجهاد هي في معناها وسياقها ومضمونها ومقتضاها جهاد معنوي ونضال وقتال معنوي من باب المقاومة لا من باب العدوان والبدء بالهجوم، لكنهم في الواقع قاموا بتوظيف النص القرآني بما يخدم طبيعة الحدث وطبيعة المجتمع العربي المفعمة نفسه بالعنف والهمجية والوحشية..

<u>وأما القرطبي في تفسيره فيقول:</u>

قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين فيه أنه سبحانه عرفهم كيفية الجهاد وأن الابتداء بالأقرب فالأقرب من العدو ولهذا بدأ رسول الله عليه السلام بالعرب، فلما فرغ قصد الروم وكانوا بالشام. وقال الحسن: نزلت قبل أن يؤمر النبي عليه السلام بقتال المشركين؛ فهي من التدريج الذي كان قبل الإسلام. وقال ابن زيد: المراد بهذه الآية وقت نزولها العرب، فلما فرغ منهم نزلت في الروم وغيرهم: قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله. وقد روي عن ابن عمر أن المراد بذلك الديلم. وروي عنه أنه سئل بمن يبدأ بالروم أو بالديلم ؟ فقال بالروم . وقال الحسن: هو قتال الديلم والترك والروم. وقال قتادة: الآية على العموم في قتال الأقرب فالأقرب، والأدنى فالأدنى .. قلت: قول قتادة هو ظاهر الآية، واختار ابن العربي أن يبدأ بالروم قبل الديلم؛ على ما قاله ابن عمر لثلاثة

أوجه؛ أحدها (أنهم أهل كتاب، فالحجة عليهم أكثر وآكد. الثاني: أنهم إلينا أقرب، أعني أهل المدينة. الثالث: أن بلاد الأنبياء في بلادهم أكثر فاستنقاذها منهم أوجب. والله أعلم".

وهكذا جاء القرطبي ليتبع سلفه بالنقل من ذات المصادر دون أن يأتي بجديد، برغم أنه اعترف أن بلاد الروم بها أهل كتاب وصرح أن بلادهم بلاد أنبياء، لكنه يقول أننا أولى بها من أهلها، وهو عالم بأن الله يقول " قاتلوا الكفار " لكنه لم يكلف نفسه عناء تدبر الآية واتبع رواية فلان ابن فلان عن علان ابن علان الذي فهم الآية وظاهرها أنها تأمر بقتل الشعوب المجاورة بالأولوية !! وهكذا كان عصر الصحابة والتابعين وتابعي التابعين.. والغريب العجيب أنهم جميعا فهموا خطأ أن الرسول كان يبدأ بالحرب ولم يعلموا أن معارك الرسول كانت دفاعية أصلا، فقالوا أن الرسول بدأ الحرب بالتدريج الأقرب فالأقرب، وكأنه جاء ليتخلص من الناس لا لينشر الدين !! هذه هي عقلية العرب وما زالوا إلى اليوم، خاصة عرب شبه الجزيرة.

<u>تفسير ابن عاشور:</u>

قوله تعالى" يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ". يقول ابن عاشور:"كان جميع بلاد العرب خلص للإسلام قبل حجة الوداع، فكانت تخوم بلاد الإسلام مجاورة لبلاد الشام مقر نصارى العرب، وكانوا تحت حكم الروم ،فكانت غزوة تبوك أول غزوة للإسلام تجاوزت بلاد العرب إلى مشارف الشام ولم يكن فيها قتال ولكن وضعت الجزية على أيلة وبصرى، وكانت تلك الغزوة إرهابا للنصارى، ونزلت سورة براءة عقبها فكانت هذه الآية كالوصية بالاستمرار على غزو بلاد الكفر المجاورة لبلاد الإسلام بحيث كلما استقر بلد للإسلام وكان تجاوره بلاد كفر كان حقا على المسلمين غزو البلاد المجاورة. ولذلك ابتدأ الخلفاء بفتح الشام ثم العراق ثم فارس ثم انثنوا إلى مصر ثم إلى إفريقية ثم الأندلس.

فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا تكملة للأمر بما يتعين على المسلمين في ذيول غزوة تبوك"..

والغريب فيما قاله ابن عاشور – وهو يعد من أفضل المفسرين- أنه يعزل الآية عن سياقها تماما، يفصلها فصلاً كليا عن سياقها وكأنها نزلت دون مناسبة ودون موضوع فيجعل لها موضوع مستقل من خارج سياق الآية، فيقول أنه استئناف ابتدائي، أي أنه يرى أن الله بدأ بها الحديث بخطاب جديد في موضوع جديد وسياق منفصل عن الآيات التي قبلها، فلم يسأل ابن عاشور نفسه، إلى ماذا يعود الضمير

الوارد في الآية التي بعدها وهي تكمل التفرقة بين المؤمنين والمنافقين وتكمل وصف المنافقين بقولها" وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ" فكيف أعاد ابن عاشور الضمير إلى المنافقين عامة في السورة ولم يربطه بالآية السابقة عليه، ومع اعتراف ابن عاشور وغيره بأن الضمير هنا يعود إلى المنافقين عامة الذين تتحدث عنهم السورة فهو إقرار من الجميع أن السورة إنما تناولت المنافقين بأوصافهم وحيلهم وكافة ظروفهم، فلماذا لم يفسر هذه الآية في ذات السياق الذي يتحدث عن المنافقين وجعلها ((استئنافا ابتدائيا وأمرا مباشرا بقتال الكفار الذي يسكنون المجتمعات المجاورة؟ مع أنه اعترف بأن سكان الشام هم من العرب النصارى وليسوا كافرين ! ثم يبرر كلامه بما فعله الصحابة في الفتوحات من غزو البلاد المجاورة بداية بفتح الشام ثم العراق ثم فارس ثم انثنوا إلى مصر ثم إفريقية ثم الأندلس !

والغريب أنه يقول أنها وصية الرسول قبل موته بغزو الشعوب المجاورة ! وكأنه لا يتحدث عن نبي وإنما يتحدث عن الإسكندر الأكبر ويتفاخر بقدرته على غزو شعوب العالم..! للأسف العرب حولوا محمد الرسول عليه السلام إلى فارس يجوب العالم بجيشه شرقا وغربا غزوا بسيوفه ورماحه ونصاله ! أو ربما فهموا ذلك كذلك لأن عقولهم تشكلت بهذه الملامح النفسية، فتصوروا الرسول كما رسمته مخيلاتهم لا كما رسمه القرآن. والغريب لأن ابن عاشر لا يعلم أن معارك الرسول جميعها كانت دفاعية؟ ولا يعلم ابن عاشور أن الصحابة فتحوا العراق قبل الشام مع أن الشام أقرب ! فهل أخطأ الصحابة في توجيه الحصادة وجعلوها على العراق أولا بدلا من الشام؟ وهل أخطأ الصحابة في توجيه الحصادة إلى فارس قبل الشام مع أن الشام أقرب؟ وهل أخطأ الصحابة في توجيه الحصادة إلى فارس قبل مصر مع أن مصر أقرب؟ وهل أخطأ الصحابة في توجيه الحصادة إلى الأندلس مع أن وسط أفريقيا أقرب؟ والأغرب من ذلك أنه يعترف بأن أقرب البلاد إلى العرب هي بلاد الشام وبها نصارى العرب! ثم اعترف بأن الشام بها نصارى العرب، مع أن الآية تتحدث عن قتال الكفار، فكيف يصف الله القوم بأنهم كفار، ثم يفهم المفسر بأنهم نصارى؟ ألم يقل الله: وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ(٨٣)/ المائدة

وهل يقول الله أن النصارى هم أقرب الناس مودة للذين آمنوا، ثم يقول قاتلوا الذين يلونكم من الكافرين، لكي يفهم الفقهاء والمفسرون أن المقصود بأمر القتال هنا هم النصارى؟ .. فالله يقول قاتلوا الكافرين ولم يقل قاتلوا النصارى، ومع ذلك بدأ العرب في غزو العراق وهم نصارى ثم زحفوا على فارس

وزحفوا على الشام وهم نصارى، ثم زحفوا على مصر وهم نصارى، ثم زحفوا على شمال إفريقيا والأندلس وهم أيضا نصارى وحول العرب كنائسهم إلى مساجد ! مع أن الرسول أوصاهم بعدم الاعتداء على بيوت العبادة أيا كانت ! فهل سار الصحابة على خطى الرسول؟!

ثم أن ابن عاشور يفسر الآية في سياق أحداث تاريخية وقعت بعد وفاة الرسول وتوقف نزول الوحي، وهذا على اعتبار أن الصحابة هم ملائكة نزلوا من السماء ليكونوا جند الله في الأرض، ويعتبر هذه الأحداث هي الضابط لمضمون النص القرآني على اعتبار أن العرب هم أنبياء إنما بعثوا لتنفيذ النص القرآني وفق مقتضاه حرفيا ودون أدنى هامش للخطأ، وتجاهل المفسرون أن العرب بطبيعة مجتمعهم أسفل شعوب الأرض قاطبة وأكثرها فجرا وفسقا وكفرا ونفاقا، بل إن الكفر مغروس في عروقهم إلى الدرجة التي تجعل قتل أطفالهم عادة مستباحة وعرفا بينهم، كما اعتادوا وأد بناتهم أحياء، فهل يتحول هؤلاء جميعا إلى ملائكة ويتخلصون من خلفياتهم الاجتماعية ونزعة النشأة الأصلية ؟ فكيف يكون مسارهم مستقيم طول الوقت لنعتبرهم القدوة والمثل الأفضل في فهم وتطبيق القرآن ثم ينعكس منهجهم كليا ١٨٠درجة دون مقدمات أو إرهاصات ليقتلوا بعضهم بعضا !! في الواقع إن ابتعاد العرب عن المنهج جاء تدريجيا، حيث بدأ لحظة احتضار الرسول وتراكمت الأخطاء واستمر الانحراف عن المنهج حتى افترق مسار التاريخ عن مسار الإسلام في نهاية المطاف، والعجيب أن الفقهاء لا زالوا إلى اليوم يقنعونا بأن مسار التاريخ هو ذاته مسار الإسلام ! وأن تاريخ العرب هو تاريخ الإسلام ولا يخجلون من هذا الفصام التام !

وما يثير الدهشة والجنون في كلام ابن عاشور أنه يقول: " إن المقصود من الكفار هنا هم نصارى العرب وأنصارهم الروم ".! ثم يقول الأغرب من ذلك ويعترف بأن المنافقين في المدينة هم الأقرب إلى المؤمنين، فيقول" ومن وراء صريح هذا الكلام تعريض بالتهديد للمنافقين، إذ قد ظهر على كفرهم وهم أشد قربا من المؤمنين في المدينة. " أي أنه في تفسيره للآية خالف كل المعايير المنطقية واللغوية والموضوعية وخالف سياق الآية وحرف معناها ومدلولها ومقصدها .. حرف كل ذلك فقط ليبرر غزو الصحابة للبلاد المجاورة لهم وليحسن الظن بهم وبسلفه من المفسرين! ثم عاد في هدوء وخجل ليعترف بأن أقرب الناس للمؤمنين هم المنافقين في المدينة ذاتها، أي أنه فهم وأدرك أن مدلول الآية ينصرف إلى نضال المنافقين في المدينة لكنه لم يجرؤ على البوح بذلك في وجه الصحابة والتابعين ومن فسروا قبله، وهذه من كوارث التبعية للسف، يظل كل جيل يركع لمن قبله ويمجد ويقدس فيه لدرجة أن تصبح جرائم الحرب عبادة لله بل ولها الوصاية على القرآن. !

تفسير السعدي

أما السعدي في تفسيره فيرى شيئا آخر أقرب إلى النفس من الهوى، إذ يرى أن مهمة المؤمن ودوره في الحياة هي تشغيل حصادة القتل الميكانيكية ليل نهار دون توقف، أي ضرورة استمرار آلة القتل على مدار الساعة، وأن الأولى هو قتل الأقرب فالأقرب، وأن الاستثناء هو قتل الأبعد فالأقرب حسب الضرورة والمصلحة والمصالح كثيرة جدا" !!!

وللحقيقة، لا أعرف من أين أتت هذه العقول الغريبة التي تصورت أن مهمة الإسلام هي القضاء على البشرية !

يقول السعدي في تفسير الآية السابقة:" وهذا أيضا إرشاد آخر، بعدما أرشدهم إلى التدبير فيمن يباشر القتال، أرشدهم إلى أنهم يبدؤون بالأقرب فالأقرب من الكفار، والغلظة عليهم، والشدة في القتال، والشجاعة والثبات. وقوله:(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) أي: وليكن لديكم علم أن المعونة من الله تنزل بحسب التقوى، فلازموا على تقوى الله، يعنكم وينصركم على عدوكم. وهذا العموم في قوله:(قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ) مخصوص بما إذا كانت المصلحة في قتال غير الذين يلوننا، وأنواع المصالح كثيرة جدا". !

وأما في تفسير البغوي:

قوله عز وجل: (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار).. الآية، أمروا بقتال الأقرب فالأقرب إليهم في الدار والنسب، قال ابن عباس رضي الله عنهما: مثل بني قريظة والنضير وخيبر ونحوها. وقيل: أراد بهم الروم لأنهم كانوا سكان الشام وكان الشام أقرب إلى المدينة من العراق" ... أما الكارثة العصرية فنجدها في القرن الحادي والعشرين، أي على مدار ألف وأربعمائة عام كاملة، لتستمر المجزرة إلى اليوم، ويتحول القرآن إلى معمل تفريخ إرهاب يخرج لنا بمعدل مليون انتحاري/ساعة، ويؤكدها لنا الشيخ الفاضل محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر الشريف في تفسيره.. قوله: يَلُونَكُمْ من الولي بمعنى القرب، تقول جلست مما يلي فلان أي: يقاربه.

قال ابن كثير: أمر الله المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولا فأولا، الأقرب فالأقرب، إلى حوزة الإسلام، ولهذا بدأ الرسول عليه السلام بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة واليمن.. وغير ذلك من أقاليم العرب، دخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجا، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لأنهم أهل كتاب، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس، وجدب البلاد، وضيق الحال، ذلك

سنة تسع من الهجرة، ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع، ثم عاجلته المنية صلوات الله وسلامه عليه بعد حجة الوداع بأحد وثمانين يوما وسار خلفاؤه الراشدون من بعده على نهجه.

وقوله: واعلموا أن الله مع المتقين تذييل قصد به حض المؤمنين على التسلح بسلاح الإيمان والتقوى حتى ينالوا نصر الله وعونه. أي: واعلموا أن الله مع المتقين بنصره ومعونته، فاحرصوا على هذه الصفة ليستمر معكم نصره وعونه. وإنما أمر الله المؤمنين أن يبدءوا قتالهم مع الأقرب فالأقرب من بلادهم، لأن القتال شرع لتأمين الدعوة الإسلامية، وقد كانت دعوة الإسلام موجهة إلى الأقرب فالأقرب، فكان من الحكمة أن يبدءوا قتالهم مع المجاورين لهم حتى يأمنوا شرهم، ولأنه من المعلوم أنه ليس في طاقة المسلمين قتال جميع الكفار، وغزو جميع البلاد في زمان واحد، فكان من قرب أولى ممن بعد". !!

نجد هنا الشيخ سيد طنطاوي شيخ الأزهر يتبنى تفسير ابن كثير للآية كما تناولنها سلفا، وتستمر الحصادة بوقود غزير متجدد من الجهل والهمجية والهمج واللصوص القتلة الذين تصوروا أن مهمة المؤمن في حياة هي قتل البشرية لكن بشروط " الأقرب فالأقرب" أي بالترتيب، وبرغم أن طنطاوي يدرك أن نصارى الشام هم نصارى العرب وليسوا كفار، لكنه يتبع سلفه ابن كثير وغيره في ذات الخطأ الكارثي الذي ولد مجازر غير إنسانية باسم الدين، والغريب أن طنطاوي قد كشف سرا جديدا هنا وهو قوله: ((لأن القتال إنما شرع لتأمين الدعوة)) وهو ما يعني قتال الشعوب المجاورة واحتلال بلادهم لتأمين دخول الإسلام في هذه البلاد، فالبدء يكون بالقتال لتأمين دخول الدعوة، كما تفعل الجيش المعاصرة، إذ تبدأ بدفع وحدات الشرطة العسكرية لتأمين وصول قوات الجيش القتالية إلى ميدان الحرب!!

للأسف ما قاله طنطاوي وغيره هو وصف دقيق لما حدث في التاريخ وليس تفسير للقرآن، فهم يجعلون من تاريخ العرب دينا للناس تعبد ربها استرشادا بجرائم العرب !! بل إن هناك فارق دقيق بين طنطاوي وهو من جيل المجددين المحدثين مقارنة بالمفسرين السابقين، إذ أن السابقين قد تصوروا أن المؤمنين مأمورين بصورة دائمة بقتل الكفار فقط بسبب كفرهم، واتفقوا على أن يكون القتل بالترتيب حسب المسافة والأولوية، بينما طنطاوي قد قرن بين قتل الكافرين ونشر الدعوة، وبذلك فالسبب عند طنطاوي مختلف جذريا، القدماء قالوا بأن القتل هو أمر محض من الله بقتل الكافرين بسبب كفرهم، أما طنطاوي فقد زحزح الأمر وقال أن القتل يكون لتأمين دخول الدعوة !! فأي دين هذا الذي تمهد له

الجيوش؟ ألم يقل الله: ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ".

والغريب الذي يثير الدهشة والجنون أن طنطاوي شيخ الأزهر في القرن العشرين لا يعلم أن المعارك التي خاضها النبي كانت دفاعية وليست هجومية، كانت لها أسبابها الواقعية المادية التي من شأن أي مجتمع أن يقوم بالحرب إذا ما تعرض لهذه الظروف، فالحرب لم تكن أمرا دينيا عقائديا بل كانت ضرورة دنيوية نتيجة تعرض المجتمع للخطر المحدق، وكون هذا المجتمع قد تعرض للخطر بسبب دينه، وفيه غرس الله بذرة الإسلام فكان فناء هذا المجتمع يعني فناء الدين، وكانت الحرب ضرورية للدفاع عن حياة المجتمع وأمنه وحقه المشروع كما كل مجتمع حتى ولو كان كافر، فلا نتصور أن المجتمع المسلم يدافع عن نفسه والمجتمع الكافر لا يدافع عن نفسه وحقوقه.. وبالتالي فالنبي اضطر للحرب كظرف حياتي دنيوي متعلق بحق الوجود، ولم يستخدمها النبي كأداة للتمهيد لنشر الدعوة بل فقط اضطر للدفاع عن نفسه ومجتمعه، لكن شيخ الأزهر لا يعرف أن معارك النبي كانت جميعها دفاعية اضطرارية، وأن الصحابة هم من استخدموا الحرب الهجومية كوسيلة للسيطرة على الشعوب بحجة التأمين والتمهيد لنشر الدعوة، ولكن لا أحد يملك الجرأة بقول ذلك لأن ذلك معناه تخطئة الصحابة واتهامهم بأنهم وقعوا في خطأ وهذا ليس من شأنهم، فيكون البديل هو تجريم النص القرآن ذاته حفاظا على كرامة الصحابة !! لأن الصحابة هم شخصيات أيقونية مضيئة وحية، بينما النص القرآني هو محض نص نظري وجثة هامدة يمكنك هجرها أو دفنها أو العبث بها على الوجه الذي تريد ! فالعلماء والفقهاء السلف جعلوا من الصحابة شركاء للنبي في الدعوة لمجرد أن وردت إشارة إليهم بالقرآن، جعلوهم شركاء في النبوة والرسالة محصنين بحصنها، مع أنهم محض تلاميذ تفوقوا في الفصل الدراسي الأول، وبمجرد أن رحل أستاذهم تركوا منهجهم وانصرفوا للعب والعبس حتى أنهم تلاعبوا بسيرته وأضافوا إليها من الأفعال ما لم يفعله وبقيت القلة القليلة منهم غير قادرة على السيطرة على المشهد.

أما ما يثير الجنون أكثر، هو أن شيخ الأزهر يقول هذا الكلام فقط في الكتب وفي المحاضرات التي يلقيها لطلاب الأزهر، وعندما يجلس في مؤتمرات الأمم المتحدة يقول لهم أن القرآن أسبق من الميثاق العالمي لحقوق الإنسان لأن القرآن كفل حقوق الإنسان التي أوردها الميثاق العالمي وزيادة قبل ظهور هذا الميثاق بأربعة عشر قرنا من الزمان.. !!

أما الشيخ الشعراوي فقد أفاض واستفاض في كيفية قتل الأقرب فالأقرب وقتال الكافة.. وشرح الاستثناءات التي تبرر قتل الأبعد فالأقرب حتى لا تقع في كماشة بين الشعوب الأقرب والأبعد.. وقال أن أخذ الأقرب أولا من حكمة القرآن كي تأمن نفسك من الجار الأقرب ولأنه الأيسر لك ! وقال أن القوة في القتال والشجاعة غير كافية ولكن لا بد من الغلظة تضاف إليها، وفسر الغلظة بأنها القوة والتحمل في تلقي الضربات؛ لأن القتال إرسال واستقبال ضربات، وإرسال الضربات يحتاج قوة وشجاعة أما استقبال الضربات يحتاج الصبر والتحمل وهي الغلظة.. !

ونعود مرة أخرى؛ ففي عهد النبي عليه السلام كانت الحرب دفاعية انتقائية، بمعنى أنه لم يكن يفكر في الحرب بداية ولم يكن منهجه قائما على الحرب والغزو بل على الدعوة، بل كان فقط يعد جيشه عندما تصله أخبار بهجوم معادي، أما في عهد الخلفاء صارت سياسية توسعية حصادة (الأقرب فالأقرب) وفسر المفسرون الآية التي تقول " قاتلوا الذين يلونكم" على أن الحرب تكون حصادة للشعوب المجاورة بأولوية القربى والجوار، أي الأقرب فالأقرب. وهذا تحول خطير في بوصلة الدين تخرجه عن مبادئه بالكلية، إذ أن معنى ذلك أن هذه الحصادة الدموية تحل محل الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، بل إنه اعتراف من الفقهاء والمفسرين بأن الحصادة الدموية هي السبيل الوحيد الإلزامي على كل مسلم لنشر الإسلام في ربوع الأرض. والآن سنطالع اجتهادات المفسرين وأخطائهم الفادحة في تأويل النص القرآن بما يخالف المنطق العقلي على مدار العصور ويوافق هواهم وتاريخ العرب، فهذه العبارة الذي جعل منها المفسرون حصادة دموية " قاتلوا الذين يلونكم من الكفار" قد وردت ضمن عشر آيات ملتحمة في سياق واحد في سورة التوبة التي تحدثت بكاملها عن المنافقين وصفاتهم وحيلهم، هذا السياق القرآني جاء متصلا لا منفصلا، وجاءت الآيات الأولى منه واضحة بالحديث عن المنافقين، ثم جاءت هذه العبارة في المنتصف " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ ..." واستمر الخطاب القرآن عن المنافقين بذات السيناريو. وآيات الله لا تقرأ كجزر منعزلة عن بعضها البعض ولكن تقرأ ضمن سياقها لنتعرف على مقصود الله تعالى على وجه واحد لا يحتمل غيره، بينما هم سلخوا الآية من سياقها واعتبروها محور وعنوان العلاقة بين المسلمين والشعوب المجاورة لهم، واختصروا علاقة الجوار المجتمعي في (قتل الأقرب فالأقرب مع المعاملة بغلظة) !

يقول الله تعالى في بداية السياق: وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ(١١٩) مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم

مِنَ الأعرابِ أن يَتخلفُوا عن رَسُولِ اللهِ ولا يرغبُوا بأنفسِهِم عن نفسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بأنهُم لا يُصيبُهُم ظمأٌ ولا نصَبٌ ولا مَخمَصةٌ فِي سَبيلِ اللهِ ولا يَطئُونَ مَوطِئًا يَغيظُ الكُفارَ ولا ينالونَ مِن عَدُوٍّ نيلًا إلا كُتِبَ لهم بهِ عملٌ صالِحٌ ۚ إنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أجرَ المُحسِنِينَ (١٢٠) ولا يُنفِقونَ نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً ولا يَقطعُونَ واديًا إلا كُتِبَ لهُم لِيَجزِيَهُمُ اللهُ أحسنَ ما كانوا يَعمَلونَ (١٢١) ۞ وما كانَ المُؤمِنُونَ لِيَنفِرُوا كافةً ۚ فلولا نفرَ مِن كُلِّ فِرقةٍ مِّنهُم طائِفةٌ لِيَتفقهُوا فِي الدِّينِ ولِيُنذِرُوا قومَهُم إذا رَجَعُوا إليهِم لعَلهُم يَحذَرُونَ (١٢٢)/سورة التوبة

ثم يقول تعالى مباشرة: يا أيُّها الذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الكُفارِ وليَجِدُوا فِيكُم غِلظةً ۚ واعلمُوا أنَّ اللهَ مَعَ المُتقِينَ (١٢٣) وإذا ما أُنزِلت سُورةٌ فمِنهُم مَّن يَقولُ أيُّكُم زادَتهُ هَٰذِهِ إيمانًا ۚ فأمَّا الذِينَ آمَنُوا فزادتهُم إيمانًا وهُم يَستبشِرُونَ (١٢٤) وأمَّا الذِينَ فِي قلوبِهِم مَّرَضٌ فزادتهُم رِجسًا إلىٰ رِجسِهِم وماتوا وهُم كافِرُونَ (١٢٥) أوَلا يَرَونَ أنهُم يُفتنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَّرَّةً أو مَرَّتينِ ثُمَّ لا يَتوبُونَ ولا هُم يَذكرُونَ (١٢٦) وإذا ما أُنزِلت سُورةٌ نظرَ بَعضُهُم إلىٰ بَعضٍ هل يَراكُم مِّن أحدٍ ثُمَّ انصَرفوا ۚ صَرفَ اللهُ قُلوبَهُم بأنهُم قومٌ لا يَفقهُونَ (١٢٧) لقد جاءَكُم رَسُولٌ مِّن أنفُسِكُم عَزِيزٌ عليهِ ما عَنِتُّم حَرِيصٌ عليكُم بالمُؤمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فإن تولوا فقُل حَسبِيَ اللهُ لا إلَٰهَ إلا هُوَ ۖ عليهِ توكلتُ ۖ وهُوَ رَبُّ العَرشِ العَظِيمِ (١٢٩)/التوبة

وكما يتبين لنا من الآيات التي سارت وفق السياق العام، بدأت بالحديث ن المتخلفين عن الجهاد وذكرت أحوالهم النفسية تفصيلا، وحفزت المؤمنين بالتقوى وأن يكونوا مع الصادقين وألا يتخلفوا عن رسول الله وألا يبخلوا بأنفسهم في الدفاع عنه، ثم انتقلت الآيات تدريجيا إلى (بعدما ذكرت المتخلفين عن الجهاد وقبول توبتهم، ونصحت الآيات بإتقان العمل الصالح وتنقية النفس وإسباغ الإيمان) حتى وصلت في تسلسل تدريجي سلس إلى الحديث عن النفاق والمنافقين، وهم الوباء في هذا المجتمع سواء خرجوا أو قعدوا. وقد نزلت سورة التوبة في الحديث عن النفاق بوجه عام ووصف أحوال المنافقين وحيلهم، وأرشد الله رسوله والمؤمنين إلى مجاهدة المنافقين الذين عدد أوصافهم بدقة، حيث يقول: يا أيُّها الذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الكُفارِ وليَجِدُوا فِيكُم غِلظةً ۚ، والمقصود بهذه الآية هم المنافقين، وليس الأمر متعلقا بالحرب العسكرية وإنما متعلقا بنضال المنافقين في الداخل، والغلظة هنا لا محل لها في الحرب العسكرية لأنها تقوم على القتال فهل يكون هناك غلظة أبعد من ذلك؟ فالقتل بالسيف يلزمه القوة لا الغلظة، وإنما الغلظة مع السيف تعني تمثيل بالجثة أو ما هي الغلظة التي قد

يأمر بها الله في الحرب غير كونها حرب؟ وهل يحتاج الأمر من الله أن ينصح بالغلظة في الحرب العسكرية؟.. فالواقع أن الله إنما يحدث المؤمنين عن المنافقين وينهاهم عن التودد إليهم وتليين الخطاب أو التعاطف معهم لأن نفوس المنافقين مريضة ولا يرجى شفاؤها، وموطن الغلظة هنا هي القطيعة مع المنافقين والحذر الشديد منهم ومن وساوسهم حتى لا تجد هوى في نفوس المؤمنين فتضعف أو تستجيب لهم أو تلين أو تزيغ قلوبهم كما حدث في جيش العثرة وتحدث الله عن ذلك في الآية ١١٧ من ذات السورة ثم تاب الله عليهم إنه رءوف رحيم، وما يؤكد أن الأمر هو قتال معنوي للمنافقين وليس تصفية مادية للجيران، هو أن الله أكمل الآية بالمقارنة بالتقوى وهي عكس النفاق تماما بتمام، فقال: واعلموا أنَّ اللَّه مع المُتقِينَ" وعكس المتقين هم المنافقين وليس الكافرين، فالكفر نقيضه الإيمان، والنفاق نقيضه التقوى، وإذا كان الله يحذر الناس من النفاق، فمن الطبيعي أن يحثهم على التقوى، وإذا حذرهم من العمل الفاسد فطبيعي أن يحثهم على العمل الصالح وفرق الثواب في ذات السياق لأن النفس البشرية تنسجم مع التضاد سواء كان في اللفظ أو المعنى، بل إن التضاد يوضح المعنى ويبرزه. فالله قد أقام مقارنة سياقية بين فئتين متقابلتين متناقضتين تماما هم المنافقين والمتقين، وذم المنافقين بوصفهم (كافرين موالين أي عملاء خونة) وحذر من فريق المنافقين وحث على الانضمام لفريق المتقين والتمسك به. والمنافقين هنا لم يرد ذكرهم لفظا ولكن سياقا وعبارة؛ بمعنى أنه ذكر الكافر الموالي، وهذه العبارة معناها المنافق، غير أنه عاد ووصف المنافقين صراحة بأنهم (الكافرين الذين في قلوبهم مرض)

والمقصود بالأمر " قاتلوا " ليس فعل القتل والتصفية الدموية، ولكن الله يأمر بمجاهدة ومكافحة المنافقين لأنهم وباء، وعلى الرسول والمؤمنين الكفاح والمناضلة ضدهم لتطهير المجتمع من النفاق الذي ينخر في دعائمه مثل السوس، وهو ما ظهر جليا في جيش العثرة الذي نزلت هذه السورة بمناسبته، ولذلك لم يقم الرسول بالقبض عليهم وذبحهم في بيوتهم ليلا وإنما حذر منهم وفضح أمرهم، فهو قتال معنوي لا مادي، نفسي لا دموي، متعلق بالفكر والإرادة وليس بالسيف والخنجر. والغلظة معنوية لا مادية، في قوله"وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً" لكن العرب في تفسيراتهم للقرآن كانوا أكثر سذاجة وأهملوا ما هو معنوي وكثفوا من المفاهيم المادية لأن ذلك ينسجم مع طبيعتهم النفسية وبيئتهم ومجتمعهم ومنشأهم. ثم تستمر الآيات في ذات السياق، حيث يقول الله تعالى في تكملة وصفه للمنافقين:" وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ " ..

والملاحظ أن الآية بدأت بأداة عطف وليس استهلال، أي أنها ليست بداية واستئناف لموضوع جديد بل تكملة وتفصيل معطوف على ما قبله، وتكملة على سياق موضوع الحديث عن (الذين يلونكم من

الكفار أي الكافرين الموالون لكم العملاء الخونة الذين يسيرون تحت لوائكم نفاقا ظاهريا وقلوبهم مليئة بالكفر والضغينة ويسخرون من القرآن). ونحن لن نتوقف كثيرا على واو العطف كرابط إلزامي لسياق الحديث، وإنما سنقف على الضمير المتصل بعده " فمنهم" ((وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم))، ونسأل بسذاجة وبديهية؛ ممن؟ وإلى من يعود هذا الضمير بعد واو العطف؟ فطالما حرف عطف فلابد أنه رابط بين العبارتين، وطالما ورد بالآية ضمير فلا بد أن يعود إلى أقرب اسم صحيح ورد بالجملة التي قبلها، وإلا لن يكون للضمير معنى هنا ولا لحرف العطف قيمة نهائيا، والغريب أن الفقهاء اتفقوا على أن الضمير حقيقة يعود على المنافقين الواردة السورة كلها بشأنهم، فالمقصود بهذا الضمير هم المنافقين، كما ورد ذكرهم بالسورة عامة، فهم كلما نزت سورة من الوحي استهزؤوا بها، لكن السؤال يثور هنا للغويين، هل من المنطق القول بأن الضمير يعود على المنافقين عامة في السورة؟ دون أن يشير إلى الاسم الصحيح الموصوف في العبارة السابقة عليه برغم وجود واو العطف بين العبارتين؟ أم أن المنطق اللغوي يقول بأن المنافقين الذين ورد ذكرهم في العبارة السابقة (الكافرين الموالين للمؤمنين والخونة العملاء) هم الذين يعود عليهم رابط الضمير؟ فالله تعالى يقول: <u>يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً</u> ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ" فهل يثور شك بأن الضمير الوارد بهذه الآية يعود على المنافقين الموصوفين في العبارة التي قبلها التي تقول" <u>قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ</u>"؟، فالمنطق يقول بأن الله يأمر المؤمنين بأن قاتلوا المنافقين الكفار الذين كلما نزلت سورة فمنهم من يتساءلون بسخرية أيكم زادته هذه إيمانا؟.. غير أن الآية جمعت بين المتناقضين في مواجهة صريحة ومباشرة، فالله ذكر الكفار الموالين الخونة العملاء وحفز على قتالهم وفي المقابل مدح المتقين، فقال: "وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ" أي أن الله يتحدث في سياق عام عن تنقية وتطهير المجتمع وتصفيته من المنافقين ليبقي فقط المتقين. وقد جاء هذا الحديث تاليا على الحديث عن المؤمنين الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله والذين زاغت قلوبهم وضعفت بسبب وشاية المنافقين وأحاديثهم.

ثم يستمر المولى عز وجل في وصف المنافقين وحيلهم، وفي ذات السياق المقارن، فيقول أما المؤمنون فإذا نزلت سورة فإنهم يستبشرون وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)/التوبة. أي أن الله وصف المنافقين وصفا مستقلاً بأنهم كافرون لأنهم في قلوبهم مرض وهذا المرض زادهم رجسا فماتوا وهم " كافرون" فصفة النفاق لا تخلوا من صفة الكفر، وبالتالي حينما يقول تعالى: قاتلوا الذين يلونكم من الكفار، لا ينبغي فصلها عن سياقها وصرفها إلى قتل الشعوب المجاورة الأقرب فالأقرب كما لو كان الإسلام جاء حصادة دموية للشعوب. ثم كيف يكون سياق

الحديث كله عن درجات النفاق وأحوال المنافقين وصفاتهم وألاعيبهم وخيانتهم، وفي منتصف الكلام تأتي عبارة مقتضبة ودون سياق لتوجيه جيوش المسلمين لإعلان الحرب الدائمة في الزمان والمكان وبدون أسباب على جميع الشعوب المجاورة بأولوية القربى من بلاد المسلمين الأقرب فالأقرب على اعتبار أن الجار أولى بالقتل !، ثم يعود الخطاب القرآني ليبدأ (بعد جملة واحدة) مجددا حديثه عن المنافين باستئناف ابتدائي وبأداة عطف يتبعها ضمير ربط متصل !!

فالسياق العام للآيات بكاملها يتحدث عن درجات النفاق وأفعال النفاق والمنافقين والمقارنة بينهم وبين المؤمنين المتقين، وأوضح أن باب النفاق يبدأ بالتكاسل عن نصرة الرسول ثم الذين يتهربون من الجهاد ويتلمسون الأعذار والذين ينفرون منه ثم يتطور الحديث تدريجيا حتى يصل إلى المنافق الخائن العميل. إذن سياق الآيات متصل في حديثه عن المنافقين ووجوب قتالهم أي جهادهم ومكافحة نفاقهم وكفرهم، فطبيعة الحال تؤكد أن المنافقين كافرين بل إنهم في الدرك الأسفل من النار لأنهم ليسو فقط كافرين بل يضللون الرسول والمؤمنين بنفاقهم وتظاهرهم بالإسلام، فهل هناك منطق يقول بأن عبارة الكفار الواردة في منتصف الآيات تنصرف إلى قتل الروم المسيحيين واليهود من الشعوب المجاورة في الشام والعراق ؟؟ وهل يمكن لله أن يصف المسيحيين واليهود جملة وإجمالا بكلمة الكافرين؟ وهل يأمر بقتلهم دون سبب؟ وهل من المنطق أن يرد الأمر بقتال الكافرين (المسيحيين واليهود) في عبارة مقتضبة خاطفة دون سياق وسط آيات تتحدث جميعها عن المنافقين وكفرهم ودرجات النفاق؟ قبلها وبعدها آيات تتحدث عن المنافقين وتعدد صفاتهم، فكيف يتوسط هذه الآيات أمر بقتل المسيحيين واليهود ووصفهم بأنهم كافرين؟ ثم ما الدافع إلى نفي كلمة الكافرين عن المنافقين مع أنهم هم الكافرين حقا، فلماذا نفى المفسرون وصف الكافرين عن المنافقين وصرفوه إلى المجتمعات المجاورة من المسيحيين واليهود (الروم والعرب في الشام) ثم عادوا في العبارة التالية ليصرفوا الضمير الوارد بها إلى المنافقين عامة ! فلماذا لم يصرفوه إلى المنافقين الواردين بالآية السابقة؟ ذلك لأن الميول النفسية لدى الفقهاء والمفسرين خرجت بالنص القرآني عن سياقه لينسجم مع تاريخ العرب وما فعله الصحابة بعد وفاة الرسول، وليكون تاريخ العرب الصحابة هو الدين وهو المفصل حصرا لآيات الله، ليصنعوا من عباراته أوامر بإنشاء حصادة تجوب العالم بالقتل والذبح ! باعتبار أن كلمة " الذين يلونكم" تعني التالي، أي الذين يتلونكم في الجوار، فهل جاء الإسلام لحصد الشعوب والمجتمعات بالسيف ؟ باعتبار الدنيا كلها أعداء وما على المسلمين إلى قتل كل الشعوب والمجتمعات؟ فلماذا قال الله: وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) /يونس ؟؟

إن عبارة الذين يلونكم الواردة في سياق الآية يقصد بها المنافقين الذي ينضوون تحت لواء المسلمين، لأن مشكلة النفاق وظاهرة النفاق ذاتها تنشأ من تبعية بعض الكافرين لواء الإسلام، وسيرهم تحت لواء المسلمين وهم كافرون، بل إن الله قد حذر المؤمنين من ذات الشيء لأن النفاق درجات وليس كله كفر، وبذات الجذر اللغوي، فيقول في سورة آل عمران: " لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) وهو أمر مباشر من الله للمؤمنين بعدم موالاة الكافرين أي عدم الانضمام إلى لوائهم وزمرتهم، لأن من يلي الكافرين فليس من الله في شيء. ويقول الله تعالى في سورة المائدة مستخدما ذات الجذر اللغوي:" ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١)

ولو دققنا في المعنى اللغوي للفظ المنافقين، سنجد أن وصف الكافرين ينطبق عليهم وأن الله جل وعلا لم يخطئ حينما وصفهم بالكافرين، لأن المنافق مزدوج العقيدة والنفاق صفة مزدوجة بين الإيمان الظاهري والكفر الباطني، فالمنافق يمكن وصفه بأنه من المؤمنين لأنه حمل صفة الإيمان بوقوفه تحت لواء المؤمنين، وكذلك يمكن وصف المنافق بأنه كافر لأنه فعلا يحمل الكفر في باطنه، ولذلك استخدم الله في الآية الأولى ١٢٣بأنهم كافرين موالين (الذين يلونكم من الكفار) وفي الآية التالية ١٢٥ وصف المنافقين بأنهم كافرين في قلوبهم مرض ورجس، وأما الصفة التي تدمج الصفتين معا فهي "منافق" أي مؤمن كافر أو كافر موالي أو كافر في قلبه مرض، ولأن الله لا يريد مناضلة صفة الإيمان أو حتى التظاهر بالإيمان وإنما فقط يريد مناضلة صفة الكفر في المنافقين، لأن صفة الإيمان الظاهر لا ضرر منها وإنما الضرر من الكفر الباطن، وبالتالي لو عدنا لوصف القرآن حيث يقول" قاتلوا الذين يلونكم من الكفار" فهو يعني حتما المنافقين، لكنه يقصد فقط صفة الكفر في كل منافق. وكلمة كافر هي الأكثر تركيزا ودقة من كلمة منافق، لأن كلمة منافق هي وصف عام شامل يشمل الصفتين معا " الإيمان الظاهر والكفر الباطن" والله حينما أمر بقتال هؤلاء المنافقين نزع عنهم صفة الإيمان الظاهري بعد أن أوضح أنه ظاهري ولا قيمة له، وطالما نزع الله عن المنافق صفة الإيمان فلم يعد منافق وإنما كافر، ولذلك قال الله" قاتلوا الكفار" ثم تبع سبب ذلك الأمر بتفصيل أفعالهم وسخريتهم من القرآن.

غير أننا نعود لتحليل كلمة منافق فهي تعني اندماج صفتين كما سبق، تعني كافر مع صفة إيمان ظاهر أي موالاة المؤمنين، أي الكافر الموالي للمؤمنين هو المنافق، حتى أن الله قال في الأمر قاتلوا الذين

يلونكم من الكفار أي جمع صفة الموالاة (الإيمان الظاهر) وصفة الكفر، واندماج هاتين الصفتين يكون صفة النفاق. لكن العرب كعادتهم يهجرون الأمور والمفاهيم المعنوية ويكتفون من المفاهيم المادية بما ينسجم مع طبيعتهم النفسية وهمجيتهم ووحشيتهم، فاعتبروا وصف "الذين يلونكم" اعتبروا أن الله يقصد الذين يسكنون قريبا منكم مكانيا وجغرافيا أي الشعوب المجاورة، ولم يفهموا أن اشتقاق الفعل من صفة الموالاة وإعلان الولاء والتقرب المعنوي.. ونبحث على الجذر اللغوي لكلمة "يلي" للوصول إلى المقصود بعبارة "الذين يلونكم" الواردة بالآية، فنقرأ معجم المعاني الجامع[١] :

- ولى :(فعل)
- ولى يلِي، لِ / لِهْ ، وَلْيًا ، فهو والٍ ، والمفعول مَوْليّ (خادم)
- ولى فلانًا: دنا منه وقرُب منه
- كما يلي: كما يتّبع
- وَلاه فِي المَوْكِبِ: تَبعهُ مِنْ غَيْرِ فصْلٍ ، قرُب مِنْهُ
- وَلا :(فعل)
- وَلى (يلِيه) وَلْيًا

ويتضح من البحث ببساطة في المعجم أن الجذر ينصرف إلى معانٍ عديدة، تشتق جميعها من معنى القرب والولاية، أي تنصرف صراحة في سياق الآية إلى وصف المنافقين الذين يلون المؤمنين أي يسيرون تحت لوائهم وفي مواكبهم ظاهريا، وهذا ما يسير مع منطق الآيات التي تحدثت منذ بداية السورة عن المنافقين وأوصافهم وحيلهم، وعن جيش العثرة وما حدث فيه، ولا مجال هنا لغرس معنى شاذ ينصرف إلى أمر مباشر بقتل المجتمعات المجاورة من النصارى واليهود الأقرب فالأقرب بوصفهم كفار كما ذهب المفسرون على مدار التاريخ، فالمعنى يحمل دلالة واضحة على المنافقين لكن جنوح النفسية العربية إلى المزاج الحربي جعلتهم يغلبون المعنى الشاذ على المعنى الواضح الصريح، ويجعلون من القتال المعنوي قتالا ماديا بالسيف، والغريب أن الطبري في تفسيره قد أدرك هذا الجذر اللغوي واستخدم عبارة "ولي" بمعني يلي بمعني يتبع، ومع ذلك صرفها إلى وجوب قتال المجتمعات المجاورة أولا بأول أي بتشكيل حصادة دموية مثل حصادة القمح تزيل لشعوب والمجتمعات أولا بأول.

١- https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/

وهذه كارثة التبعية للسلف في التأويل والتفسير، فما وقعوا فيه من خطأ استمر هامش الخطأ آلاف السنين مقدسا حتى تحصن بطول الزمن وأصبح من " ثوابت الأمة "، والكارثة الأعظم أنه ليس خطأ عاديا، وإنما خطأ عقائدي إجرامي معناه وجوهره أن وظيفة المؤمن في الحياة هي قتل الناس، وكلما انتهى من تصفية المجتمعات المجاورة له توسعت دائرته لتطال شعوبا أبعد منه وبذلك تتوسع دائرة الإسلام ! وبالطبع هم لم يفهموا أن ذلك ليس نشرا للإسلام وإنما تصفية عرقية لغير المسلمين، وهي فكرة شيطانية جوهرها أن يصبح الإسلام قويا، ليس بقوته الذاتية والحكمة والموعظة الحسنة، ولكن قوته بتصفية خصومه .! والفرق شاسع ما بين انتشار الإسلام بقوة معانيه ومبادئه وما بين سيادته بتصفية خصومه . لكن المفسرين الأوائل؛ ابن كثير والطبري والقرطبي والسعدي وابن عاشور والبغوي والجلالين، وحتى المفسرين الجدد في عصر الإنسانية وحقوق الإنسان، نجد شيخ الأزهر الدكتور سيد طنطاوي والشيخ الشعراوي أيضا يسير على نهج السلف في تفسير القرآن بذات النظرة الفلسفية الحربية وبنظرية الحصادة الدموية! وجميعهم تبنوا هذه العبارة " اقتلوا الأقرب فالأقرب من الشعوب المجاورة " !

وفي الواقع فإننا لا نجد أي منطق عقلي أو علمي أو إنساني يفسر لنا ما اقتنع به " جمهور العلماء" إلا لجنة خبراء في الطب النفسي، كي تفسر لنا كيف يقتنع إنسان بأنه مأمور من الله ليدور بالقتل على المجتمعات والشعوب المجاورة له بالدور الأقرب فالأقرب، ويقدم الدليل بأنه كما فعل الصحابة في العراق، فالشام، ثم فارس، ثم مصر، ثم شمال إفريقيا، ثم الأندلس !! فهم لم يقدموا الدليل من العقل أو من الدين وإنما من تاريخ العرب، وهذا ما يفسر استمرار الأمراض النفسية الجمعية في هذه الشعوب التي انكسرت إرادتها تحت الجيوش العربية المتوحشة فأصابها رهاب وخضوع مزمن لفكر العرب ومعتقداتهم ومبادئهم، حتى صار العرب هم الآباء الروحيين لهذه الشعوب. وبالطبع مثل هؤلاء وأجيالهم لن تجد معهم الحجج المنطقية، ولن تجد محاولات إقناعهم أن دور المؤمن في الحياة هي قتل غيره، ذلك لأن الحجج المنطقية لا يكون لها تأثير منطقي على من ليس لديه تفكيرا منطقيا كما يقول كارل بوير.

ففي قوله تعالى" يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ". يقول ابن عاشور:"كان جميع بلاد العرب خلص للإسلام قبل حجة الوداع، فكانت تخوم بلاد الإسلام مجاورة لبلاد الشام مقر نصارى العرب، وكانوا تحت حكم الروم، فكانت غزوة تبوك أول غزوة للإسلام تجاوزت بلاد العرب إلى مشارف الشام ولم يكن فيها قتال، ولكن وضعت الجزية على أيلة وبصرى، وكانت تلك الغزوة

إرهابا للنصارى، ونزلت سورة براءة عقبها فكانت هذه الآية كالوصية بالاستمرار على غزو بلاد الكفر المجاورة لبلاد الإسلام ((لاحظ أنه يقول كانت الغزوة إرهابا للنصارى، فهل أمر الله بنشر دينه بإرهاب النصارى؟ ثم يقول كانت هذه الآية كالوصية باستمرار الغزو !)) بحيث كلما استقر بلد للإسلام وكان تجاوره بلاد كفر كان حقا على المسلمين غزو البلاد المجاورة. ولذلك ابتدأ الخلفاء بفتح الشام ثم العراق ثم فارس ثم انثنوا إلى مصر ثم إلى إفريقية ثم الأندلس. فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا تكملة للأمر بما يتعين على المسلمين في ذيول غزوة تبوك"..

بالطبع لا يمكن أن نجد منطق عقلي صحيح يستوعب أن يكون دور الإنسان المؤمن في الحياة هو قتل الناس وإرهابهم، وهذا ليس دين من الله ولكنه تاريخ العرب والصحابة، لكن دعنا نتساءل إذا كان الصحابة أخطأوا وتجاوزا حدود الدين واعتدوا على الشعوب المجاورة لهم بالقتل والسلب والنهب ..إلخ. فما الذي دفع هؤلاء الجمهرة من علماء المسلمين على مدار ١٤٠٠ سنة أن يؤمنوا ويقتنعوا بهذا الكلام؟ هل لأنهم مجرمون جميعا؟ وهل يصح توقيفهم للمحاكمة أمام المحكمة الجنائية الدولة بتهمة التحريض على القتل الجماعي؟ أو التصفية العرقية للشعوب؟ أو الاضطهاد الجماعي؟

بالطبع لا ولكن يجب النظر إليهم بعين الرأفة، لأنهم أصيبوا بعدوى متلازمة ستوكهولم العربية على مستوى العقل الجمعي، وهي التي تصيب العقل بمازوخية الخضوع لغيره الذي اعتدى عليه، وإن كان هؤلاء العلماء لم يروا الصحابة أصلا ولم يتعرضوا لعدوانهم، فكيف تفسر لنا متلازمة ستوكهولم هذا الوضع؟ في الواقع إن العدوى لا تصيب شخص أو فرد أو عائلة أو قبيلة وإنما تصيب شعبا وشعوبا بأكملها، فجميع الشعوب التي تعرضت لغزو الصحابة والعرب خلال حقبة الفتوحات، جميعها أصيبت بنوع من العدوى النفسية كما الفيروس النشط، هي عدوى الرهاب والخضوع للعرب، فقد جعلت هرمونات المازوخية العقلية، وهي مجموعة هرمونات تفرزها غدد صماء في الجسم تعمل على تشغيل المخ بمزاج معين، هذه الجينات عادة ما تكون خاملة أغلب الوقت، ولا تنشط إلا مع وقوع حدث معين، وعندما حدثت حقبة الفتوحات، فقد أدت إلى تنشيط جينات المازوخية العقلية "متلازمة ستوكهولم" في أبناء الشعوب التي تعرضت لها، واستمرت هذه الجينات نشطة على مدار السنين تنتقل من جيل إلى جيل بنفس معدلات النشاط وتفرز هرموناتها باستمرار، ولا تخمد هذه الجينات وتقل معدلات إفرازها الهرموني إلا بمرور مئات السنين، وتضعف تدريجيا. وهذا ما يعني استمرار الحال على هذا الوضع لحقب زمنية طويلة، وكل جيل يموت ويأتي جيل بعده حاملا لذات الجينات النشطة في عقله، فلا يمكن أن يخرج من ذات الدائرة. وكانت النتيجة أن وجدنا جمهور علماء المسلمين على مدار ألف وأربعمائة

عام جيل ورا جيل يؤمنون ويقتنعون بذات الأفكار وبأن جرائم الحرب التي وقعت خلال حقبة الفتوحات هي جهاد في سبيل الله وحق مشروع وواجب ديني مقدس..

فهؤلاء الجمهرة من أجيال علماء المسلمين لم يكونوا مجرمين ولكن مصابين بصدمة نفسية على المدى البعيد تفسرها متلازمة ستوكهولم، وجميعهم من أبناء الشعوب التي تعرضت للصدمة عندما اكتسح العرب بلادهم خلال حقبة الفتوحات، إنما لا يمكن أن يقتنع عالم من أبناء الشعوب التي لم تتعرض لهذه الانتكاسة النفسية أن يقتنع بهذا الفكر وهذا التوجه الفقهي أبدا، فقط أبناء الشعوب التي تلقت الصدمة وخضعت لسيطرة العرب وحكمهم هم من يؤمنون بفكر العرب وتوجهاتهم الإرهابية العدوانية، وهم من يستمدون قواعدهم الفقهية من تاريخ العرب وليس من كتاب الله لأنهم تأثروا بفعل العرب قبل أن يعرفوا كتاب الله. فأبناء هذه الشعوب على مدار مئات السنين ستظل تعاني آثار الصدمة لأنها أصيبت بمتلازمة ستوكهولم التي نشطت جينات المازوخية والخضوع لفكر العرب دون إرادة، إلا القليل النادر من أبناء هذه الشعوب الذي استطاع أن يكسر هذا الإطار الفكري وينفذ خارجه، وهم قلة قليلة ونادرة جدا من النوابغ المعدودة حصرا مثل ابن خلدون وابن رشد والحلاج..إلخ، وجميعهم من أصحاب العلوم العقلية الذين أعملوا عقولهم واعتمدوا السببية والموضوعية العقلية، وهذا ما يعني أن رجال الدين استبعدوا الموضوعية العقلية وخضعوا لعدوى متلازمة ستوكهولم العربية... وأذكر واقعة فردية حدث خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣م، حيث كان أحد الضباط المصرين من قادة الألوية المدرعة، وبرغم أن لواءه حقق بطولات عظيمة وخطوات هجومية تجاه العدو الإسرائيلي في سيناء، إلا أن هذا الضابط أصابته نوبة خوفٍ ورُهاب مفاجئ فترك قواته وهرب من المعركة متجها إلى السويس، ووجد معتكفا في مسجد بمدينة السويس يجلس بجوار المنبر وينزوي ويبكي كثيرا ويستغفر ويدعو الله بخوفٍ وهلع، فقبضت عليه الشرطة العسكرية وتم اقتياده إلى المحكمة العسكرية حيث تمت محاكمته بالقاهرة على هروبه من المعركة، ولكن تم وقف تنفيذ الحكم نظرا للظروف النفسية غير الطبيعية التي دفعته لفعل ذلك، فهو في الواقع لم يتخذ قرار الهروب من المعركة عمدا وعن فكرٍ ووعي وإدراك واختيار، إنما وجد نفسه مدفوعا لفعل ذلك نتيجة لصدمة النفسية أصابته.. برغم بطولاته العظيمة إلا أنه استشعر لحظة هزيمة أمام العدو الإسرائيلي، فانعكست أفكاره وانبطحت قدراته العقلية واستسلم.. وهكذا الجيوش بوجه عام تحدث صدماتٍ نفسية عنيفة في الشعوب التي تجتاحها، كما حدث في مصر وفارس والعراق عقب اجتياح الجيوش العربية بذريعة نشر السلام والرحمة والإيمان !

وهذا ما قد يفسر لنا كارثة الإجماع التي استمرت على مدار ألف وأربعمائة عام ولم تستطع الأجيال الجديدة كسرها باعتبار إجماع علماء الأمة هو دليل إثبات للأحكام الشرعية، ودعامته إجماع الأمة وعلماءها، بينما الحقيقة أن هؤلاء العلماء إما من أبناء العرب الذين اكتسحوا شعوب العالم بالسيوف، فهم مقتنعون بما يفعلون وإلا ما فعلوا، وإما أن يكونوا من أبناء الشعوب المكسورة تحت سطوة الجيوش العربية فهم خاضعون للعرب لا إراديا بفعل الصدمة النفسية ومتلازمة ستوكهولم العربية، فهم مثل الرهينة المجبور على التفكير بعقلية الخاطف المحتجز المعتدي. فإرادتهم ليس حرة وليست خالية من عيوب الإرادة.

والأمر لم يتوقف على المفسرين المعروفين فقط، ولكن بالطبع شمل كل الفقهاء والعلماء، حتى أنهم عمدوا إلى تعطيل آيات كاملة من كتاب الله لتدعيم وجهة نظرهم في طريقة نشر الإسلام بتصفية غير المسلمين، ومن هنا ظهرت فكرة النسخ في القرآن، أي نسخ وتعطيل آيات منه وتفعيل آيات أخرى وتوسيع نطاقها بإحلالها تنفيذيا محل الأولى، بل وتطور الأمر إلى اعتناق البعض فكرة أن الأحاديث والمرويات من شأنها نسخ القرآن وتعطيل أحكامه ! يقول الأستاذ الكاتب كمال حبيب: "بينما كنت أحرر مسألة متعلقة بتأويل قوله تعالي "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين"، الممتحنة، الآية ٨، لأفهم معني البر والقسط لمن لم يخرجنا من ديارنا أو يقاتلنا في ديننا، وعدت لتفسيرات المفسرين القدامى فوجدت من يقول بنسخ الآية، والنسخ يعني رفع الأحكام التي تتضمنها تلك الآية والمعاني المستبطنة داخلها لصالح آية السيف.. وأذهب إلي أنها آية محكمة وأنها من أم الكتاب لا تشابه فيها بل هي واضحة وضوحا جليًا يذهب عنها كل إبهام أو تشابه كما ينفي عنها النسخ وهي قائمة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء". فكيف نقول بأنها منسوخة بآية السيف التي جاءت في سورة التوبة وأن أحكامها قد رفعت؟. وذهب بعض المفسرين القدامى للقول بأن آية السيف في سورة التوبة نسخت مائة وأربعة عشر آية في أربعة وخمسين سورة، ما يعني أن آية واحدة رفعت أحكام أكثر من مائة آية وما فيها من معانٍ، فلماذا لم يقولوا العكس؟ لماذا تمسكوا بحلول آيات القتل محل آيات العدل والرحمة والمعاملة الحسنى بالحسنى؟ أو لماذا لم يقولوا بأن آيات العدل والسلام نسخت آيات القتل؟ أو لماذا لم يقولوا بأن كل آية لها ظروفها المجتمعية ؟ بل إنهم قالوا بأن آيات السلام والرحمة والعفو نسختها آيات الحرب والقتل وحلت محلها، قالوا ذلك لأن تاريخ العرب جاء كذلك، فهم يعتبرون تاريخ العرب هو بوصلة الدين ولائحة تنفيذية للقرآن !!

فشرع الله جل وعلا يجعل القتال محصورا في الدفاع فقط (وقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠)/البقرة ، ويأمر بالبر والقسط مع الأمم المخالفة في الدين التي لم تقاتل المؤمنين ولم تخرجهم من ديارهم (لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) الممتحنة).

في الواقع، لا ريب أن بروز ظاهرة النسخ ما هو إلا دلالة على أن ملكة الرحمة في العقل قد تعطلت وحل محلها ملكات العنف والقتل والنرجسية والعداء للبشرية، فكيف نقول بأن آية في كتاب الله عطلت أخرى؟ وعلى أي أساس؟ إلا إذا كان هذا الأساس هو الميول النفسية العدوانية التي سيطرت على العرب فجعلتهم يبحثون عن مبرر لدوافع القتل بداخلهم، فلم يجدوا لها مخرج إلا بتعطيل آيات الله التي أمرت بالعدل والسلام بين المجتمعات، لتتحول وظيفة المؤمن في الحياة إلى القتل، ويصبح مصدر دخله ومعاشه من القتل ! ، ولهذا وضع الفقهاء ركنا جديدا اخترعوه في الإسلام وهو " جهاد الطلب" أي الحرب الهجومية لطلب الجزية والخراج والإتاوات، وجعلوا ذلك العمل اللصوصي ركنا من أركان العبادة ووضعوا له أحكاما ضوابط تعبدية ومواعيد دورية تتواتر في مواسم تحصيل الضرائب والخراج كما قال أبو حنيفة. بل إنه في عصرنا، عصر الحضارة التكنولوجيا والانفتاح الثقافي على العالم، عصرنا الذي صار العالم فيه قرية صغيرة تجوب أركانها وأنت جالس في مقعدك، ما زال هناك من ينادون بـ"الفريضة الغائبة" وهي السطو المسلح على الشعوب للنهب والسلب واغتصاب النساء والبنات وخطف الأطفال واستعبادهم لتأمين طريق الدعوة إلى الله !! ففي عصرنا أصبحت مسألة نشر الدين أسهل من الجلوس للطعام، لأننا أصبح بإمكاننا محاورة العالم أجمع بمجرد الجلوس إلى حواسبنا الآلية.. لكن هذه الوسيلة السهلة لم يستخدمها العرب وما زالوا غير مقتنعين بها، ما زالوا مقتنعين بأن الجهاد يلزمه تحصيل العوائد من الجزية والخراج والسبايا من النساء والفتيات الحسناوات والأطفال لاستعبادهم.

برغم أن المقصود من قوله (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) هم المنافقين الذين يقفون تحت لوائكم ويتولونكم وكأنهم مؤمنين وهم في الحقيقة كافرين، لأن الله وصفهم في الآية التالية عليها بدقة، وهذه الآية التالية بدأت بضمير متصل" منهم" ومن المنطق أن يعود الضمير على أقرب اسم صحيح سابق عليه، لا أن يظل معلقا في الهواء بلا معنى، فقد وصفهم الله بقوله: فمنهم من إذا نزلت سورة من القرآن استهزؤوا بها، ثم في الآية الخامسة والعشرين بعد المائة قال بأنهم مرضى وزادهم الله مرضا في قلوبهم وماتوا وهم كافرون، وهذا ما يؤكد أن حديثه عن الكافرين هم المنافقين الموالين للمؤمنين، أما

أن يتم صرف الآية خارج سياقها وجعلها تتحدث عن الشعوب المجاورة بما يجعل دور المؤمن في الحياة قائم بصفة من الديمومة على قتل المجتمعات المجاورة، فهذا شطط وخلل نفسي عقلي أصاب الفكر العربي أو هو انتقال بالإسلام من منهج سماوي إلى أعراف العرب وتقاليدهم وغرائزهم القائمة على الحرب والإغارة على القبائل بصورة مستمرة من أجل السلب والنهب، لأنه حتى الشعوب المجاورة لم يكونوا كافرين وإنما نصارى ويهود في الشام، ونصارى ويهود في مصر وكذلك العراق، ونصارى في الدولة البيزنطية" الروم" ولم يكن الله عاجزا عن توجيه الأمر مباشرة إذا أراد إعلان الحرب الدائمة على نصارى الشام ومصر والروم، فالله تعالى يتحدث في سياق حديثه عن المنافقين، مستخدما عبارة" قاتلوا" وهي لا تعني القتل ولا تعني التعبئة العسكرية وإعلان الحرب، وإنما تعني النضال والكفاح ضد وباء اجتماعي منتشر في نفوس المنافقين، لكن الفقهاء حاولوا أن يوجدوا مبرر للحرب الدائمة على الشعوب المجاورة، حاولوا أن يوجدوا مبرر لانحراف الصحابة عن منهج الإسلام بعد وفاة الرسول، فحولوا المنهج ذاته بالتأويل إلى منهج إجرامي ينسجم مع طبيعة العرب، فصرفوا تفسير هذه الآية إلى ما فعله الصحابة وكأن الصحابة هم تطبيق عملي للقرآن، ومن ثم أصبح فعل الصحابة وتاريخ العرب هو الضابط لأحكام الدين وصارت أخطاؤهم السياسية والتاريخية دينا للأجيال القادمة بعدهم ! هكذا سارت الأمور، وما زال الحبل على الجرار..

وهذا محض خطأ تاريخي وقع فيه المفسرون بتفسير آيات القرآن وفق المسار التاريخي والسلوكي الذي اتخذه العرب بعد وفاة الرسول، والغريب أن منهم من أفتى بعدم جواز توقف الحرب لأكثر من عشرة أعوام !! ولم يجرؤ أحد من الفقهاء على الخروج من هذه النفق المظلم وتطهير الإسلام من وساخات التاريخ، يأتي كل جيل من الفقهاء ليتبع غيره في البحث الفقهي ويركع في ذات البؤرة الملوثة بالجهل والغباء والهمجية.. ويرتبط تعريف هذا الخطأ المتسبب في هذه الكارثة بمزحة قديمة، حيث يجد ضابط شرطة في أثناء مناوبته الليلية رجلا ثملا يزحف على يديه باحثا عن شيء ما. يسأله الضابط عن الشيء الذي فقده، فيجيبه الرجل بأنه يبحث عن محفظته، وعندما يسأله الضابط ما إذا كان متأكدا من فقدان محفظته في هذه البقعة، يقول الرجل إنه يعتقد أنه فقدها في الجهة المقابلة من الشارع، فيسأله الضابط عن سبب بحثه هنا إذن، فيجيبه الرجل بأن الضوء هنا أفضل للبحث!. هكذا يكون الكثير من العلماء مضطرين أحيانا للبحث عن الحقيقة في المناطق المضيئة لهم، وليس الأماكن التي من المفترض أن الحقائق موجودة فيها. ولهذا نجد أغلب الفقهاء يدورون بحثا في ذات البؤرة التي شغلها السابقون دون أن يتوقعوا تواجد الحقيقة في مكانٍ آخر يختلف تماما وكليا عما قال به السابقون.. حتى قال بعضهم أن من تكلم في شيء لم يقل به السابقون فكلامه بدعة !

****

إلى اللقاء في الجزء الثاني..



الفهرس